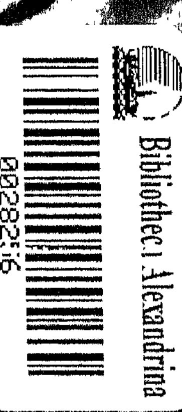
الدكتورة عصمت السعيد

نوري السعيد















الدكتورة
عصمت السعيد

نوري السعيد
رجل الدولة والانسان

الناشر مبرة عصام السعيد - لنـــدن ١٩٩٢
صف الحروف والتصميم العام : نيولوك للترجمة والنشر - كرويدون - بريطانيا
تصميم الغلاف : رمـزي

الاهـــــداء

إلى شعب العراق
أقدم هذا الكتاب لتمجيد ذكرى
مواطن أمين
ثبّت أركان بلاده ثم مات شهيدا .

عصمت السعيد

شــكر وتقــدير

مبرة عصام السعيد تقدم خالص الشكر والتقدير للسادة الذين تفضلوا بمساندة اخراج كتاب (نوري السعيد رجل دولة وانسان) سواء كان ذلك بتقديم مساعدات مادية أو فنية أو مستندات تاريخية . ونخص منهم بالذكر الاستاذ نمير امين قيردار ، بارك الله فيهم جميعا خدمة للحقيقة والتاريخ .

رجـل الدولـــة

يحق لرجل الدولة الأمين أن يغـامـر بحيـاته ومـركـزه وبكل مـا يملك إذا أراد ذلك ... ولكن لا يجوز له قط أن يجازف بمقدّرات وكيـان الأمة التي يرعاها بأي حال من الأحوال .

وعليه إلى جـانب ذلك أن يحافظ على سلامـة وطنه ويحميه من المعتدين ويؤمّن لشعبه حياة كريمة .

فإذا آمن رجل الدولة بالاهداف التي أشرنا إليها سيشـعر حتمـا براحة نفـسية ويتقبل الأفتراءات الموجّهة ضده بصبر وثبات .

فحبل الكذب قصير ... ولا يمكن أن يحجب السحاب أشعة الشمس الساطعة ولو بعد حين ...

نوري السعيد

محتويات الكتاب

المقدمـــة

الذكريات كنز دفين وتراث ثمين ، وفي استعادتها بعث لأحداث مضت ، واحياء لأيام خلت . وهي تعكس ما انطبع في الذهن من صور وأفكار وما تسرب إلى النفس من أحاديث وخواطر وما ذاقته الروح من يأس أو رجاء .

إن تسجيل هذا التراث الحيّ مهمة دقيقة شائكة شرطها الأساسي الأمانة عند سرد تفاصيلها ... إذ لا يجوز التصرّف والتحوير خصوصا فيما يتعلق منها بالأحداث أو مصائر الأمم ... فكم من قلم شطّ وأخذ مصادره من منابع الاشاعات المغرضة أو من متاهات الخيال دون بحث أو تدقيق . ولا شك أن مثل هذه الأساليب في تدوين الأحداث لمن الأسباب الرئيسية التي تروّج الفتن وتبلبل الأفكار ... بل هي غدر صريح في حق التاريخ وليس من شك أن في كتمان الشهادة مؤازرة صامتة لعناصر الضلال والمغرضين ، فالشهادة للحق واجب تحتّمه الآية الكريمة في قوله تعالى :

"ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم"

وبوحي من هذه الآية الكريمة وعملا بتعاليمها فقد عزمت على تدوين بعض ما شاهدته بنفسي ، أو علمت بحدوثه حق العلم .

وقبل استعادة هذه الذكريات يتحتم علينا الاشارة في هذا المقام إلى أن القرن العشرين شهد تطورات اجتماعية وصناعية مثيرة إذ وصل العالم في غضونه إلى عصر الذّرة ونجح في تحقيق معجزة العبور من نطاق الأرض إلى أجرام سماوية بعيدة .

وليس بخاف أن هذه الطفرات الشاسعة قد عصفت بنظم الحياة الاجتماعية في العالم بأسره وعلى الاخص في البلدان النامية والتي لم يتح لها النضج اللازم ، ولم تتوفر لها أسباب البناء التي تجمع قواها الكامنة وتحمي كياناتها من العناصر الهدامة ، فكان على الأجيال التي عاصرت هذه الحقبة الديناميكية أن تواجه التيار الجارف ، وتسعى إلى التوفيق فيما يجب أن تفرضه ثورة التطور . ولا شك أن في بيان الصعوبات التي واجهتها تلك الاجيال للتوفيق بين متطلبات الماضي والحاضر ما يفسّر عددا كبيرا من الأخطاء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي زعزعت كيان البلاد العربية خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية . لقد تسبب ضغط هذا التطور العنيف في مشكلات متعددة في العالم بأسره وسادت سياسة الارتجال في مواجهتها شرقا وغربا على حدّ سواء . وهكذا أصبح الشرق الأوسط مرتعا خصبا لتناحر الأطماع المختلفة عند ظهور النفط فيه ، فاختلط الحابل بالنابل ، ولعبت بمقدّراته الأهواء فاشتعلت نيران الفتن والدسائس وعمّ نشاط عملاء الأساليب الهدامة للقضاء على روابط الأخوة وحسن التفاهم والثقة المتبادلة بين شعوب المنطقة . وهكذا أريقت دماء زكية ، وخسر العالم شهداء مخلصين كانوا للعروبة عونا وسندا .

لقد عاصرت كل هذه المآسي ، وعايشت كل هذه الأزمات ، ولا تزال سفينة أمتنا العربية تتخبّط في مهبّ الريح تقودها التيارات الجارفة دون خطة مدروسة وبغير نهج معدّ . ولا أزال في ديار الغربة أتتبّع بقلق وحيرة خطوات أمتنا المتعثرة ، وأذكر بحسرة دفينة الجهود الجبّارة التي بذلها أولئك من غدرت بهم الدسائس والفتن بعد أن أفنوا سنوات أعمارهم في خدمة العروبة والجهاد من أجلها .

بقلب مخلص أتضرع الى الله تعالى أن يأخذ بأيدي أبناء الأمة العزيزة ويربط بينهم برباط التآخي والتآلف . ويقيني أن التاريخ سوف ينصف حتما أولئك الذين قضت عليهم الاشاعات الكاذبة ، وأودت بهم الفتن المريبة ، وأن أنوار سيرتهم الحميدة

ستقشع حجب الافتراء ، وظلمات الكذب والتضليل ليسطع نور الحقيقة ولو بعد حين "والله متمّ نوره ولو كره الكافرون" .

ع . س .

الافتتاحية

لقد شاءت الظروف وأراد القدر أن أسكن العراق في العهد الملكي من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٨ وهي فترة زمنية شاهدت تطورات متعددة في الحقول السياسية والاجتماعية في بلاد الرافدين .

كانت دراستي ومؤهّلاتي ونظام نشأتي في مصر تدفعني الى الاهتمام بكل ما يدور حولي في المجتمع . وبناء على ذلك كنت منذ وصولي الى بغداد أتابع عن كثب خطوات العراق ومساعيه في ميادين الانشاء والثقافة والادارة والسياسة . ومما لا شك فيه أن وجودي في دار من أصبحوا أهلي في العراق ساعدني على الاطلاع دون عناء على الاوضاع القائمة عن كثب ، فاستطعت جمع معلومات وافرة عن العراق بصورة عامة واصبح في امكاني متابعة أغلب التطورات السائدة بوضوح .

لقد ذكرنا فيما سبق أن الشهادة فرض وأن كتمها تقصير في حق الشرع والدين خصوصا عندما يلتبس الأمر على المجتمع وتتوافر عناصر التضليل لتشويه الواقع ، ولذا رأيت من الواجب ان أذكر جهرا ما استطعت مشاهدته حولي في موطني الجديد بأمانة ودون تحيّز خدمة للحق .

ليست نيتي في هذه الرسالة المختصرة بحث جهود نوري السعيد السياسية كاملا ، إذ قام بتسجيل اجزائها المتعددة عدد لا يستهان به من المؤرخين ، ولكنني سأقتصر فقط على سرد ما شاهدته من تصرفات وما سمعته شخصيا منه من تعليقات أو كلمات مأثورة تعبر باخلاص عمّا يقصده في مختلف المواقف التي مرّ بها ، وفي هذا المقام آثرت أن أضع أقواله وأعماله داخل الإطار الذي يحيط بها ليكون القارئ على بيّنة ويطّلع على الأسباب الظاهرة والخفيّة التي دفعته الى إختيار خطط معينة وميزان خاص لخطواته . وسيكشف لنا هذا البحث أن نوري السعيد كان صاحب مدرسة واقعية صريحة لاتعتمد على المجازفات أو الارتجال ، إذ كان يكره تضليل الشعوب في سبيل كسب شعبية رخيصة ، ومن أقواله المأثورة في هذا المجال :

"المعارضون أشدّ وطنية مني إلا إنني أعتقد بأن سياستي هي الأوفر حظّا والأحسن للوصول الى الغاية التي ننشدها جميعا ، فليس بيد أحد أن يعدّل المعوّج أكثر من ذلك" .

وظلّت المبادئ السياسية التي وضعها الرعيل الأول بعد الثورة العربية الكبرى هي الأسس التي سار عليها نوري السعيد طيلة حياته السياسية . كان عمادها التحرّر والاتحاد على أن يكون هذا الاتحاد بالرضا والتفاهم والتعاون المخلص والمساواة من جهة ويكون التحرر من جهة أخرى بانتهاز الفرص المؤاتية وليس بمجرد التحدي الأهوج ، وذلك عن طريق العمل المتواصل البناء في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية . لقد أجبرته الظروف أحيانا على إعلان الأحكام العرفية لمدد محدودة عند نشوب أزمة حادة تهدد الأمن في العراق على أن تسير الأمور بعد ذلك في مجاريها بصورة طبيعية . ويلخص هذه الاتجاهات والأهداف الاسم الذي اختاره نوري السعيد عندما فكّر في تأسيس حزب سياسي في سنة ١٩٤٨ فسمّاه "حزب الأتحاد الدستوري" .

وبناء على ما تقدم وجدت من الضروري أولا شرح الظروف التي ربطت مصيري بالعراق وسمحت لي بمعاصرة حقبة مهمة من تاريخه الحافل كانت تجري وراء الاحداث وذلك عند التطرق للبحث المنشود .

قصــة اللقــاء الأول

كنت جالسة ذات يوم كالعادة أقرأ للوالد ما كان يطيب له سماعه من كتاب "الاغاني" وكان ذلك في شرفة دار منزل اصطيافنا مع أهلي في جزيرة (برينكيبو) التي سميت فيما بعد تحت الحكم العثماني بـ (بيوك آطه) ، وهي كبرى جزر بحر مرمرة ، وكنا نسافر إليها كل صيف أثناء اشتداد الحرارة في مصر ، فهي مصيف هادئ جميل تكتنفه أشجار الصنوبر ويحيط به البحر الناصع الذي كانت تعكس بهجته أشعة الشمس نهارا ، ونور القمر ليلا بسحر عجيب . لقد احتفظت الجزيرة بطابعها الأصيل منذ القدم فلم تطأها السيّارات وضجيجها ، بل كانت الأصوات الوحيدة التي ترددها الآفاق أحيانا هي أبواق البواخر التي كانت تنقل الركاب بانتظام من الساحل إلى ميناء إسطنبول ذهابا وإيابا ، أمّا النقليات الاعتيادية فكانت بعربات تجرّها الخيول للوصول الى المساكن أو لأجل الصعود إلى قمم التلال الخضراء . وكانت الحمير المطهمة تُستأجر أيضا لنقل الزوّار إلى أطراف تلك الجزيرة الممتعة . أما أجمل ما يمكن أن يذكره الانسان من مباهج تلك الجزيرة فهي تلك الأنغام الموسيقية التي كانت تحملها إلينا

الرياح وأصوات الجماعات الذين كانوا يتمتعون بجمال الطبيعة تحت ظلّ أشجار الصنوبر .

وفي عصر ذات يوم ، وأنا جالسة الى جانب أبي في شرفة الدار ، رأيت جماعة تقترب من الشارع العام صوب منزلنا ، وكان يتقدمهم إبن عمّتي أحمد حقي القنصل العام المصريّ في إسطنبول . كان الوالد رحمه الله يشكو من مرض قلب مزمن فلا يتحرك إلا قليلا ، ولكنّه كان يفرح عند قدوم الزوّار . فلما أخبرته بأتجاه الجماعة نحو المنزل طلب مني أن أرحّب بقدومهم ، فنزلت إلى الحديقة وصحبتهم إلى مكان جلوسنا ، وكان من بين القادمين برفقة إبن عمّتي نوري باشا السعيد والسيدة زوجته وولده صباح السعيد وعدد من المرافقين .

وكان سبب وجودهم في تركية إنعقاد إجتماع ميثاق "سعد آباد" الذي اشتركت فيه دول الشرق الأوسط في حينه وهي تركية وايران والعراق وافغانستان .

لقد اضطر نوري السعيد قبل وصوله الى تركية ان يمّر على مصر ليفاتح الحكومة المصرية في الموضوع ، ويطلعها على أهمية الاجتماع دوليا . وفي اسطنبول دعته الظروف إلى الاتصال بالقنصل العام المصري ، وصادف أن يكون ضمن برامج الترفيه المنظّم للوفود القيام برحلة الى جزيرة الأمراء كمكان اصطياف مشهور يزوره السيّاح على الدوام ، وهكذا كان منزل إصطيافنا مركزا لأول لقاء لي بعائلة السعيد .

كان ذلك حدثا غريبا وفريدا في نوعه سأضطر لذكر بعض تفاصيله ولو كان ذلك خارج موضوع بحثنا لعلاقته المباشرة بأحداث متضاربة إختلطت فيها الأفراح والمآسي ، بشكل مثير ، باحداث السياسة .

كان والدي رحمه الله من زملاء مصطفى كامل باشا أي من زمرة المناضلين الذين ضحوا بالكثير في سبيل الحصول على استقلال بلادهم .

لقد نشأ علي فهمي افندي نشأة قضائية ، وعيّن وكيلا للنائب العام على أثر تخرجه في مدرسة الحقوق الخديوية . وعندما تحرّج الانكليز من أعمال هذه الزمرة المناضلة اقالوه من وظيفته ، فاشتغل بالمحاماة ، ونجح في ذلك نجاحا عظيما ... كما ظل يتطوع بخدمات مادية وأدبية للحركة الوطنية في مصر وبناء على ذلك قدمه مصطفى كامل باشا الى الباب العالي ، فأنعم عليه برتبة الباشوية .

وجاء في الكتاب الذي أرسله مصطفى كامل باشا لتهنئته على تلك الرتبة السامية ما يلي :

"انني بمزيد السرور والانشراح أقدم لك خالص التهاني ... وانني أعتقد اعتقادا صحيحا بأن الرتبة تهنأ بك وانك لست ممن تهنئون بها" .

وقد اشتغل المرحوم أبي مزارعا نموذجيا ، وكانت له بساتين نموذجية ، وانتخب لعضوية مجلس الشيوخ عن القيلوبية .

ويقيني أن شدة اعجاب أبي بوطنية نوري السعيد ، وما أحرزه لبلاده من خير واستقلال كان له أثر كبير في التقارب وسرعة التفاهم بينهما .

الظروف التي سبقت اللقاء

كان نوري السعيد في أيلول سنة ١٩٣٦ في طريقه من لندن الى العراق وبرفقته زوجته وولده الوحيد صباح بعد ان تمّ علاجه كاملا على أثر سقوط الطائرة التي كان يحلق بها في سماء بغداد ، وهو الحادث الذي كاد يقضي عليه قضاء مبرما . وأثناء رجوعه من لندن مرّ نوري السعيد على مصر للتشاور مع المسؤولين فيها قبل الوصول الى تركية لحضور اجتماع ميثاق سعد آباد . فلما وصل اسطنبول رحّب به اتاتورك ترحيبا خاصا ، وألحّ عليه ان يقبل ضيافة الحكومة التركية مع أهله مدة انعقاد المؤتمر المذكور . والسر في ذلك هو العلاقة الأخوية القديمة التي كانت تجمع الرجلين أثناء دراستهما في مدرسة الأركان الحربية في الاستانة ، فأراد اتاتورك أن يكرم صديقه من جهة ، ويهنئه أيضا على سلامة نجله بعد حادث الطائرة من جهة أخرى ، وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نذكر بأن هذه الصداقة القديمة سهلت حل مشاكل عديدة كانت تعكر صفو العلاقات القائمة بين البلدين ، ويثبت ذلك سجل المفاوضات التي جرت بين القطرين قبل استقلال العراق وبعده .

خبر مفاجئ

لم تمر على وصول عائلة نوري السعيد إلى اسطنبول أيام معدودة وإذا بالجرائد

التركية تنشر فجأة خبر إجراء عملية خطيرة لصباح نوري السعيد على أثر انفجار الزائدة الدودية في جوفه . وأضيف إلى الخبر أن طبيب أتاتورك الخاص هو الذي باشر العملية ليلا في ظروف حرجة وأن الخطر الأكبر زال ولله الحمد ، ولكن المريض سيبقى تحت إشراف الأطباء في المستشفى مدة ثلاثة أسابيع على الأقل . وصادف أن وصلت تلك الجرائد إلى الجزيرة يوم ذهابي مع الوالد إلى اسطنبول لمراجعة الطبيب الذي كان يزوره أبي بانتظام في كل أسبوع . لم يكن حينذاك استئصال الزائدة الدودية بالعملية السهلة ، فرأى والدي أن من اللياقة أثناء وجودنا في اسطنبول المرور على "بارك اوتيل" ، حيث يقيم الوالدان لترك بطاقة تهنئة على سلامة نجلهما ونجاح العملية ثم تمتم قائلا : "لا حول ولا قوة إلا بالله" لم تمر سنة على فاجعة الطائرة وهذه محنة أخرى تصيب الأبوين التعيسين ، فليحفظه الله من أجلهما . فعندما أقلتنا الباخرة إلى اسطنبول ، ووقفت العربة بنا أمام "بارك اوتيل" ، اخذت البطاقة من يد أبي وتوجّهت إلى فناء الفندق لتسليمها إلى مكتب الادارة ، وإذا بصوت يصيح من أحد أركانها ليقول : "سيدتي الصغيرة تفضلّي" فتبينت من بعيد شخصية نوري السعيد وحوله زمرة من أصحابه الذين حضروا لتهنئته . فعندما وصلت إليهم مددت يدي بالبطاقة ، وهنئته على السلامة ، وأخبرته أن أبي ينتظرني في العربة خارج الفندق لأن في النزول والصعود مجهودا بالنسبة لظروفه الصحية خصوصا بعد زيارة الطبيب ، وأصر نوري السعيد على ان يرافقني الى العربة ، ثم أقنع أبي على النزول والاستراحة قبل العودة ، وطلب مني أن أصعد الى الجناح الخاص الذي تقيم فيه زوجته لزيارتها .

كانت غرفة الجلوس في ذلك الجناح مكتظة بالزائرات ، ففرحت أم صباح عند رؤيتي وشكرتني على المجيء . كان الوقت ظهرا ، فجاء أحد خدم الفندق ليخبرها بأن أبي سيتناول وجبة الغداء مع الباشا في المطعم ، وفورا دعتني أم صباح الى الاشتراك ايضا معها وبعض الحاضرات في الطعام ، إلى أن يأتيني خبر استعداد أبي للرجوع إلى مقرنا في الجزيرة .

اتاتورك في بارك اوتيل

وصادف أن أتاتورك أراد في تلك الفترة أن يمرّ بنفسه لتهنئة ضيفه بسلامة نجله

الوحيد . و روى لي أحد الحاضرين ، فيما بعد أنه قال مايلي في المجلس الخاص الذي كان يضم أبي وبعض المقربين الحاضرين ومن بينهم زوج أختي حافظ عامر الوزير المفوض المصري في بغداد ، والذي حضر لنفس الغرض في حينه ، قال اتاتورك مخاطبا نوري السعيد : "ان ابنك بين ايدي أمينة ، وسيتم شفاؤه ان شاء الله في مدة وجيزة ، فيجدر بنا حينذاك أن نجد له على ضفاف البوسفور عروسا جميلة لتكمل الأفراح كلها . وعند سماع هذا التعليق ضحك نوري ملء شدقيه وصاح قائلا : "لقد وجدها يا صاحب الفخامة لقد وجدها . فأجاب اتاتورك بدهشة أصحيح هذا يا صديقي فمن هي حتى أقوم بواجب خطبتها له ؟ فأبتسم نوري مشيرا إلى أبي وقال : هي ابنة فهمي باشا يا صاحب الفخامة . ثم بدأ يروي للحاضرين قصة يؤكد فيها أنه يعبر عما يضمره ابنه فقال : "إنه عندما أفاق صباح من عملية الزائدة ، ظلّ يردد بالحاح وهو بين الصحو والغفوة بأنه يرغب في الزواج من أخت (أحمد) . كان لصباح صديق مصري يدعى أحمد فهمي تعرّف إليه في كمبردج بأنجلترا أثناء أيام الدراسة ، ولم يكن أحمد سوى ابن علي باشا فهمي ، ولم تكن أخته سوى الفتاة التي رأها قبل أيام في (بيوك أطه) فاشترك الحاضرون جميعا في الضحك معه . ويبدو أن نوري باشا أراد أن يستعين بتلك النكتة العابرة لجسّ النبض ومعرفة رأي الوالد في الموضوع . لقد بهت الوالد عند سماع هذا التعليق المفاجئ . فلما بدت الدهشة والحيرة على وجهه طيّب اتاتورك خاطره قائلا : "لا تقلق يا باشا ولا تتردد قط . زوجها وأنت مرتاح البال فأنا الكفيل بذلك ، نوري رجل شهم وإنسان ، والولد سرّ أبيه" .

تلاحق الاحداث

وسرعان ما تطورت الأحداث حولنا بعد هذه الزيارة بشكل مفاجئ ، فلم يكن لوالدي معرفة شخصية بعائلة نوري السعيد ، ولكنه كان معجبا بجهوده المشهودة في سبيل تحرير العراق ، إذ عندما نجحت مفاوضات نوري مع بريطانيا واستقل العراق كان والدي يقول : "ما شاء الله لقد سبق العراق مصر ونال قبلنا ما جاهدنا في سبيل الحصول عليه من سنوات" .

كان أبي زميلا لمصطفى كامل ومحمد فريد ، أي من الرعيل الأول الذي جاهد

لتحرير مصر ، فذاق الاضطهاد والاعتقال في زمانه ، وكان يجلّ ، ويحترم من يجاهد في سبيل رفعة الوطن . وبالاختصار يبدو أن تأريخ نوري السياسي ، وشهادة زوج أختي حافظ عامر الذي كان القائم بأعمال المفوضية المصرية في بغداد ومطلعا على أوضاع العائلة في العراق عن كثب ، هذا إلى جانب قدرة نوري على المسايرة ، وآراء اتاتورك في حقه ، وكذلك شهادة أخي أحمد في صباح ، وهو الصديق الذي زامله في كمبردج ، كانت كلها من العوامل التي أدت الى اقناع والدي بالقبول ، أما اعتراض والدتي فكان مبنيا على الغربة وبُعد المسافة بين مصر والعراق فقط .

التقاليد الموروثة

وربما يتساءل القارئ في هذا المجال عن رأي العروس فيما كان يحدث حولها ، وجوابا عن ذلك أقول أن النظم العائلية في ذلك الزمان كانت مؤسسة على الاحترام والطاعة ، وكانت قرارات الوالدين هي الأساس .

لقد أرسل أبي اخواني الذكور الى مدرسة ثانوية داخلية ، ثم الى الخارج ، كما أرسلني أنا وأختي الى مدرسة الراهبات في جاردن سيتي . وفي المنزل كانت المربية الالمانية ترتب لنا ساعات العمل والترفيه بطريقة نظامية ، وكان استاذ اللغة العربية والدين يأتينا الى المنزل لإكمال ثقافتنا العربية والاسلامية . كان كل شيء حولنا يسير حسب ما يقرره الوالدان ، والى جانب ذلك أعتقد بأن العناية بوالدي وملازمتي له رحمه الله في سنين نضجي كان له الأثر الأكبر في تكويني ، فقد كان يستعين بي لقراءة الكتب القيمة التي كانت تزخر بها مكتبته نظرا لضعف بصره ، كما كنت ألازمه في سفراته إلى الخارج للعلاج ، وأحضر أغلب مجالسه ، وأستمع فيها إلى نخبة من أصحاب الرأي والادب والسياسة في المجتمع المصري ، وفي الخارج كانت ثقتي بحكمته كبيرة وكنت أعتقد بأن كل ما يوافق عليه الوالد أو يقره هو الأفضل . فلم أعارض في القبول . لقد نشأنا على أن نقبل ما تفرضه علينا طاعة الوالدين دون مناقشة و أعتقد أن أفضل ما استفدته من هذه التربية النظامية هي التعود على مرونة التطبع ، إذ هيأتني رغم تبدل الاوضاع وصرامة الأحداث التي مرت بي للانسجام بقدر المستطاع بالمحيط الذي تضعني فيه الظروف دون فقدي للقيم التي أدين بها .

تبديل البرامج الموضوعة

والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن تطور الأحداث والقرارات المفاجئة التي تلت دخول صباح المستشفى والشروع في عقد القران بدلت سير البرامج المفروضة على الجميع ، إذ كان من المنتظر في البداية ، أن تواصل أم صباح ووحيدها سفرها إلى العراق بعد انتهاء اجتماع ميثاق سعد آباد ، وكان على نوري السعيد باشا ، بصفته وزير خارجية العراق ، ان يحضر اجتماعات سياسية في باريس ولندن ، وكان المفروض أيضا أن أرافق والدي إلى (مونت كاتيني) بإيطاليا لاستكمال علاجه ، وإذا بالبرامج تتبدل فجأة ، ويتم الاتفاق على أن يكون عقد القران قبل سفر نوري السعيد إلى لندن وأن تبقى زوجته في الفندق باسطنبول بضعة أسابيع إلى أن يتم خروج ولدها من المستشفى ، وان يسافر والدي إلى إيطاليا لاستكمال علاجه وحده ، وأن انتقل بدوري من الجزيرة إلى بارك اوتيل إلى جانب حماتي لتسهيل تجهيز الملابس اللازمة لحفلات الزواج ، وإلى جانب ذلك استقر الرأي أيضا أن نذهب جميعا إلى القاهرة بعد رجوع أبي من إيطاليا ، ونوري باشا من أوروبا ، وخروج صباح من المستشفى ، لاقامة الأعراس في مصر قبل ان نتوجه إلى بغداد . وبناء على ذلك أرسل أبي كتابا إلى أخي المعتز في مصر وطلب اليه تجهيز الذهبية لهذا الغرض ، وهي الباخرة النيلية التي كان يمتلكها والقائمة أمام جسر قصر النيل ، وذلك لاستقبال العروسين والأهل فيها ، ولكن المرء في التقدير والله في التدبير .

لم يكن لي رأي في تنظيم هذه البرامج التي اتفق عليها أولياء الأمر ، ولم يدر بخلدي أيضا بأنه يمكن البت لتنفيذ مثل هذه الأمور وصاحب الشأن تحت العلاج في المستشفى . إن تفسيري لقبول والدي سرعة عقد القران الذي كان يلح عليه نوري ويسانده فيه حافظ عامر هو ربما شعوره بقرب أجله نظرا لظروف صحته المتردية . فيبدو أنه أراد أن يطمئن على مستقبلي ويرتاح للعائلة التي ستربطني بها المقادير ، على الأخص عندما لمس اللطف وحسن المعاملة التي أحاطوني بها رغم لقائنا المحدود ، فأعطى كلمة وقرر المصير .

ظروف عقد القران

وفي اليوم المحدد ركبنا الباخرة مع الوالد كالمعتاد وأنا بألبستي الأعتيادية فأجلسني إلى جواره وسكت قليلا ثم قال : "لقد وفقني الله عز وجل إلى عقد قرانك اليوم يا عصمت وأنا على قيد الحياة ، فلست بحاجة لأن أوصيك خيرا بشريك حياتك فالله العلي القدير يوفق كل امرأة بما يجب أن تقوم به تجاهه ولكنني أو صيك برعاية والدته ، وأن تعامليها بنفس الروح الطيبة التي لمسناها فيك على الدوام" . وقد ظلت هذه الوصية ، عالقة بذهني وأعمل بها حتى فرقتنا الأقدار ، ولم انطق بكلمة واحدة بعد سماع الوصية ولكنني أمسكت يده وقبلتها وكان في ذلك الكفاية .

الوصول إلى الفندق

وعند وصولنا إلى الميناء وجدنا سيارات السفارة والمرافقين في انتظارنا ، فركبناها واتجهنا إلى الفندق ، وهناك استقبلنا نوري السعيد على الباب . وسرعان ما بدا الأعياء على وجه أبي نتيجة لاضطراب مشاعره كأب ونظرا لظروفه الصحية ، فأتجهنا به إلى غرفة النوم ليستريح ثم قادني نوري باشا بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال حيث رحبت بقدومي أم صباح ، فوقفت إلى جانبها وأنا في شبه غيبوبة كسفينة تائهة في بحر غريب .

كانت القاعة مكتظة بالحضور وكانت كل الوجوه غريبة ، وفجأة دخل من الباب إبن عمتي قنصل مصر بألبسته الرسمية وفي يده رزمة وثائق فوضعها على طاولة مجاورة وأتجه نحوي ليسألني بصوت خافت : "عصمت هل قبلت الزواج من صباح نوري السعيد؟" أجبت نعم بهدوء مصطنع ، فطلب مني أن أوقع على الوثائق الرسمية لاثبات ذلك وبعد تحية الحاضرين ذهب إلى المستشفى للحصول على توقيع صباح السعيد أيضا . وهكذا تم عقد القران بين الطرفين .

كان إضطرابي واضحا في هذا المجتمع الغريب رغم رقة الكلام الذي كانت تلاطفني به أم صباح ورعاية الموجودين حولي . لقد إقتلعتني الأقدار من بيئتي فكنت أشعر وكأنني هائمة على وجهي في الفضاء دون جذور ، فأسأل نفسي إلى أين المصير .. ؟ وإذا بباب الحجرة ينفرج وتدخل والدتي التي رفضت أن تصاحبنا ، إذ لم

تكن مرتاحة لمجرى الأمور ، ولقد شعرت بالندم بعد إقلاع باخرتنا ، وقالت في نفسها .. يا ويلتي .. ما ذنب الطفلة إذا عارضني الأب ولم يأخذ برأيي؟ فمن القسوة كأم أن لا أقف إلى جانبها في هذه الظروف الحاسمة . وبناء على ذلك ركبت والدتي الباخرة التي تليها لتلحق بنا قبل فوات الأوان .

بدت والدتي في فناء القاعة وكأنها هي العروس بقامتها المشوقة ووجهها الوسيم ولباسها الأنيق المحتشم ، فنسيت نفسي وركضت صوبها لأحتضنها ثم شهقتُ بالبكاء فبكى معي أغلب الحاضرين إذ كان منظرنا مثيرا .

كانت والدتي سيدة شديدة المراس تستطيع السيطرة على أعصابها في المواقف المحرجة بما يليق بالمقام ، فانتهرتني وأنا في حالة إنهيار قائلة : "يا للعار يا عصمت إن هذا لا يليق" ، لقد أصبح لك اليوم والدتان بدلاً من واحدة ، كما أصبح لك والدان بدلاً من واحد ، وسيكون بعد الآن إلى جانبك شاب جميل ليرعاك ، فيجب أن تبتسمي وتكوني سعيدة ، فكفّي عن البكاء واعتذري للسادة الحاضرين على هذا التصرف" . فلم يشعر أحد بعد مشاهدة هذا الموقف بأنها كانت أشد المعارضين لهذا الزواج ، إذ استطاعت بمهارة أن تنقذ الظواهر وترضي الجميع في الوقت المناسب .

وانتهت بذلك قصة عقد القِران ...

في اعقاب عقد القران

وعندما انفض الزوار بعد تقديم التهاني والمرطبات رافقتني أم صباح لزيارة الخطيب في المستشفى . كان مستلقيا على الفراش وآثار التعب بادية على وجهه فاستقبلنا بحياء ، وأخذ من والدته دبلة الزواج التقليدية ليضعها في أصبعي ثم قبل جبيني ، وتمتم ببعض الالفاظ باللهجة العراقية ، لم أفهم منها الكثير مما قال سوى أنه سعيد بما جرى .

لم تطل الزيارة ، إذ كان عليّ الرجوع مع والدي إلى الجزيرة ليستعد لسفرته إلى إيطاليا حتى يستكمل علاجه بسرعة ويستطيع حضور مراسيم الزواج في الوقت المحدد . ومن جهة أخرى سافر نوري باشا بعد يومين إلى أوروبا لحضور اجتماعاته السياسية ، كما انتقلت أنا بدوري إلى اسطنبول لاستكمال ما تحتاجه المناسبات المقبلة

من تحضيرات وكماليات غير متوفرة في أرجاء الجزيرة .

والجدير بالذكر أن لهجة والدتي تبدلت كثيرا بعد عقد القِران وربما كان رقة معاملات والدي صباح هي السر في ذلك ، إذ بدأت تطيب خاطري وتشجعني على تحمل الفراق قائلة بأن من الغريب أن تتشابه ظروف زواجها وظروفي . لقد اضطرت هي الاخرى أن تنتقل من تركية إلى مصر في ظرف أسبوعين عندما خطبها أبي . كان ذلك في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين ، في زمن كان الأتراك فيه ينظرون إلى العرب باستعلاء ، ولولا توسط الشريف جميل ناصر الذي كان يقطن في اسطنبول حينذاك لأصرّ جدي زكريا على الرفض . كان لآل البيت في نفوس تلك العشائر الجركسية حرمة خاصة ، فهم المسلمون الذين قاوموا الروس للدفاع عن الاسلام واضطروا إلى الهجرة عندما ذاقوا الأمرين من الاضطهاد العنصري والديني في القفقاس . لقد أكرم السلطان عبد الحميد وفادتهم حينذاك فاستقر جدي وأفراد عشيرته (الأباظية) في منطقة "ادا بازاي" الخصبة ، حيث التقى بهم أبي وشرع في خطبة والدتي . وما الحياة كلها سوى قسمة ونصيب .

مفاجأة اليمة

وفجأة أتت الأقدار بما لم يكن في الحسبان إذ وصلت برقية من قنصل مصر في إيطاليا إلى قنصل مصر في اسطنبول بخبر وفاة علي باشا فهمي في مصح "مونت كاتيني" بعد وصوله إيطاليا بأسبوع ، وقال إنه سيقوم بالاجراءات اللازمة لشحن الجثة إلى مصر عندما تأتيه التعليمات .

ذهب إبن عمتي إلى والدتي في الجزيرة فورا ليخبرها بالفاجعة ، فتلقتها بالصبر والثبات ، ولكنها فكرت رأسا بمصيري ، إذ كانت تعرف درجة تعلقي بالراحل العزيز ، وبعد التشاور بينهما إستقر الرأي على أن ترجع إلى مصر لأستقبال الجثة مع باقي أفراد الأسرة كما طلبت منه ان يتوجه فورا إلى "بارك اوتيل" ليخبر آل نوري السعيد بما حدث ، بشرط ان يكتم الخبر عني حتى لا تبدأ حياتي الزوجية بمأساة ، كما أصرت أن لا تودعني قبل السفر حتى لا تنهار أمامي .

صدى عقد القران في بغداد

وتعقدت الأمور أكثر فأكثر بعد ذلك عندما تمَ اعلان خطبة صباح السعيد في العراق ، إذ امتلأت الجرائد بذكر تلك المعجزة التي أبقت صباح حيا على قيد الحياة بعد أن تحطمت طائرته كاملا . فعندما نقل صباح السعيد إلى لندن كان الأمل في شفائه قليلا ، وقيل لي فيما بعد أن بغداد ظلت في شبه حداد مدة ثلاثة أيام بعد الحادث ، فأستمر الدعاء له بالشفاء في الجوامع والكنائس والمعابد إشفاقا من الشعب على أب مفجوع ساهم في تأسيس العراق وقضى في خدمة البلاد عمرا .

فلما وصلت الى العراق الاخبار عن قرب رجوع ، من كانوا يلقبونه بنسر العراق ، سالما إلى بلاده برفقة عروس ، عمّت مظاهر الفرح والابتهاج فتسابقت الطوائف والعشائر وأفراد الشعب من أعلاهم إلى أبسطهم شأنا ، لتكريم الوافدين ، وأصر الجميع على معرفة تاريخ الوصول بأقصى سرعة للاحتفال بتلك المناسبة .

ما فرضته الظروف

ولا شك ان تناقض الأحداث بين أوضاع الحزن في مصر ، والابتهاج في العراق ، كان محيرًا ، فبعد استشارات طويلة بين آل السعيد وابن عمتي ، أتفق الرأي على ان يخبرني ابن عمتي بأن والدتي قررت فجأة أن لا تترك والدي وحده في إيطاليا فسافرت إليه فورا ، ولم تستطع الاتصال بي قبل الرحيل لضيق الوقت أولا ثم لعدم وجود إتصال هاتفي بين الجزيرة واسطنبول .

لقد حزنت لعدم رؤيتها قبل سفرها ولكنني اقتنعت بصدق الرواية بل وفرحت لوجود أحد أفراد العائلة بجوار أبي أثناء اقامته في إيطاليا . وهكذا تعاقبت الأيام دون أن يثير أحد في نفسي الشكوك حول مصير أبي ، إذ كان ابن عمتي يطمئنني دوما على صحته . وبعد مرور فترة أخرى تقرر أن يخبروني بأن تغييرا شاملا حدث في برنامج الأعراس . فالحاح العراقيين على تكريم نسر العراق الشاب بسرعة سيجبر العائلة على زيارة بغداد أولا لإقامة الحفلات الرسمية ، وأن السفر إلى مصر سيتم بعد ذلك ان شاء الله عندما يستجم الوالد ويرجع إلى بلاده بعد الاستشفاء ، وكان فيما قيل لي ما يقنع .

لقد تأثرت شخصيا لتغيير البرامج المحددة ،وعلى الأخص فيما يختص بإقامة الأعراس في القاهرة بين أهلي ومعارفي ، ولكن أحمد حقي وكل من حولي استطاعوا اقناعي بأن ضغط المجتمع العراقي وأصرارهم على إقامة حفلات متعددة كان السبب في تبديل المناهج الموضوعة ، فامتثلت للأمر ولم يدر في خلدي قط بأنني في مستهل المرحلة الجديدة التي مرت بها حياتي فقدت من كان لي أبا ومعينا وحاميا ورفيقا .

ليست هذه التفصيلات من الأحداث السياسية الخاصة بالتاريخ ولكن في سردها تصويرا لواقع المجتمع العراقي ، وغرابة أطواره ، والتقلبات السياسية الفجائية التي يمكن أن تعتريه بين عشية وضحاها . وصدق الشاعر حين قال :

هذا العراق وهذه أطباعــه   متقلّب من يوم حمـــورابي
يأبى الحديد عبوره جســ   ـرا ، ويكفيــه نفـخ جـراب

دعـــوة أتاتـــورك

لقد تقرر أن يترك صباح السعيد المستشفى بعد أيام معدودة من رجوع أبيه ، وعلى أثر ذلك استقر الرأي بينهم على أن أسافر إلى العراق في أوائل شهر أكتوبر على ان لا تتمّ مراسيم الزفاف قبل مرور أربعين يوما على وفاة والدي رحمه الله . وفي ليلة السفر دعانا اتاتورك مع عدد من أهل السفارة وأعضاء حاشيته للتوديع في احدمطاعمه المفضلة . فاستقبلنا بلطف وترحاب وتمنى لنا السعادة والهناء .

كانت المائدة عامرة بكل ما لذ وطاب ، وجو المطعم يطفح بمباهج الموسيقى والعزف والغناء ، وكانت مقصورة اتاتورك في صدر المكان .

لقد أجلس اتاتورك أم صباح على يمينه ، كما أجلسني إلى يساره ، وبعد استكمال مجاملات الضيافة مع باقي الحاضرين بدأ حديثه معي بوصف الصداقة القديمة التي جمعته بنوري السعيد في كلية الأركان بإسطنبول ونعْته بأسد يفيض شهامة . وجّه اتاتورك الحديث بعد ذلك إلى عدد من الحاضرين ثم سألني باهتمام عن دراستي وسر معرفتي باللغة التركية . وتناول حديثه بعد ذلك اهتمامه بالتخصص فقال أن الشرق يفتقر إلى علماء (مختصين) وأن أهم ما يتمنّاه لتركية هو أن يكون فيها

مجموعة من الأخصائيين في مختلف نواحي التعليم حتى تستطيع الأجيال المقبلة رفع مستوى الأمة بشكل عام . وبعد أن أغمض اتاتورك عينيه برهة عاد يؤكد بأن تركية تعرف حدودها ، وأنها لا تفكر في التوسع ، وأن فيها من الخيرات ما يكفيها . وربما قال ذلك لتصل إلى مسامع نوري السعيد بأن ليس لتركية الحديثة مطامع الباب العالي ، والله أعلم ، إذ لم يكن لهذا التعليق أية علاقة بالحديث الجاري .

وعندما نقلت هذا الحديث إلى نوري السعيد إبتسم عند سماعه ، ثم اشار إلى احدى خصائص اتاتورك ، فقال هذا رجل غريب ، ولا شك ان القضايا المهمة المشحونة في رأس هذا القائد الكبير تلازمه حتى في ساعات الارتخاء والسمر . وأضاف ضاحكا بأنها تلاحقه في منامه ليجد لها الحلول .

إلى بغداد

وفي التاريخ المحدد حملتنا طائرة خاصة إلى بلاد الرافدين . كانت معلوماتي عن أوضاع البلاد الواقعة في شمال شرق وادي النيل محدودة إذ لم أكن قد زرتها قط . أما سفراتنا للاصطياف فقد أتاحت لي فرصة رؤية تركية التي كانت المكان المختار الذي ترغب والدتي ان تقضي فصل الصيف فيه مع العائلة على الدوام . ومن هناك كنت أحيانا أصاحب والدي إلى أوروبا ليقوم ببعض أعماله أو للاستشفاء . وأثناء تلك الرحلات كنا نمرّ عادة بالقطار السريع عبر أوروبا للوصول إلى الأماكن المعينة ، وكنت شديدة الأعجاب بمظاهر المدنيّة في البلاد الأوروبية .

أما البلاد العربية التي كان المصريون ينعتونها ببر الشام فلم أكن قد زرتها قط ولا أعرف عن الأوضاع العامة فيها سوى ما كان يرويه لنا الزائرون أو ما ينشر عنها في الكتب والجرائد . وكذلك العراق ، إذ لم أكن قد سمعت عنه إلا بعد اعلان استقلاله رسميا وقبوله في عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ كأول دولة عربية مستقلة .

في المطار

كان الاستقبال في المطار زاخرا بالمهنئين ، فنزل الرجال أولا واتجهوا إلى صالات

المطار للسلام على المستقبلين ، فافترقنا عند باب الطائرة ، وذهبت مع أم صباح صوب مكان السيدات . لم يكن بين الذين يحيطون بي أحد اعرفه ، وكنت اتوقع على الأقل ان تكون أختي وزوجها حافظ عامر القائم بأعمال السفارة المصرية في استقبالي ، فقيل لي فيما بعد انهما سافرا إلى القاهرة للقيام ببعض الواجبات الرسمية وانهما سيعودان بعد أيام ، ولكنني لم أكن اتصور قط أن السبب في غيابهما كان لحضور مراسيم دفن والدي رحمه الله . كانت العباءات السوداء تحيطني من كل جانب ، وكلمات الترحيب تتناثر حولي مقرونة بالمدح والثناء المتواصل ، فشعرت كأنني في دوامة بين أفواج الحاضرين ، وسرت إلى جانب أم صباح دون وعي بما يدور حولي لتحية المستقبلين إلى أن ركبنا السيارة التي سارت بنا من المطار إلى قلب بغداد .

في دار الوزيرية

وأخيرا وصلنا منطقة الوزيرية حيث دار أهلي . والجدير بالذكر أنه تم بناءها قبل سنة ونصف تقريبا ، وانتقلت العائلة إليها ، ثم أصيب وحيدهم الشاب صباح السعيد في حادث طائرة كادت تودي بحياته ، وكان قد وصل حديثا من بريطانيا حاملا شهادة في هندسة الطيران من كمبردج ، وكان يطلق عليه اسم "نسر العراق" لاشتهاره بالعاب الطيران الجوي .

وبسبب ذلك تشاءم الأهل من عتبة الدار الجديدة ، إذ كانت هذه العقائد منتشرة في عدد من البلاد الشرقية ، فتقرر إقامة مدخل جديد لحديقة المنزل من الجهة المقابلة ، فدخلنا منها متفائلين بين تصفيق القادمين وزغاريدهم .

كان الأهل والاصدقاء على أهبة الاستعداد لاستقبال العروس بالطريقة التقليدية ، فكان على درج المنزل طست ماء وباقات خضراء من الياس ، فطلب مني أن اتخطاها قبل دخول عتبة الدار فامتثلت وقمت بكل ما فرضته عليّ الطقوس المحلية في هذا المجتمع الجديد .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن هو أنه رغم وجودنا جميعا خارج العراق بالصورة التي شرحتها فيما سبق ، وعدم اشتراك آل نوري في وضع نظم الاستقبال ،

فقد قام الأهل والأصدقاء وأفراد الشعب بتنظيم برامج الاحتفالات ، وهي إن دلت على شيء فانما تعبر عن شعبية مخلصة لرجل قدّم لبلاده خدمات مشهودة .

لقد انهالت الهدايا والهبات من كل جانب دون إنقطاع ، وطفحت المآكل والمشارب في كل المناسبات ، وكان أهل الفن والطرب إلى جانب ذلك قد نذروا إقامة حفلاتهم مجانا . وهكذا عشنا مدة عشرين يوما تقريبا في جو من الأفراح الشعبية لم تلمسها بغداد من قبل . وفاضت الجرائد والمجلات بالتهاني والقصائد الشعرية التي كان يلقيها بعض الشعراء أثناء حفلات الرجال لتمجيد وتهنئته النسر .

ورغم كل ذلك كنت أشعر في أعماق نفسي بعزلة موحشة عندما أحنّ لأهلي وأنا في خلوتي بغرفة المضيف التي خصصت لي لحين انتهاء واتمام الجناح الخاص ، ويتم الزفاف . لقد عرفت حينذاك ان المتعة الحقيقية في الحياة لا تكتمل إلا عند اشتراك الاحباء في المسرات . وقد ترك عدم وجود أهلي حولي في نفسي فراغا كبيرا .

انطباعات خاصة

لقد تعرفت حينذاك على عدد من فتيات العائلات الصديقة اللواتي كن يعلمن بوفاة والدي ويشعرن باحتياجي إلى التسلية والمساندة المعنوية في غربتي . وما زلت أذكر بخالص التقدير أنواع الرعاية التي كانت تحيطني بها أم صباح وكافة أفراد العائلة والاصدقاء في تلك الظروف .

الانطباعات الأولى

ولا أخفي بأنني كنت اتوقع أن أجد في بغداد أوضاعا تختلف عما رأيت ، إذ كانت اذهاننا منذ الطفولة مشحونة بسحر روايات ألف ليلة وليلة وبساط الريح ...إلخ وإذا بي أصل إلى مدينة لا أثر فيها للقصور العباسية ، أو حتى لقبور من حكموها ، في حين كانت آثار الفراعنة في مصر أكثر ما يلفت نظر السائح الغريب . وبالاختصار لم تكن بغداد سنة ١٩٣٦ تشبه المدن الرئيسية التي سبق أن زرتها في مصر وتركية وأوروبا إذ كانت الجسور عبر دجلة ما تزال طائفة على زوارق عائمة ، وكان شارع الرشيد المشهور هو الشارع الرئيسي الذي يخترقها فتنتهي المدينة

من جهة بباب المعظم ومن الجهة الأخرى بالكرّادة ، أما المنطقة الشاسعة التي احتلتها بغداد فيما بعد إلى الكاظمية ، فكان المواطنون فيها يسكنون مناطق معدودة تكتنفها البساتين .

انني لا أذكر هذه التفاصيل تصغيرا لشأن مدينة كانت درة العالم العربي في سجل التاريخ بل لإثبات حقيقة واقعة لا يعرفها النشئ الجديد ، وهي أن العهد الهاشمي انجز المعجزات في مدة وجيزة لا تتجاوز الأربعين عاما ، فاستطاع ان يقيم في تلك المنطقة وطنا متماسكا حرا أبيا إسمه العراق له صولته وكلمته واعتباره الكامل بين الامم وعلى أرض لم تكن فيها سوى أشلاء ما أنفرط وتبقى من تركة الحكم العثماني الراحل .

وقد أثبت ما أقوله ذلك البحث الذي كتبته بالفرنسية في مستهل سنة ١٩٥٨ وحصلت به على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس بامتياز ، وموضوعه "العراق ودور العوائد النفطية في سير تطوره" ، وهو بحث علمي خالص يبين بشكل واضح وباحصاءات وأرقام ثابتة مقرونة بوثائق ما كان عليه العراق في سنة العشرين ، وما وصل إليه من تطور اقتصادي واجتماعي في سنة ١٩٥٨ ، وذلك رغم ظروف حرجة وحروب عالمية ضارية . وفي هذا البحث يظهر جليا ما وصل إليه العراق وما كان يأمل أن يقوم به مجلس الأعمار في أرجائه من مشاريع بناءة تحقق الرفاهة والاستقرار في الشرق الأوسط بالتعاون الأخوي الخالص مع الأمم المتحالفة في تلك المنطقة .

في المجتمع العراقي

لقد تحدد يوم الزفاف ليوم ٢٢ أكتوبر فسمحت لي الظروف في الأيام التي أمضيتها في بغداد قبل ذلك التاريخ بالتعرف على معظم سيدات المجتمع العراقي وسيدات الهيئات الدبلوماسية على حد سواء . لقد بدأت أولا بزيارة المقربين من الأهل ، وكانت أول زيارة رسمية لي بعد ذلك لجلالة الملكة عالية زوجة الملك غازي في قصر الزهور . ومن جميل الصدف أن كان في ضيافتها حينذاك الأميرة مَلك فيظي ، خطيبة سمو الأمير عبد الإله ، وكانت معرفتي بها ترجع إلى أيام اقامتنا في مصر ، إذ كانت مبنية على صداقة الأهل ، وإذا بالنصيب يجمعنا ثانية في بغداد وفي السنة

نفسها . وعند وصولي إلى القصر استقبلتني الأميرة مَلك بحرارة بالغة ، وأعربت عن سرورها بأن نلتقي في الغربة دون سابق موعد . وبعد قليل دخلت الملكة عالية بقامتها الممشوقة ، وجبينها العريض ، وفي عينيها النجلاوين بريق هادئ مقرون بالابتسام .

كانت بساطة مظهرها ، وتصرفاتها الطبيعية الرزينة ، أكثر ما استرعى انتباهي وامتلك مشاعري . لم يكن في حديثها أي تكلف ، ولكن شخصيتها الواضحة كانت توحي بالاحترام . كان في ترحيبها رقة وكياسة ، فلما سألتها عن صحة ولي العهد الذي كان عمره في ذلك الوقت يناهز السنة تفضلت جلالة الملكة فورا وطلبت أن يحمل الأمير الصغير إلينا لأراه . فلما حضر إلى القاعة أخذته برفق من يد المربية لتضعه على ركبتي وهي تنظر إليه بحنان بالغ .

كان هذا أول لقاء لي مع الطفل الذي أصبح فيما بعد فيصل الثاني ، ملك العراق . ومنذ تلك الساعة أصبح له في قلبي مكانة خاصة . لقد عاصرته في طفولته وشبابه ، وعندما اعتلى عرش العراق رافقت خطيبته أثناء زيارتها القصيرة لبغداد في غضون سنة ١٩٥٨ . ولما فقده العراق وقضت الثورة الغاشمة عليه وعلى أهله وأهلي في بغداد ، ظلّت لوعة إستشهاده تضطرم في احشائي ، وكانت مصيبتي وحرقتي على استشهاد أهلي في كفّة ، وحزني على ما أصاب العراق بفقد فيصل في كفّة أخرى . وهكذا أرادت الأقدار .

لم تترك الأيام له فرصة أظهار مواهبه الكامنة واثبات قدرته على مواجهة الأحداث بحكمة ورزانة ، إذ كانت التيارات الهدامة في المنطقة أشد بأسا ونشاطا فطغت على كل شيء كان رغم سكونه الظاهر يدرك ما يدور حوله ، وما تقوم به المؤامرات الخفية التي كانت تحركها بعض الجهات من الخارج لزعزعة العرش وفرض سلطانها على المنطقة ، كان يعلم أن الشعوب متقلبة ، وان شعب العراق بالذات لا يعرف معنى الاستقرار ، وقد عاصر منذ ولادته أربعة إنقلابات عسكرية متوالية ، وأصبح هو وعرشه أيضا من ضحاياها في سنة ١٩٥٨ .

أيــام الأفـــراح

كان أكثر ما لفت إنتباهي في هذا المجتمع الغريب حينذاك هو تضامن المشاعر بين مختلف الطبقات وكأن الشعب بأكمله عائلة واحدة يشترك معا في الأحزان والأفراح ولكنه يتقلّب . لقد رسخ هذا الاعتقاد في نفسي عندما وصف لي الكثيرون ما طفح على أهل بغداد من غمّ وأسى عند سقوط صباح بطائرته . ومن جهة أخرى شهدت بعيني معالم الفرح التي طفحت من كل جانب عندما وصلنا إلى بغداد بعد أن تمّ شفاؤه . لقد توالت الأفراح وتحددت أيام مختلفة للمدنيين والعسكريين وللسلك الدبلوماسي وأعضاء المجلس النيابي ورؤساء العشائر وكافة الطوائف التي تسابقت إلى التهنئة . وكان يتخلل بعض تلك الضيافات رقصات شعبية أو حفلات موسيقية أو ابتهالات دينية كالمدائح النبوية وغيرها إلى ان حل يوم الزفاف .

يوم الخميس ٢٢ أكتوبر ١٩٣٦

ففي عصر ذلك اليوم إزدان قسم من البستان الملتصق بالدار بالأنوار والأقواس والأزهار لإقامة حفلة شاي كبرى لسيدات المجتمع العراقي وقسم من سيدات السلك الدبلوماسي ، وامتدت موائد الشاي في أرجائه تحمل كل ما لذّ وطاب . كانت الشرفة الواسعة التي تواجه البستان مُعدة لاستقبال العروس التي تم زفافها على الطريقة المصرية ، وذهب العريس بعد مصافحة عروسه إلى السرادق المنصوب في القسم الآخر من الحديقة لمقابلة إخوانه الرجال وحضور حفلة السمر المعدة لهم ، وكان عليه بعد ذلك أن يحضر حفلة العشاء التي أقامها على شرفه رئيس الوزراء فخامة ياسين الهاشمي في بهو أمانة العاصمة .

وانتهى يوم وارجاء منطقة الوزيرية تردد أصواتا موسيقية مختلفة ، وطلقات نارية وزغاريد ورقصات فنية في السرادق ، وغير ذلك من مظاهر الاحتفال والابتهاج .

حفلة السلك الدبلوماسي

كانت لكل تلك المناسبات بهجة خاصة ، ولكن تسلسلها دون انقطاع كان

مرهقا إلى حد كبير ، فشعر الأهل بعد الزفاف أن من الأفضل لنا الابتعاد عن ضوضاء المدينة بضعة أيام للاستراحة على أن نرجع يوم ٢٨ أكتوبر لحضور الحفلة الرسمية التي سيقيمها السلك الدبلوماسي إحتفالا بزواجنا . فعليه مكثنا بضعة أيام في دار ريفية في مزرعة جميلة يمتلكها أحد الأصدقاء ، ثم رجعنا إلى بغداد في اليوم المحدد ، وفي عصر نفس اليوم توجهنا إلى دار السفارة البريطانية حيث إجتمع رؤساء البعثات الدبلوماسية لحضور حفلة التكريم ، وكان زوج أختي حافظ عامر قد رجع من القاهرة فطمأنني على صحة الوالد وباقي أفراد أهلي ، ولكن أختي لم تحضر معه الحفل المذكور معتذرة كالعادة بتوعّك صحتها . والغريب أنه رغم تكرر غيابها في هذه المناسبات حدادا على الوالد لم يساورني الشّك أو القلق ، إذ لم أكن أتصور قط بأن أحمد حقي في اسطنبول ، وحافظ عامر في العراق ، وأهلي في مصر ، وأختي في بغداد ، يتآمرون ويشتركون في إخفاء حقيقة مصير الشخص الذي كان أكثر من اعزّه في هذا الوجود .

ومما ثبتّ هذا التفكير في نفسي هو أنه بعدما رحب بنا السفير البريطاني (سير آرجيبولد كلارك كير) وألقى كلمة بالنيابة عن سائر الهيئات الدبلوماسية ، قدّم لنا صينية فضية نقشت عليها إمضاءات كافة أعضاء السلك الدبلوماسي للذكرى ، وعلى أثر ذلك قام حافظ عامر وألقى كلمة شكر فيها السفير البريطاني والسادة المشتركين في هذا التكريم نيابة عن أهلي الغائبين في مصر ، كما شكرهم نوري باشا على هذه اللفتة الرقيقة .

وبعد انتهاء الحفل عدنا إلى المنزل حاملين الصينية التذكارية وقد كانت آخر الهدايا التي وصلتنا بهذه المناسبة ، ويعلم الله وحده المكان الذي آلت إليه ، إذ كان مصيرها هو مصير كافة ما كان يحويه المنزل الكبير من أثاث وصور تاريخية وهدايا تذكارية عندما تقاسمها جنود الانقلاب يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ .

أول انقلاب عسكري في البلاد العربية
بكر صدقي ٢٩/١٠/١٩٣٦

***

مفاجـئات

بوادر الانقلاب

وفي اليـوم التـالي ودون سبق انذار دوت في الصـبـاح المبكر أصـوات بعض القنابل ، وشق عنان السـمـاء أزيز الطائرات التي كـانـت تغوص فوق سطوح المنازل بسرعة لألقاء رزم من المنشورات على سكان بغداد الغافلين .

كنا في شبه غفوة في تلك الساعة المبكرة ، وتصورنا أن صوت الطائرات ودوي القنابل هما نتيجة لتمارين عسكرية ، وظن صباح أن تلك الحركات البهلوانية في سماء بغداد هي تحية له من أصحابه الطيارين . ولم يتضح لنا الأمر إلا عندما دقت

الخادمة الباب ودخلت حاملة صينية الافطار كالعادة وفي يدها احد المنشورات .
كان في المنشور بيان يصعب على المرء تصديقه وتفسيره إذ جاء فيه ما يلي :
"ان الجيش العراقي وزعيمه بكر صدقي يعلنان للشعب بأنهم أقالوا حكومة ياسين الهاشمي وأنه تم تشكيل حكومة جديدة برئاسة السيد حكمت سليمان . وكانت اسماء الوزراء الجدد مذكورة فيه ومن بينهم نوري السعيد كوزير للخارجية وجعفر العسكري كوزير للدفاع" .

كانت هذه الاحداث الفجائية تدعو الى الحيرة ، إذ لم تشر الأوضاع إلى ما يمكن ان يثير القلق على مصير حكومة ياسين الهاشمي بل كانت الحالة العامة وفترة حفلات تدل على الاستقرار والانسجام . كان السيد حكمت سليمان يحضر المآدب والحفلات التي أقيمت في حينه ، وكانت بين العائلتين روابط أخوية تربط زوجة حكمت سليمان وهي أخت بالرضاعة لجعفر العسكري ولأم صباح . ورغم ذلك لم يشعر أحد من المحيطين بنا بما كان يدور في الخفاء . ومن جهة أخرى كان السيد حكمت سليمان عمّا لزوجة رشيد عالي الكيلاني ، وكان الوفاق سائدا بين العائلات المذكورة حتى طغت مظاهر الود والحفاوة والأخوة بوضوح في الحفلات المتوالية التي أقيمت بمناسبة الاعراس . وحينذاك ظننت نفسي في مجتمع متضامن في السراء والضراء ، ولكن الأيام أثبتت لي بعد ذلك ان في العراق شعب فياض المشاعر ، تحمله التيارات الجارفة دون تروٍ أو إتزان إلى حيث تقوده الأهواء .

وقبل ان ينتهي صباح من قراءة مضمون المنشور دقت الخادمة الباب مرة أخرى ودخلت لتخبرنا بأن مرافق الملك غازي يريد مقابلته ، فأسرع صباح للقائه واستغرقت الزيارة بعض الوقت .

أقوال المرافق

عاد صباح إلى الغرفة بعد ذلك مطرق الرأس مكفهر الوجه فسألته بلهفة ظاهرة قائلة ماذا ؟ ما الخبر ؟ .. نظر إليّ صباح بألم ظاهر وأجابني بمرارة قائلا : "مصيبة كبرى يا عصمت ... لقد تمرّد الجيش وقُتل خالي جعفر العسكري وزير الدفاع . المهم ان لا تعلم أمي شيئا عما أصاب أخاها" . لقد روى له المرافق بأن الوزراء عند سماعهم

أزيز الطائرات وقراءة المنشورات إجتمعوا في القصر الملكي لمواجهة الموقف ، وأن وزير الدفاع تأثر كثيرا عندما اتضح له الأمر ، وظلّ يكرر "هذا مستحيل !! .. "ها ذول أولادي وبكر صدقي أخي ، هذا مستحيل ... لا بد أن أذهب إليهم بنفسي". وعبثا أراد زملائه أن يمنعوه من مواجهة جيش متمرد ، ولكنه ترك الاجتماع فورا ، وهرول إلى سيارته ، ثم إلى حيث الجيش المرابط . ولما وصل إلى مقرهم إعترضه عدد من الضباط وأمروه بأن لا يتقدم . كان جعفر العسكري عاطفي المزاج يفيض حرارة وانسانية فلم يتراجع عندما أراد الضباط ان يوقفوه بل تمادى في السير قبلا فاتحا ذراعيه وصائحا : ماذا بكم يا أولادي ؟ ما هذا التصرف ؟ أين قائدكم بكر ؟ أنتم السند والحمى .." . فكان الجواب على صرخاته المتواصلة طلقات نارية أردته قتيلا . لقد دفنت جثته بألبسته العسكرية على ضفة ترعة مجاورة في حينه وظلّ مكانها مجهولا إلى أن أطاح إنقلاب آخر بحكومة حكمت سليمان بعد مرور ما يقارب السنة .

واستطرد المرافق حديثه فقال إلى جانب ذلك أن الملك غازي بدأ يخشى وقوع اعتداءات أخرى حينما أخبرهم السائق بما حدث بعد رجوعه ، ونظرا لحراجة الظروف وغموض الموقف نصح الملك غازي ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد بالسفر الى الخارج بسرعة بعد أن جاءهم خبر مقتل جعفر إلى ان ينجلي الموقف ، فاتجه الاثنان بعد ذلك إلى لبنان .

أما نوري باشا السعيد فقد أجرى من القصر اتصالات مع السفارة المصرية . ولما علمت أختي نعمت زوجة حافظ عامر بما اصابنا اقترحت ان تتصل بأهلي في مصر حتى يستعدوا لاستقبالنا في القاهرة .

في السفارة المصرية

وبناء على ذلك تقرر ان نذهب مع أم صباح الى السفارة المصرية بصورة طبيعية كمجرد زيارة على أن تحملنا سيارة مصفحة إلى مطار الهنيدي بعد التاسعة مساء وهناك يوافينا نوري باشا بعد منتصف الليل ونركب طائرة عسكرية صغيرة تطير بنا ليلا الى القاهرة ، حتى لا تلاحقنا طائرة محلية ، إذ لم يكن حينذاك في السلاح الجوي العراقي

طائرات تستطيع أن تحلق في الجو ليلا . وهكذا كان .

ودون انتظار أو ابطاء جمعنا ما تيسر لنا من ألبسة ضرورية وتوجهنا إلى السفارة المصرية على الفور . لقد لاحظت أختي عند استقبالنا بأن سرعة تطور الأحداث وضغط الظروف المحيطة أنهكتني ، فنصحتني بالدخول إلى غرفة نومها لاستلقي ولو ساعة على فراشها للاستراحة ، ثم ذهبتْ للجلوس مع الآخرين . اغمضت عينيّ لمدة وجيزة ولكن عندما فتحتها وقع نظري فجأة على بعض جرائد مصرية متراكمة فوق منضدة مجاورة . فدفعني الحنين إلى سحبها للتمتع بقراءة أخبار الوطن . وإذا بصرخة داوية تنبعث من فمي مرددة كلمة " مات ؟ مات ؟"

كانت وفاة والدي بالنسبة لأهلي من أحداث الماضي ، إذ كان قد مرّ عليها أكثر من شهر ، فظنوا أن الأمر يتعلق بأحد ضحايا الانقلاب الحديث ، فظلت حماتي تلهث صائحة من ذا الذي مات ؟ من ؟ كانت الجريدة في يدي فتنبه حافظ عامر للأمر ، ودفعني برفق ثم أجلسني وأسرّ في أذني قائلا ... عليك يا عصمت أن تثبتي الآن انك بنت ذلك الراحل الكريم ، وأنك تقدرين الموقف الذي نحن فيه . لقد مات والدك معززا مكرما ، والجريدة التي في يديك تثبت ذلك . أما أبوك المقبل ، بل العراق بأسره في محنة اليوم ، وعلينا أن نواجه الواقع بحكمة وثبات . لقد أخليت السفارة اليوم من جميع الخدم حتى لا يتسرب خبر سفركم إلى الخارج ، وفي الساعة التاسعة مساء ستأتي سيارة مصفحة من الهنيدي لتحملكم الى المطار ، وقد أخبرت اخاك المعتز تلفونيا بوصولكم غدا إلى القاهرة حتى تُجهّز لكم الذهبية لاقامتكم فيها ، فأمسحي دموعك يا عزيزتي واصبري وتوكلي على الله .

لم تنفد صنوف المواساة التي إنهالت عليّ بعد ذلك من الجميع ... بل ظلّت دموعي جارية لا تنقطع ، ولا أذكر انني سكبت مثلها طول حياتي رغم قسوة الظروف التي لاحقتني فيما بعد .

في المطــار

وفي الساعة التاسعة مساء جاءت السيارة المصفحة إلى السفارة لتحملنا إلى المطار بأمتعتنا المحدودة ، إذ تركنا كل ما نملك في المنزل في أيدي الخدم . لم

يكن في السفارة أحد لتوديعنا سوى أختي نعمت ، إذ كان على زوجها واجب حضور حفلة رسمية .

كان مطار الهنيدي في ذلك الوقت قاعدة بريطانية ، ويبدو أن احتفالا كان يجري في أركانه في تلك الليلة إذ استقبلتنا بعض سيدات الجالية بملابس السهرة . كانت الأنوار ساطعة ، والموسيقى تدوي من بعيد ، وإذا بأحداهن تسألني عن سبب دموعي الجارية فأجبتها بحرقة : لقد مات أبي . لم تكن المسكينة تعرف ظروفي الشخصية فأرادت أن تطيّب خاطري وتؤكد لي بأن نوري باشا حيّ يرزق ، وأنه سيصل في منتصف الليل ليرافقنا ، فتدخل صباح في الأمر وأخبرها بما أصابني ، وعلى أثر ذلك ونظرا لمشاعر الاستياء التي ملأت جوانحي من تصرفات أهلي جميعا طلبت من مضيفتنا أن تقودني إلى غرفة خاصة لأغسل وجهي وأرتاح . وهكذا فعلت بعد أن طيبت خاطري ، وحينئذ إستلقيت على الفراش الذي اعدته لي إلى أن انتصف الليل ولكن دموعي ظلّت جارية .

وأخيرا سمعت دقّا خفيفا على الباب وإذا به يفتح بالتدريج ويظهر على عتبته نوري السعيد . كان حزني العميق يضطرم في احشائي ، واتساءل بحرقة كيف طاب لهم جميعا إقامة الاعراس والاحتفالات وأبي في ظلمة القبر ؟ وإذا بنوري السعيد يدخل ويقترب مني بحذر قائلا بصوت منكسر : "العفو يا عصمت العفو يا ابنتي ... لم تكن رغبتي إقامة مثل هذه الاحتفالات قط بل هي رغبة الشعب والاصدقاء قد فرضوها فرضا علينا ."

لقد كانت وصية والدك ورغبة أقربائك أيضا بألا تبدأي حياتك الجديدة بالاحزان . ويقيني ان المرحوم أباك في قبره كان يشاركهم هذا الشعور . العفو على كل حال يا عصمت إننا جميعا في انتظارك في الغرفة المجاورة لنركب الطائرة في أسرع وقت قبل بزوغ الفجر . وعلى أثر ذلك دخل صباح إلى الغرفة فتركنا مبنى الضيافة ، وتوجّهنا جميعا إلى سلم الطائرة ، وبعدها بقليل اخترقت الطائرة بنا ستار الليل وتلاشت انوار مدينة بغداد تحتنا بالتدريج .

في الطريق إلى مصر

وبعد ساعات معدودة بزغ الفجر وبدأ الشروق وطائرتنا العسكرية الصغيرة تطوف فوق السحاب في طريقها إلى وادي النيل . وقد استغرقت هذه الرحلة ما يقارب الأثنتى عشرة ساعة إذ كانت سرعتها محدودة ، وقد إضطررنا إلى الهبوط بها مرارا لتزويدها بالوقود .

ولما وصلنا إلى مطار القاهرة وجدنا في إستقبالنا أخي المعتز وبعض اعضاء السفارة العراقية ، فركبنا السيارات المعدة لنا ، وانتقلنا رأسا إلى الذهبية الراسية على ساحل الجزيرة بجوار كوبري قصر النيل .

كان لهذه السفينة العائمة موقع ممتاز ، إذ كان مدخلها يمر بين حدائق عامة غناء وكان سطحها المنبسط العريض يشرف على مجرى النهر من جسر قصر النيل إلى آخر ما يمتد إليه البصر ، وكان اسمها (البراق) ، وكانت كبرى الذهبيات الراسية إلى الساحل ، إذ كانت مهيأة لاقامة ما يوازي عشرة أشخاص ، ورغم وجودها خارج المدينة وضوضائها كانت أنوار كوبرى قصر النيل ومنظر المراكب الطائفة على سطح الماء الجاري تكسبها رغم هدوء المنطقة بهجة وحياة بل تجعلها أنسب سكن لمن داهمته الهموم وأنهكته متاعب الحياة ، وكان كل فرد منا يحمل منها ما يثقل كاهله .

ولما علمت حكومة النحاس باشا بحادث الانقلاب في العراق ولجوء نوري السعيد إلى مصر أخذت الأحتياطات اللازمة للحفاظ عليه ، فوضعت الذهبية تحت حراسة البوليس المصري طول مدة إقامتنا . ولقد زاره فيها عدد لا يستهان به من أصدقائه العرب والاجانب من أهل العراق ، وكان بينهم من كان يؤكد لنا بأن رئيس الوزراء حكمت سليمان تأثر جدا عندما علم بمقتل جعفر العسكري ، وأنه صرح بأن هذا الحادث المؤسف لم يكن سوى نتيجة لتهوّر بعض الضباط الصغار ، وقد أراد بعد ذلك أن يثبت صدق مشاعره ، فأمر بارسال تقاعد نوري السعيد ونجله الضابط صباح السعيد بصفة رسمية كحق مشروع إلى مقر إقامتهما في مصر .

نزاهة فطرية

ويجدر بنا عند ذكر الظروف التي اجبرت نوري السعيد الى ترك العراق على أثر

نقلاب بكر صدقي أن نشير إلى إحدى الخصائص التي أشتهر بها طول حياته ، ألا وهي عدم الاهتمام بالمال أو بتأمين ما يساعده على إتقاء الحاجة عند مجابهة الأحداث . ومن الصعب تفسير ذلك ، إذ كانت حياته منذ شبابه سلسلة من المغامرات مليئة بالمآسي والحرمان . ورغم ذلك لم تعلمه الظروف التي مر بها أن يحتفظ برصيد يساعده وأفراد أسرته على مواجهة المحن في الغربة . وفيما يلي أمثلة تثبت بأن النزاهة كانت من سجاياه الفطرية :

كان دخله يقتصر على الرواتب التي توزعها الدولة على موظفيها ، فلم تكن له أراض زراعية ولا ارصدة في البنوك . لقد علمت فيما بعد أن الأرض التي أقام عليها منزله في الوزيرية كانت هدية من جلالة الملك فيصل الأول ، وأن تكاليف البناء كانت سلفة من السيد عبد الهادي العسكري ، وقد سددها على أقساط فيما بعد .

فلما وصلنا إلى القاهرة على أثر انقلاب بكر صدقي لم يكن لنوري السعيد من حطام الدنيا خارج العراق سوى خمسين دينارا عراقيا ولكن القدر أراد ان يلطف به فصادف تاريخ الانقلاب في الفترة التي كان أهلي ينتظروني فيها لقضاء شهر العسل ، فكانت ذهبية المرحوم والدي جاهزة لاستقبالنا فنزل نوري السعيد فيها معززا مكرما بين أهله في سنة ١٩٣٦ .

كان الكل يعلم بأن ليس له رصيد خارج العراق ، وشعر حكمت سليمان عندما تولى الحكم بعد الانقلاب بأنه أخطأ في حق رجل قضى في خدمة البلاد عمرا .

الاغتراب للمرة الثانية

لقد تكرر الاغتراب مرة أخرى أثناء المد النازي عندما قام رشيد عالي الكيلاني بأنقلابه المشهور في سنة ١٩٤١ ، فكان ملجأ نوري السعيد مع باقي أفراد الحكومة الشرعية في الأردن ، وقد ظلوا في ضيافة الأمير عبد الله إلى ان تم رجوعهم إلى بغداد بعد انهزام رشيد عالي وهروبه إلى برلين .

ورغم تعاقب الأزمات العالمية لم يفكر نوري السعيد قط في دعم أوضاعه المالية لمواجهة الطوارئ إذ كان يكره استغلال الفرص لمصالح شخصية ، بل كان يؤمن كما

أوضح ذلك في الخطاب التاريخي الذي ألقاه في يوم أسبوع الأعمار بأن كل ما تنتجه أرض العراق يجب أن يصرف بأمانة لانعاش اقتصاد العراق . لقد مرت أمامه فرصا عديدة ، ولكنه لم يفكر قط في إستغلالها لتكوين ثروة له أو لأحد أفراد أسرته لمواجهة أيام الضيق الى نهاية عمره .

ظروفنا المادية بعد المأساة الاخيرة

وفي شهر تموز من عام ١٩٥٨ كنا نقضي مع والدة صباح وأبنائي إجازة الاولاد الصيفية في إحدى شقق شركة (بلفور بيتي) في لندن ، وإذا ببيتنا يضم بين عشية وضحاها في ١٥ تموز ١٩٥٨ أرملتين ويتيمين لا وطن لهم ولا مسكن ولا مال أو معين ، وذلك عندما استشهد الجدّ والأب معا أثناء الانقلاب المشؤوم .

والجدير بالذكر هو إنني لم استطع حتى الاستعانة بأهلي في مصر ، إذ كانت القوانين السائدة في ذلك التاريخ لا تسمح بسفر المواطنين المصريين أو إرسال نقود للخارج .

فلما سمع مدير الشركة (السير أندرو مكتاجرت) بما أصاب عائلة صديقه نوري السعيد جمع أعضاء الشركة وأتخذوا بينهم قرارا بأن لا يُطلب من زوجة نوري السعيد إخلاء الدار طول مدة حياتها نظرا للظروف القاسية التي مرّت بالعائلة ، فاغتنم المدير فرصة زيارتنا للتعزية وطيّب خاطرنا ، و أوهمنا بلباقة بأن نوري السعيد إستأجر الشّقة لمدة سنوات عديدة وذلك لعدم جرح مشاعرنا ، وبناء على ذلك مكثنا في الشقة المذكورة إلى ان وافاها الأجل في سنة ١٩٦٢ .

وأثناء ذلك استطعت ان أجد عملا في القسم العربي للاذاعة البريطانية ، وزاولت الترجمة والكتابة للقيام باعباء المعيشة ، وإلى جانب ذلك إلتحق أولادي بمدارسهم واستعانت ، أم صباح ببيع ما كان عليها من مصاغ لتغطية مصاريفها الخاصة وأمتثلنا جميعا لحكم القدر .

عشنا في الغربة في ضيق ، ولكن مرفوعي الرأس ، فقد ترك نوري عندما رحل إلى دار البقاء وطنا حرا ليس فيه شبر لمستعمر جبار ، وسمعة نزيهة لا يعلوها أي غبار ، فوجدنا في تلك السيرة النقية الكفاية والعزاء . والحمد لله على قضاءه .

نتائج إقحام الجيش في السياسة

بادرة خطـــيرة

كان اقحام الجيش في شؤون الدولة بقوة السلاح بادرة خطيرة إذ أصبح هذا الأسلوب الحاسم أنجح وسيلة بعد ذلك لقلب نظام الحكم والسيطرة على مصير الشعوب . لقد بدأها بكر صدقي في صباح ٢٩ أكتوبر ١٩٣٦ عندما أمر بالقاء أربع قنابل ومنشورات على مدينة بغداد ، وأطاح بالوزارة الهاشمية ، ولكن سرعان ما أصبح هو أيضا ضحية مؤامرة عسكرية في آب ١٩٣٧ .

مصرع بكر صدقي

لقد وصلتنا أخبار مصرع بكر صدقي ونحن نصطاف في مدينة الاسكندرية ، وقيل حينذاك بأن الحادث كان نتيجة مؤامرة عسكرية دبرتها زمرة من الضباط من أصل عربي ، عندما تبين لهم جليا ان أهم ما كان يصبو إليه بكر صدقي هو إنشاء دولة كردية في المنطقة . كان ينقل الضباط العرب من المواقع الحساسة ويستبدلهم بضباط أكراد . لقد تأكد لهم ذلك عندما تم قبول الطلبة الجدد في المدارس العسكرية ، كانت

نسبة الأكراد بينهم أكثر من ٧٠٪ . لقد نقلت لنا الأخبار حينذاك بأن الفريق بكر صدقي كان جالسا مع قائد القوة الجوية أمام مطعم مطار الموصل ، وإذا بعريف يأتي من خلف الشباك ويرميه برصاصة اخترقت مؤخرة رأسه ، وحينئد أسرع قائد القوة الجوية بالهجوم على القاتل وحاول الإمساك به ، ولكن رصاصة أخرى أصابته بمعدته فوقع صريعا .

وعلى أثر ذلك نقل جثمان بكر صدقي إلى بغداد ، وقامت الحكومة السليمانية بتشييعه رسميا ، ولكن الأوضاع في العراق بدأت تسوء إلى حد كبير ، إذ كاد الجيش ينقسم على نفسه عندما ألقي القبض على القاتل وبدأ التحقيق مع عدد من الضباط المسؤولين . لقد اعترضت فرقة الموصل على ذلك مذكرة الحكومة بأنها أصدرت عفوا شاملا على كل من إقترن اسمه بمقتل جعفر العسكري في السابق بحجة انه ذهب بنفسه إلى مقر الخطر ، ونظرا لتوتر الأوضاع السائدة ولحراج الموقف أرسل حكمت سليمان برقية عاجلة إلى السيد جميل المدفعي في الشام يدعوه إلى العودة فورا للتشاور باسم المصلحة العامة . فأجاب المدفعي بالموافقة ، وبعد التداول مع القصر استقر الرأي على أن يستريح السيد حكمت سليمان ويستقيل .

الوزارة المدفعية

وفي ١٧ آب ١٩٣٧ رفع استقالته وتم تشكيل الوزارة المدفعية . وعندما تسلّم جميل المدفعي زمام الحكم أمر برفع الحظر الذي كان يجبر أقارب وأصحاب المرحوم جعفر العسكري مغادرة بغداد .

والجدير بالذكر هو ان أرملة المرحوم جعفر العسكري عندما أرادت العودة إلى بغداد بعد زيارة ولديها في مدرسة فكتوريا بالاسكندرية على أثر إستشهاد أبيهم ، اضطرت إلى اللجوء إلى مصر ثانية ، وظلت معنا في الذهبية بالقاهرة إلى أن سمحت لها الحكومة بالرجوع إلى دارها في بغداد .

لقد أمرت الوزارة المدفعية بعد ذلك بالبحث عن المكان الذي دفنت فيه جثة جعفر العسكري فوجدوه راقدا بملابسه عند شاطئ ترعة ماء قريبة من مكان مقتله ، فنقلوا الجثة إلى المستشفى ، ثم أقامت له الحكومة المدفعية تشييعا رسميا مهيبا

ودفن في المقبرة الملكية في بغـــداد اعترافا بخدماته السابقة ، إذ كـان من اعضاء الرعيل الأول .

وبعد ذلك وصلنا خبر أن باستطاعة صباح السعيد العودة الى العراق ، وبأمكانه مزاولة وظيفته الأدارية في مصلحة السكك الحديدية .

وفي ٢٠ آب أكرمنا المولى عزّ و جل بولادة ولدي البكر فلاح الذي اصبح قرة عين آل السعيد جميعا .

نتائج إقحام الجيش في السياسة

إن العفو العام الذي شمل المتهمين بمقتل جعفر العسكري في سنة ١٩٣٦ ثم بكر صدقي في سنة ١٩٣٧ شجع بعض الفئات على استعمال الجيش لتحقيق مآربهم . وهكذا أصبح من ينعتوهم بحماة الشعب مصدر عدم استقرار متواصل في بلاد الرافدين . كان انقسام الجيش الذي نشأ بعد مقتل بكر صدقي عند إصدار حكم العفو العام للمرة الثانية على المتامرين هو العامل الأساسي الذي دعم سلطة الضباط المتنفذين في الحقل السياسي .

لقد برهنت الأحداث المتعاقبة فعلا بأن التساهل في معاقبة المنتهكين لحرمة الدستور والقوانين يؤدي حتما إلى تعريض البلاد لمخاطر جسيمة .

وفي سرد المقدمات لاستقالة الوزارة المدفعية الرابعة ما يلقي بعض الضوء على الطرق التي كان يستعملها الضباط في العراق للسيطرة على سياسة الدولة . فعندما إستدعى حكمت سليمان جميل المدفعي من دمشق للتشاور ، انتدب الجيش من جهته اللواء يوسف العزاوي والعقيد صلاح الدين الصباغ لأستقباله . قام هؤلاء بدعوته لزيارة معسكر الرشيد في أقرب وقت . ولما تألفت الوزارة المدفعية الرابعة بعد ذلك نفذّ المدفعي وعده وقصد معسكر الرشيد ، وهناك واجه قواد الجيش وصرح بما يلي قائلا : "إنني لا أقبل هذه المسؤولية الحرجة ما لم تتعهدوا لي بأنكم ستشتغلون بواجباتكم العسكرية فقط وتتركوني أشتغل بواجباتي السياسية . حتى إذا تم تعيينه بعد إستقالة حكمت سليمان وأخذ على عاتقه مسؤولية الحكم وجد من الضروري أن تصدر الحكومة مرسوما مستعجلا لمنع الدعايات المضرة نظرا لعدم الاستقرار السائد في

العراق ، من جهة ولقمع حركات الجيش الدائمة من جهة أخرى . فبعد مدة وجيزة راجت إشاعات متعددة من بينها أن الوزارة تسعى إلى تطبيق قانون الدعايات المضرة ، وسيتم تنفيذه على عدد من الضباط ومن زعماء المعارضة .

إستقالة الوزارة المدفعية

وعند سماع تلك الإشاعات وضع الضباط القوميون الملقبين بالمربع الذهبي فيما بعد خطة لإسقاط الوزارة فأرسلوا إنذارا لرئيس الوزراء يطلبون استقالته وقام الاستعداد لذلك في معسكر الرشيد . وعند وصول الإنذار بعث المدفعي إستقالته للملك غازي طالبا إعفاءه من رئاسة الوزارة ، ولكن الملك احتفظ برسالة الاستقالة وطلب الى رشيد الخوجة رئيس الديوان الملكي الذهاب إلى المعسكر بنفسه ليتحقق من الأمر . فعند وصوله أخبر رئيس أركان الجيش بأن العقداء أرسلوا للمدفعي إنذارا حتى يستقيل . وعلى أثر ذلك طلب رئيس الديوان من رئيس أركان الجيش حسين فوزي أن يصحبه إلى القصر لمقابلة الملك غازي ثم قال له : "لقد رفع المدفعي استقالته إلى جلالة الملك وتفضل جلالته بقبولها بالطريقة الدستورية" .

ثم اضاف قائلا : "إن حركتكم طعنة نجلاء للدستور ولكننا نرجو ان تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة" .

لقد دار كل ذلك في الخفاء ، وهكذا قام الجيش بإقالة الوزارة القائمة بالتحدي للمرة الثالثة ، وأنهى حكم المدفعي في ٢٤ ديسمبر ١٩٣٨ .

واستدعى البلاط بعد ذلك نوري السعيد وطه الهاشمي للتشاور . فاعتذر الطرفان عن قبول الرئاسة ، وصرح نوري السعيد بأنه أعلن مرارا وجوب إبعاد الجيش عن السياسة ، وأنه لا يقبل وضعا يفرضه الجيش بالقوة . كان بين الحاضرين رئيس مجلس الأعيان السيد محمد الصدر ، ومولود مخلص رئيس مجلس النواب ، والأمير زيد عم الملك غازي ، والشريف حسين ناصر . فعندما أعلن نوري رأيه بصراحة ، إلتفت إليه الأمير زيد قائلا : "إن جلالة الملك يعهد إليك بمنصب رئاسة الوزارة ليس لأن الجيش أراد ذلك ، وإنما هو يعهد إليك بهذا المنصب كملك دستوري له وحده هذا الحق" .

لقد أثرت كلمات الأمير زيد على الحاضرين فانحلت الأزمة وقبل نوري المنصب الذي اسنده إليه الملك غازي وشكل الوزارة في ٢٥ ديسمبر ١٩٣٨.

الوزارة السعيدية الثالثة

كان من أهم واجبات الوزارة السعيدية إعادة الاستقرار والطمأنينة إلى بلاد الرافدين بعد الهزات المكررة العنيفة التي عصفت بالبلاد بعد انقلاب بكر صدقي ، فبدأ نوري السعيد برنامجه باقامة دعوة كبرى لرؤساء القبائل البارزين وفاتحهم بوجوب حل مشكلاتهم فيما بينهم ، كما قصد بعد ذلك خصومه السياسيين في بيوتهم وصفى حسابه معهم بكياسة لاعتقاده بأن مصلحة البلاد تعلو المصالح الشخصية .

وقامت الوزارة السعيدية أيضا بإعادة المبعدين عن أوطانهم ، والمفصولين ظلما من وظائفهم ، أثناء الانقلابات المتكررة ، وإلى جانب ذلك طلب نوري السعيد أن يكون راتبه كراتب باقي الوزارات أي ما يوازي ١٢٠ دينارا شهريا .

لقد اهتم نوري سعيد بعد ذلك بما يجري في الميادين الدولية ، وقرر حضور مؤتمر المائدة المستديرة الذي أقيم في لندن لمناقشة قضية فلسطين ، وكان له فيه دور مشهود سنة ١٩٣٩ .

تلبد الأجواء السياسية في العالم

بدأت الأجواء السياسية في العالم في ذلك التاريخ تتلّبد بالتدريج ، إذ قامت تيارات الحرب الباردة تنشر مبادئها بشتى الوسائل وعلى الأخص عن طريق الاعلام . فكان النشاط الشيوعي ينبعث من الشرق ، والتيار النازي يأتي من الغرب ، وميول الشعوب في العالم تتأرجح بين الضفتين .

كان سفير ألمانيا السيد غروبا وعائلته من العناصر النشطة في ترويج مبادئهم وعلى الأخص بين الشباب القومي في العراق من جهة ، والفلسطينيين الذين لجأوا إلى العراق مع زعيمهم الحاج أمين الحسيني ، من جهة أخرى .

كان الملك غازي أيضا من بين الذين استهوتهم الصناعة الألمانية ، فكان يقتني أحدث وأسرع سيارات المرسيدس ، كما إستطاع الحصول على محطة إذاعية كاملة

يديرها شخصيا وتمكن بواسطتها اكتساب شعبية واسعة النطاق في كافة ارجاء المملكة . كان الملك غازي رغم سكونه الظاهر يفيض حيوية ونشاطا . كانت هوايته المفضلة اقتناء أحدث السيارات والانطلاق بها بسرعة متناهية مع بعض المقربين في اماكن نائية ، وإلى جانب ذلك كانت تسليته الكبرى بث ما يروق له من برامج على امواج الأثير من اذاعته الخاصة .

لقد دعمت إذاعة قصر الزهور شعبيته في العراق ، وكان لخبر وفاته وقع أليم على الشعب بأسره . وسنذكر تفاصيل مصرعه في فصل الصدمة القاضية .

الصدمة القاضية

الليلة الرهيبة

كانت غرفتي في المنزل الذي انتقلنا إليه بعد رجوعنا من مصر سنة ١٩٣٨ تشرف على نهر دجلة ، وكنت في تلك الليلة طريحة الفراش ، فمكثت إلى ساعة متأخرة من الليل أشاهد أنوار الطريق العام وهي تعكس أضواءها على مرآة الموج الساري في المنطقة المقابلة .

لقد سئمت الرقود أسبوعا كاملا ، فقررت النهوض في الصباح التالي وبدأت أنظم برامج الأيام المقبلة . وفجأة رنّ جرس التلفون في الردهة التي تحيط بغرف النوم ، فسألت نفسي من ياترى ؟ الوقت ليل ، والخدم جميعا في غرفهم في مشتمل الحديقة ، ولا حياة لمن تنادي ! كان زوجي في غرفته المجاورة مستسلما لنوم عميق ، والمربية مع الاطفال في حجرة بعيدة معزولة ، أما غرفة الوالدين فهي في آخر الردهة الفسيحة .

مكالمة هاتفية من القصر

لم يتوقف الرنين فاضطررت إلى النهوض ، وذهبت متثاقلة إلى الردهة لرفع السماعة ... وإذا بأصوات استغاثة تصيح عبر الهاتف ... آلو ... آلو ... أين نوري باشا ؟ أين؟ ... هنا قصر الزهور . "آلو ... آلو ... ؟ هزتني نبرات الصوت المضطرب فأجبت بذهول ... الدنيا ليل ونوري باشا نائم ... فاجابني المتكلم مستغيثا ... أيقظيه ... أيقظيه فجلالة الملكة تطلبه ... أسرعي . وهنا تركت السماعة فورا وهرولت إلى غرفة الوالدين ، وبدأت أدق الباب بعنف لعلمي بأن نوري باشا ثقيل السمع وان زوجته عميقة النوم . عاودت الدق مرارا ، وأخيرا فتح الباشا الباب متثائبا وعندما رآني تمتم بدهشة قائلا ... ماذا ؟ قلت التلفون ... فامتعض وجهه وصاح ... تلفون ايش في نصف الليل ! فأجبت على الفور ، جلالة الملكة تطلبك بسرعة ... التلفون من قصر الزهور . ظن نوري أن القضية تتعلق بأمور عائلية إذ حدث ذلك عدة مرات في السابق ، فأراد ان يرجئ الموعد الى الصباح ولكن عندما رفع السماعة وسمع أقوال المرافق اكفهر وجهه وصاح قائلا : اطلبوا الدكتور سندرسن وصائب شوكت حالا ، إنني سآتيكم رأسا على جناح السرعة .

طرق نوري السعيد السماعة بعنف والتفت إلي قائلا : يا عصمت أرسلي الحارس حالا لاستدعاء السائق من منزله ... الموضوع خطير ... حادث اصطدام . وقبل وصولي إلى الدرج لتلبية الأمر استدرج كلامه وقال : لا ... تعالي لا ضرورة للسائق . أيقظي صباح ... أيقظيه ليصاحبني فورا إلى قصر الزهور ، ثم هرول إلى غرفته متعثرا وهو يتمتم قائلا : "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" .

لقد ذهبت فورا لايقاظ زوجي فهبّ مذعورا وقال : ماذا جرى ؟ قلت قم وألبس بسرعة لتصحب أباك إلى قصر الزهور ... فسأل مندهشا : لماذا ؟ ماذا جرى ؟ فلما أخبرته بنبأ الاصطدام هب مذعورا ، وقام يبحث عن ألبسته على الفور ، فتركته وذهبت إلى غرفة المربية وطلبت منها النزول إلى الدور الأسفل لاخطار الحرّاس ، وتهيئة القهوة المرة ، فهي تنبه وتسعف في الأوقات العصيبة .

وبعد قليل حضر الحراس وفاق الخدم وصعدت المربية بالقهوة فأخذت الدلّة والفناجين من يدها واتجهت نحو غرفة أم صباح ، إذ كان زوجي قد سبقني إليها .

كانت أم صباح متكئة على الوسادة ورأسها بين يديها وكأنها تستعيد ذكريات حادث سقوط وحيدها بالطائرة قبل سنتين ، فملأت الفنجان ومددت يدي نحوها قائلة : "خذي قهوة يا ماما وارتاحي قليلا . لم تتمالك أم صباح نفسها فأجابت بصوت تخنقه العبرات ... أرتاح ؟! أرتاح بعد هذه المصيبة ؟ أرأيتم ؟ هذه نتيجة طيش الشباب ... هذه نتيجة جنون السرعة . ثم بدأت تحدث نفسها وتندب قائلة بصوت خافت ... ليش ؟ ... ليش يا غازي ؟ ... ليش تريد تيتم فيصل يابا ؟ ... لقد تأثر صباح عند سماع نحيبها وخرج من الغرفة مسرعا ونزل إلى حيث كان أبوه ينتظره في الطابق الأسفل . وفي الحديقة فتح الحراس باب (الكراج) فركب الاثنان السيارة مع المرافق وانطلقت بهم إلى مكان الحادث المشؤوم في هذه الليلة الرهيبة .

في دار الأمير عبد الإله

رنّ التلفون أيضا في دار الأمير عبد الإله في تلك الساعة المتأخرة . كان الأمير عادة يقرأ بعد العشاء وهو مستلق على فراشه إلى ان يحين وقت النوم . فقام متثاقلا ورفع السماعة وسرعان ما تجهم وجهه وذهب متعثرا يتفقد ملابسه في الغرفة المجاورة وهو يصيح بصوت عال : يا "مَلك" أنا رايح إلى قصر الزهور ... لازم أروح حالا . كانت زوجته الأولى الأميرة ملك في شبه غفوة تستعد للنوم ، ولكنها جلست فورا عندما سمعت صوته وصاحت باضطراب ... ليش ؟! في أيه في قصر الزهور ؟! فأجاب الأمير بيأس ظاهر : لا أعرف ... مصيبة ... أنا رايح أشوف . واتجه فورا نحو الباب . قفزت مَلك من الفراش وهي ترتعش وقالت ... طيب ... خذني معك ... أنا راح ألبس في دقيقة ... فأجاب الأمير وهو يركض على أدراج السلم ... أنا لا أستطيع الانتظار !!! وبعد برهة وجيزة سمعت ملك صوت السيارة وهي تخرج بسرعة من الكراج إلى الطريق العام . لقد أصاب ملك حينذاك شيء من الذهول ، وكانت تروي تفاصيل ما أصابها في تلك الليلة وتعترف بأنها فقدت أعصابها فركضت إلى الغرفة الخاصة بوالدة الأمير واخواته الأميرات فلم تجد فيها أحدا إذ كانت الملكة نفيسة وبناتها يقضين السهرة عادة في قصر الزهور إلى ساعة متأخرة من الليل .

بدأت الأميرة ملك تصيح على الخدم والخادمات لعلها تدرك الخبر ، فأجابها

الحارس الوحيد الذي ظل واقفا أمام باب الدار بأن الخادم الذي رافق الأمير إلى قصر الزهور صرّح بما يفيد حدوث اصطدام قرب القصر دون ذكر التفاصيل . لقد تراكمت الهواجس في رأس ملك فوقفت شاردة أمام باب الدار ، وإذا بسيارة نقل كبيرة تمر في الطريق الخالي ... وفجأة أوقفتها الأميرة ملك دون وعي أو تفكير وقالت للحارس (قل للسائق يصاحبني إلى قصر الزهور) ... فتلعثم الحارس ولكنه رضخ للأمر عندما صاحت بحدة (لازم أروح حالا) . لم تفكر ملك في حينه حتى في تبديل ثيابها بل ألتفت بعباءتها فوق ثوب النوم وركبت الشاحنة لتلحق بأفراد الأسرة في القصر وهي في حالة ذهول تام .

الصدمة القاضية

كان للملك غازي ولع خاص باقتناء السيارات واختبار سرعتها ، بل كان من أفضل هواياته قيادة سيارات السباق والانطلاق بها بسرعة فائقة في المناطق النائية التي تحيط بمدينة بغداد مع لفيف من المرافقين أو الأصدقاء المقربين .

وكان أغلب هؤلاء من الضباط والطيارين الذين يميلون إلى ألعاب البطولة والمجازفات . وكثيرا ما كان يصطحبهم في نهاية جولاته إلى دار الحارثية القريبة من قصر الزهور للترفيه .

كانت الحارثية دار استراحة شيدها الملك فيصل الأول بعد تأسيس العراق وظل هذا البناء المتواضع فيما بعد المحل المختار الذي كان الملك يلجأ إليه في فترات الاستراحة من عناء الحكم ومشاغل الدولة للترفيه .

وولع الملك غازي أيضا في سني حكمه الأخيرة بهواية أخرى هي الاذاعة . كانت نفسه رغم بوادر الانكماش والحياء الظاهر تفيض بحيوية جارفة وهي التي كانت تدفعه إلى بذل هذه الطاقة النفسية المكبوتة في ميادين السرعة إلى حد الافراط . أما الاذاعة فقد وجد فيها الملك غازي متعة تسمح له بالتعبير عن طموحه وأحلامه الكاملة ، فاعتبرها طريقة مثلى لكسب شعبية واسعة والسيطرة على مشاعر الجمهور مباشرة . وبناء على ذلك قرر الملك أن يجعل من قاعة السينما الصغيرة القائمة أمام إحدى شرفات قصر الزهور مركزا لاذاعة خاصة اشتهرت بعد ذلك ببث صنوف الأغاني

التي يطيب للجمهور سماعها إلى جانب البرامج التي كان الملك يشرف عليها شخصيا ، والتي لم تكن لها أية علاقة بالاذاعة الرسمية للبلاد .

تفاصيل الحادث المشؤوم

وفي تلك الليلة المشؤومة كان الملك غازي يقضي سهرته مع جماعته في الحارثية في حين كانت الملكة عالية وولي العهد الذي كان عمره حينذاك أربع سنوات يشاهدان فلما سينمائيا بعد وجبة العشاء ، ومعهم في قاعة العرض الملكة نفيسة والاميرتان بديعة وجليلة وبعض أعضاء الحاشية ، وفجأة اخترق صوت صاروخي سكون الليل ، واجتازت سيارة الملك حديقة القصر لتقف امام باب الاذاعة . ظنت الملك عالية أن سهرة الحارثية انتهت مبكرا وأن الملك غازي سيشترك معهم في مشاهدة الفلم ، ولكن عندما أبطأ في الدخول إلى القصر خرجت إليه وسألته عن السبب فأجابها بأن السهرة لم تكتمل بعد ولكنه جاء لتبديل البرنامج الاذاعي الموضوع ، إذ كان يرغب في سماع الاغاني الشعبية الخاصة مع جماعته . وبناء على ذلك رجعت الملكة إلى البهو لاكمال مشاهدة الفلم مع أفراد العائلة . وبعد دقائق معدودة دوى صوت المحرك من جديد وانطلقت السيارة الملكية بعنف إلى الطريق العام المرتفع فعبرته بقوة ثم انحرفت لتتجه إلى طريق الحارثية .

لم يمر على صعودها إلا بعض ثوان وإذا بالسيارة ترتطم عند وصولها إلى حافة الطريق بعامود النور فتخلعه بعنف وتنحدر بركابها من أعلى الطريق لتستقر بعد ذلك في أسفل الحقل المقابل لقصر الزهور .

قطعت الصدمة الاسلاك الكهربائية المرتبطة بالعامود المخلوع فانطفأت أنوار الحارثية ، كما توقفت آلة عرض الافلام في القصر ، وأظلم قسم من أضواء الحديقة . وعلى أثر ذلك عمّ الهرج بين الحاضرين فخرج الحراس والخدم للاطلاع على ما حدث ، وعند وصولهم إلى مكان الحادث وجدوا السيارة المحطمة في أسفل الحقل وتبين أن العامود الثقيل عند سقوطه وقع على السيارة فكسر ذراع عبد الله الجالس في المقعد الخلفي ، وهو خادم أسود أمين كان يرافق الملك دوما في جولاته ، كما أصاب طرف العامود مؤخرة رأس الملك غازي ... فكانت الضربة القاضية .

نقل الملك غازي على الفور من السيارة إلى دار الحارثية ، وعند وصول الخبر إلى القصر عمّ الصياح والعويل في أرجائه وهرعت الملكة الحزينة وأفراد أسرتها إلى الحارثية على اضواء الشموع لانقطاع التيار الكهربائي في المنطقة . وسرعان ما أتصل المرافقون بالأطباء والمسؤولين وظلت الملكة المفجوعة تنتظر وصول النجدة والاسعاف بفارغ الصبر ، إذ كان الجسد حارا ، والجفون مفتوحة ، وكانت الصدمة قاضية . وسرعان ما خاب الأمل عندما تبين الدكتور صائب شوكت أن الضربة دفعت بالمخ إلى أسفل الجمجمة فصهرته ، وهكذا ظل القلب الحائر ينضب ببطء في جسد بلا روح إلى أن أتته النهاية .

وصاية الأمير عبد الإله

إعلان الحداد وتعيين الوصاية

لقد هزّ نبأ نعي الملك غازي المفاجئ العراق هزا عنيفا فظن البعض بأنه كان ضحية مؤامرة أجنبية ، وعلى أثر ذلك هاجت الجماهير وقتلت القنصل البريطاني في الموصل . وظل هذا الشعور سائدا إلى ان أظهر التحقيق سبب حدوث المأساة ، وثبت أن الملك كان ضحية حب السرعة .

لقد تم تشييع جنازة الملك غازي باحتفال مهيب اشترك فيه الشعب بأسره ، ودفن إلى جانب والده الملك فيصل الأول في المقبرة الملكية في بغداد ، وأعلنت الحكومة حدادا رسميا لمدة أربعين يوما ، كما أقامت بمناسبة الأربعين دعوة كبرى اشتركت فيها وفود البلاد العربية لتأبين الراحل العزيز .

لم يكن ابنه فيصل قد تجاوز الأربع السنوات حينذاك وبناء على شهادة جلالة الملكة عالية تم تعيين الأمير عبد الإله وصيا ، إذ كان الملك غازي قد أوصاها أثناء حياته بأن يكون أخوها عبد الإله وصيا على فيصل إذا وافاه القدر . وعلى أثر ذلك فتحت جلالة الملكة عالية أبواب قصر الزهور لاستقبال المعزيات من كافة طبقات الشعب لمدة

ثلاثة أيام متوالية ، فكان مظهرا شعبيا فريدا . كانت نساء العراق بوجه عام يرغبن في اظهار مشاعرهن لأرملة الملك الشاب الراحل . وجاء إلى جانب سيدات المجتمع الراقي وفود من الطبقات الفقيرة سيرا على الأقدام من بغداد إلى المقر الملكي الذي يبعد عن قلب المدينة بما يوازي ٤ كيلومترات لمدة ثلاثة أيام متوالية .

كنت من بين مستقبلات وفود الطبقة العاملة في القصر ، فكنا نطلب الى المعزيات عدم الولولة أو الصياح عملا بالأصول الاسلامية واحتراما لأهل البيت . وكنا نطلب الى كل فوج الدخول بانتظام من الباب الشرقي والاكتفاء بقراءة الفاتحة عند المثول أمام أعضاء الأسرة المالكة ثم الانصراف بسكون من الباب الغربي لترك المجال للوفد الذي يليه .

كانت جلالة الملكة عالية مرهقة وكذلك أفراد الأسرة جميعا ، ولكنها حافظت على سلوكها ووقارها ، وكانت تحني رأسها بكياسة للشكر والتقدير عند مرور الوفود أمامها مدة ثلاثة أيام كاملة .

الوزارة السعيدية الرابعة

لقد استقالت على أثر وفاة الملك غازي الوزارة السعيدية الثالثة . وبعد القيام بالمراسيم الخاصة بمناسبة اعتلاء الملك فيصل الثاني عرش العراق ، وتعيين سمو الأمير عبد الإله وصيا عليه ، تم تأليف الوزارة السعيدية الرابعة في ٦ نيسان ١٩٣٩ وبدأت بتنفيذ الاصلاحات الداخلية . لقد نظمت الحكومة أولا سفرات رسمية لسمو الوصي إلى الألوية للاطلاع المباشر على أحوال البلاد ، وشرعت بعد ذلك بتوجيه عنايتها إلى القضايا التي تهم الأقطار العربية كالاشتراك مع الوفود المختلفة في مؤتمرات لندن التي أسفرت عن نشر الكتاب الأبيض حول قضية فلسطين ، ومساعدة سورية في حل قضيتها ، إلى جانب دعم صلات الصداقة والتعاون بين البلاد المرتبطة بميثاق سعد آباد ، وخاصة مع الدول المجاورة للعراق ، للتعاون ضد كل تجاوز يهدد السلم في المنطقة .

والجدير بالملاحظة هو أن تيارات السياسة كانت تجد دوما في العراق مرتعا خصبا وذلك نظرا لتعدد المذاهب والعقائد والأجناس في ربوعها . لقد نشأت في بلاد ما بين النهرين أقدم المدنيات التاريخية ، وعلى مر العصور داهمتها فتوحات متعاقبة

واقتحمتها أمم جبارة من كافة الجهات ولكن الشعوب في أرجائها ظلت محتفظة بطابعها العشائري ونزعاتها التحررية حتى وهي تحت ضغط أقسى أنواع الاستعمار . لقد أشارت (جيرترود بيل) في مذكراتها إلى صعوبة السيطرة على أمة تحركها النزعات الفردية بعنف ، فكان أسلم حل للحكم في العراق انتخاب فيصل سليل البيت الهاشمي الكريم حتى يتقبل زعامته الجميع .

لقد اضافت الاقدار إلى عوامل عدم الاستقرار في تلك المنطقة عاملا جديدا بعد تأسيس الجيش . ومن سخريات القدر ان يصبح الجيش بعد انقلاب بكر صدقي في العراق عنصرا خطيرا يهدد الأمن فيه على الدوام . لقد استغلته على التوالي النازية ، والشيوعية ، وأصحاب القوميات المتطرفة ، والتعصب العقائدي ، حتى أصبح سلاحا هداما في يد كل من يحسن استغلاله وينفذ بين صفوفه لتحقيق مطامعه .

ففي ١٥ تشرين الأول ١٩٣٩ وصل إلى بغداد مفتي فلسطين الحاج أمين ، الحسيني فاكرمت الحكومة العراقية وفادته ، كما رحبت بأصحابه ، وهيأت لهم جميعا اقامة كريمة في العراق رغم اعتراض السفارة البريطانية الصارخ .

ومما يدعو إلى الأسف الشديد هو أن الحاج أمين لعب دورا خطيرا فيما بعد عندما سار في ركاب النازية بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وأسهم في زعزعة الاستقرار في المملكة التي احتضنته وقت الشدة .

الدعايات النازية

كانت دول المحور تبذل حينذاك أقصى الجهود في سبيل اجتذاب الرأي العام في البلاد العربية التي ذاقت الأمرين من مماطلات بريطانيا والبلاد الاستعمارية الأخرى وعلى الأخص فيما يتصل بقضية فلسطين . وكان سفير ألمانيا الدكتور فرتز غروبا خير من يستطيع ترويج دعاية الحزب الوطني الاشتراكي و زعيمه هتلر متجاهلا بأن كتاب (كفاحي) عند تقييم العناصر البشرية يضع الأمة العربية في درجة وضيعة وفوق العنصر اليهودي بدرجة واحدة فقط .

محاولات الدكتور غروبا

لقد استطاع الدكتور غروبا توثيق روابطه مع عدد لا يستهان به من الشباب القومي ، وعلى الأخص مع الحاج أمين الحسيني وجماعته في العراق ، كما استطاع التسرب إلى صفوف الجيش بالتعاون مع رشيد عالي الكيلاني .

وحيث انني أجيد اللغة الالمانية ، كان في ذلك ما يعزز صداقتي مع زوجة السفير ، ولما اضطررت السفر إلى ألمانيا للعلاج اهتمت باختيار الطبيب المعالج في برلين ، كما اهدتني السفارة الالمانية تذكرة سفر مجانية إلى ألمانيا على شركة (لوفتهانزا).

وفي غضون تلك السنة بدأ الجو السياسي يتلبد بين بلاد المحور والحلفاء ، وإذا بالدكتور غروبا يطلب زيارة نوري السعيد في منزله . وبعد القيام بالمجاملات الاعتيادية تطرق السفير إلى الوضع السياسي العالمي ثم أضاف قائلا بأن هتلر يحييه ويعده بأنه سيكرم العراق إلى أقصى الحدود إذا انحاز العراق إلى جانبه لو اشتدت الأزمة في ميادين السياسة . وعند سماع هذا العرض المفاجئ سكت نوري السعيد برهة ثم قال : "هذه بشرى عظيمة ولكن ماهي الامتيازات التي سيقدمها هتلر للعراق ؟ وهل لديك وثيقة توضح لنا مداها ؟" . فأجاب غروبا فورا ... هذا وعد شفوي منه وقد طلب مني معرفة رأيك في الموضوع . وهنا ابتسم نوري السعيد بدهاء قائلا : "إنك يا سيدي رجل سياسي ، وتعلم حق العلم بأن الوثائق الخطية هي التي تنظم العلاقات بين الدول ، فلو كان أمامي اليوم معاهدة رسمية أفضل من التي حصلت عليها من بريطانيا فأنا على استعداد لقذف الوثيقة البريطانية في سلّة المهملات" .

وعند سماع ذلك استشاط غروبا غاضبا فأضاف يقول هل تشك في كلامي ؟ إن أقوالك ستغضب هتلر وستندم قريبا على هذا التصرف . فهز نوري كتفيه باستخفاف ووضع يديه حول عنقه قائلا : أتهددني بالشنق عند وصول هتلر للعراق ؟ فليفعل ما يشاء حينذاك ، إنني ما زلت عند رأيي ولا أكترث بالوعود الشفوية .

قصة طريفة

ونضيف إلى ما تقدم ما حدث بعد مرور ما يقارب العشرين عاما عندما ذهبنا

للاصطياف في (بولرهوها) في الغابة السوداء في ألمانيا سنة ١٩٥٧ .

لقد اهتمت وزارة الخارجية بوجود نوري السعيد في ألمانيا فكان بعض كبار موظفي وزارة الخارجية يزورونه من وقت لآخر . وفي ذات يوم فوجئنا بزيارة الدكتور غروبا و زوجته ، فكان لقاء مثيــرا استعدنا فيه ذكريات الماضي البعيد . لقد لفت نظرنا جميعا زيادة وزن الدكتور غروبا بشكل ملموس ، في حين نقص وزن زوجته إلى حد كبير .

وعندما سألناه عن السبب روى لنا غروبا بأنه بعد رجوعه إلى بلاده اشترك في الحرب ، واعتقل وظل أسيرا في روسيا مدة عشر سنوات كاملة ، وأنه كدبلوماسي لم يكن يجيد أي صناعة يدوية فأقتصر عمله على تقشير البطاطس للطاهي في المعتقل . كان الغذاء المقدم للمعتقلين شحيحا ، فكان غروبا يلتهم قسما من القشور ليشبع جوعه ، ويبدو ان دسامة قشور البطاطس وما تحويه من فيتامينات كانت سببا في زيادة وزنه .

أما زوجته المسكينة فقد ظلت في ألمانيا وكانت الكميات المقررة لتغذية الأفراد أثناء الحرب لا تكفي لسد الرمق ، فكان الحرمان القاسي سبب نحول زوجته . وهكذا استمر الحديث بيننا في إحياء الذكريات الماضية .

الأزمة العالمية وسياسة العراق

إعلان سياسة العراق

على أثر تأزم الوضع الدولي في أوروبا رأت الحكومة العراقية أن تعلن سياستها جهرا ، فبيّن رئيس الوزراء نوري السعيد الخطة السياسية التي سيسير عليها العراق في الخطاب الذي ألقاه في أيلول ١٩٣٩ . قال إنه من المتوقع ان تنشط الدعايات المختلفة نظرا للاضطرابات السائدة في العالم فحذر الرأي العام من شر هذه الدعايات ، وقال ان العراق بصفة كونه حليفا لبريطانيا بموجب المعاهدة ليس مكلفا بالقيام بأي أمر في حالة إشتراك حليفته في الحرب سوى بتسهيل المواصلات البريطانية داخل العراق ، ولا يترتب عليه الاشتراك في الحرب في أي ميدان إلا إذا هوجم وحينئذ يقتصر على الدفاع عن حدوده .

وبناء على ذلك يجب على المخلصين الذين يعتمدون على العاصفة لبلوغ آمالهم الوطنية ان يحسبو حسابا للظروف والرفاق والمكان وذلك بوجود طائفة من النفعيين والمأجورين الذين يستغلون حماس العاطفيين وشر المنافقين وبساطة السذج دون الاهتمام بمصلحة الوطن .

إن هدفنا الأساسي هو سلامة العراق ... فتوحيد الصفوف في هذه الأيام العصيبة واجب كما يتحتم مقابلة الأحداث بالتضامن والنصر ورباطة الجأش والتضحية وبعد النظر .

جريمة طائفية غامضة - مقتل رستم حيدر

شرعت الحكومة بعد ذلك في تعديل امتيازات النفط وقانون إدارة الألوية كما أصدرت مراسيم بمراقبة الاجانب المشتبه في سلوكهم . وفيما كانت الحكومة تجتهد في دعم الاستقرار في البلاد وإذا بجريمة غامضة تزعزع الأمن المنشود وتثير الحزازات السياسية والطائفية عندما قتل وزير المالية السيد رستم حيدر الذي كان مثالا للكفاءة والنزاهة والخلق . لقد ذكر الجاني عند التحقيق أسماء عدد من المحرضين من الشخصيات المعروفة ، فلما قبضت السلطات عليهم للتحقيق إعترض بعض الوزراء وهددوا بالاستقالة بحجة أنه لا يجوز الأخذ بكلام الجاني وشهادته ، وألحوا على أن يقتصر القبض والتحقيق مع الجاني فقط . لقد خلقت هذه الجريمة السياسية مشاكل طائفية وحزازات اجتماعية على نطاق واسع ، فقدم نوري السعيد استقالته عندما تأزمت الأوضاع إلى حد كبير . لم يكن بين المسؤولين من أراد قبول تشكيل وزارة في تلك الأزمة ، وبناء على ذلك ألح الوصي على نوري إعادة تشكيل الوزارة نظرا لما تتطلبه الأوضاع من حزم في إدارة الشؤون الداخلية ، من جهة ولحراجة الموقف الدولي من جهة أخرى ، فأضطر نوري إلى قبول العرض بصفة مؤقتة لمدة أسابيع معدودة إلى ان تستقر الأمور في الداخل وان يتم تنظيم العلاقات السياسية على الصعيد الدولي بشرط ان تؤلف وزارة قومية بعد ذلك يختار رئيسها صاحب السمو الوصي .

تشكيل الوزارة الخامسة المؤقتة

وفي خلال المدة المقررة بعد تشكيل وزارته الخامسة أنجز نوري السعيد المنهاج الذي كان أعده للوزارة السعيدية الرابعة ، كما تم اثناء ذلك محاكمة قتلة رستم حيدر ، تم تنفيذ حكم الاعدام في القاتل حسين فوزي ولكن أسباب هذه الجريمة السياسية ظلت غامضة .

اختيار رشيد عالي الكيلاني لتشكيل الوزارة واخفاقه في المهمة وتكليف طه الهاشمي

وفي ٣ آذار ١٩٤٠ وقع اختيار الوصي على رئيس الديوان الملكي السيد رشيد عالي الكيلاني لتشكيل الوزارة المأمولة ، وكان نوري السعيد وزير الخارجية فيها . كان العالم يجتاز في ذلك الوقت ظروفا عصيبة ، ورغم ذلك استطاع نوري السعيد القيام بتحسين العلاقات ما بين العراق والرياض ، وبين العراق وتركية ، وبين العراق وايران لاقتناعه بضرورة دوام الصفاء وبقاء الاخاء الصادق بين البلاد المجاورة . وأهم ما انجزته الحكومة داخل البلاد هو إصدار مرسوم يمنع الدعايات المضرة ويعمل على صيانة الأمن العام وسلامة الدولة . كان الوضع الدولي متأزما عندما انهارت بولندا وهولندا وبلجيكا وأصبح انهيار فرنسا وشيكا . كان المشتغلون بالسياسة في العراق يعتنقون مبادئ متباينة ، وقد تبين جليا عدم وجود التضامن الوزاري اللازم على الأخص في القرارات التي تخص قطع العلاقات مع دول المحور عندما تأزمت الأوضاع بصورة مثيرة نظرا لتدخل عناصر مختلفة في شؤون الدولة اضطر رشيد عالي الكيلاني لتقديم استقالته في ٣١ كانون ثاني ١٩٤١ وعلى أثر ذلك كلف الوصي طه الهاشمي بتأليف الوزارة الجديدة ولكنها لم تنجح في معالجة الأزمة القائمة بين أنصار المحور ومؤيدي سياسة الحلفاء . وبناء على ذلك استقر رأي الكتلة العسكرية سرا على فرض إرادتها على الوصي ، وحل الأزمة القائمة باسناد الوزارة إلى رشيد عالي الكيلاني مرة أخرى لتحقيق الأماني التي كانوا يدينون بها عملا بنصائح الحاج أمين الحسيني .

الكتلة العسكرية تتآمر سرا لإعادة الكيلاني

كانت هذه الأمور تدور في الخفاء ولكن نوري السعيد علم بها وقدر خطورتها وإذا به يأتي عاجلا إلى المنزل ذات يوم ويقول لنا سرا لقد قررت السفر اليوم إلى الأردن . فسألته أم صباح باضطراب قائلة خيرا ؟ ماذا حصل ؟! فأجاب بصوت خافت ... الأحوال غير مستقرة . لقد كنت عند الوصي الآن وأخبرته بقراري . فلما سألته عن التفاصيل روى لنا ما يلي : "لقد اتصل بي أحد رجال الأمن العام يقول ان العقداء الأربعة قرروا إنذار الجيش وفرض إرادتهم على الوصي في هذه الليلة طالبين اليه

تشكيل وزارة جديدة برئاسة رشيد عالي الكيلاني ومن يشاركه في تحمل مسؤولية معارضة السياسة البريطانية ومساندة المحور لتحقيق الأماني الوطنية . وبناء على ذلك ذهبت رأسا لمقابلة الوصي وأخبرته بالواقع ولكنه إستبعد حدوث حركة هوجاء من هذا القبيل وظنها من الاشاعات الكاذبة ثم طيب خاطري قائلا : إنني كنت مع رشيد البارحة وكان كل حديثه يدل على ولاء وتقدير ... فقاطعته بحماس قائلا : لا تصدق يا سيدي ... لا تصدق ... أرجوك أن تأخذ حالا قرارا حاسما وتطلب الى وزير الدفاع إقالة العقداء الأربعة المسؤولين قبل قيامهم بما لا تحمد عقباه . ظن الوصي أنني تحت تأثير وشاية كاذبة فأراد أن يطمئنني وأخذ التليفون وطلب حضور رشيد عالي لمواجهته بسرعة ثم إلتفت إليّ قائلا : انني سأقابل رشيد في الغرفة المجاورة ويمكنك البقاء في هذه الغرفة لتستمع إلى حديثنا حتى تطمئن . فقبلت العرض وانتظرت حضور رشيد وسمعت الحديث بحذافيره . لقد سأله الوصي ضاحكا : يقال يا رشيد بانك ستقوم بحركة عسكرية جديدة بالتعاون مع العقداء لإقالة حكومة طه دون أخذ رأيي ، فهل هذا صحيح ؟ وعند سماع ذلك إرتفع صوت رشيد عاليا وأجاب بلهجة تخنقها العبرات : كيف يمكنك يا سيدي ان تشك في اخلاصي ؟ كيف ؟ ان اقصى ما أصبو إليه يا سيدي هو رضاك ... ثم انهار ووقع ساجدا وهو يردد كلمة رضاك ... رضاك ...

نوري السعيد يطلع الوصي على ما يدور في الخفاء

لقد تأثر الوصي عند سماع اقواله فساعده على النهوض واضاف قالا : "ان الوشايات كثيرة يا رشيد ، ولو كنت أشك في إخلاصك ما كنت طلبت حضورك" . فأستأذن رشيد للرحيل وانتهت المقابلة بهذه الصورة . دخل سمو الوصي بعد ذلك إلى الحجرة التي كنت أستمع فيها لحديثهما وسألني مبتسما : "هل سمعت يا نوري ؟" فأجبته نعم يا سيدي ... نعم ... ولكنني مع ذلك لا أثق بكلامه فأنني أعرفه حق المعرفة ، فاسمحوا لي ياسيدي بالأنصراف ، وانني سأترك بغداد في هذه الليلة إن لم تتخذ الحكومة قرارا رسميا باحالة العقداء الأربع فورا إلى التقاعد ، فأمن البلاد في خطر متواصل ، والعرش أمانة في اعناقنا .

وعلى أثر ذلك حزم نوري السعيد امتعته واوصانا بأن لا نذيع أخبار سفره إلى

الخارج وتوجه بسيارة خاصة إلى الأردن .

الكيلاني يعلن حكومة عسكرية في ظروف غياب الوصي

وفي مساء اليوم نفسه بعد الساعة التاسعة مساء أعلنت الاذاعة استقالة حكومة السيد طه الهاشمي ودوى بعد ذلك صوت رشيد عالي الكيلاني على موجات الأثير مبشرا باقامة حكومة عسكرية لتحقيق أهداف البلاد الوطنية وللمحافظة على العرش .

قام هذا الانقلاب العسكري في مساء أول فبراير وبدأ بأنذار الجيش واحتلال دوائر البرق والبريد ، وبعد ذلك اتجه العقيد فهمي سعيد مع وكيل رئيس اركان الجيش إلى دار العميد الهاشمي وطلبوا اليه إعداد كتاب استقالته . كانت القطاعات العسكرية في بغداد قد أنذرت واتخذت الاستعدادات اللازمة لمجابهة الطوارئ وكان الوقت ليلا وسمو الوصي نائما فايقظه خدم القصر بسرعة وأخبروه بوجود حالة غير اعتيادية في الجيش في منطقة القصر . لقد تذكر الوصي حينئذ ما حذره منه نوري السعيد فأنسل متنكرا من قصره في الكرخ إلى منزل عمته سمو الأميرة صالحة في الرصافة ، ومن هناك توجه إلى البصرة بطرق مختلفة فلم تتم الاجراءات الدستورية لتعيين وزارة شرعية جديدة نظرا لتغيب الوصي ، وظلت الأمة معلقة .

وفي اليوم التالي وصلت إلى دارنا سيارة عسكرية وفيها عدد من الضباط وجاءتني الخادمة لتخبرني بانهم يريدون مقابلة الباشا ، وعندما اخبرتهم بأنه غائب ارادوا مقابلة أحد افراد العائلة . لم يكن حين ذاك أحد غيري في المنزل سوى الخدم . وعندما نزلت إلى الدور الأسفل لمقابلتهم وسألني أحدهم قائلا : أين نوري باشا ؟ قلت : لا أعلم . ظن الرجل أنه مختبئ في الدار وطلب ان يفتش المنزل فقلت له تفضل ! وسرعان ما انتشر الجنود الأربع في انحاء الدار وفتحوا الخزائن وتفقدوا كافة الزوايا إلى ان اقتنعوا بأن نوري باشا غير مختبئ فانصرفوا شاكرين .

اعتقال صباح السعيد

لم تمر ساعة على ذهابهم وإذا بلوري من الجنود يقف أمام مدخل الدار وإذا بزوجي صباح السعيد ينزل بصحبة جنديين فركضت إلى الباب لأستفسر عن الخبر ،

وإذا بصباح يهدئني قائلا لا تجزعي يا عزيزتي ، لقد أمرت الحكومة بتوقيفي فعندما أخذوني من مكتبي في دائرة السكك الحديدية طلبت منهم قبل ذهابنا إلى إدارة الشرطة المرور من هنا لأخبرك والوالدة بأنني موقوف .

لقد علمتني المفاجئات التي مرت في حياتي على مجابهة الأحداث بسكون وتروي ، فأجبته رعاك الله يا صباح ، إن والدتك مدعوة للغداء مع بعض الصديقات في دار الجوربجي اليوم وسأخبرها بما حدث ، ولكن إذا احتجت إلى أي شيء في المقر الذي سيحتجزونك فيه فأتصل بي تلفونيا لأقوم بما يلزم ... مع السلامة .

وعندما إنصرف اللوري مع صباح إتصلت بالسيدة زكية إحدى صديقات أم صباح تلفونيا إذ كانت من بين المدعوات معها في منزل الجوربجي فاخبرتها بالتفاصيل ، كما قلت لها إنني سأتوجه إلى دار إحدى صديقات مدير شرطة بغداد لأستفسر عن الأشياء التي يحتاجها صباح في مكان التوقيف ولمعرفة السبب الذي دعاهم إلى معاملته بهذه الطريقة قبل ان نفاجئ والدته بالتفاصيل التي ذكرناها عند رجوعها إلى المنزل .

ومن حسن الصدف ان زوجة رشيد عالي كانت ايضا من بين المدعوات وكانت علاقاتها مع أم صباح علاقة اخوية صحيحة رغم الظروف السياسية التي كانت أفسدت صداقة الرجال . فأسرت السيدة زكية لزوجة رشيد عالي بجلية الأمر وإذا بزوجة الرئيس تثور عند سماع ما حدث وتطلب زوجها تلفونيا على الفور وتهدده بعدم الرجوع إلى المنزل قط إن لم يطلق سراح صباح السعيد رأسا ... وهكذا كان .

لقد وجدت أم صباح ولدها في الدار عند رجوعها . وإلى جانب ذلك أثارة هذه القضية اعتراضات متعددة من كل صوب إذ لا يجوز للجيش توقيف الأفراد في دورهم أو في دوائر اعمالهم من الجهة القانونية فذلك من إختصاص الشرطة . وفي مثل هذه الحركات ما يثبت درجة عدم الاستقرار التي كانت تسود العراق في ذلك الوقت .

وبعد أيام معدودة توجهنا جميعا إلى الأردن ، فنقلتنا سيارات نيرن عبر الصحراء إلى عمان ووقفت بنا أمام الفندق الوحيد الذي كان حينئذ في المدينة وهو فندق فيلادلفيا الذي كان في ذلك الوقت مركزا للادارة العسكرية البريطانية . كان الوضع الدولي حينئذ عصيبا إذ كان روميل على حدود مصر وطائرات المحور تجوب فوق البحر الأبيض المتوسط . فلما استقبلنا أهل الفندق بالترحاب بناء على توصيات آلأمير عبد الله قيل

لنا ان الرجال في ضيافة سمو الأمير في القصر وأن الحراسة شديدة حولهم نظرا للاذاعات العدائية التي تذاع من المانيا لإثارة الشغب في الدولة . وبناء على ذلك لا يغادر الضيوف القصر قط حفظا على سلامتهم . كان في ضيافة سمو الأمير حينذاك سمو الأمير عبد الإله ونوري السعيد وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وصباح السعيد وكان الشخص الوحيد الذي كنا نراه من بين سكان الفندق هو الشريف فواز .

رشيد يقيم حكومة الدفاع الوطني وترشيح الشريف شرف وصيا على العرش

وبناء على تغيب الوصي في البصرة وعدم قيامه بالاجراءات الدستورية التي أراد الجيش أن يفرضها عليه اقام رشيد عالي حكومة الدفاع الوطني في ٣ نيسان ١٩٤١ . ونظرا للوضع العصيب الذي كان يمر به العالم أراد رشيد ان يعطي لحكومته صبغة دستورية فاقترح تأليف وزارة دستورية وتعيين وصي جديد نظرا لعدم قيام الأمير عبد الإله بواجباته الدستورية ورشح الشريف شرف أحد اعضاء الاسرة الهاشمية وصيا على الملك فيصل الثاني .

وفي الاجتماع التأريخي لأعضاء مجلس الأمة صرح رشيد عالي الكيلاني بما يلي:

"اني أحب ان اخاطب الأمة أجمع لأقول لهم بأن هذه الحركة الوطنية لم تستهدف سوى حفظ الأمن في البلاد والمحافظة على احكام الدستور وإعادة الحياة الدستورية الحقيقية وصيانة العرش وجلالة الملك فيصل الثاني المعظم . وعلى أثر ذلك اتفق الرأي على وجوب انهاء الحكم العسكري وتشكيل الوزارة الكيلانية الرابعة .

سياسة الحكومة

أما علاقة العراق مع الدول فهي الحرص على ما كنا عليه دائما من التمسك بتعهداتنا الدولية والمعاهدة العراقية البريطانية ، فهذا التحالف سينفذ وسيبقى نافذا ويبقى العراق حريصا على تنفيذه نصا وروحا كما يجب الحرص على ان تبقى هذه الامة موفورة الكرامة .

لقد أظهرت الملكة عالية في هذه الظروف العصيبة متانة ورباط جأش عظيمين إذ

كانت تشعر بأن فيصلا وعرشه أمانة في عنقها . فكانت الحارس الأمين الذي يهتم بكل صغيرة وكبيرة وبكل ما يدور داخل العراق وخارجه .

لقد اخبرنا السيد عبد القادر الكيلاني الذي كان يشرف حينئذ على إدارة أمور القصر بأنها كانت تتصل تلفونيا بأخيها في البصرة كلما سنحت الفرصة وانه عندما طلب رشيد مقابلتها للتحدث معها في بعض الشؤون بعد تعيين الشريف شرف وصيا على الملك رفضت الملكة عالية مقابلته بحجة انها سيدة مسلمة وذلك عملا بالتقاليد الأسلامية .

الدعاية النازية تكتسح الآفاق

لقد تبين جليا من الأحداث التي وردت بعد ذلك بأن المحور وأذنابه كانوا يلعبون دورا ملحوظا في توجيه دفة الأمور في العراق عن طريق المفوضية الألمانية في بغداد وذلك منذ أيام بكر صدقي إذ كانت المفوضية المذكورة لها علاقات سرية مع بعض افراد الجيش منذ ذلك التأريخ وعلى أثر نشوب الحرب العالمية الثانية بعد قطع العلاقات مع المانيا قامت ايطاليا بهذه الجهود السرية . وأخيرا زادت الحركة النازية وضوحا عندما رسخت قدم الحاج أمين الحسيني وحاشيته في العراق وذلك عن طريق الدعاية لتحرير فلسطين باسم العروبة والدين . أثبتت لنا الأحداث بأنه كان له تأثير كبير على رجال الحكم وقواد الجيش إذ كانت الأوامر تصدر بعد اجتماع القواد في داره في كثير من الأحيان . وقد التجأ إلى ألمانيا مع الذين اتبعوه عندما اندحرت المانيا في النهاية .

ومن وجهة أخرى كان المعلمون الفلسطينيون والسوريون يحركون طلبة المدارس ويحثونهم على القيام بمظاهرات صاخبة وعمل انواع من التخريب في مناسبات متعددة . وأخيرا علينا ان نذكر أيضا ما قامت به محطة الاذاعة الالمانية باللغة العربية من تحريض أدى إلى نشر الفتن وإثارة الضغائن والفوضى في البلاد العربية .

كان الفضل الأكبر في تنظيم هذه الحملات الاعلامية وزير الاعلام الالماني جوبلر ، إذ كانت متقنة ونافذة المفعول . كان القائمون بفروعها من الاخصائيين الذين يحسنون إنتقاء المواضيع وأساليب الاقناع ، فكان المستمع العربي يميل إلى تصديق أغلب ما ينشر .

سفري إلى ألمانيا

لقد أجبرتني ظروفي الصحية إلى السفر إلى ألمانيا للاستشفاء قبل نشوب الحرب بقليل . فنزلت في ضيافة الوزير المفوض العراقي السيد موسى الشابندر وزوجته في برلين ثم ذهبت إلى بادن بادن لاستكمال العلاج . لقد لمست أثناء تلك السفرة بأن النظام الهتلري إستطاع ان يربي أجيالا من الشباب تربية عسكرية مثالية . فكنا نقابل أفواجا منهم يسيرون في الطرق بنظام وهم يرددون الأناشيد الحماسية ويختمونها بجملة "ألمانيا فوق الجميع" . كان إستعمال اللغات الأجنبية والاختلاط بالاجانب محدودا ، ومع ذلك كانت الاذاعة العربية من برلين على الاخص تجامل الناطقين بالضاد إلى أبعد الحدود .

وفي ذات ليلة فاجئتنا الاخبار بان الجيش الألماني أكتسح بولندا في حين لم يكن على صفحات الجرائد الالمانية أو على أمواج الأثير ما يشير بان الحرب العالمية الثانية قاب قوسين أو أدنى . وبناء على ذلك إتصل بي وزير العراق المفوض من برلين وأخبرني بوجوب الحضور فورا قبل ان تنقطع المواصلات التي ستتيح لي العودة إلى العراق . فأسرعت بالرحيل .

وعند وصولي إلى المفوضية العراقية في برلين وجدت ان الجالية العراقية تهيئت للسفر وان عربة خاصة في قطار الشرق السريع (أورينت أكسبريس) ستحملهم إلى خارج الحدود وسيتوقف العبور من الحدود بعد ذلك . كان التاريخ المحدد لعبور آخر قطار بعد يومين من وصولي إلى برلين فودعت أهل السفارة ورافقني الحاجب إلى محطة القطار في الوقت المحدد .

كان الوقت ليلا والمدينة في ظلام حالك اتقاء لشر القصف الجوي . وعندما وصلت إلى عربة القطار ووقفت أمام الباب الداخلية أصابني شيء من الذهول . كانت العربة الضيقة مكتظة بعدد كبير من الركاب وأمتعتهم وكانت الستائر مسدولة بإحكام لحجب الأضواء . لقد شعرت فجأة بنوع من الاختناق ونظرا لحالتي الصحية تراجعت فورا وطلبت من الحاجب العودة بي الى السفارة بسرعة .

وعند وصولي إليها إعتذرت للوزير المفوض وزوجته وقلت لهما بأن وضعي الصحي لا يتحمل سفرة من هذا القبيل فإن لم أجد طريقة أخرى لمغادرة برلين فالموت

تحت أنقاض المنازل أفضل من الأختناق بين حشر في عربة قطار . لقد لاحظ الوزير المفوض وزوجته درجة إرتباكي وإعيائي فطيبوا خاطري وشرعوا في التفكير لحل مشكلتي إذ لم يكن لدي جواز سفر دبلوماسي ، ولكن الله يجعل بعد العسر يسرا .

العراق يقطع علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا

لم يمر على هذا الحادث أيام وإذا بالعراق يقطع علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا وعلى ذلك أنذرت الحكومة الألمانية كافة أعضاء السلك الدبلوماسي بوجوب مغادرة البلاد في ظرف أسبوع بقطار خاص إلى سويسرا . وحينئذ قرر الوزير المفوض ان يعتبرني من الأقارب الذين استضافهم أثناء وجودهم في ألمانيا فانحلت مشكلتي على خير ما يرام إذ استطعت بعد الوصول إلى سويسرا السفر بالقطار السريع عبر أوروبا إلى اليونان ثم انتقلت بالباخرة إلى بيروت وأخيرا أوصلتني شركة نيرن عبر الصحراء إلى بغداد .

كانت السفرة مرهقة للغاية فوسائل النقل المكتظة ولا وجود لمن يحمل الأمتعة ، والاتصالات الهاتفية مقيدة والأضواء في كل مكان شحيحة نظرا لظروف الحرب القائمة ، ولم يسعفني أثناء تلك المحنة سوى اتصالي بقنصليات العراق في البلاد التي مررت بها لتسهيل رجوعي إلى بغداد .

أخبار رهيبة

وفي مساء ذات يوم دق باب غرفتنا وسمعنا صوتا مضطربا يصيح يا أم صباح ! يا أم صباح ! فانتابتنا الدهشة عند سماع هذا النداء وذهبت لفتح الباب وإذا بالشريف فواز أمامنا يعتذر لازعاجنا ويسألنا وهو يرتعد هل سمعتم الأخبار ... هل سمعتم الأخبار ؟!

سيداتي الوضع خطير ... خطير جدا ... لقد سمعت الآن الاذاعة العربية من برلين ، ويونس بحري يخاطب أهل عمّان ويقول لهم بأن روميل سيحتل مصر غدا وان جنود المظلات التابعين للمحور سيحتلون دمشق غدا ويتوجهون بعد ذلك إلى عمان لتحرير البلاد من أذناب الاستعمار . فما هو مصيرنا يا أم صباح ؟! لقد تركونا في

أيدي الغــربة وسط صحراء قاحلة دون نقود أو معين ، فإلى أين المفر ؟!

كانت أم صباح تشكو من تضخم في القلب فطلبت من الشريف ان يهدأ قليلا ويراعي ظروفها الصحية . ثم بدأنا نطيب خاطره وطلبنا منه أن لا يتأثر إلى هذا الحد من أخبار إذاعية فليست كلها صحيحة . وأضافت أم صباح تطمئنه قائلة : "بأن سمو الأمير والجماعة سيفكرون حتما في مصيرنا ويقومون بكل ما يمكن أن يحمينا وينقذنا من شر المعتدين . فساد السكون بعد ذلك وأنصرف الشريف عندما دخلت الخادمة حاملة وجبة العشاء .

كانت أم صباح عندما تتأثر تميل إلى الاسترخاء والنوم ، وكنت على عكس ذلك ضحية للقلق والأرق . فبعد أن اكملنا العشاء ونامت أم صباح والأولاد دخلت فراشي وإذا بالهواجس تعتريني دون هوادة .

لقد تذكرت ما روته لي مربية الاولاد الأرمنية كيف هرب الأرمن من تركيا إلى العراق على الأقدام وكيف قتل الجنود طفليها أثناء الهروب ، بدأت أفكر في مصيرنا . فأنا هنا في الغربة مسؤولة عن طفلين أحدهما في الثالثة من العمر والثاني في الرابعة ومعي سيدة مسنة مريضة لا تستطيع الركض عند الهروب ، وان أقرب قرية تبعد عنا بمسافات طويلة والمنطقة قاحلة ، لا ماء أو خضراء حولنا ، فإلى أين المفر إذا طاردنا أهل المظلات !

لقد داهمتني فجأة أفكار مرعبة وما زلت أذكر مرارة اليأس الذي إعتراني في تلك الليلة الرهيبة . لم ينقذني من اضطرابي إلا عندما لمست يدي جلد المصحف الكريم الذي كنت أضعه دائما تحت وسادتي فأخذته بلهفة وشعلت الضوء الخفيف المتصل بالفراش وفتحته بطريقة آلية وإذا ببصري يقع على آية كريمة من أواخر صورة البقرة وهي : "ربنّا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به" ، كانت هذه الآية بمثابة طوق النجاة من اليأس فكررتها دون توقف ، وعندما أطفأت الضوء ووضعت رأسي على الوسادة ظلت شفتاي تكرران الآية الكريمة دون إنقطاع حتى داهمني النوم العميق .

المعجزة

وفي صباح اليوم التالي دخلت الخادمة في الوقت المحدد حاملة صينية الفطور .

كان وجهها متألقا على غير العادة فحيتنا بأبتسامة ثم قالت : صباح الخير يا ستات ... الحراس في الدور الأسفل يقولون أن الأخبار الاذاعية عظيمة . فانتصبت في جلستي عند سماع الخبر وسألت بأهتمام ... عظيمة؟ الأخبار عظيمة ؟ ماذا جرى ؟ فأجابت ان الحراس قالـــوا لي بأن روميل تراجع وترك مصر ... وان بلادنا في آمان . وعند سماع تلك البشرى بعد اضطرابي في الليلة الماضية قمت بصورة آلية فاحتضنت أم صباح وأولادي وصحت من أعماقي ... يا من أنت كريم يا رب . لقد شعرت بأن معجزة إلهية أحاطت بنا فجأة في هذه الغربة ، معجزة التبدل الفجائي الذي طرأ على الأوضاع العالمية بين عشية وضحاها . والجدير بالذكر ان الآية الكريمة التي انقذتني من اليأس القاتل في تلك الليلة الحالكة أصبحت سندي ومعيني على الدوام في الظروف القاسية التي مرت عليّ بعد ذلك في كافة أدوار حياتي .

لقد تبدلت الظروف العالمية فعلا بعد ذلك التأريخ فتوقف الزحف النازي على الشرق الأوسط واستقرت الأمور إلى حد ما في المنطقة ، فانتقلنا إلى مدينة القدس العامرة ولكن رجالنا ظلوا في معية الأمير عبد الله في عمان .

الخلاف بين العراق وبريطانيا

كانت الحرب العالمية قائمة على قدم وساق وإذا بالاخبار تفيد بأن حكومة رشيد عالي أصبحت تضع العراقيل للجيوش البريطانية ولا تسمح لها بحرية الانتقال من الهند عبر القواعد العسكرية الخاصة بها في العراق للدفاع عن مصالحها في الشرق الأوسط . وفي ذات يوم أحاطت القوة الجوية العراقية القوات الجوية البريطانية في الحبانية إذ كانت تأمل أن تصلهم أسلحة من المحور فقامت الحرب بينهما .

وكان المربع الذهبي المكون من العقداء الأربع يساند سياسة الكيلاني ولكن ظروف المحور لم تسمح لهم بارسال العتاد الموعود في الوقت المناسب ، فتبين لهم سوء المصير .

رجوع الحكومة الشرعية إلى بغداد

وعندما اطلع الأمير عبد الله عاهل الأردن على الخطة التي اتبعتها الحكومة

القائمة في بغداد قام بدور ايجابي لإيقاف خطوات المحور فاستعان بالجيش العربي واتجه نحو العراق ومعه الوصي الشرعي الأمير عبد الإله الذي خلعه رشيد عالي وجماعته بانقلابه المذكور . وعندما سمعت بغداد بزحف الجيش العربي إلى العراق هرب رشيد عالي والعقداء الأربع وجماعتهم إلى إيران ومعهم الحاج أمين الحسيني . وعلى أثر ذلك استقبل العراق الوصي الشرعي وجماعته عند وصولهم إستقبالا رائعا ورجعت المياه إلى مجاريها في بلاد الرافدين .

وعندما استقرت الأمور وبدأت الحكومة الشرعية بادارة شؤون الدولة رجعنا إلى بغداد وكان سرورنا بلقاء الوطن والأهل والأصدقاء عظيما .

كانت الوفود التي رحبت بنا تروي لنا ما تكبده الشعب من قلق وخوف عندما تأزمت الأوضاع السياسية عندما انضمت الوزارة الكيلانية للمحور .

كان موقف جلالة الملكة عالية في ذلك الوقت عظيما ، فهي لم تغادر القصر قط بل قامت بمسؤوليتها كأم وحارسة وحامية لفيصل الصغير خير قيام .

ويقول السيد عبد القادر الكيلاني الذي كان يقوم بشؤون القصر حينذاك بأن رشيد عالي طلب اليه مرارا بان يحدد له موعدا لمقابلتها للتشاور ، ولكن الملكة عالية اعتذرت في كل مرة بكياسة قائلة بأنها سيدة آرملة مسلمة ، وانها لاتستقبل الرجال ، وان دورها كأم يقتصر على رعاية وحماية ولدها . أما شؤون الدولة والسياسة فهي من اختصاص الحكام .

موقف جلالة الملكة عالية

والجدير في هذا المقام انه عندما تأزمت الأوضاع ووصلت إلى الذروة بين بريطانيا والعراق ، على الأخص عندما لم تسمح ظروف المحور إرسال العتاد الموعود للحكومة الكيلانية ، قرر رشيد عالي والعقداء الاربع الهروب إلى مكان آمن خارج بغداد ، وانه فكر ان يصطحب الملك الصغير معه بحجة المحافظة عليه . وعندما علمت الملكة عالية بما تضمره الحكومة الكيلانية أمرت باقفال أبواب القصر جميعا باحكام واستولت على كافة المفاتيح وأخبرت كل من اتصل بها تلفيفونيا بأنها ستبقى في القصر وان فيصل في حمايتها ولن يغادر بغداد .

وهكذا تحدت الملكة عالية الجميع فاصبحت هي حارسة القصر وحامية العرش على حد سواء ، ولم يتجرأ أحد اقتحام القصر لاختطاف فيصل كرهينة . ونظرا لضيق الوقت وتأزم الظروف هرب رشيد عالي وجماعته إلى إيران ثم توجه إلى برلين للاحتماء هناك .

وبعد مرور هذه الفترة العصيبة من تاريخ العراق وانسحاب روميل من العلمين ورجوع الوصي الشرعي سمو الأمير عبد الإله إلى بغداد أقامت جلالة الملكة عالية وليمة كبرى في قصر الزهور تخللتها إبتهالات ودعوات حمد وشكر لله عز و جل الذي حفظ البلاد والعرش من كيد المتآمرين .

وفي تلك الليلة إرتدت جلالة الملكة لأول مرة ثوبا بهيجا بعد ان لازمت السواد سنينا عديدة حدادا على وفاة زوجها الملك غازي رحمه الله .

نوري السعيد
ومشروع الهلال الخصيب

مقدمة

من أصعب المشكلات التي تواجهها الدول المشتركة في موائد الصلح هو تخطيط الحدود الفاصلة بين الدول الكائنة في مناطق التقسيم بما يضمن حقوق ومصالح وكرامة الشعوب القاطنة فيها . فكثيرا ما تطغى الاطماع الشخصية اثناء المفاوضات ، فيفرض القوي على الضعيف الشروط التي تناسبه ، ويتم تقسيم المنطقة على مائدة الخرائط دون رعاية العوامل الاقتصادية والجغرافية أو القيم البشرية والعقائدية السائدة فيها .

لقد تعرض العالم العربي الى مثل هذه الظروف بعد انهيار الدولة العثمانية ، إذ أصبحت المنطقة عرضة لأطماع الاستعمار لوجودها في بقعة استراتيجية تمتد بين قارات ثلاث من المحيط الاطلسي غربا الى الخليج العربي شرقا .... وعلى الأخص عندما أصبح النفط في أرجائه مصدر غنى ورخاء .

لقد عاصر نوري السعيد نشأة الدول العربية المذكورة وأسهم في تحرير عدد

منها فيما بعد ، وكان يعرف طبيعة أغلب هذه البلاد عن كثب ، ويعلم أطوار شعوبها ، إذ عاش في أرجائها واحتك بأهلها على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم في الحرب والسلم على حد سواء ، وبناء على ذلك كان نوري السعيد يعتقد اعتقادا جازما - نظرا لتجاربه وسفراته المتعددة - بأن أسس نهضة البلاد المتقدمة تعتمد أولا على وعي شعوبها وثانيا على قوة اقتصادها وأخيرا على صلابة جيشها .

ولا يخفى أن البلاد العربية كانت تفتقر الى أغلب هذه العوامل نظرا لبدء تنامي نهضتها .

كان أمل العرب بعد الحرب العالمية الأولى أن تفي بريطانيا بوعودها المتكررة للأمة العربية ، تلك الوعود التي كانت تنذر ببزوغ نور الحرية على منطقة سادها حكم حزب الاتحاد والترقي التركي الحاكم ، وهو الحزب الذي اتشح مع الأسف بقومية متطرفة في دولة كانت دارا للخلافة إسلامية تضم أقواما متباينة في محيط إسلامي كريم لا ظلم فيه ولا إكراه .

فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية واتضح ان الغلبة ستكون للحلفاء ، أراد نوري السعيد أن يستغل الموقف قبل أن تضع الحرب أوزارها ويقنع المسؤولين في تلك الجبهة بضرورة إنصاف العرب ... تلك الفئة المظلومة التي ذاقت الأمرين من حزب الاتحاد والترقي من جهة ومن أساليب الاستعمار الغربي الملتوية بعد الحرب العالمية الأولى من جهة أخرى .

الكتاب الأزرق

لقد ساعدت نوري السعيد خبرته الطويلة في ميادين الحرب والسياسة على تفهم المشاكل المتعددة التي تحيط بهذا الموضوع ... فقد زامل الملك فيصل أثناء مفاوضاته ، كما اشترك في المعارك التي دارت في المنطقة - فقرر نوري السعيد ان يعالج الموضوع معالجة واقعية ويتقدم ببعض المقترحات في حدود خبرته - وبناء على ذلك فقد دون آراءه في مذكرة عنوانها (استقلال العرب ووحدتهم) مع اشارة خاصة الى فلسطين ومقترحات ترمي الى حل نهائي للمشاكل المحيطة بالموضوع كما أرفق كافة الوثائق المتعلقة بالقضية .

لقد أرسلت تلك المذكرة التي اشتهرت باسم (الكتاب الأزرق) الى وزير الدولة (كيسي Gascy) مع خطاب بيّن نوري السعيد فيه أهمية درس تلك القضية قبل أن تضع الحرب أوزارها ليطلع اصحاب الرأي عليها قبل المشاورات النهائية – وفي تلك المذكرة خلاصة ما حدث في نهاية الحرب وتفسير لأوجه الخلاف بين العرب والبريطانيين والفرنسيين فيما مضى وكذلك عرض لمساعي الجمعية الصهيونية في انكلترا وامريكا كما نشرتها Palestine Post في عددها الصادر في ٢ تشرين ١٩٤٣ . وهي المؤسسة الصهيونية التي تتمسك دائما بأن ما يعنيه (الوطن القومي) في فلسطين هو دولة يهودية مستقلة .

كان نوري السعيد يتوقع أن انهماك المسؤولين في أمور تتعلق بالحرب القائمة سوف يمنعهم من مطالعة تفاصيل العهود الرسمية المقطوعة قبل أربع وعشرين عاما وبناء على ذلك اختصر نوري السعيد الموضوع ودوّن في مذكرته فقط خلاصة تلك الحلقات السياسية التي عاصرها وشاهدها عن كثب مع مقترحاته الخاصة – وأهم مافي الأمر هو أن التطورات الجديدة التي أصبح يلمسها في كافة الميادين وعلى الأخص النشاط الصهيوني دفعه الى الاسراع لكشف الأوضاع قبل فوات الوقت حتى لا تثير موجة الاضطهاد التي كان يعانيها اليهود في أوروبا عطف العالم الخارجي وتصبح فلسطين ضحية مناوراتهم المتعددة .

لم تكتف الجمعية الصهيونية بإثارة العطف الجارف على مأساة اليهود في أوروبا فحسب بل وجدت في تلك الصور المثيرة أعظم سلاح لخدمة مآربهم الأساسية فطلبوا من الحلفاء تأليف جيش يهودي في فلسطين لمحاربة المحور . وهنا يتساءل نوري عن علاقة مثل هذا اليهودي بفلسطين . فإذا كان في النية استخدام هذا الجيش اليهودي في فلسطين أو في البلاد العربية المجاورة ، فلا مناص إذاً للعرب من اعتبار هذه النية ارغاماً للأمم الغربية على استجابة الطلب الصهيوني لإنشاء دولة صهيونية إذ يبدو جلياً بأن الغاية الحقيقية المتوخاة كانت محاربة العرب بهذا الجيش للاستيلاء على فلسطين .

وهو يذكر الى جانب ذلك مقالة نشرها الدكتور حييم وايزمان الزعيم الصهيوني في كانون الثاني سنة ١٩٤٢ في المجلة الأمريكية المسماة بالشؤون الخارجية Foreign Affairs ، وفيها يصر وايزمان على ضرورة انشاء دولة يهودية بعد الحرب ، وذلك دون الاكتراث بالسياسة الرسمية المرسومة التي اقرها الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ –

والمعلوم . ان الدكتور وايزمان ظل يكرر طلبه بإلحاح من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٢ ولم يتوقف عن تكرار هذا الطلب إلا عندما شعر بشدة مقاومة العرب لتلك الفكرة .

ويبدو أنه شعر في الآونة الأخيرة بأنه يستطيع أثناء الحرب أن يحصل على ما لا يتسنى له الحصول عليه اثناء السلم وذلك باستغلال مأساة يهود أوروبا وذلك لإنشاء دولة يهودية في فلسطين .

الشروط الأساسية

لقد لمس نوري خطر هذه المناورات اليهودية الجريئة وتأثيرها على مستقبل البلاد العربية فأراد ان يستغل الوقت قبل ان تضع الحرب أوزارها ويقدم للمسؤولين مذكرة مختصرة تبين لهم فيها خطورة الموقف ويطلب منهم ان تعلم الأمم المتحدة قبل فوات الفرصة القرارت الآتية :

أولا : رفض إنشاء دولة يهودية مستقلة .

ثانيا : ضمان مستقبل الوطن القومي اليهودي على ما كان عليه في فلسطين بشرط ان يسوده حكم شبيه بالحكم الذاتي ضمن دولة سورية عظمى وفي نطاق حلف عربي .

والمعلوم هو ان اعطاء حكم ذاتي في داخل الدولة لبعض الجماعات فكرة مألوفة وسياسة صائبة منطوية على الانصاف ... إذ كان في عهد الامبراطورية العثمانية القديمة "ملل" متنوعة متمتعة بحقوق خاصة في كافة أنحاء الدولة .

وبناء على ذلك استهل نوري السعيد مذكرته بتقسيم الشعوب العربية الى مجموعتين :

(١) العرب القاطنون في افريقيا

(٢) العرب القاطنون في سورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية ، وهي الشعوب التي عاشت تحت لواء الامبراطورية العثمانية ردحا من الزمن كأجزاء اقليمية لا تفصل بينها حدود دولية .

كان طراز إدارتها واحدا وقوانينها كذلك وكانت عادات سكان هذه المناطق من مسلمين ويهود ومسيحيين متشابهة تجمعهم اللغة والثقافة والعادات والشؤون الاقتصادية وأساليب المعيشة وكأنهم شعب واحد .

كان (الموارنة) هم الطائفة الوحيدة التي لها وضع خاص بين تلك الفئات المختلفة وذلك على أثر الاضطرابات التي وقعت بين موارنة لبنان والدروز في سنة ١٨٦٤ .

فقد وضع لهذه الفئة نظام خاص يتمتعون بمقتضاه بقسط وافر من الحكم الذاتي وقد استطاعوا الى جانب ذلك الحصول على حكومة محلية يرأسها حاكم مسيحي ولكن دون الانفصال عن كيان الدولة .

أثر سياسة حزب الاتحاد والترقي على المنطقة

والجدير بالذكر هو ان العرب المسلمين في عهد الامبراطورية العثمانية كانوا يشاركون الاتراك في الحقوق والتبعيات بلا تمييز من حيث العنصرية ، فكان من بينهم قادة الجيوش والولاة وقد تولى الكثيرون منهم مناصب الصدارة بالدولة الى ان تدهورت القيم العثمانية الموروثة بظهور حزب الاتحاد والترقي سنة ١٩١٤ ومع بداية الحرب العالمية الأولى وهو الحزب الذي نشر العنصرية التركية في الدولة العثمانية .

فعندما اتبع الحزب الجديد في الدولة تلك السياسة الظالمة فطن العرب لمستقبلهم المظلم وفكروا جدياً في الانفصال والجهاد للحصول على استقلالهم .

وبناء على ما غمر نفوس كافة العرب حينذاك من يأس ومرارة ، أعلن الملك حسين الذي كان حينذاك شريف مكة انفصال العرب عن الامبراطورية العثمانية معتمدا على الوعود المتكررة التي قدمتها بريطانيا له خاصة ولعرب سوريا والعراق عامة عن طريق البيانات المتنوعة التي صدرت اثناء المفاوضات الرسمية السرية الجارية بين الأطراف ... والتي نصت بوضوح "بأن نوع حكومة هذه الاقاليم في المستقبل ينبغي ان يستند الى المبدأ القائل بمراعاة رغبة الشعوب المحكومة" .

وأيد تلك الثقة ما ورد في تصريح الرئيس Wilson في نقاطه الأربع عشرة إذ قال : "ينبغي ضمان سيادة حقيقية للأجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية" .

أما الأقوام الاخرى الموجودة الآن تحت الحكم التركي فينبغي ان تضمن لها الحياة ضماناً لا مراء فيه مع اعطائها فرصة القيام بالحكم الذاتي .

أثر اتفاقية سايكس بيكو

بدأت الشكوك بعد ذلك تخامر نفوس العرب عندما أفشى الروس اتفاقية (سايكس بيكو) فخابت أمالهم خيبة شديدة بعد انتهاء الحرب إذ تحقق لهم في مؤتمر الصلح ان الحلفاء تقاسموا بلاد العرب فيما بينهم بمقتضى معاهدات سرية ومنحوا انفسهم انتدابات على هذه الأقاليم وكانت هذه الانتدابات أشد وطأة على العرب من الحكم التركي وذلك بتقسيم البلدان العربية الى عدة حكومات . ولا يخفى ان مثل هذا التقسيم من شأنه القضاء حتماً على الوحدة العربية قضاء مبرما . فقد وضع العراق تحت حكم بريطانيا وكذلك جنوب سورية . أما سورية الشمالية فقد تم تسليمها الى فرنسا ولم تتمتع بالاستقلال التام سوى الدول العربية في الجزيرة العربية - وهكذا ظل النظام الانتدابي مفروضا على تلك المنطقة . ومما لا شك فيه ان هذه السياسة الجائرة هي التي سببت كل ما حدث من اضطراب وعصيان في هذه الأقطار بل هي التي لا تزال الى يومنا هذا تهدد السلام فيها .

مذكرة نوري السعيد

بدأت مذكرة نوري السعيد بوصف أوضاع البلاد العربية التي وقعت تحت الانتداب بعد معاهدة الصلح فذكر ان (العراق) ظل تحت الانتداب الى سنة ١٩٣٢ إذ دخل عصبة الأمم في تلك السنة بفضل مساعي ابنائه وبزعامة البيت الهاشمي بعد الحصول على استقلاله بموجب معاهدة التحالف المعقودة بينه وبين بريطانيا سنة ١٩٣٠ .

ظل العراق بعد ذلك مرتبطاً بجيرانه في الاقطار العربية بأمتن الصلات اللغوية والقومية والدينية والاقتصادية كما ظل متأثراً بكل ما يجري في تلك الدول الشقيقة .

كان الوئام سائداً بين الفئات المتعددة القاطنة في العراق ولم يشك العراق من حزازات دينية أو مذهبية ولكن الحوادث التي وقعت في فلسطين أثارت خواطر

الكثيرين ضد اليهود فحدثت بعض القلاقل سنة ١٩٤١ في العاصمة ولكن السلطات قمعتها في حينها . وموجز القول هو ان كل ما كان يحدث في سورية أو فلسطين وكافة الأقاليم العربية غير المستقلة كان يجد صداه عاليا في العراق . أما (سورية الشمالية) أي سورية ولبنان فكانت أرقى الأقطار العربية حضارة إلا ان نظام الانتداب زرع في ربوعها بذور الانقسام - فكان الحصول على استقلال حقيقي غاية سورية القصوى ... ومما يثبت ذلك هو ان السوريين ضحوا حتى برغبتهم في الوحدة مع الأقطار المجاورة في سبيل الحصول على الاستقلال المنشود ، وذلك عندما عقدوا اتفاقا مع الفرنسيين لتقسيم بلادهم الى دولتين هما لبنان وسورية ولكنهم علموا بعد ان وضعت الحرب أوزارها بأن بلادهم ما زالت جزءاً من المستعمرات الفرنسية .

أما (سورية الجنوبية) المكونة من فلسطين وشرق الأردن وهي التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من سورية الأصلية فقد احتلتها بريطانيا بالاتفاق مع فرنسا، ولكن أمل الحصول على الاستقلال ظل حلم آمال الشعوب فيها .

القضية الفلسطينية

وهنا يشير نوري السعيد الى قضية فلسطين البلد الذي اطاحت بكيانه المطامع الاستعمارية وجعلته مركز اضطرابات دائمة تنبعث شظاياه الى كافة ارجاء الوطن العربي الكبير . فهي بلا شك اصعب القضايا التي تجابهها الأقطار العربية وان خطة السير لحلها أدت الى حيف ظاهر اصاب سكان فلسطين الأصليين ، أي العرب . والجدير بالملاحظة هو ان السياسة الصهيونية تعتمد على مساعدات اصحاب الثروات الطائلة والمؤسسات القوية واحزاب سياسية وشخصيات بارزة ذات نفوذ في أوروبا وأمريكا والعالم بأسره ، في حين تستند فلسطين على مجرد عون أدبي من اخوانها العرب في الأقطار المجاورة ، وهي بلاد عاجزة عن مساعدتهم مساعدة مادية أو عسكرية نظراً لارتباطات هذه البلاد ببريطانيا أو فرنسا .

ان الدول العربية في الواقع كانت تبغى حلا سلميا لمشاكلها بالاتفاق لا بالقوة إذ كانت تعتقد منذ البداية بأن العهود التي قطعتها بريطانيا العظمى للمرحوم الملك حسين ، شريف مكة سابقا ، شملت فلسطين وشرق الأردن ومعظم سورية . ويثبت

ما تقدم ان بريطانيا لا تعترض قط على ادعاء العرب بأن الاتفاق الذي حرره السر هنري مكماهون في سنة ١٩١٥ يشمل فلسطين .

أما وعد بلفور فقد ظهر بعد الاتفاق الصريح الذي تقدم به السر هنري مكماهون وعندما أظهر العرب تخوفهم مما يضمره وعد بلفور أوفدت الحكومة البريطانية مندوبا هو العقيد البحري (الكوماندور هوغارت) لإزالة الشكوك التي خامرت نفس الملك حسين . فأكد هذا الأخير للملك بأن الوعد المذكور "لا يسمح بسكنى اليهود في فلسطين إلا على الوجه الذي يتفق وحرية السكان العرب سياسيا واقتصاديا .

والغريب في هذا الأمر ان شروط الانتداب على فلسطين كانت تمنح الوكالة اليهودية واليهود النازحين الى فلسطين حقوقا خاصة ، ولكن تلك الشروط لم تسمح قط لليهود بإنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين ويؤيد ذلك ما نشرته الكتب البيضاء في سنة ١٩٢٢ و١٩٣٠ و١٩٣٩ والتي بسطت فيها الحكومة البريطانية سياستها جلياً حين قالت : "بأن جعل فلسطين دولة يهودية ليس من سياسة بريطانيا قط" .

التفسير البريطاني لشروط الانتداب

ولكن الجدير بالملاحظة هو ان بريطانيا حصرت همها الأول عند قيامها بمهمة الانتداب على فلسطين في تسهيل انشاء وطن قومي لليهود ، فساعدت الوكالة اليهودية على شراء الأراضي من اصحابها العرب كما سهلت نقل الزراع العرب المقيمين في تلك الانحاء نقلا سلميا الى اماكن اخرى . وقد انهمكت الى جانب ذلك ايضا في انشاء مصالح عامة ضرورية منظمة دون التفكير في انجاز الواجب الاساسي المفروض عليها وهو مساعدة سكان فلسطين على السير قدما نحو الحكم الذاتي . وبذلك استفحل العداء ضد الانتداب من جهة وازداد خوف العرب من السيطرة اليهودية من جهة اخرى بحيث لم يبق في الامكان حمل سكان المنطقة على التعاون في المجلس التشريعي تمهيدا لتنفيذ الحكم الذاتي وفي النهاية صرح المستر اورمسبي غور وزير المستعمرات في لجنة الانتدابات الدائمة جهرا في سنة ١٩٣٧ بأنه "ان لم يحدث تبدل

اساسي في العلاقات السياسية فإنه لا يمكن مواصلة السيطرة على الحكم في فلسطين إلا باستعمال اساليب القمع العسكري المستمر" . وبناء على ذلك فكرت الحكومة البريطانية في حينه تقسيم فلسطين الى ثلاث دول : أي دولة عربية ودولة يهودية ودولة تحت الانتداب البريطاني ولكن لجنة الحدود الخاصة اعترضت على هذا الحل بعد الدراسة الدقيقة إذ وجدت ان هذا النوع من التقسيم لا يمكن تطبيقه قط إذ يقتضي انشاء حدود مصطنعة معقدة ستؤدي حتما الى احياء مشاكل اكثر تعقيدا . والغريب في الأمر حسب رأي نوري السعيد هو ان تلك اللجنة لم تفكر قط في امكان انشاء حيازات يهودية لها حدود ادارية فقط لتتمتع فيها بحقوق خاصة على نحو الحقوق التي كانت ممنوحة للموارنة في لبنان داخل دولة عربية كبرى ... إذ يمكن ان تتألف حيئذ المناطق اليهودية من عدة أقضية كما يمكن بالاتفاق ادارتها ادارة شبه مستقلة .

مؤتمر لندن ١٩٣٩

والجدير بالملاحظة هو ان المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٩ للنظر في قضية فلسطين هو اول مناسبة اعترفت الحكومة البريطانية رسميا فيها بأن للعرب كلمة في حل قضية فلسطين . لقد دلت هذه الدعوة على رجوع بريطانيا العظمى الى الأخذ بروح العهود التي قطعتها سابقا للملك حسين ، تلك العهود التي اعتبرت بموجبها جميع العرب في الامبراطورية العثمانية القديمة أمة واحدة ، وهذا ما دفع نوري السعيد الى اثارة هذا الموضوع وابداء ملاحظاته عليه .

يقول ان المؤتمر تضمن مندوبين يمثلون مصر والمملكة العربية السعودية واليمن وشرقي الأردن والعراق ... وكلها شعوب تعنى بحل قضية فلسطين - فالجدير بالذكر هو أن كافة البلاد العربية منذ نهاية الحرب العظمى الأولى لم تذق طعم الاستقرار إذ ثبت لتلك الشعوب أن الانتداب لم يفلح في تأسيس حكومة سالمة دائمة في المنطقة . وزاد الطين بلة نشوب الحرب العالمية الثانية وتزايد عناصر الاضطراب والفوضى في جميع الأقطار العربية على الأخص عندما استغل المحور مواطن الضعف في مركز الحلفاء في الأقطار العربية - ان جميع العرب لاسيما عرب الشرقين الأدنى والأوسط يشعرون شعورا عميقا بكونهم ابناء أسرة واحدة . أما قوميتهم فمستمدة من الشعور بالأخوة

الاسلامية التي تختلف اختلافا جوهريا عن القومية ومحبة الوطن الأوروبية – ان قومية العرب غير محصورة ضمن حدود ، انها أمنية ترمي الى اعادة حضارة أوائل عهد الخلافة ، تلك الحضارة العظيمة المنطوية على الأخوة والتسامح والتعامل بالحسنى . ويعتقد نوري السعيد ان كل سياسة تحيي آمال العرب في اكتساب حقوقهم وامانيهم المشروعة من شأنها اعادة السلم والطمأنينة الى الاقطار العربية وقد تبدد اسباب التذمر وقلقهم المستمر على مستقبلهم .

الدويلات الصغيرة

وأهم من كل ذلك هو الاعتراف بأن الحوادث اثبتت في السنوات الماضية ضعف الدويلات الصغيرة . ويغلب على الظن بأن مؤتمر الصلح المقبل سيسعى لجمع الدول الصغرى معاً في نوع من الاتحاد أو الحلف الاقليمي له من القوة ما يكفي لحماية جميع اعضائه من الاعتداء ، فإذا ثبت بالاختيار ان الدويلات لا تستطيع ان تدافع عن نفسها الدفاع المطلوب أو انها خطر على جيرانها وعلى السلم العالمي فمن الانصاف اذاً قبول فكرة انشاء اتحاد أو حلف مع من يجاورها وعلى الأخص اذا كان الحلفاء في حقيقة الامر شعبا واحدا بلغته وثقافته واقتصادياته .

من نصوص مواد ميثاق عصبة الأمم تتضمن الفقرة الرابعة من المادة (٢٢) ما يلي :

ان بعض الأقوام التي كانت فيما سلف من سكان الامبراطورية التركية قد بلغت مرحلة من الرقي بحيث يمكن اعتبارها أمما مستقلة على ان تسدى اليها الدولة المنتدبة المشورة والمساعدة في شؤون الادارة الى ان يحين الوقت الذي تتمكن فيه من ادارة شؤونها بنفسها – وعندما ابدى المسؤولون شكوكهم وسألوا اذا كانت احكام تلك الفقرة تتناول فلسطين، صرح مستر ملكولم مكدونالد للجنة الانتدابات في عصبة الأمم سنة ١٩٣٩ بما يبدد شكوكهم إذ اعلن رسميا بأنه لا يمكن اعتبار عرب فلسطين مختلفين اختلافا تاما من عرب العراق أو سورية ولذلك لا يمكن حرمان عرب فلسطين من التمتع بالحقوق الصريحة التي تمنح لأخوانهم عرب العراق وسورية بمقتضى الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم . فهذا التصريح في نظر نوري السعيد

يتناول اساس القضية برمتها . فالعرب يقولون بأن جميع المسلمين والمسيحيين واليهود والدروز القاطنين في لبنان وسورية وشرق الأردن وفلسطين هم شعب واحد ولا يختلفون اختلافا كبيرا عن سكان العراق ، ويجب الاعتراف ايضا بأن تلك الشعوب في سنة ١٩١٨ كانوا أرقى تعليما من العراقيين وأوسع الماما بإدارة الدواوين المركزية ، فكيف يمكن تفسير القرارات المتناقضة في تصرفات لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم ؟

لقد قررت تلك اللجنة في عام ١٩٣٩ ان مقترحات الحكومة البريطانية الرامية الى تأسيس دولة عربية في فلسطين يكون لليهود أقلية فيها يناقض التفسير الذي فسر به دوما الانتداب على فلسطين وتعليقا على هذا القرار ترى الحكومة البريطانية بأن ليس في الامكان انشاء دولة عربية مستقلة ودولة يهودية مستقلة في فلسطين . ولذلك فهي تفكر في وضع (نظام اتحادي) يجمع بينهما .

لم ير نوري السعيد في هذا الحل ما يمكن وضع الأمور في نصابها ، ففلسطين قطر صغير جدا سكانه أقل من مليوني نسمة ووضع نظام اتحادي لقطر هذا حجمه أمر صعب باهظ التكاليف .

أما اذا احتسبت فلسطين جزءا من سورية التاريخية وكان في الامكان اعادة توحيد عرب فلسطين بعرب سورية وشرقي الأردن في نظام اتحادي فستكون النتيجة لصالح الأطراف جميعاً :

فأولا – لن يثير التوسع اليهودي خوف العرب في هذا الاتحاد العربي الكبير ، ومن جهة اخرى سيشعر اليهود بنوع من الأمن والاستقرار إذ سمح لهم بنوع من الحكم الذاتي عن طريق ضمان دولي داخل دولة عربية كبرى .

نوري السعيد يطلب الرجوع الى المادة ١٩ لإعادة النظر في احكام عصبة الأمم

ولتحقيق مثل هذه الاجراءات يوصي نوري السعيد ايضا بالرجوع الى المادة التاسعة عشرة من قوانين عصبة الأمم وهي التي بموجبها يمكن لأعضاء العصبة اعادة النظر في المعاهدات التي باتت احكامها غير قابلة للتطبيق وتهدد السلم العالمي . فبناء على ذلك يتحتم اعادة النظر في وضع دول الشرقين الأدنى والأوسط برمته .

فمما لا شك فيه هو ان مستوى الرقي الاجتماعي في سورية وفلسطين اعلى من مستواه في العراق . ورغم ذلك فقد استطاع العراق بعد الاستقلال معالجة الأمور بكفاءة والسير قدما الى الأمام . وكذلك السعودية فقد تمكن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود من صيانة الأمن والنظام في بلاده واستطاع ان يسيطر على البدو والرحل والحضر في المدن والواحات وقام الى جانب ذلك باستثمار ثروة البلاد النفطية .

لقد تيسر لتلك البلاد مصادر اقتصادية وثروة لم تكن متيسرة من قبل فيجب ان تؤخذ كل تلك العوامل المستجدة بعين الاعتبار .

ان العراق مثلا يحتاج الى منفذ على البحر الأبيض المتوسط لنفطه ومنتوجاته ، وقد تتحول فلسطين بسرعة الى قطر صناعي فتحتاج الى نفط ووقود لمعاملها ، فلابد إذاً من رسم خطة جديدة بعد اعادة النظر في الاتفاقيات التي قطعتها الحكومة البريطانية ودمجتها في قرارات عصبة الأمم ، ويبدو لنا جميعا مما تقدم بأن مقترحات نوري السعيد تبرز بوجه خاص العلاقات الاقتصادية الطبيعية المستحكمة بين العراق وعرب سكان سورية التاريخية خصوصا بعد ظهور النفط والتطور الاقتصادي الذي خلفه في المنطقة .

هذه هي الخطوة الأولى لبناء صرح اتحاد شامل ، وحتى اذا قضى هذا الاتحاد على العراق وسورية فمن شأنه تسهيل الاستشارة المشتركة بين جميع الدول العربية سواء أكانت في داخل الاتحاد أم خارجه ، فالكثير من مشاكل العرب واحدة وكلهم جزء من حضارة واحدة تعتمد على المساواة والأخوة البشرية الاساسية .

آالمبادىء التي يعتمد عليها مشروع الهلال الخصيب

اختتم نوري السعيد مذكرته بعرض الحل الوحيد الذي يضمن في نظره السلم والاطمئنان والتقدم في هذه المنطقة العربية :

وعلى الأم ا لمتحدة ان تصرح بما يلي في أقرب فرصة حرصا على السلام العالمي على المدى الطويل :

(١) ان يعاد توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن في دولة واحدة .

(٢) ان يبت سكان هذه الدولة انفسهم في نوع الحكومة التي تروق لهم سواء أكانت ملكية أم جمهورية ، وسواء أكانت وحدة أم اتحادا فيدراليا .

(٣) ان تنشأ عصبة عربية ينضم اليها العراق وسورية فورا على ان يسمح للدول العربية الاخري الانضمام اليها متى شاءت .

(٤) ان يكون لهذه العصبة العربية مجلس دائم ترشحه الدول المنخرطة في سلك هذه العصبة ويرأسه احد رؤساء تلك الحدود على ان يتم انتخابه برضاء تلك الدول .

(٥) ان يكون بمجلس العصبة العربية مسؤول عن الامور التالية :

(أ) الدفاع (ب) الشؤون الخارجية (ج) العملة (د) المواصلات (هـ) الكمارك (و) حماية حقوق الأقليات (ز) التعليم .

(٦) يمنح اليهود في فلسطين ادارة شبه ذاتية في المنطقة التي يكونون اكثرية فيها مع منحهم حق ادارة مناطقهم في الريف والمدن بما في ذلك المدارس والمؤسسات الصحية على ان تكون جميع تلك المؤسسات تابعة لإشراف الدولة السورية .

(٧) ان تكون القدس مدينة يسمح الدخول اليها لأبناء جميع الأديان بقصد الزيارة أو التعبد ، وتتألف لجنة خاصة من ممثلي الأديان الثلاثة لضمان ذلك .

(٨) ان يمنح الموارنة في لبنان - اذا شاءوا - ادارة ممتازة على نحو ما كانوا يتمتعون به في خلال السنوات الاخيرة في عهد الامبراطورية العثمانية على ان تسند الى ضمان دولي أسوة بالادارات السابقة وفقا لأحكام الفقرتين (٦) و (٧) .

انشاء حلف كونفدرالي

أما اذا كان في الامكان انشاء حلف كونفدرالي من دول عربية تشمل العراق وسورية وفلسطين وشرق الأردن في بادىء الامر مع اتاحة الانضمام اليه من دول عربية اخرى فيما بعد ذلك ، فمن المؤكد انه سوف تزول حينذاك كثير من الصعوبات التي

اعترضت بريطانيا وفرنسا في الشرق الأدنى خلال السنوات العشرين الماضية .

اننا نجد ان عرب فلسطين يتخوفون من ان يصبحوا اقلية في دولة يهودية ولذلك نراهم معارضين أشد المعارضة في منح اليهود حقوقا خاصة ولكن لابد ان يخف هذا العداء اذا اصبحت فلسطين جزءا من دولة عربية قوية كبيرة ، وبذلك ايضا يزداد اطمئنان اليهود على سلامتهم ، فضلا عن ازدياد الفرص الاقتصادية السانحة لهم عندما يصبحون طائفة متمتعة بإدارة شبه ذاتية في دولة اكبر بكثير مما كانوا يأملون .

ومما لا شك فيه أن هناك ضرورة وضع شروط واخذ ضمانات ثابتة حتى لا تصبح حبرا على ورق ، وينتهي امرها كما انتهى امر الكثير من الاحكام المنصوص عليها في الدساتير الأوروبية بشأن الأقليات في خلال السنوات العشرين الماضية .

الخاتـــمة

وختم نوري السعيد مذكرته بعد سرد الظروف المعقدة التي تحيط بالقضية العربية ... ولخص مقترحاته فقال ما يلي :

"اذا لقيت مقترحاتي هذه تحبيذا فإنها ستتطلب درسا دقيقا الى ان يتسنى للمسؤولين اتخاذ التدابير المناسبة في الوقت الملائم حسب الترتيب الصحيح . فمن البديهي ان يتم أولا توحيد اجزاء سورية التاريخية وقد يكون هذا التوحيد في بادىء الامر اتحادا فيدراليا مؤلفا من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن على ان تستمر كل العلاقات الخارجية والعملة والكمارك للحكومة المركزية . هذا من جهة أما من الجهة الاخرى ، فقد يمكن توحيد سورية فورا باتخاذ ما ينبغي اتخاذه للحوزات اليهودية وادارة مدينة القدس في الوقت ذاته . كما ينبغي اتخاذ التدابير الفورية لتعيين حدود هذه الحوزات ويقتضي فوق ذلك وضع خريطة عنصرية صحيحة لفلسطين تبين عدد العرب واليهود في كل ناحية وبلد - كما يجب فوق ذلك وضع خريطة اخرى تبين الأراضي المزروعة في تلك الاماكن والأراضي التي يمكن زرعها زراعة كثيفة في المستقبل كما ينبغي التأكد من عدد اليهود الذين استقروا في تلك المناطق منذ نشوب الحرب في أيلول سنة ١٩٣٩ .

ان تحقيق مثل هذه الوحدة سيتطلب حتما من بعض زعماء العرب بعض

التضحيات في حقوق السيادة والمصالح التقليدية ، ولكنها تضحيات ضرورية بنّاءة من شأنها وقاية كيان العروبة والسلام العالمي من شر المناورات الخفية والأطماع الاستعمارية التي تضع العراقيل في سبيل كل اتحاد تفكر فيه البلدان العربية .

نوري السعيد والمائدة المستديرة

عندما اشتد التوتر في انحاء فلسطين بزيادة الهجرة اليهودية التي اصبحت تهدد مستقبل السكان العرب الأصليين فيها ، عقدت بريطانيا العظمى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن في ١٣ شباط سنة ١٩٣٩ لوضع حل نهائي لتلك المشكلة .

كان من بين الحاضرين مندوب العراق الفريق نوري السعيد الذي كان اكثر مندوبي العرب الماماً بما يحيط بالقضية من ظروف متشابكة خطيرة، ويشهد له بذلك سمو الأمير عبد المنعم رئيس الوفد المصري الذي قال : ان خطاب نوري باشا الوافي اثناء المؤتمر شرح للحاضرين الحلقات المتتابعة التي أدت الى ما وصلت اليه الحالة في فلسطين وما يمكن ان تحدثه مثل تلك التطورات من أزمات في العالم العربي في المستقبل ، وذلك ان لم تؤخذ اجراءات حاسمة لإنصاف السكان الأصليين بتنفيذ الوعود التي حصل عليها العرب من بريطانيا بجهود عنيفة – وأيد نوري باشا بالبراهين والوثائق الثابتة نوع الغبن الذي اصاب الشعب الفلسطيني وحذر من استمرار هذا التوتر على سلامة المنطقة بأسرها فكان خطاباً تاريخياً مقنعا يؤيد وجهة نظر العرب

بوضوح فقال :

> ان العراق كفلسطين يغلب عليه الطابع العربي والخلق العربي وكلاهما يسكن فيه عدد كبير من اليهود كما ان كليهما كانا جزء من الدولة العثمانية .

كان مجموع اليهود في الأقطار التابعة للدولة العثمانية يقدر ٨٠٠ ألف في سنة ١٩١٢ اغلبهم محصورين في المدن . وفي بغداد بلغ عددهم ٧٠٠٠٠ - وكانت هذه (الملل) وهو الاسم الذي كان يطلق عليهم في الدولة العثمانية يعتزون بعنصريتهم ويمارسون طقوسهم الدينية ولغتهم ويحافظون على نقاء عنصرهم .

لم يكن اليهود العثمانيون يشاطرون الفكرة الصهيونية فكلهم كانوا رعايا للدولة العثمانية . وفي العراق كانوا يعدون انفسهم يهودا عراقيين وكذلك ينطبق هذا الحال في الأقطار الاخرى التابعة للدولة العثمانية - والدليل على ذلك هو ان السير (هنري دوبس) حينما كان المعتمد السامي في العراق استدعى اقطاب اليهود في بغداد وطلب اليهم قبول انشاء وكالة يهودية في بغداد وذلك بناء على التعليمات التي وردت اليه من انجلترا . ولما كان ذلك من عوامل الصهيونية فقد رفض اليهود الانتساب الى هذا الفرع رفضا باتا ، ويبدو ان الجهود بدأت من ذلك الوقت لإرغام يهود العراق على ان يصبحوا من الكتلة الصهيونية ولم تنجل حقيقتها للسلطات العراقية إلا بعد سنتين . ومما لا شك فيه هو ان الحالة زادت سوءا في السنوات الاخيرة ، فسياسة العنف والشدة المتبعة في فلسطين واعمال الارهاب فيها اثارت عواطف وشعور العرب في العراق . إنني أخشى أن الاعمال التي تجرى خارج حدود العراق وشعور العداء الذي نشب فيها سيمتد الى الداخل والى سائر الدول العربية ويصبح خطرا وبيلا يهدد السلم السائد في المنطقة اذا لم يكن هنالك حل حاسم في الحال لقضية فلسطين .

ويتبين مما تقدم ونظرا للمناورات الصهيونية المستمرة ان الحكومة العراقية مجبرة على ان تغيير الحالة الفلسطينية أهمية كبرى .

الوعود المقطوعة

ان العراق لا يستطيع ان ينسى تلك الوعود التي قطعها السير (هنري مكماهون) لجلالة المغفور له الملك حسين ، فالمعلوم هو ان هذه الوعود كانت قد قطعت بالنيابة عن الحكومة البريطانية اثناء الحرب العظمى ولم تف بها .

ان الرسائل كانت موقعة من قبل السير هنري مكماهون باللغة العربية ومعناها على اتم وضوح وقد يبدو من النص العربي بجلاء ان فلسطين كانت من ضمن الأراضي التي وعد بها للعرب .

اعطيت هذه الوعود الى جلالة الملك حسين والعرب باللغة العربية فقط. وعليه سيكون النص العربي هو الخطاب الفصل . فاستناداً الى هذه الوعود المقطوعة من قبل السير هنري مكماهون بالنيابة عن بريطانيا العظمى قام جلالة الملك حسين وأولاده بمساعدة بريطانيا في حركة مسلحة ضد الأتراك وقام بدعاية واسعة بين عرب سورية وفلسطين ووعدهم بأن فلسـطين ستكون جزءا من الحكومة العربية المنتظرة ثم أكد بأن القائد البريطاني الأعلى يعلم بهذه التفاصيل وأمر بتوزيع النشرات بواسطة طائرة على فلسطين . والجدير بالذكر أن هذه النشرات كانت تؤيد بأنها صدرت بأمر من الجنرال اللنبي .

دخل جلالة الملك حسين والعرب في الحرب الى جانب الحلفاء اعتمادا على تلك الوعود التي قدمها السير هنري مكماهون الى جلالته في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ وكان الكتاب يتضمن بوضوح بأن أمر الحدود يرجع فيه الى الحكومة البريطانية وانه بالنيابة عن تلك الحكومة وضع المستندات التي تضمنها الكتاب .

وبناء على ذلك تطوع الضباط العرب ورجال العرب الذين كانوا في الجيش التركي سنة ١٩١٦ في خدمة القوات التابعة لجلالة الملك حسين معتمدين في ذلك على الوعود التي قطعتها بريطانيا العظمى في مخابرات السير هنري مكماهون وذلك في انشاء دولة عربية تضم اليها فلسطين وان الجيش النظامي المدّرب كان معظمه من فلسطينيين وسوريين وعراقيين إذ هم الذين قامت على اكتافهم تلك المعارك .

احتجاج الملك حسين رسمياً على وعد بلفور

والجدير بالذكر هو انه لما بلغ الجيش تصريح بلفور في نهاية سنة ١٩١٧ كان الجيش النظامي المذكور قد اقترب من العقبة ويقول نوري السعيد بأن الذعر عمّ بين القوات العربية وقد تشاور القواد العرب بينهم وقرروا العدول عن الحرب بمعاونة القوات البريطانية ريثما يرد ما يؤيد ان تعهدات السير هنري مكماهون سوف تنفذ . ومن جهة أخرى قدّم جلالة الملك حسين رسمياً احتجاجه على تصريح بلفور فأرسلت حكومة بريطانيا العظمى في كانون الثاني ١٩١٨ بواسطة (القائد هوغارت) تأكيدات قطعية صريحة بأن وعد بلفور لا يتعارض والحرية السياسية والاقتصادية الموعود بها العرب في رسائل مكماهون والى جانب ذلك اكدت له بريطانيا بواسطة (كوماندر هوغارث) بأن وعد بلفور ينطوي فقط على تحديد إيواء اليهود في فلسطين لأسباب روحانية وثقافية وانه ليس في النية انشاء دولة يهودية . وقد حمل جلالة الملك حسين هذه التأكيدات الى القوات العربية التي شرعت عندئذ في مواصلة الحرب . وفي سنة ١٩١٨ ورد بيان رسمي من وزارة الخارجية في القاهرة وهو البيان المعروف (بالتصريح الى السبعة) وفي هذا البيان وعدت حكومة صاحب الجلالة بأن حكومة فلسطين المقبلة ستتأسس على قاعدة "أخذ موافقة الطرف المحكوم" .

وبالنظر الى هذه التأكيدات واصل العرب محاربة الأتراك واثقين بأنه عند انتهاء المعارك ستكون فلسطين جزءا من الدولة العربية وقد بذل الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر أقصى الجهود في تجنيد المتطوعين من عرب فلسطين للالتحاق بقوات جلالة الملك فيصل وقد بذلت القوات البريطانية في حينه مساعدة كلية له في مساعيه .

اكتشاف سر ما تعنيه بريطانيا بالوطن القومي

على ان العرب اكتشفوا لأول مرة في مؤتمر الصلح ان الحكومة البريطانية كانت تستعد لإعطاء اليهود "وطنا قوميا" يختلف في جوهره تماما عما صرّحت به للعرب ويقول نوري السعيد بأنه كان في سنة ١٩١٩ في معية سمو الأمير فيصل في لندن حينما اخذ هذا الأخير على عاتقه بحث الموضوع مع اللورد كرزن سنة ١٩١٩ .

لقد كان الرأي السائد ان وعد بلفور لن يمس الحقوق الدينية والمدنية للطوائف

غير اليهودية في فلسطين وبناء على ذلك طلب الأمير فيصل من اللورد كرزن على مشهد من السير هربرت ان تنفذ بريطانيا العظمى الوعود التي قطعتها لوالده . وقد اختص بطلبه هذا ضم فلسطين الى الدولة العربية لمّا ألحّ الأمير بأن رسائل السير هنري مكماهون كانت تتضمن فلسطين .

التباين بين النص العربي والانجليزي في المستندات

وبناء على ذلك جاء اللورد كرزن بهذه الرسائل من القاهرة فاتضح وجود بعض التباين بين النص العربي والانجليزي بعد التدقيق ولذلك فضّل اللورد اللنبي السكوت فلم يعلق على شيء فالمعلوم أو المتبع اذا وقع خلاف بين طرفين في تفسير مستند أو وثيقة فإن القاعدة المتبعة في التفسير هي تطبيق المعنى العادي للكلمات المستعملة إذ كانت واضحة وليست الرغبات الخفية التي يضمرها اولياء الأمر ما لم يكن هناك برهان ساطع يثبت وجود معنى خاص اتفق عليه كلا الطرفين .

وألح الأمير فيصل حينذاك بأن تبحث الحكومة البريطانية عن الوعود الصحيحة التي اعطيت لجلالة الملك حسين والعرب في الرسائل العربية التي ارسلت من الحكومة البريطانية بواسطة السير هنري مكماهون . إذ يجب ان يجري التدقيق في تعهدات بريطانيا المقطوعة للعرب على ضوء النص الذي تضمنه – أي النص العربي – وليس في نشر المستندات البريطانية أي فائدة إذ لم يرها العرب قط اثناء المفاوضات ولا يجوز ان يقع على العرب تبعة التباين في نصوص الاتفاقيات المشار اليها . واضاف نوري السعيد بأن تملص المستر ماكدونالد من عرض الوثائق البريطانية في اجتماع يوم السبت بحجة صعوبة نشر المستندات الحكومية السرية أمر لا قيمة له اليوم لأن المستندات العربية التي يقول عنها العرب سبقت اذاعتها للجمهور .

ونضيف الى ذلك بأن "بيان السياسة المتبعة في فلسطين" الذي اصدرته وزارة المستعمرات في سنة ١٩٢٢ يشير الى الوطن القومي بأنه مركز يتخذ من قبل اليهود عامة تناول الجهات الدينية والعنصرية ، ومعنى ذلك انه يسمح لليهود تأسيس مركز ديني وثقافي وليس دولة سياسية تشمل الأراضي الفلسطينية كلها بحيث يستوطن فيها المهاجرون اليهود ويكون العرب نصيبهم الطرد منها كافة . ورغم هذا التعريف

الذي اطلقته وزارة المستعمرات في سنة ١٩٢٢ على فلسطين ، ووضع نصه الانجليز والصهاينة معا . وعندما اعلن الانتداب دون ان تعترف بريطانيا بالمطالب الاساسية التي تعهد بها السير هنري مكماهون شعر العرب بالغدر الذي لحق بهم ولم يستطيعوا الموافقة على تنظيم المجالس التشريعية الصورية وغيرها ، وظلت المعارضة قائمة في فلسطين فاغتنمت بريطانيا الفرصة لتأسيس نظام الحكم الذاتي وفقا لرغبتها دون تطبيق نصوص الانتداب .

فالمادة (٢) من الانتداب تتضمن واجبين متساويين :

١ - تأسيس وطن قومي لليهود .
٢ - تأسيس الحكم الذاتي .

واضاف نوري السعيد في خطابه أن الحكومة المنتدبة شجعت الهجرة قبل كل شيء خلال عشر سنوات مضت ونتيجة ذلك هاجر عدد يربو على ٣٠٠,٠٠٠ يهودي الى فلسطين اثناء تلك المدة وقد اصبحت اللغة العبرية رسمية في البلاد لما استخدمت الدولة المنتدبة عددا كبيرا من اليهود في الوظائف الحكومية ، وسمح للصهاينة بالاستحواذ على مقاطعات كبيرة من الأراضي واستغلال الموارد المعدنية وقوة الكهرباء فيها .

أما فيما يخص تأسيس الحكم الذاتي فلم يعط لعرب فلسطين أي نصيب في مزاولة حكم بلادهم ولم يسن أي تشريع أو نظام ليؤهلوا انفسهم للحكم الذاتي . فهم الآن ابعد من الحكم الذاتي منهم عندما كانوا في سنة ١٩٢٠ . ويبدو جلياً ان السياسة الصهيونية كانت تحاول تأخير انشاء الحكم الذاتي حتى رغم كتاب باسفيلد الأبيض الذي صرح بأن الوقت قد حان (لقيام الحكم الذاتي بدون تأخير ما في فلسطين لأن ذلك من صالح الطائفة) ولا شك ان سبب تلك المحاولة يرجع الى تأخير الرغبة في انشاء الحكم في فلسطين ريثما يأتي اليوم الذي يربو فيه عدد اليهود على عدد العرب .

وفي سنة ١٩٣٠ بعد تقرير لجنة "شو" وتحريات هنري سمسون اصدر اللورد باسفيلد .. وزير المستعمرات كتابا أبيض صرح فيه بأن لمطالب العرب اهمية في السياسة الجديدة في فلسطين . لقد حركت هذه الكلمات روح الأمل في نفوس العرب ولكن من دواعي الأسف ان هياج الصهيونيين والضغط السياسي في انجلترا أرغما رئيس الوزراء على ان يؤكد لزعيم الصهيونيين الدكتور وايزمن ان السياسة البريطانية في فلسطين لم يطرأ عليها تغيير هام وان الرسالة الموجهة الى الدكتور وايزمان بتاريخ فبراير ١٩٣١ على الرغم من عرضها على مجلس العموم لم تكن لها صبغة رسمية .

ولكن العرب شعروا في النهاية بأن أي تقرير يرفع لصالحهم من قبل أية لجنة كان نصيبه الاهمال .

فشل حكومة الانتداب في انشاء الحكم الذاتي

ولا شك ان فشل حكومة الانتداب في القيام بواجبها في انشاء الحكم الذاتي بددت آمال العرب واثارت سخطهم ، وكانت النتيجة قيام ثورة ، فلم تجد السلطات المدنية بدأ من طلب المساعدة من القوات العسكرية والجوية للمحافظة على سكينة البلاد ، فقضت هذه الاجراءات على الشعب تماماً .

وبعد ان سرد نوري السعيد كافة المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية منذ سنة ١٩١٥ ، وذلك بالوثائق والأدلة والبراهين ، اختتم دفاعه عن عدالة هذه القضية بمقارنة الطريقة التي عاملت بها بريطانيا العراق بالسياسة التي سلكتها في فلسطين تحت ضغط الصهيونية فقال :

> ان بريطانيا منحت العراق الحكم الذاتي الى حد بعيد في سنة ١٩٢٠ واستقلالا ذاتيا في سنة ١٩٢٤ ، ثم عهدت مهام المحافظة على النظام الى العراقيين أنفسهم فشرعوا بإنماء ثروة بلادهم بطرقهم الخاصة ، وانشاء دولة جديدة بأساليب حديثة ، وبناء على ذلك تأسس نظام برلماني في العراق للحصول على الاستقلال التام والاعتراف به كأمة مستقلة من أمم العالم الحرة . ومما لا يمكن انكاره هو ان الأمة التي تحكم

نفسها يمكن أن تنجز امورا نافعة كثيرة لا تستطيع دولة اخرى القيام بها مهما حسنت نيتها .

وقد انتفع العراق وبريطانيا من العلاقات الودية القائمة بينهما انتفاعا ملموسا فالصداقة هي خير اساس تعتمد عليه العلاقات سواء اكانت سياسية أم اقتصادية .

ثم اضاف قائلا : ونحن في العراق نعتقد بأن اتباع مثل هذه السياسة في فلسطين – القطر الذي هو على أتم الشبه بالعراق سيؤدي حتما الى مثل هذه النتائج الحسنة – اننا نعتقد ان حكومة بريطانيا وعدت الفلسطينيين بواسطة السر هنري مكماهون بالاستقلال الذاتي أسوة بنا . وكذلك نعلم بأن الاتفاقية الانجليزية الفرنسية التي أبرمت في سنة ١٩١٨ نصت على اعطاء الحرية للشعب وتأسيس حكومة وطنية تستمد سلطانها من استعداد شعبها وارادته المطلقة .

والى جانب ذلك صرح المستر تشمبرلين رئيس الوزراء في مناسبات عديدة بأن الحكومة البريطانية على استعداد للمفاوضة حول المظالم المزعومة التي تتضمنها معاهدة الصلح وستسعى الى معالجتها بمفاوضات حرة وروح ودية . والعراق على يقين بأن رئيس الوزراء لن يرفض ما طلبناه من الاخذ بناصية العدل في قضية فلسطين وانه يوافق بأن الوقت قد حان لأن تعيد بريطانيا النظر في سياستها لهذه البلاد بالنظر للوضع المؤلم السائد فيها ، فإننا واثقون بأنه لا يمكن ان تهدأ فلسطين ولا يمكن ان يسودها السلم في المستقبل ما لم تمنح استقلالها الذاتي .

الختـــام

واختتم نوري السعيد خطابه قائلا ؛ ارجو ان تتذكروا بأنني هنا الرجل الوحيد الذي قام بناء على الأوامر التي اصدرها جلالة الملك حسين وأولاده بقيادة القوات المسلحة العربية في ساحة المعارك التي انضمت الى صفوف بريطانيا لنيل الاستقلال في الحرب العالمية الأولى ، وانني في هذا الموقف لا أبغى جرح مشاعر بريطانيا بما شرحته امامكم اليوم ولكن شعوري بالواجب هو الذي حتم عليّ اعلامكم بنظرة البلاد العربية الى سياسة بريطانيا اليوم ، كما ارى من واجبي ايضا التصريح بأن هذا المؤتمر يرقبه

العرب والمسلمون كافة في انحاء العالم وعليه قد عقدت الآمال ، فعسى ان يحقق ما ينصف العرب .

الوحدات العربية والجامعة العربية

لم تكن فكرة الجامعة العربية كما ادّعى البعض فكرة بريطانيا ، إذ كان اتحاد البلاد العربية هو الحلم الأزلي الذي مازال يداعب خواطر الشعوب الناطقة بالضاد من المحيط الأطلنطي غربا الى الخليج العربي شرقا ، ولا غرابة في ذلك ، فوحدة اللغة والتقاليد الاجتماعية الموروثة لها الأثر الاكبر في ازالة الحواجز المهمة التي تخلقها عادة الفروق العنصرية والعقائدية في المجتمع .

وبناء على ذلك ظلت تلك الامنية الدفينة تخفق في قلوب الشعوب سرا رغم الظروف التاريخية التي وضعت المنطقة بأسرها تحت نفوذ الدولة العثمانية مدة قرون عديدة .

لقد استطاع الاسلام ان يحافظ على نوع من الوفاق بين الدولة العثمانية والشعوب المحكومة في ارجائها . ولكن توسع رقعة تلك الامبراطورية الهائلة وعدم وجود ما يتطلبه هذا التوسع الشاسع من خبرة ويقظة لدى القادة أدى الى التفسخ والانحلال في اغلب اجزاء الامبراطورية . ومن ثم بدأت الحركات الانفصالية تنشط بين العناصر المسيحية في صربيا واليونان وبلغاريا . وبناء عليه استغلت القوى

بين العناصر المسيحية في صربيا واليونان وبلغاريا . وبناء عليه استغلت القوى الاستعمارية تدهور الاحوال في الدولة العثمانية للتدخل في شؤونها بحجة حماية مصالحها التجارية أو حماية الأقليات العنصرية والدينية فيها .

كان اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، وسيطرة حزب الاتحاد والترقي وسطوته العنصرية على مقدرات الشعوب المحكومة في الدولة العثمانية وعلى بطشهم في سورية بالمجاهدين العرب الذين طالبوا بالمساواة بمن كانوا يتمتعون بالقومية التركية ، من الاسباب المباشرة التي اشعلت الحركة القومية العربية في المنطقة .

لم يكن للبلاد العربية حينذاك وضع أو كيان دولي ، أو حكومة أو ادارة محلية يخشى عليها من الزوال . فتألفت سراً في الفترة الواقعة ما بين ١٩٠٨ - ١٩١٤ عدة جمعيات عربية كان الغرض منها المطالبة بالمساواة دون التطرق الى فكرة الانفصال عن الامبراطورية العثمانية . ولكن سبّب ذلك بطش الاتحاديين من جهة ، ودخول تركية في الحرب العالمية الأولى الى جانب المانيا من جهة اخرى ، الى جانب الاخطار المحيطة التي كانت تهدد مستقبل الشعوب العربية . كان الشريف حسين ، أمير مكة حينذاك ، مقتنعاً بأن الغلبة في تلك الحرب الضارية ستكون للحلفاء ، وكان مصير الأمم العربية في حالة انهزام تركية يدعو الى القلق والتفكير وينذر بسوء العاقبة ، فأعلن الجهاد جهراً سنة ١٩١٦ واستجابت الأمم العربيـــة المحكومة لنداء الثورة العربية الكبرى فكانت الخطوة الايجابية الأولى التي وحدت الصفوف العربية بأمل التحرر في هذا العصر الحديث .

والجدير بالذكر في هذا المقام ان الأمر الذي شجع الشريف حسين على القيام بهذه الخطوة الحاسمة هو العهود والمواثيق التاريخية الرسمية التي قدمتها بريطانيا سراً بواسطة السر ماكماهون على اثر نشوب الحرب العالمية الأولى ، فكان الأمل في الحصول على الاستقلال المنشود هو الحافز الذي دفع العرب الى الثورة والتحالف مع بريطانيا للتخلص من نير الاتحاديين ، وهكذا استجاب العرب لنداء الحسين فكانت اليقظة الأولى .

مباركة الزعيم المصري سعد زغلول لجهود الشريف حسين

وفي ذلك التاريخ كان نوري السعيد احد اركان حزب العهد من بين الذين تسللوا من تركية للهروب من بطش الاتحاديين . وعندما علم بالنداء وهو في القاهرة ... اراد قبل الالتحاق بصفوف الثورة استطلاع رأي الزعيم المصري المعروف سعد زغلول في هذا الموضوع فأجابه سعد بما يلي :

"ان وضع البلاد العربية وضع شعب محكوم لا يملك من أمره شيئا . فإذا استطعتم ان تكونوا لهذا الشعب وضعا استقلاليا ، فسيكون ذلك كسبا مبينا ، اما اذا فشلتم فلن يضيع شيئ سوى سمعتكم أو أنفسكم. إذ ليس لبلادكم كيان تجازفون به كما هو الحال بالنسبة للدولة العثمانية ، فهي ان خسرت ستخسر كثيراً .

وهكذا انخرط نوري السعيد في سلك المحاربين تحت راية الشريف حسين ولعب دوراً مشهوداً في معارك الصحراء .

أثر اتفاقية سايكس بيكو على جهود الوحدة العربية

وتروي لنا احداث الثورة العربية في بلاد الشام بأن الشعوب في تلك المناطق جاهدت وتحدت وضحت بالنفس والنفيس في حروب عسيرة على أراضي وعرة وبسلاح محدود . ففتحوا بلاد الشام تحت راية واحدة . ولكن عندما تم تحرير البلاد وظن الشريف ان هذه المناطق ستتكون من بلاد عربية مستقلة لعب الدهاء الاستعماري لعبة خفية بموجب اتفاقية Sykes-Picot التي قسمت بلاد الشام بين المستعمرين دون الاعتراف باستقلال الاجزاء العربية التي انسلخت عن الامبراطورية العثمانية . فكانت النتيجة ان سورية وفلسطين ولبنان وشرق الأردن والعراق وضعوا تحت حراسة الاستعمار الغربي ، وكان مصير الشريف حسين رائد الوحدة العربية الحديثة النفي الى جزيرة قبرص حيث قضى نحبه .

لقد اخمدت الظروف السياسية الدولية تلك الوثبة الموحدة ، وانفرط العقد بتدخل الدول الاستعمارية في شؤون البلاد العربية بعد تقسيمها بينهم ، وحينئذ اصبحت كل دولة عربية على حدة تجاهد للحصول على حقوقها المشروعة من يد المغتصبين ، ورغم تقسيم رقعة البلاد الناطقة بالضاد الى دويلات متعددة ظلت الشعوب

القاطنة فيها تسعى الى التقارب وتشكو لبعضها سوء المصير .

لقد عاصر نوري السعيد كل تلك الحقبات ، إذ كان طالبا في مدرسة الأركان وزميلا لعزيز علي المصري ، وعضوا بارزاً في حزب العهد ، ثم اصبح بعد ذلك أحد أركان الجيش العربي الذي حرر الشام ، ثم رافق سمو الأمير فيصل الذي كان ينوب عن أبيه الشريف حسين لحضور مؤتمرات السلم الدولية بعد الحرب العالمية الأولى لبحث الشؤون العربية واخيراً قام بدور اساسي في بناء اركان العراق تحت اشراف الملك فيصل الأول ، واستمر في خدمة المملكة الهاشمية العراقية الى النهاية .

لقد اكسبته الجولات والحروب التي اشترك فيها خبرة سياسية وعسكرية وادارية واسعة النطاق ، إذ ساعدته على معرفة سكان المناطق التي مر بها بين عشائر ومدنيين واقليات متباينة . فشاهد من قريب المناورات التي كانت تدور في عالم السياسة ، وتفهم الى حد كبير عقلية رجال الحكم في الشرق والغرب على حد سواء . لقد صهرته مدرسة الحياة التي خاضها أو عاشها واستوعب دروسها بوعي واهتمام ، فأضافت إليه خبرة واسعة ، وبعد نظر ثاقب لم يقدّر مداها اغلب المعاصرين أو المغرضين في زمانه .

ان في تلخيص اقواله ومواقفه بصورة عامة ، وفي تحليل اسلوبه السياسي والاداري داخل العراق وخارجه مع ذكر ما استطاع ان يحرزه للبلاد من كسب ، وعلى الأخص بعد تحليل الأسباب الظاهرة والخفية التي كانت تدفعه الى اختيار خطط معينة لمواجهة المشكلات المحيطة بالبلاد ما سيساعدنا على اظهار معالم اسلوب سياسي بنّاء كان يفتقر مع الأسف الشديد الى دعاية منظمة في عالم يرتكز النجاح فيه على التسلح بقوة الاعلام .

لقد استمر نوري السعيد في اتباع القواعد الاساسية التي وضعها الرعيل الأول تحت رعاية فيصل الأول ملك العراق للوصول الى الأهداف الوطنية المنشودة وهي تتلخص فيما يلي :

أولا : استكمال استقلال العراق وتثبيت الأمن فيه .

ثانيا : مواصلة تحرير وتوحيد البلاد العربية وهما هدفا الثورة العربية الكبرى .

ثالثا : تحسين العلاقات بين العراق والدول التي تجاوره .

واخيرا : اتباع سياسة خارجية سليمة لتطوير البلاد وتحريرها دون اللجوء الى

وسائل منظمات التخريب السرية .

ويجدر بنا في هذه المرحلة الرجوع الى الأحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية بعد فشل المحاولات التي قام بها العرب في المؤتمر العربي سنة ١٩٠٨ ، وكذلك المؤتمر السوري العراقي الذي عقد في دمشق برئاسة الأتاسي ١٩٢٠ ، والذي تم فيه اعلان وحدة سورية والعراق . وبعد تشكيل حكومة عراقية رسمية ١٩٢١ اصبح العراق مملكة عربية يحكمها الملك فيصل الأول ، كما ظلت الحكومات المتعاقبة فيه تتبع المنهاج السياسي الأساسي الذي وضعه الرعيل الأول وذكرناه آنفا .

إصرار نوري على الوحدة بعد تعثر الجهود الأولى

والجدير بالملاحظة هو ان رغبة "الاتحاد" التي كانت تتقد في نفوس الشعوب العربية ظلت كامنة بين جوانحهم كما استمر اللقاء والتفاهم بين زعماء العرب قائماً رغم الأساليب الملتوية التي استعملها الاستعمار لتفتيت رقعة البلاد الطبيعية التي انسلخت عن الامبراطورية العثمانية ، والدليل على ذلك هو ان الشعب السوري سنة ١٩٣٣ طلب الى الملك فيصل الاشارة الى قضية سورية مع الفرنسيين في باريس عندما كان يجري مفاوضات خاصة فيها. كما ارسل حزب الأمل (القومي) السيد سعد الله الجابري لتمثيله في الاجتماع المذكور – وفي يونيو سنة ١٩٣٣ اجتمع في مصر اعضاء اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية فوصلتهم برقية من الجمعية العربية السورية يقولون فيها "اننا نريد استقلالا كاملا ووحدة عربية حقيقية . والمعروف ايضا هو ان سعد الله الجابري وعفيف الصلح سافرا الى عمان اثناء ذلك لبحث نفس الموضوع، ولكن الأقدار أخمدت تلك المحاولات عندما عاجلت المنية جلالة الملك فيصل الأول .

وبعد ركود وثبة الثورة العربية على هذا النحو ، يمكن اعتبار الحركة الايجابية الأولى لتحقيق استقلال ووحدة الشعوب العربية هي المحاولة التي بدأ بها نوري السعيد تأسيس مشروع الجامعة العربية في سنة ١٩٤١ ، وذلك عندما كان سفيرا للعراق في وادي النيل . ويعترف محمود فهمي النقراشي باشا ، أحد رؤساء وزراء مصر ، بأنه يجب اعتبار نوري السعيد مهندسا لمشروع الجامعة إذ قام بجهود مشهودة لإقناع

زعماء مصر بقبول تلك الفكرة من جهة والحكام العرب الآخرين من جهة اخرى .

اغتنام نهاية الحرب لتحقيق الوحدة المنشودة

أراد نوري السعيد ان يغتنم الفرصة قبل ان تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها لتوحيد كلمة الأمة العربية في سبيل الحصول على استقلال كافة البلاد العربية من جهة ، ولحل قضية فلسطين من جهة اخرى ، وذلك اثناء اجتماع دول العالم على مائدة الصلح . ويشهد على ذلك البرقية الرسمية التي ارسلها الشيخ يوسف ياسين على لسان العاهل السعودي عبد العزيز بن سعود الى وزارة الخارجية البريطانية . وفي نص البرقية يوضح الشيخ يوسف ياسين آراء العاهل السعودي في الأمور والمقترحات التي قدمها نوري السعيد لأخذ رأيه حول قضايا سورية وفلسطين من جهة وما يتصل بمكانة الولايات المتحدة في العالم العربي من جهة اخرى .

آراء العاهل السعودي في مقترحات نوري السعيد

تقول برقية الشيخ يوسف ياسين بأن الملك يعتقد ان مقترحات نوري باشا تدعو الى الاعجاب وتستحق التأييد رغم عدم موافقته على بعض نصوصها . والمهم ان الملك ابن سعود يريد أولا ان يوضح للحكومة البريطانية آراءه بصراحة في القضايا المذكورة نظرا للصداقة التي تجمع بينهما . فبالنسبة للملك لا يوجد لديه ما يضيفه على ما تعرفه الحكومة البريطانية في قضايا سورية وفلسطين ، أما التعاون الذي يطلبه نوري باشا لمعالجة تلك القضايا فالملك مستعد للتعاون مع كافة البلاد العربية ولكن بالشروط التالية :

(١) ان لا يسبب هذا التعاون أي ازعاج لحكومة صاحب الجلالة في بريطانيا .
(٢) ان لا يطلب منه في هذه المرحلة دعوة الولايات المتحدة للتعاون معها في حل القضية العربية .

فلو فرضنا ان نوري باشا صادق فيما يقترحه ، وان ليس له غايات خاصة

اخرى ، اقول : ان الملك ابن سعود مستعد على الدوام للتعاون مع البلاد العربية بشرط ان لا يكون في ذلك ما يضر بمصالح الحكومة البريطانية ، أو ما يخالف المعاهدات والعقود التي تربطه بالحكومة البريطانية ، وذلك لمصلحة بريطانيا والعرب ومصلحة ابن سعود بصفة خاصة . والجدير بالاعتراف هو ان العراق حالياً ينفذ كل تعهداته مع السعودية بأمانة .

ان السياسة السعودية تسعى الى نشر أواصر الصداقة بينها وبين كافة الاقطار لخدمة المصالح التي تعلم بتفاصيلها الحكومة البريطانية ، ولكن في الوقت نفسه لا تستطيع السعودية ان تتجاهل المناقشات والحديث المتصل بالوحدة العربية واستقلال الشعوب المحكومة . فقد علمتنا التجارب عدم اهمال حتى الأمور التافهة ، لعلها تجر بأذيالها عواقب وخيمة . ولكن اذا كانت حكومتهم تراقب الأوضاع عن كثب ، وتجد ان لا ضرر على مصالحها من الاتفاقات التي تبرم حولها ، وان لا اعتراض عليها اذا تمت ، فحينئذ سيرحب الملك بن سعود بمقترحات العراق اذا كانت لا تتنافى مع مصالحه الخاصة ومصالح البلاد العربية .

اثبات وعـود

أما فيما يختص بالولايات المتحدة فقد علم بن سعود قبل مدة بأن ويندل ويلكي كان قد وعد نوري باشا بأنه اذا اعلن العراق الحرب ضد المانيا ووقف الى جانب الحلفاء فسيكون للعراق المكانة الأولى بين البلاد العربية في مؤتمر السلام عندما تضع الحرب أوزارها . لقد تجاهل ابن سعود تلك الاشاعات في حينه ، ولكن البرقية التي ارسلها ويندل ويلكي بعد ذلك اكدت صحة الخبر . وبناء على ذلك طلب نوري باشا ان يتعاون بن سعود مع العراق من جديد في سبيل اقناع أمريكا بمساندة العرب ، كما ارسل خطابات مماثلة لمصر وسورية . ولذلك يجب النظر الى تلك الامور بعين الاعتبار واليقظة .

ان علاقة الملك ابن سعود بالولايات المتحدة ودية للغاية ، ولكن العرب على العموم ينظرون لأمريكا بتفاؤل فيه بعض المغالاة – فالمعلوم ان لأمريكا اليوم نصيبا في خيرات المنطقة ، وهذا امر يهم الملك ابن سعود من جهة ، كما يهم الحكومة البريطانية

اكثر واكثر .

وخلاصة القول هي ان دين جلالة الملك ابن سعود وضميره والتقاليد الموروثة لا تسمح له باتباع اسلوبين مختلفين في السياسة . فالصديق الأوحد للسعودية هو حكومة جلالة ملك بريطانيا . ولاشك ان ادخال النفوذ الأمريكي في نطاق علاقتنا وطلب دعم البلاد العربية فيها امر يهم بريطانيا بالدرجة الأولى فلا يجوز ترك التصرف لهم في مثل هذه القضية .

ان الملك ابن سعود يعتقد ان هذا الاتجاه الجديد ليس في صالح العرب قط . فمن الخطأ بعد تلك الجهود التي بذلناها لإحلال السلام والانسجام بين البلاد العربية ادخال عناصر جديدة لإثارة القلق . فحكومتكم خير من يدرك تفاهة العقول البشرية وما يسمونه بالرأي العام .

ان هذه النقاط تشغل بال الملك سعود . فإذا كان من الضروري اشراك الولايات المتحدة في صميم شؤوننا سواء اكان ذلك بناء على تأثير اليهود في امريكا أو لتحتم أخذ رأي الولايات المتحدة في كافة الأمور السياسية العظمى فلتكن بريطانيا هي الوسيط الذي يعبر عن رأي أمريكا في الشرق الأوسط .

فالمعلوم ان الحكومة البريطانية تستطيع ان تعتمد على زعماء العرب ولكنها لا تستطيع التفاهم مع الشعوب ، والمهم اتخاذ الخطة السياسية التي تناسب مصالح بريطانيا والعرب على حد سواء .

ان الغرض من متابعة مثل هذه الخطة يرجع الى الاحتياطات التي يجب اتخاذها حتى لا تسبب تصرفات العرب ما يحرك الولايات المتحدة ضد بريطانيا . ان الملك ابن سعود لا ينتظر منكم جوابا سريعا قاطعا على الاسئلة التي وردت في هذه البرقية وتلك التي ارسلت لكم من قبل ، فالغرض من عرض رأيه على حكومتكم في هذا الموضوع هو اتخاذ الخطة التي تنصحون بها : فلو طلبت حكومتكم من الملك اهمال مقترحات نوري باشا فسوف يتجاهلها كاملا .

ويتبين مما تقدم بأن اغلب البلاد العربية في حينه كانت مشغولة بمشاكلها الخاصة ، ولم تكن لتلمس الفوائد التي يمكن ان تجنيها من التآزر والتكاتف بينها . ورغم الفتور السائد لم يتوقف نوري السعيد عن بذل الدعاية لتأسيس مركز عربي

لتنظيم الجهود العربية في سبيل تحرير بلادهم كاملة ودعم وحدتها .

تأسيس الجامعة العربية

لقد انتهز نوري السعيد وجوده في مصر سنة ١٩٤١ مع النحاس باشا في وضع أسس لجامعة عربية . ويشهد (الكتاب الأزرق) الذي يتضمن آراءه بأن تحرير البلاد العربية وتأمين السلام والرخاء في المنطقة التي انسلخت عن الدولة العثمانية هي شغله الشاغل .

ظهر الكتاب المذكور سنة ١٩٤٣ ولكن المصالح الاستعمارية طغت عليه . ورغم ذلك ظل نوري السعيد يثابر لتحقيق ما كان يرجوه ... لقد ظهرت الثمرة الأولى لهذه الجهود عندما اشترك مع النحاس باشا في الاسكندرية في ٢٥-٧-١٩٤٤ في وضع الاتفاقية المشهورة رقم (٤) . لقد وضعت هذه الاتفاقية أسسا لجامعة عربية تعترف باستقلال وسلامة ارض لبنان والحقت بها ايضا (١) القضايا المرتبطة بالبلاد العربية (٢) فلسطين ، كما فتحت المجال ايضا للتشاور في تنظيم اتحاد فيدرالي أو اندماج بين الدول المذكورة في الفقرة رقم (٩) من الميثاق المذكور .

مؤسسة عربية تسبق ظهور الامم المتحدة بعدة أشهر - ١٩٤٤/٧/٢٥

وتوصي الفقرة (٤) بتعيين أمين عام لهذه الجامعة العربية . والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان هذه المؤسسة العربية سبقت ظهور الأمم المتحدة بعدة أشهر .

وفي سنة ١٩٤٦ فكر نوري في تقديم مشروع للجامعة يتضمن عدة اتفاقيات تعالج امورا تتعلق بالقضاء والاقتصاد والري ، ولكن الجامعة مع الأسف لم تهتم به واهملت المشروع . لقد اخبرنا الدكتور فاضل الجمالي فيما بعد بأنه التقى بعد ذلك بسعد الله الجابري في فندق أمية بدمشق ، واعترف له الجابري بأنه يأسف لعدم اتباع مقترحات نوري السعيد في حينه دون انتظار القرارات التي اهملتها الجامعة .

التفكير في تعديل بعض نصوص القانون الإداري في الجامعة

كانت هذه المؤسسة الحديثة تفتقر مع الأسف الى مقومات اساسية لإدارتها : (١) لم يكن مكتب الأمانة العامة فعالا أو غير متحيز . (٢) وكانت عوامل توثيق

الروابط الاقتصادية واللغوية والثقافية والجغرافية والتاريخية ضعيفة الى حد كبير ولا تستند على سماحة الاسلام .

ان تأسيس مثل هذه المنظمة يحتاج الى موظفين ذوي خبرة ومرونة ونضوج في كافة مكاتبها ، وان يكون عدم التحيز والأمانة هما اساس تنسيق العلاقات بين الدول حتى لا تخرق الفتن والدسائس نطاق الجامعة وتقضي على الأخوة وحسن التفاهم المفروض . ويبدو ان سرعة انشاء الجامعة وعدم وجود ذوي الخبرة والاختصاص في اقسامها اضعفت فعاليتها ، فقد كانت القوانين الخاصة بتعيين الموظفين تحتاج الى تدقيق شامل حتى لا تتسرب العناصر الهدامة الى نطاق الجامعة . وكان يتحتم الى جانب ذلك ان تؤخذ القرارات بالاجماع ولا يجوز ان ينفرد احد الموظفين بسلطة الجماعة .

كانت هذه النواحي في دستور الجامعة التي دفعت نوري السعيد الى طلب تعديل القوانين الادارية فيها عندما ادت الى زعزعة وحدة الصف ولكن الأمين العام مع الأسف اعتبر ذلك اهانة شخصية له وكان ذلك في سنة ١٩٤٩ .

طلب مراجعة القوانين الادارية في الجامعة

كان الأمين العام عبد الرحمن عزام من الشخصيات العربية المعروفة ، وكان نوري السعيد أول من طلب ترشيحه كأمين عام للجامعة نظرا لصداقتهما الشخصية واشتراكهما في توثيق الروابط بين الدول العربية ، ولكن يبدو ان تنظيم جهاز من طراز الجامعة العربية كان يتطلب من قائده قدرة المحافظة على التوازن بين الدول المشتركة ، وعدم الاندفاع عند اتخاذ القرارات قبل الحصول على رضاء الجميع حتى لا تتفكك قواعد البنيان المرصوص . كان عبد الرحمن مصري الجنسية ، وكان مقر الجامعة العربية في القاهرة ، ولكن سرعان ما دفعته روحه المتحررة وحسن نيته الى التفرد بالمسؤولية كاملة ، فبدأ يفصل في أمور تخص الجامعة احيانا ، ويتصرف كرئيس دولة مستقلة دون اخذ رأي وزراء خارجية الدول المشتركة ، ويقوم بسفرات سياسية دون استشارة مجلس الجامعة . وعندما اراد نوري السعيد ان يلفت نظر الأمين العام ، ويطلب باسم العراق تصحيح الأوضاع القائمة ، ومراجعة قوانين الدستور ، استشاط

عزام باشا غضبا ، وارسل وهو في أوج ثورته كتابا بتاريخ ١٤-٥-١٩٤٩ الى نوري السعيد يطلب القطيعة ونص الكتاب المذكور في سجلات الجامعة مع الرد الذي ارسله نوري السعيد في حينه بتاريخ ٢٧-٥-١٩٤٩ وللقارىء مقارنة الكتابين أدناه :

كتاب عزام باشا لنوري السعيد يليه كتاب نوري باشا لعزام :

عزيزي نوري باشا السعيد

السلام عليكم وبعد فطالما انصفتك فلم تنصفني ، واحتفظت بودك فلم ترع ودي ، ويعلم الله انني صبرت استبقاء لصحبة ، ووفاء بعشرة ، ورغبة في تعاون لخدمة أمتنا ، فأبيت الا ان تتجاهل ذلك كله .

فهل بقى إلا ما تقضي به المروءة وان اقبل القطيعة التي اردتها

كلانا غنيٌ عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانيا

المخلص

عبد الرحمن عزام ١٤-٥-١٩٤٩

كتاب نوري السعيد لعبد الرحمن عزام

بغداد ٢٧-٥-١٩٤٩

أخي عبد الرحمن عزام باشا

سلام الله عليك ورحمته وبركاته ، وبعد فقد تسلمت كتابك المؤرخ في ١٤-٥-١٩٤٩ ودهشت لما جاء فيه ، ويظهر انه قد كتب في فترة تعب أو ثورة غضب ، ارجو ان يكون أثرها قد ذهب الآن .

لقد كنت دائما موضع تقديري ، ولا اخالك تنسى انني كنت منذ سنة ١٩٤٣ احاول اقناع رفعة النحاس باشا بإشراكك في امور الجامعة العربية ، وانه حذرني منك

كثيرا . ولما خلفه المرحوم احمد ماهر باشا استأنفت مساعيّ في هذا السبيل لدى السراى ولدى دولته ، بينما كنت تمثل حكومتك بصفة وزير مفوض في لبنان .

ولا اخالك تنسى ايضا في سنة ١٩٤٥ كنت قد رأيت ان تكون نظم الجامعة العربية ومسؤوليات امينها العام ملائمة لمسؤوليات الحكومات العربية لقناعتي بأن النظم الخاطئة التي لا تأتلف ومسؤوليات الحكومات العربية المستقلة قد تؤدي الى كوارث ومشاكل تناقض الأهداف العظمى المتوخاة من تأسيس الجامعة وتهددها . واظن انك تتذكر اننا تقدمنا الى مجلس الجامعة ببعض الأسس التي نرى تعديل النظم على ضوئها ، وان قرارا كان قد صدر بشأن تلك الأسس . ثم كان ما كان من الأمور التي أنت محيط بأسرارها وخفاياها ، وكل ما أود ان اضيفه الآن انني لا ازال عند رأيي في نظم الجامعة ومسؤوليات امينها العام ، وان الحوادث قد برهنت وستبرهن ايضا على صحة هذا الرأي . أما في صدد القطيعة التي لوحت بها في كتابك فإنني اشعر بأن بيننا خلافا واسعا حول بعض الشؤون العامة التي أشرت اليها فيما تقدم ، ولكنني اعتقد دائما ان شقة الخلاف - مهما اتسعت - ينبغي ان تظل دائما أضيق من ان تؤثر في صلاتنا الشخصية وروابطنا الأخوية ، وكذلك ينبغي ان يكون الحال بين الدول العربية ايضا .

وقد تعودنا في العراق على ان نختلف احيانا فيما بيننا في الأمور العامة ، وتتباعد آراؤنا ، أما صداقتنا وصلاتنا الشخصية فتبقى على حالها . وسعدنا كثيرا ان نتمكن من ان نطبق خارج العراق ما اعتدنا على تطبيقه في هذا الصدد .

واذا كنت تعتقد حقا ان كلانا غني عن اخيه حياته ، فإنني اعتقد بأننا لم نكن يوما ما بحاجة الى بعضنا بعضا اكثر من اليوم ، واننا اذا كنا في غنى عن شيء فعن هذه القطيعة البغيضة التي تحاول ان تستدرجني اليها وانت تحت تأثير تعب أو غضب زائلين .

وخير ما تستدرجني اليه هو همة حازمة صادقة لإصلاح الاخطاء ووضع الامور في نصابها والله يعصمنا واياك من عواقب الزلل ويهدينا جميعا الى سواء السبيل .

المخلص

نوري السعيد

الوحدات الطبيعية

كانت لنوري السعيد نظرة خاصة في تنظيم خريطة العالم العربي ، والجدير بالملاحظة هو ان اقساما منها تكوّن وحدات طبيعية إذ تربطها الأنهار الجارية أو تشكل وحدات اقتصادية عندما تمر بها أنابيب النفط أو السكك الحديدي . فمن المصلحة ان تظل هذه الدول متماسكة حتى لو استقلت اداريا - والمعلوم هو ان ادارة الطرق العامة والموانىء والمطارات وخطوط السكك الحديدي والملاحة تحتاج الى التشاور والتآزر بين البلاد المعنية لتأمين ما يفرضه حسن الجوار .... ومما لا شك فيه ان وحدة اللغة وتقارب اللهجات المحلية والمصلحة المشتركة لهي من العوامل التي ستساعد حتما في تنسيق وحدات سياسية متآلفة في مختلف اركان تلك المنطقة لتحقيق نهضة شاملة فيها .

مع البلاد المجاورة

لقد ذهب نوري السعيد الى أبعد من ذلك عندما فكر في تنسيق التعاون والتآزر بين الدول المجاورة التي لا تنتسب للعروبة ... وذلك في سبيل خدمة المصالح المشتركة

واحياء الاقتصاد المحلي واتقاء العدوان الخارجي . ومثل ذلك ميثاق بغداد الدفاعي الذي أراد ان يحققه لحماية المنطقة من بطش السوفييت من جهة ، والعدوان الاسرائيلي من جهة أخرى .

لقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن وجود مثل هذا الميثاق الودي بين العراق وايران كان سيجنب البلاد حرباً شعواء دامت ثماني سنوات وأبادت شباب جيل كامل وعصفت بخيرات بلاد مزدهرة في أتون الدمار .

ومن الوحدات الطبيعية التي كان يشير اليها نوري السعيد وحدة وادي النيل ... وقد تأثر كثيرا عندما قررت مصر فسخ وحدتها مع السودان . كان يتمنى ان تنضم ليبيا اليهما ضمن اتحاد فيدرالي لإنعاش المنطقة كاملا بالماء الوافر والنفط الغزير والزراعة المنتجة . ولا يخفى ان مساعي أخرى كانت جارية بالتضامن مع سائر البلاد العربية لتوحيد بلاد المغرب فدراليا بعد ان يكتمل تحرير الجزائر من براثن الاستعمار .

ومن المشاكل التي كان يذكرها والتي ثبتت أهميتها فيما بعد ... هو مصير الدويلات الصغيرة ، إذ وصفها بإسهاب في (الكتاب الأزرق) عندما أشار الى فلسطين وبيّن جليا بأن وجودها بمفردها وسط شعوب مختلفة الأجناس والأطماع يجعلها دوماً عرضة لتهجم المعتدين ، كان يأمل ان تصبح فلسطين دولة عربية مستقلة داخل اطار اتحاد عربي كبير يسمى الهلال الخصيب . لقد قال في تلك المذكرة ان الدويلات الصغيرة إذا بقيت منفردة فإنها تجلب احيانا مصائب متعددة على المنطقة بأسرها ... إذ يحيط بها اصحاب المطامع من كل جانب ... فويل للضعيف في مثل هذا الصراع .

لقد صدق فيما قال ... إذ ما زالت فلسطين الى يومنا هذا تذوق الأمرّين من ظلم المغتصبين .

الإتحاد الثلاثي المقترح

وفي فبراير ١٩٥٨ تقرر انشاء الاتحاد العربي ما بين العراق والأردن - وقد فتح الاتحاد أبوابه لانضمام أي دولة عربية ترغب في ذلك ... كان من الأهداف التي ركز عليها نوري السعيد مشاركة الكويت كقطر ثالث في الاتحاد العربي بالتساوي وبنفس الحقوق والمزايا والمسؤوليات كالعراق والأردن .

كانت الكويت محمية بريطانية في ذلك التاريخ ، فطالب نوري السعيد بإنهاء

الحماية البريطانية وسعى الى اقناع حكام الكويت بمزايا الاتحاد لضمان الأمن والاستقرار والازدهار الاقتصادي المشترك للأطراف جميعا ، فتّمت بعد ذلك دعوة حاكم الكويت الشيخ عبد الله السالم الى بغداد وتباحث الطرفان في قضية التحرر من السيطرة البريطانية من جهة ، وفي انشاء اتحاد ثلاثي ، يتمتع فيه الحكام الثلاثة بحقوق متساوية ، من جهة اخرى .

لقد نص الاتحاد الذي كان مدروسا ونابعا عن الواقع العربي الصميم على وجوب التنسيق بين الاقطار دون المساس بشخصية وحرية أعضائه ، مع التركيز على التعاون والتكامل الاقتصادي والتجاري ، وتوحيد قوة الدفاع والتمثيل الخارجي .

ويبدو أن الشيخ عبد الله السالم استحسن الاقتراح ، إذ كانت بنوده تحتم احترام سلطته كحاكم للكويت وتشير أيضا الى حماية بلده واستقلاله من أي اعتداء خارجي .

وعبثا حاول نوري السعيد اقناع الجانب البريطاني بضرورة الاسراع في اعلان استقلال الكويت وقبول فكرة ضمها كدولة مستقلة الى الاتحاد الثلاثي ، إذ كان في تنفيذ تلك الفكرة مصلحة للمنطقة بأسرها – ولكن لم تأت الرياح بما تشتهي السفن .

فالمفروض ان تستطيع هذه الوحدة العربية الكبرى ، بالتضامن أن تجابه اقتصاديا واداريا وعسكريا ما يضمن الرخاء والاستقرار في ارجائها ويحميها من كل اعتداء خارجي .

ان أسلوب المماطلة والحرص الاستعماري وقفا مع الأسف الشديد في سبيل تحقيق هذا الاتحاد .

سوء المصير

وهنا يجدر بنا الوقوف قليلا لتأمل ما تحملته هذه المنطقة من أهوال وأعاصير بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عاما على مقترحات العراق الخاصة بالاتحاد الثلاثي ، وذلك بعد احداث ٢ اغسطس ١٩٩١ التي أشعلت في تلك البقعة اضطرابات صاخبة تهدد بالدمار والخراب ، والله المستعان على تجاوزها .

ويجدر بنا الرجوع بهذه المناسبة الى الفقرة التي جاءت في مذكرة السعيد الخاصة بالهلال الخصيب عن الدويلات الصغرى – حين قال :

"لقد ثبت ضعف الدويلات الصغرى ، فيجب السعي لجمع الدول الصغرى معا في

نوع من الاتحاد أو الحلف الاقليمي له من القوة ما يكفي لحماية جميع اعضائه من الاعتداء ، فإذا ثبت بأن الدويلات الصغيرة لا تستطيع ان تدافع عن نفسها الدفاع المطلوب وانها خطر على جيرانها وعلى السلم العالمي ، من الانصاف اذن قبول فكرة انشاء الاتحاد أو حلف مع من يجاورها ، على الأخص اذا كان الحلفاء في حقيقة الأمر شعبا واحدا بلغته وثقافته واقتصادياته".

وعلى اثر قيام الاتحاد العربي بين العراق والاردن فكر اولياء الامر بضرورة تثبيت قواعده نظرا لاهميته الاستراتيجية وما تفرضه على الدوام تيارات الحرب الباردة من البلاد المجاورة .

كان العراق في ذلك التاريخ على ابواب نهضة اقتصادية شاملة ، غير ان الصرف على المشاريع التي تبناها مجلس الاعمار كانت تستنفد معظم موارده ، كما تثبت ذلك الاحصاءات الرسمية .

اما الاردن فالكل يعلم ان امكانياته الاقتصادية ضعيفة ، ولكن جيشه الباسل ظل رغم ذلك يحافظ على الحدود التي تحمي العرب من بطش اسرائيل ... فكان الاردن يحتاج الى مساعدات مالية وعسكرية للحصول على الاسلحة والعتاد للمحافظة على كيانه .

وكانت الكويت في ذلك الوقت محمية بريطانية ففكر العراق في تحريرها وضمها للاتحاد المذكور ، واستقر الرأي على دعوة الشيخ عبد الله السالم الى بغداد لجس النبض والبحث في إنشاء اتحاد ثلاثي يتمتع فيه الحكام بحقوق متساوية .

لقد نص الاتحاد الذي كان مدروسا ونابعا عن الواقع العربي الصميم على وجوب التنسيق بين الاقطار دون المساس بشخصية أعضائه وحريتهم ، مع التركيز على التعاون والتكامل الاقتصادي والتجاري ، وتوحيد قوة الدفاع والتمثيل الخارجي .

ويبدو أن الشيخ عبد الله السالم استحسن الاقتراح إذ كانت بنوده تحتم احترام سلطته كحاكم للكويت وتشير أيضا الى حماية بلده واستقلاله من أي اعتداء خارجي.

جهود الاستعمار

وفي آذار سنة ١٩٥٨ مرّ وزير خارجية بريطانية سلوين لويد ببغداد واجتمع بالملك فيصل الثاني بحضور ولي العهد عبد الاله ورئيس الوزراء نوري السعيد ووزير الخارجية توفيق السويدي اضافة الى الدكتور فاضل الجمالي .

لقد أثير في الاجتماع المذكور موضوع الاتحاد الثلاثي الذي كان يحتم سياسيا

ضرورة اعلان استقلال الكويت قبل الشروع في اقامته . واتفق الجميع على السعي لتنفيذه .

ومن جهة اخرى اوضح رئيس الوزراء نوري السعيد للسفير الامريكي في بغداد ان رغبته في اشراك الكويت في الاتحاد المذكور يرجع الى الفوائد التي ستجنيها الاطراف جميعا من هذا التضامن وهي :

اولا : توسيع الاتحاد وقبول عضو غير هاشمي ، وهو الامر الذي سيجعله اكثر تقبلا في البلاد العربية الاخرى .
ثانيا : مساعدة الاردن ماليا ليحافظ جيشه على حدوده مع اسرائيل .
ثالثا : مقاومة الدعايات الهدامة .
رابعا : استفادة الكويت من مياه العراق .
خامسا : حماية الكويت من أي اغتصاب خارجي .

ومما يدعو الى الاسف الشديد هو ان المماطلة والحرص الاستعماري تمسكا بنفوذ بريطانية على المحمية ... فاعتذر سلوين لويد بلباقة قائلا بان استقلال الكويت امر يستوجب قرارا بمستوى مجلس الوزراء . وبناء على ذلك لم تستقل الكويت في حينه ولم يتخذ شيوخها قرار الانضمام واصبح هذا المشروع البناء في خبر كان .

قال نوري عندما ذكر فلسطين بان الدويلات الصغيرة اثبتت ضعفها وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها الدفاع المطلوب ، فمن الانصاف قبول انشاء اتحاد أو حلف مع من يجاورها على الاخص اذا كان الحلفاء شعبا واحدا بلغته وثقافته واقتصادياته ، بشرط ان يتم هذا الاتحاد بالرضا والتفاهم بين الاعضاء المشتركين ، أي دون اغتصاب أو تحدٍ وبعدالة تامة وعلى الاخص دون اللجوء الى امم غريبة حتى لا يسيطروا على المنطقة بأسم حسم النزاع ... ولكن الاقدار ارادت غير ذلك .

اشاعات سائدة

وبهذه المناسبة يجدر بنا ذكر ما كان يدور في الاوساط السياسية حينذاك ان التاريخ سيعتبر قضية الكويت السبب الرئيسي في تخلي الغرب وخاصة بريطانيا عن مساندة الحكم في العراق والعهد الهاشمي لتثبيت اقدام الاستعمار في الخليج واستغلال

موارد الكويت الغنية .

ميثاق بغداد

كان ميثاق بغداد الذي عقد بين العراق والدول الإسلامية الثلاث تركية وايران وباكستان يهدف الى خدمة المصالح الدولية المشتركة للبلاد المذكورة ... فوضعها الجغرافي يحتّم ذلك ، سواء اكانت محايدة أو متحالفة مع دول الغرب أو الشرق .

والجدير بالذكر في هذا المقام ... هو ان مصير العراق في هذا الشرق الأوسط أنه جزء لا يتجزأ من مصير تلك الكتلة الجغرافية التي تمتد من نهر الأندوس في الشرق الى البحر الأبيض المتوسط في الغرب ... وقد اثبت ذلك تاريخ المنطقة خصوصا بعد ان تعززت روابط اجزائها بموجة روحانية شاملة بظهور الإسلام .

أسس سياسة العراق الخارجية

كان الركنان الأساسيان لسياسة العراق الخارجية منذ تأسيس الدولة الهاشمية يحتمان أولاً خدمة أهداف الأمة العربية ، ثم تأمين سلامة العراق بالمحافظة على

سيادته واستقلاله ... مع رعاية مبدأ حسن الجوار مع الأقطار المتاخمة ... وعلى ذلك فقد دأب العراق منذ نشأته على تنظيم علاقاته بالدول العربية والبلاد المجاورة ، كما اهتم بتنسيق صلاته بالدول الكبرى التي ارتبطت مصالحها بمصالحه الحيوية . واستناداً الى تلك المبادىء عقدت هذه الدول الغنية منذ سنة ١٩٢٦ سلسلة معاهدات مع البلاد المذكورة لصيانه سلامتها وتأمين السلم في المنطقة نذكر من بينها ميثاق سعد آباد الذي جمع ما بين افغانستان وايران وتركية والعراق . والجدير بالملاحظة هو ان التعاون مع دول المنطقة كان امراً اقرته الدول العربية في مختلف المناسبات اذا قضت المصلحة العامة بذلك ... والدليل على ما تقدم هو ما ورد في الاتفاق المصري البريطاني الخاص بالجلاء عن قناة السويس سنة ١٩٥٤ ، فقد جاء فيه بأنه "يسمح للقوات البريطانية بالعودة الى قاعدة القنال اذا قام أي هجوم مسلح على احدى دول الجامعة العربية أو على تركية" .

التفكير في قيام ميثاق بغداد

وفي سنة ١٩٥٥ وجد نوري السعيد في نظرية دالاس الخاص "بالدفاع الجماعي عن القطاع الشمالي "فقرة خصبة يمكن استخدامها لتحقيق أهداف متعددة .... منها دعم سلامة العراق والتخلص من معاهدة ١٩٣٠ الثنائية مع بريطانيا الى جانب تحقيق الاستقرار المنشود والتعاون الاقتصادي مع البلاد المجاورة .... وعلى أثر ذلك قام نوري السعيد بالتآزر مع الدول المذكورة بالاعلان عن ميثاق جديد شامل ... وعندما قام بعرض الفكرة على المسؤولين في تلك البلاد وحد تجاوبا مرضيا بما فيهم الرئيس جمال عبد الناصر .

دعوة نوري السعيد في ١٥ سبتمبر ١٩٥٤ لزيارة مصر

توجه نوري السعيد الى مصر بدعوة من الحكومة المصرية في ١٥ سبتمبر ١٩٥٤ ، ودارت المحادثات حول أمور هامة في الاجتماع الذي ضم الرئيس جمال

عبد الناصر والسادة محمود فوزي ومحمود رياض وصلاح سالم ، وكان البحث مستفيضا . فشرح لهم نوري السعيد اولا وضع العراق الجغرافي وعلاقاته التاريخية بالبلاد المتاخمة ، ثم بين لهم طموح السوفييت في التوسع ورغبتهم في الوصول عبر الشرق الاوسط الى البحر الأبيض المتوسط للتسلط على منابع النفط الوافرة في المنطقة ، وتطرق بعد ذلك الى المزايا التي يستطيع ان يجنيها العالم العربي من التضامن مع البلاد الإسلامية لدفع الخطر الصهيوني وتأمين الاستقرار في تلك البقعة الحساسة ... ولا شك ان انشاء ميثاق دفاعي شامل بين البلاد المعنية سيكون بمثابة سد منيع لصد حركات التوسع التي تضمرها روسيا من جهة واسرائيل من جهة اخرى على حد سواء . وعندما انتهى نوري السعيد من شرح فكرته أكد له الرئيس المصري بأن المشروع سيدرس جديا فور استقرار الأمور في مصر نظراً لنشاط بعض العناصر الهدامة في انحاء البلاد ، فأجابه الرئيس العراقي بأن نشاطا مماثلا ينشط في القفقاس تحت اشراف ملا مصطفى البرزاني لإشعال نار الفتن في شمال العراق ، وان من الحكمة اخذ الاحتياطات اللازمة بسرعة لتأمين الاستقرار في هذه المنطقة الحساسة ، وان لابد من القيام فوراً بمشاورات حاسمة مع كافة الدول التي تهتم برخاء وسلامة الشرق الأوسط لتدارك الأمر قبل فوات الأوان ... وهكذا انتهت جميع المقابلات في جو ودي ، واظهر الحاضرون اقتناعهم بما قاله نوري السعيد ، فوعد الرئيس عبد الناصر خيراً عندما يتم لهم تنظيم الأوضاع الداخلية في مصر .... واهتم عبد الناصر بالحضور شخصياً الى المطار لتوديع ضيفه عند السفر .

نوري السعيد في تركية

وعندما اقتنع نوري السعيد بأن الرئيس عبد الناصر واعضاء القيادة الذين حضروا الاجتماع تفهموا ظروف العراق والاسباب السياسية المهمة التي حملته الى التشاور معهم في تنظم اساليب تأمين الاستقرار في الشرق الأوسط ... قرر التوجه

الى تركية في شهر اكتوبر لاستكمال مباحثاته مع رئيس الوزارة التركي عدنان مندرس في شأن الميثاق الذي عقده بين الدول المعنية ... فصدر على اثر ذلك بيان رسمي مشترك وزعته الوكالات والجهات المختصة الى السفارات العربية في تركية كافة ، لإرسالها الى حكوماتها على جناح السرعة ... كما طلب السيد نوري السعيد من السيد عدنان مندرس مقابلة عبد الناصر رأسا عند زيارته للقاهرة حتى لا يخالجه الشعور بأن العراق يرغب في اخذ الصدارة في معالجة موضوع الميثاق المنتظر .

والجدير بالذكر هو ان العلاقات السياسية بين كافة الدول التي كانت لها صلة بهذا المشروع ظلت صافية مدة طويلة بعد ذلك التاريخ .... فلم تعترض البلاد العربية على ما جاء في البيان المشترك العراقي التركي أو على الفقرة التي ترحب بالدول التي ترغب الانتماء اليه على اساس المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ... ولم يصدر من أي منها ما يعكر صفو العلاقات القائمة من شهر اكتوبر حتى السادس من شهر يناير .

تطورات الموقف السياسي في مصر

وفي شهر نوفمبر اضطر عبد الناصر تحت ضغط المتاعب والمشاغل الداخلية لإرجاء موعد زيارة رئيس الوزراء التركي عدنان مندرس لمصر من جهة ، وتأجيل الدعوة الموجهة للملك فيصل الثاني من جهة اخرى ، نظرا لتفاقم الاضطرابات الداخلية التي أدت الى شنق بعض أقطاب الأخوان المسلمين .

ويجب الاشارة في هذا المقام بأن المباحثات الخاصة بالميثاق الدفاعي الجديد كانت تجري بانتظام حينذاك بين الدول المعنية ... وان شهر يناير ١٩٥٥ كان هو التاريخ المحدد لزيارة مندرس للعراق للتشاور حول تنظيم أسس الميثاق ... إذ كان الهدف من ذلك عدم ضياع الفرص المواتية وتحديد نظم الاشتراك مع ترك حرية انتخاب الوقت المناسب للبلاد التي ترغب الانتماء اليه - فقد ارتأت تركية

والعراق بعد الأحداث التي زعزعت الأمن في مصر المضي في التشاور لوضع أسس الميثاق مع ترك الباب مفتوحا لانضمام الدول الاخرى التي يهمها امر السلم والأمن في المنطقة واخيرا تم الاجتماع المذكور في بغداد في ٢١ و٢٢ تشرين ١٩٥٥ ... فاستجابت لدعوة الميثاق الدول الآتية وهي ايران والعراق وباكستان وتركية والمملكة المتحدة كما ارسلت الولايات المتحدة مراقبين للمساهمة في اجراءات الاجتماع .

أهداف ميثاق بغداد

ويلخص البند الخامس أهداف هذا الميثاف .... وهي ان يعمل الأعضاء جميعا على قدم المساواة لإقرار السلم والأمن في الشرق الأوسط والدفاع ضد العدوان والأعمال التخريبية الى جانب العمل المشترك في سبيل زيادة رفاهية شعوب المنطقة . وفي هذا المقام يجب الاشارة بصورة خاصة الى ان هذا الميثاق لا يتعارض على الاطلاق مع التزامات العراق بوصفه عضوا في معاهدة الدفاع المشترك والضمان الجماعي في ميثاق الجامعة العربية ...فكلاهما يستند الى المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة وهي التي تعترض بحق الدفاع عند وقوع أي هجوم مسلح على أي عضو يشترك في الميثاق الدفاعي المذكور ... ومما لا شك فيه هو ان نصوص هذا الميثاق الجديد كانت ستعزز قوة البلاد المتحالفة وتدعم تضامن اهلها سياسيا واقتصاديا بل كان الأمل ان تصبح تلك الكتلة المتماسكة نظرا لموقعها الجغرافي سندا وردعا للعالم العربي ان لم تعبث بمصيرها الأقدار .

المزايا الخاصة التي كان سيجنيها العراق من الانتساب الى الميثاق

كان ما سيجنيه العراق بالذات من ثمرات ميثاق بغداد ما يلي :

(أ) انهاء معاهدة ١٩٣٠ الثنائية بموجب هذا الميثاق وذلك باتفاق كامل مع المملكة المتحدة ، وقد حرر هذا الاتفاق بتاريخ ٤ ابريل ١٩٥٥ .

(ب) جـلاء قـوات المملكة المتحدة الجوية من قاعدتي الشعيبة والحبانية جلاءً كاملا .
(ج) الحصول على مساعدات عسكرية وتدريبية قيمة .
(د) تأسيس مشاريع الطاقة الذرية للأغراض السلمية .

وفي المادة الثالثة نص صريح يقضي بأنه لا يجوز ان تتحمل الحكومة العراقية أية مسؤولية عسكرية خارج حدود العراق . ويتضح لنا مما تقدم ان العراق بانتمائه الى الميثاق المذكور استطاع ان يتخلص من كافة القيود التي كانت تحد من سيادته الكاملة على أرض الوطن ...وان التزاماته كانت تنحصر فقط في التعاون مع الدول الحليفة لتثبيت الأمن وتنمية الاقتصاد بوسائل لا تتعارض أو تتنافى مع الالتزامات التي يفرضها انتمائه الى الجامعة العربية .

أما الدول الاسيوية الاخرى فقد وجدت في نصوص الميثاق روح التضامن والتعاون الأخوي التي يحتمها ، تعبيرا صادقا لرغبة هذه الشعوب في اقامة علاقات نزيهة متكافئة بينها للإسهام فيما يضمن رفع مستواها ، كما رأت في هذا الميثاق السلمي المتزن مطلع فجر جديد يحمل في نور شروقه دلائل الخير والاستقرار .

تبدل فجائي في موقف مصر وأسبابه الخفية

ما هي اذن اسباب تلك الضجة الكبرى التي انبعثت فجأة من مصر بعد مضي فترة غير قصيرة ساد فيها حسن التفاهم والتأييد ... ولماذا زادت ابواق هجماتها بالتدريج للقضاء على مشروع كان المرجو ان يصبح مصدر خير وقوة لأمم تعاونت بإخلاص بينها لدعم اسباب الرخاء والاستقرار في ارجاء المنطقة ؟ ... ان في سرد التفاصيل المقبلة ما يثبت ان عددا لا يستهان به من اصحاب المطامع الخفية اشتركوا في الحملات المذكورة ، لبث عوامل الريبة والقضاء على ميثاق بغداد .

الشرق الأوسط وأهميته الاستراتيجية

ان الشرق الأوسط كما يصوره تاريخه الصاخب منطقة متقلبة تجتاحها على الدوام اضطرابات مثيرة من شأنها زعزعة استقرار الأمم المتباينة التي تسكن فيها ... والشرق الأوسط الى جانب ذلك محط أنظار اصحاب المطامع الاستعمارية ، على الأخص تلك التي تدين بفكرة توسعية أو ترغب في استخدامه كممر للوصول الى بعض المناطق المرموقة ... فمكانته الاستراتيجية لا تقل أهمية عن وزنه الاقتصادي ولا شك ان القطر المصري هو قلبه النابض .

وفي هذا المقام أرى من المناسب ذكر ما قاله "نابليون بونابرت" عن أهمية مصر وهو في منفاه في جزيرة "سنت هيلانة" عندما اعترف في حديثه الى حاكم الجزيرة البريطانية بأن أعظم خطأ استراتيجي ارتكبه في حياته العسكرية هو سحب الجيش الفرنسي من أرض الكنانة بعد رجوعه الى فرنسا ... فمصر ... في نظره أهم قاعدة استراتيجية في العالم ... فهي مفتاح أبواب المرور بين قارات ثلاث ويمكن للقوات التي تحتلها السيطرة على المنطقة بأسرها .

ونضيف الى ما قاله نابليون في القرن الماضي بأن مصر الى جانب ذلك اصبحت في عصرنا هذا تتمتع بمقام خاص بين الأمم العربية مركزا اعلاميا وثقافيا للعالم العربي ومصدرا لدعاية رنانة طغت على آفاق الناطقين بالضاد في عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

فلا غرابة اذاً ان يسعى أقطاب الشرق والغرب على حد سواء الى اكتساب رضا الحاكم فيها لخدمة أهدافهم .

وفيما تقدم ما يوضح لنا سبب اهتمام الدول التي ارادت بناء صرح ميثاق الشرق الأوسط الدفاعي بضم مصر اليها ... وقد يفسر لنا ايضا من جهة اخرى تشبث تلك الفئات التي ارادت استغلال مكانة مصر الجغرافية والاجتماعية والاعلامية للقضاء على مشروع كاد يهدد أهدافا طويلة الأمد طالما داعبت

احلامهم ... ونشير بذلك الى الدول الاستعمارية من جهة ، والسوفييت واسرائيل من جهة اخرى .

المناورات الخفية للدول الطامعة

كان الوصول الى ضفاف البحر الأبيض المتوسط غاية توارثتها روسيا الشيوعية من روسيا القيصرية ، وفي صفحات التاريخ ما يثبت ذلك ... أما الاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط من النيل الى الفرات فهو المخطط الذي يتضمنه البروتوكول الصهيوني منذ نشأته .

ومن جهة اخرى نجد ان المعسكر الغربي كان مسيطرا على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص فرنسا وبريطانيا على ضفته الافريقية ... كما لا يخفى ان اجهزة الدول السياسية كانت ملوثة منذ الحرب العالمية الثانية بتسرب الدعايات الصهيونية من جهة ، والمخابرات السوفيتية من جهة اخرى ... وذلك باستعمال اساليب الحرب الباردة ، وبإرسال العناصر المخربة بمهارة مشهودة الى كافة المناطق الحساسة ، فالكل يعلم الدور الخبيث الذي لعبه "كيم فيلبي" عميل السوفييت البريطاني وأعوانه ، لا في ربوع الشرق الأوسط فحسب ، بل في جهاز وزارة الخارجية البريطانية نفسها ، وفي كتابه المسمى My Silent War (حربي الصامتة) ما يشير الى الجهود الخارقة التي بذلها هو وأعوانه في لبنان وفي بريطانية وأمريكا لتوجيه سياسة الغرب الى ما يفيد المخطط الروسي في الشرق الأوسط ، وذلك الى ان انكشف أمره ولجأ الى السوفييت هاربا من تهمة الخيانة العظمى لوطنه بريطانيا ، تاركا وراءه عددا لا يستهان بهم من العملاء الذين كان يدربهم في الخفاء لنشر وخدمة المبادىء التي يدين بها .

موقف الولايات المتحدة

أما الولايات المتحدة فلها في ميادين السياسة مواقف محيرة لأنها تفتقر مع

الأسف الى مخطط مدروس طويل الأمد في منهاج سياستها الدولية ...انها تعتمد احيانا على تقارير سفرائها في تنفيذ مآربها ، وهي تارة اخرى تتبع تعليمات دائرة المخابرات الأمريكية للوصول الى اهدافها ... ولا شك ان هذا الاسلوب المزدوج الخطير كان سببا في خلق مشاكل دولية متعددة ... ولنا في تصرفات المستر "دالاس" بالنسبة لميثاق بغداد مثل واضح في هذا الشأن ، وذلك استنادا الى شهادة المستر غولمان ، سفير الولايات المتحدة في العراق ، في كتابه (العراق تحت حكم الجنرال نوري) . لقد كان "غولمان" سفيرا للولايات المتحدة في بغداد بين سنتي ١٩٥٤ - ١٩٥٨ فراعه الفتور المفاجىء الذي ابدته وزارة الخارجية الأمريكية تجاه الميثاق ، مع العلم بأن الولايات المتحدة ساهمت في تشجيعه بحرارة منذ البداية - ويبدو ان سبب الجمود الذي شل الاندفاع الأمريكي المنتظر يرجع الى تعليمات دائرة المخابرات الأمريكية التي اقنعت "دالاس" بأن على أمريكا ان تتحاشى الدخول رسميا في ميثاق دفاعي لا يمكن لإسرائيل الاشتراك فيه ، وذلك اذا امكن تأمين الاستقرار في الشرق الأوسط بطريقة اخرى ، وفي كتاب كوبلند المسمى " لعبة الامم" ما يؤيد بأن دائرة المخابرات الأمريكية استطاعت ان تجد الحل المنشود عندما اخذت من الرئيس عبد الناصر حينذاك ، عن طريق "كيم روزفلت " ، وعدا صريحا بأنه "سيسعى الى تخفيف التوتر بين العرب واسرائيل ... والعمل على تأمين الاستقرار في المنطقة" وذلك لقاء عدم اعتراض أمريكا على صفقة الأسلحة الروسية من جهة ، وضمان مساعداتها المادية المختلفة للقطر المصري من جهة اخرى ... وفي ذلك ما يفسر لنا اسباب تطور الموقف الأمريكي ....

التنافس الدولي على منطقة الشرق الأوسط

ومن العوامل التي ساعدت على مساندة هذا الاتجاه السياسي في منطقة الشرق الأوسط ... هو وجود تنافس خفي بين بعض الدول الغربية على استخدام وسيادة سواحل البحر الأبيض المتوسط نظرا لتوسع مصالح أمريكا الاقتصادية في

المنطقة ، والجدير بالذكر ان اسرائيل وجدت في هذا الصراع الخفي منفذا لتثبيت كيانها وتعزيز روابطها بالولايات المتحدة ... ولا شك انها اصبحت اليوم توفر للولايات المتحدة ما تقدمه "كوبا" للسوفييت من خدمات ... وهذا مقابل اعلان "الفيتو ٢" كلما اتخذ مجلس الأمن أو الأمم المتحدة قرارا ضد تصرفات اسرائيل التعسفية المتكررة في الشرق الأوسط .

لقد اثبتت الأحداث فعلا بأن محرك السياسة الأمريكية بعد انتهاء رئاسة الجنرال آيزنهاور هي المنظمات الصهيوينة التي تسلمت تدريجيا زمام السيطرة على الكونغرس بدهاء خارق ... إذ استطاعت استخدام ديمقراطية مزعومة بقوة المال وبدعاية مدروسة ... حتى اصبح من المستحيل ان ينجح رئيس في الانتخابات الدورية في الوقت الحاضر إلا اذا كان حائزا على رضا وثقة الصهيونيين في الولايات المتحدة .

النشاط السوفييتي في الشرق الأوسط

ونضيف الى ما تقدم ان الحرب العالمية الثانية اوجدت في المعسكر الغربي تنافساً كامناً بين الأمم المنتسبة اليه في علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية .... وبذلك انفتح المجال للعناصر التي كانت تتحين الفرص لإثارة الشغب داخل منطقة الشرق الأوسط . ان تاريخ تسرب النشاط الشيوعي في ارجائها يرجع الى سنة ١٩٢٩ عندما استوطنت الشيوعية لأول مرة في فلسطين مع هجرة يهود السوفييت اليها ... ولا يخفى على القارىء بأن العلاقات بعد نشوب الحرب العالمية الثانية توثقت ما بين الحلفاء و "ستالين" عندما اتفقوا على التعاون لصد الهجوم النازي ... واتخذوا الخليج العربي قاعدة لشحن العتاد منها الى الجيش الروسي في ستالنجراد .

وبناء على ذلك الاتفاق وصل وفد سوفييتي الى البصرة في التاريخ المذكور لستلم الأسلحة اللازمة ... فنشأ الاتصال بين العراق والسوفييت في تلك الفترة وتم

بعد ذلك اقامة التمثيل الدبلوماسي بينهما سنة ١٩٤٥ .

بداية النشاط السوفييتي في العراق

والجدير بالملاحظة هو ان البعثة الدبلوماسية السوفييتة شرعت بعد وصولها بمدة وجيزة الى بغداد في استمالة العناصر التي يمكن الاعتماد عليها ... فبدأ نشاط الحرب الباردة بالانتشار رويدا في ارجاء العراق ... وكان خير مؤازر لها في هذه المرحلة انصار الصهيونية امثال يوسف سلمان وناجي شميل وغيرهم من اقطاب تلك الزمرة الذين سجلت اسماؤهم في دائرة الأمن العراقي منذ سنة ١٩٤٧ قبل حرب فلسطين مباشرة . ولكن عندما كثرت الدسائس واستفحل الشغب وبدأت المظاهرات واختل الأمن لا في العراق وحده فحسب ، بل في الشرق الأوسط بأسره ، اضطرت الحكومة العراقية الى اعلان الأحكام العرفية ، وتبين حينئذ جليا عند التحقيق بأن السفارة السوفيتية هي التي كانت تساند التمرد في البلاد ، وبناء على ذلك ونظرا لخطورة الموقف قرر العراق قطع علاقاته الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي ، فانتقل افراد البعثة السوفيتية على اثر ذلك الى دمشق ، وبدأ نشاطهم ينبعث من ربوع سورية .

النشاط اليساري في ايران وتسربه الى البلاد المجاورة

أما في ايران ... فقد يذكر الجميع الأضرار الفادحة التي تكبدتها البلاد عندما سيطر حزب (تودة) على زمام الحكم في عهد "مصدق" .... ولكن عندما استعاد شاه ايران سلطانه على بلاده بعد ذلك ظل الحزب المذكور يمارس نشاطا خفيا بين طبقات الشعب الايراني ثم بدأ تأثير ذلك يتسرب الى البلاد المجاورة تدريجيا حتى وصل الى العراق عبر منطقة الحي وبذلك تسربت الحرب الباردة تدريجيا الى الشرق الأوسط بأسره عن طريق منظمات تتسح تارة بالقومية وتارة اخرى بالديمقراطية أو بمذاهب سياسية وعقائد دينية مختلفة ، وكلها على الاطلاق

تدّعى بالوطنية والاشتراكية والاصلاح الاجتماعي الشامل .... فلا عجب اذا ان يكون القضاء على مثل تلك التيارات المتعددة الجارفة أمرا عسيرا ، خصوصا اذا تضافرت قواها لسحق كل من يعترض سبيلها .... وكان أكثر تلك الفئات نشاطا في العراق حينذاك جماعة أنصار السلام ، والشباب الديمقراطي ، والصهيونية المقنعة التي لعبت في الخفاء دوراً حاسماً .

شرح الأوضاع في مصر

لقد استطاعت هذه العناصر الهدامة ان تنفذ داخل المملكة المصرية بالتدريج مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، وان تزج بشعبها المتحير في حلبة الصراع القائم داخل البلاد وخارجها ، فقد وجد أهل الفتن فيما كانت تعانيه مصر من الأطماع الاستعمارية من جهة ، ومن ضعف ولاة الحكم والمشاغبات الداخلية من جهة اخرى ، منفذا رحبا للسيطرة على اتجاهاتها السياسية . كانت الأحزاب الوطنية طول تلك الفترة في نزاع متواصل ... فالقذف والانتقاد لإسلوب الحكم سافر ، كانت الفروق الطبقية شاسعة ... وآفة ازدياد السكان متواصلة داخل مساحة أرض لها خصوبة محدودة تقتصر على ضفتي النيل فقط ... وبناء على ذلك تأمل الكثيرون بزوغ فجر جديد أفضل عندما استولى الضباط الأحرار على زمام ، الأمور ونصبوا مجلس وصاية بعد تنازل الملك فاروق الأول عن عرش مصر لصالح ابنه الملك الطفل فؤاد الثاني سنة ١٩٥٢ .

لم يجزع الانكليز لحدوث هذا الانقلاب العسكري ، وتفاءلت أمريكا خيرا ، واستبشر النحاس باشا زعيم حزب الوفد فرجع من أوروبا على الفور ، وتنفس الأخوان المسلمون الصعداء ، وصفق الشعب المصري للحكم القائم ..ولكن قسما كبيرا من الفئات التي ساندت الانقلاب بصورة فعلية باتت مستترة في الظلام تنتظر الفرص المؤاتية في صمت لتنفيذ خطتها المدروسة ، وقد كشفت الأحداث عن نشاطها الكامن فيما بعد .

صدى الميثاق في العالم

تركية ودورها في الميثاق

كانت العلاقات السياسية بين مصر و تركية منذ توقيع الاتفاقية التمهيدية الخاصة بالجلاء عن قناة السويس على خير ما يرام وكانت الجرائد والاذاعة في مصر تترنم بالأخوة التقليدية التي تجمع البلدين ، وعندما زار نوري السعيد تركية بعد الرجوع من جولته الى مصر ولندن في نهاية تشرين الأول ١٩٥٤ للتشاور في أمر الميثاق الدفاعي الجديد شرح تفاصيل مقابلاته لرئيس الوزراء التركي عدنان مندرس الذي أظهر ارتياحه لفكرة انشاء كتلة متكافئة في الشرق الأوسط لضمان الاستقرار وانماء التعاون الاقتصادي في ربوعه . كان مندرس كسائر حكام المنطقة يشعر بأن التيارات الهدامة تزداد نشاطا على مر الأيام وتهدد الاستقرار والازدهار المنشود فيها فصرح بضرورة اتخاذ اجراءات مشتركة سريعة لمواجهتها ... وفي نهاية الزيارة ظهر بيان مشترك لمباحثات نوري ومندرس يحتوي على البنود التالية :

١) ان سلامة تركية والعراق تتطلبان التعاون مع البلاد المجاورة وتأمل الدولتان اشتراك البلاد العربية وايران وباكستان في اتفاق يسعى الى تحقيق الاستقرار في المنطقة .
٢) على العراق وتركية السعي لإشراك مصر في هذه المجموعة . وفيما يلي نذكر أيضا دور العراق في الاتفاقية الدفاعية مع تركية فهي تقتصر على تنفيذ ما يلي :

أ – حماية الممرات الشرقية ضد الهجمات البرية المعادية .
ب – حماية آبار البترول ضد الغارات الجوية .
جـ – تسهيل وصول المساعدات المتجهة لتركية عن طريق العراق .

وذكرت الاتفاقية الى جانب ذلك ضرورة زيادة التعاون الاقتصادي والثقافي الواردتين في اتفاقية سابقة معقودة سنة ١٩٤٦ . وقد نشرت هذه البيانات كاملة في الصحف والنشرات الاذاعية كما ارسلت منها نسخ الى كافة السفارات العربية ، والجدير بالذكر هو انه لم يصدر من أية جهة أو بلد عربي اعتراض على ما نشر بل كان من المقرر ان يزور جلالة الملك فيصل الثاني مصر في شهر نوفمبر ، كما كان من المنتظر ان يسافر مندرس الى مصر لإتمام المباحثات الجارية في تاريخ مماثل ... وهكذا استمرت الاتصالات الودية بين الجميع دون ظهور ما يعكر صفو العلاقات في صفوفهم ، غير ان مصر اضطرت بعد ذلك فجأة الى ارجاء الزيارات الرسمية الخاصة بالملك فيصل وعدنان مندرس نظراً لتطور أوضاع الأمن فيها على اثر اعدام عدد من أقطاب جماعة الأخوان المسلمين .

صدى الميثاق في العراق

اتفق الجميع على الاعتراف بأن الخطوات التي اتخذتها الحكومة في حينه ستكون حلا مثاليا لمشاكل العراق ، فالمعلوم ان الشعب العراقي كان يستنكر على الدوام احتفاظ بريطانيا بقاعدتين جويتين هما "الحبانية والشعيبة" مع حق استعمال المواصلات

العراقية لنقل جيوشها وعتادها عبر الأراضي في العراق ... فجاء الميثاق لفك تلك القيود وضمان سلامة أراضيه بالرضوخ فقط الى الشروط المشتركة التي ستوافق عليها الأمم الحرة المتحالفة ضمن الميثاق الجديد . لم يكن في بنود هذه الاتفاقية ما يمس مصالح أو كرامة أي منها ، بل ظلت الأوضاع على ما كانت عليه في البيان المشترك الذي صدر قبل ذلك في شهر اكتوبر بين العراق وتركية وهو البيان الذي وزعت نسخ منه على كافة السفارات العربية دون ان تواجه من جراء ذلك أي اعتراض ، وقد ظل باب الانتساب مفتوحا كالسابق لمن يرغب في الاشتراك في الميثاق الجديد ، ولكن اهم ما اضيف الى بند الاشتراك هو نص المادة الخامسة في هذه الاتفاقية التي تضمن استثناء اسرائيل ... فلا عجب اذا ان يصوت النواب في العراق بالثقة لنوري السعيد بنسبة (١١٢) ضد (٤) وان يساند هذه الخطوة ٦ رؤوساء وزراء سابقين من بين مؤيديه وخصومه في السياسة على حد سواء .

ولا غرابة بعد ذلك ان يبدأ النشاط الصهيوني من جهة ، واصحاب المبادىء الهدامة والانتهازيون من جهة اخرى ، في ايقاظ الفتن وبث الافتراءات لتنظيم هجوم مركز من شأنه القضاء على اصحاب الفكرة واحباط همة مؤيديها .

ساسة العراق ونظرتهم للحياد

وفي مجلس الأعيان كان الصوت الوحيد المعارض هو صوت السيد محمد رضا الشبيبي الذي بنى معارضته على انه يحبذ (الحياد) للعراق ، ومن الغريب في هذا الموضوع هو ان اشد خصوم نوري في المجلس لم يوافقوا الشبيبي على رأيه ... فقال "صالح جبر" انه ليس من المعقول اتباع سياسة الحياد في ظروف العالم الحاضرة ، وتلاه السيد عبد المهدي فانتقد سياسة الحياد وطلب الى الحكومة ان تتخذ الخطوات التي تراها ضرورية للدفاع عن مصالح العراق ... أما السيد نصرت الفارسي ، وهو سياسي مستقل ، فقد صرح جهرا بأن العراق لا يستطيع ان يضمن مصالحه عن طريق سياسة الحياد ، وفي سجلات تلك الجلسة ما يثبت هذه الاقوال ، وفي كل ما تقدم ما يثبت بأن العناصر الواعية في العراق شعرت بالفوائد الاقتصادية التي ستجنيها البلاد عن طريق الميثاق الى جانب الحصول على سيادتها الكاملة مع ضمان الاستقرار في ارجائها

وعلى ذلك ايدته تأييدا كاملا .

نوري السعيد ومبدأ الحياد

أما نوري السعيد فقد كان له في الحياد رأي خاص ، إذ كان يقول ان الحياد بالنسبة للأمم الضعيفة (خدعة) فالاحتماء به لم ينقذ بلجيكا أو هولندا من الاعتداء الألماني في الحرب العالمية الأولى عندما اكتسح جيشها أراضي دولتين صغيرتين محايدتين لاقتحام فرنسا .

أما الحياد الذي تمسك به نهرو فمقوماته معروفة ... إذ لولا وجود الهند ضمن منظمة الكومنولث لاستحال عليها ضمان سلامة حدودها ... ولنا في سطوة روسيا على تشيكوسلوفاكيا العزلاء مثل صريح في هذا الشأن .

فإعلان الحياد في نظر نوري السعيد يستوجب امتلاك قوة مادية وعسكرية ثابتة للدفاع عن النفس – ولا يصبح الاعتماد فقط على حسن نية أو تضامن أمم لا تستند على أهم أسلحة الدفاع وهي المال والعتاد والخبرة والرجال . ولكنه أشار في مباحثاته مع نهرو قبل الشروع في تنظيم ميثاق دفاع مشترك الى انشاء كتلة دفاعية حيادية قوية تضم الهند وباكستان وافغانستان وتركية والبلاد العربية ... على ان تتخذ هذه الكتلة ضمن مسؤوليتها تأمين المحافظة على حياد المنتسبين اليها ضد اي اعتداء يوجه الى احداها .

وقد صرح نوري السعيد بتلك التفاصيل في الخطاب الذي القاه من بغداد عبر الأثير في ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ عندما كان يحاول بهذه الطريقة اقامة صرح كتلة حيادية جبارة لخدمة السلام العالمي نظراً لأهميتها الاستراتيجية في المنطقة .

ما دار بين نهرو ونوري السعيد

كان نوري السعيد يرافق جلالة الملك فيصل الثاني في زيارة رسمية له الى الباكستان في شهر مارس ١٩٥٤ ... فاغتنم فرصة وجوده في تلك الربوع للسفر الى الهند قبل انتهاء فترة الزيارة لمقابلة (البنديت نهرو) ومفاتحته في أمر مشروع كتلة الحياد نظرا للدعاية الواسعة التي كان يقوم بها نهرو في الأوساط السياسية لتعميم

فكرة الحياد . لقد استمرت اقامته في دلهي ما يوازي عشرة أيام استطاع خلالها بحث موضوعات متعددة ذات أهمية دولية مع البنديت نهرو وعدد من المسؤولين في الهند ، وبالأخص قضية فلسطين ، وقد شرح لهم اثناء ذلك بأن العراق مثل بلاد النطاق الشمالي ، يعاني من نشاط المخربين ، وان تحريات سلطات الأمن في العراق اثبتت بأن تمويل تلك الفئات يأتي عن طريق خلايا المنظمات الشيوعية التي شيدت أوكارها في البلاد المجاورة . فعملاء (توده) يتسربون من ايران وأنصار مصطفى البرزاني يدربون في جنوب روسيا ... كما ان الصهيونية تسعى الى اثارة الفتن لخدمة اطماعها التوسعية من كل جانب . وأضاف الى ذلك أنه يقترح انشاء كتلة دفاعية حيادية في هذه المنطقة التي تكثر فيها التيارات الهدامة لضمان سلامة ورفاهية البلاد المعنية خصوصاً اذا امكن تنظيم برامج اقتصادية مشتركة مثمرة . لم يعارض البانديت نهرو الفكرة قط ، ولكنه اعتذر عن الانتساب الى الميثاق لأسباب متعددة أهمها عدم اثارة شكوك (موسكو) ، وذلك لوجود حدود مشتركة شاسعة بين الهند والاتحاد السوفييتي من جهة ... ووجود ما يوازي ثلاثة ملايين شيوعي بين سكان الهند من جهة أخرى . أما فيما يخص الجيش الهندي فعدده لا يتجاوز ما تحتاجه الهند لحفظ النظام داخل البلاد ، ولكنه أشار على نوري السعيد كرجل دولة ان يتبع الاجراءات التي تستطيع ضمان سلامة بلاده ورفاهيتها .

الميثاق وصداه في أنحاء العالم

لقد استطاع نوري السعيد اثناء سفرته الى المملكة المتحدة ان يقنع المسؤولين فيها بوجوب قبول فكرة الغاء معاهدة ١٩٣٠ الثنائية اذا تم اقامة ميثاق دفاعي مشترك بين دول المنطقة لضمان الاستقرار فيها ... وقد الغيت المعاهدة المذكورة فعلاً يوم ٦ ابريل ١٩٥٥ عندما اشتركت بريطانيا رسمياً في الميثاق التركي العراقي ، وتلتها باكستان ، ثم ايران ، نظراً للفوائد المتعددة التي كانت تلك البلاد تأمل ان تجنيها من هذا التحالف .

ولكن مما يدعو الى التعجب هو موقف الولايات المتحدة وترددها في الاشتراك بعد ذلك مع العلم بأن وزير خارجيتها المستر "دالاس" كان اول المشجعين للفكرة وهو

الذي صرح في مؤتمر صحفي في واشنطن عندما تم توقيع الميثاق التركي العراقي في بغداد بأن هذه الخطوة البناءة ستخدم الأمن في المنطقة ، وقد ارسلت (واشنطن) الى العراق بهذه المناسبة مائتي عشر مدفعاً من عيار عشرين مليمتر مع ألف قذيفة عتاد لغرض التدريب وكانت هذه الشحنة من الأشياء التي كان نوري السعيد يتمنى الحصول عليها من زمن بعيد .

كان ظهور هذا التردد المفاجىء في موقف أمريكا يدعو الى الحيرة ويعترف المستر (غولمان) سفير الولايات المتحدة في كتابه بأنه اوصى بإلحاح ان تشترك الولايات المتحدة فوراً في الميثاق المذكور كما ارسل سفراء الولايات المتحدة في أنقرة وطهران وكراجي توصيات مماثلة . ولم يجد اصرارهم مع الأسف في الدوائر الرسمية آذانا صاغية ... وهكذا تحول حماس (دالاس) في دعم المشروع فجأة الى فتور ظاهر ثم الى نوع من الجمود والرغبة في عدم اعلان مساندة أمريكا الصريحة للميثاق مع الاكتفاء بدور الرقابة فقط في الاجتماعا العامة .

العوامل الخفية في هذا التطور

ويرجع هذا التطور في سياسة أمريكا لأسباب متعددة أهمها ازدواج مصادر الحكم والادارة في الولايات المتحدة ، إذ طالما كانت وزارة الخارجية تضمر شيئاً ومركز المخابرات الأمريكية يقرر تنفيذ شيء آخر ، وفي المواقف التي سنواجهها فيما بعد ما يثبت أن سفراء أمريكا في كثير من الأحيان كانوا يجهلون المناورات الخفية التي كان يقوم بها هذا الجهاز السري ، وبناء على ذلك وجد الانتهازيون والمغرضون في هذا الازدواج الإداري ما يسمح لهم بإفساح مجال نشاطهم وذلك بالاتصال بصورة غير رسمية بأعضاء الـ (سي آي أيه) لكسب ثقتهم وتنفيذ مآربهم في الخفاء ... فهكذا فعلت اسرائيل وهكذا فعل الجاسوس البريطاني الشيوعي المعروف (فلبي) الذي لعب دورا مشهودا في تحطيم مصالح العالم الحر خصوصا في منطقة الشرق الأوسط ... وهكذا فعل عبد الناصر ايضا عندما أراد احتكار الزعامة في العالم العربي ، وفي كتاب (لعبة الامم) لكوبلند ما يثبت أن مركز المخابرات الأمريكية التزم الصمت ولم يخبر السفير الأمريكي في القاهرة (بايرود) أن وفدا من بين أعضائه سيسافر الى مصر

للتشاور مع عبد الناصر في موضوع صفقة الأسلحة السوفيتية . وفي وصف هذا الاجتماع المثير ما يلقي الضوء على السياسة المزدوجة التي كانت تنتهجها وزارة الخارجية في عهد (دالاس) ، وحرص المسؤولين فيها على عدم إثارة شكوك اسرائيل . لقد اصيب (دالاس) في ذلك التاريخ بمرض السرطان الخبيث ، فترك زمام الأمور تتأرجح ما بين المكاتب الرسمية في وزارة الخارجية ، ودهاليز مركز المخابرات الأمريكية دون تخطيط موحد ، وقد صرح مرة ، بأن لا ضرورة للاتصال بالسفراء لأخذ آرائهم في بعض المشاكل السائدة ، وان من الأفضل انتخاب شاب ذكي من مركز المخابرات للحصول على معلومات قد تعجز الجهات الرسمية عن الوصول اليها بسرعة . وفي هذا التصريح ما يفسر لنا الجمود الذي خلف حماس (دالاس) في دعم مشروع الميثاق الدفاعي للشرق الأوسط ، إذ يبدو انه توصل عن طريق مركز المخابرات للحصول على ما لم يستطع ان يدركه بواسطة السفراء ... وفيما يلي صورة لبعض ما كان يجري من وراء الستار في الدوائر الرسمية الأمريكية .

الـ (سي آي أيه) ونشاطها الخفي في ربوع الشرق الأوسط

كان لمركز المخابرات الأمريكية فروع متشعبة في كافة البلدان حول العالم ، وقد استطاع اعضاؤه التوغل بين طبقات الشعوب المختلفة وتفهم الظروف المحيطة بهم لخدمة المصالح الأمريكية ... وبناء على ذلك اتخذت وزارة الخارجية عددا من بينهم بالأعارة في (لجنة تخطيط سياسة الشرق الأوسط) ومن بينهم (كوبلاند) الذي بدأ العمل بمساعدة (الن جورج) في المباحثات الجارية بين مصر وأمريكا في قضية شراء الأسلحة الأمريكية .

كان الغرب يماطل في تقديم المساعدات العسكرية للبلاد العربية خوفا من استعمالها ضد اسرائيل ، فلما ضاق الرئيس عبد الناصر ذرعا بعناد الدول الغربية في هذا الشأن التفت الى السوفييت عن طريق زملائه اليساريين واجرى سرا صفقة الأسلحة السوفيتية المشهورة . كان في تلك الخطوة مخاطرة سياسية واضحة تستوجب التحايل والحذر ...فقرر عبد الناصر اتقاء ما يمكن ان تولده هذه المغامرة واتصل رأسا كتابيا بـ (كيم روزفلت) احد أقطاب مركز المخابرات الأمريكية التي كانت تربطه به

وبعدد من أعوانه صلات ودية متينة وقال له ما يلي : "انني على وشك اجراء اتفاقية مع السوفييت للحصول على الأسلحة اللازمة لمصر ، فإن ارادت الولايات المتحدة ان الغيها فعليك ان تتوجه رأسا الى مصر لمقابلتي ... وفي ذلك ما يبين لنا الدور العظيم الذي كانت تلعبه شبكة المخابرات الأمريكية في الخفاء من مناورات مهمة .

وصول وفد المخابرات الأمريكية الى مصر

فعندما وصل "كيم روزفلت" بصحبة "مايلزكوبلند" الى مصر للإطلاع على تطور الأوضاع توجه المندوب الرسمي بهما سرا من المطار الى الطابق الأعلى في مركز القيادة حيث استقبلهما جمال عبد الناصر ... وبعد الترحيب وجه الرئيس حديثه رأسا لكيم روزفلت وقال بلهجة عتاب ساخرة "لا غرابة فيما حدث أيها الأصدقاء ، لقد انذرتكم مرارا اثناء محادثاتنا السابقة وقلت لكم بأنني سأقوم بهذه الخطوة اذا تجاهلتم احتياجاتنا الملحة" .

كان عبد الناصر يتوقع ان يسمع من القادمين عتابا أو اعتراضا على ما أقدم عليه ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ... وكان السر في ذلك هو ان المخابرات الأمريكية كانت على علم بأن صفقة الأسلحة تمت فعلا قبل مدة في الخفاء ، وانها ليست على وشك ان تتم كما ادعى عبد الناصر في كتابه ... وبناء على ذلك فكر كيم روزفلت في طريقة بارعة للسيطرة على الموقف وتلافي مشاحنات فارغة حتى ينقذ ما يمكن انقاذه ... فاستغل صداقته الشخصية بالرئيس وتمكن بدهاء الوسيط المرن ان يستميله بالثناء عليه .

بدأ روزفلت حديثه بالتعبير عن اعجابه الشديد بجرأة الرئيس وشجاعته ، ثم أردف يقول "ياعبد الناصر" ربما يستاء البعض عند سماع هذا الخبر على الأخص اذا تبين لهم ان الصفقة التي حصلت عليها كبيرة الى الحد الذي وصفتها لنا الأخبار الواردة ... ولكن ثق يا عزيزي ان هذه الخطوة ستجعل منك بطلاً عظيماً ... لِمَ لا تستفيد من هذه الفرصة السانحة وتغتنم الشعبية الكبرى التي ستكتسبها لتقوم فوراً بخطوة اخرى تليق برجل دولة قديرمثلك ... فنظر اليه عبد الناصر متسائلاً وقال : ماذا تعني بذلك ؟ فأجاب كيم روزفلت بثقة ولباقة السياسي المحنك وقال : "انك

ياصديقي لن تخسر شيئاً قط مثلا لو اعلنت جهراً وانت في أوج شعبيتك وفي خطاب رسمي بأنك قمت بهذه الصفقة للحصول على أسلحة تضمن لك الدفاع عن بلادك وقت الحاجة ... أما اذا ارادت اسرائيل عرض حلول تضمن الاستقرار في المنطقة فلا مانع لديك من قبول عرضها" ... فأطرق عبد الناصر برهة عند سماع هذا الاقتراح واجاب بلهجة حاسمة ... "انها فكرة لا بأس بها" .

نقطة التحول في السياسة الأمريكية

ومن هنا استمر البحث حول هذه القضية الى ساعة متأخرة من الليل بحضور التهامي ومصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وبعض المسؤولين في القيادة – واتفق الرأي على ان يعلن عبد الناصر خبر الصفقة بعد يومين في خطاب يلقيه بمناسبة تخرج بعض ضباط الطيران ، على ان يتضمن هذا الخطاب فقرة تحدد موقف مصر من اسرائيل ، وعلى أثر ذلك طلب عبد الناصر من روزفلت مسودة الفقرة المقترحة ثم انفض الاجتماع في جو مشبع بالمرح وحسن التفاهم .

وفي مساء اليوم التالي ذهب كيم روزفلت مع كوبلند الى مركز القيادة حاملا نص المسودة المطلوبة وبعد الاطلاع عليها طلب اليه عبد الناصر تعديل بعض ما جاء فيها لعدم استفزاز مشاعر البلاد العربية ، فاستبدلت جملة السعي للصلح مع إسرائيل بجملة اخرى تشير الى السعي لتخفيف حدة التوتر ما بين العرب وإسرائيل ، وهكذا تم الاتفاق ايضا على ان يعلن الرئيس في خطابه بأن الأسلحة المشار اليها أتت من تشيكوسلوفاكيا لعدم إثارة مخاوف الذين يخشون السوفييت ... وبهذه الصورة تمكن كيم روزفلت بلباقته المشهودة ان يحتفظ بصداقة عبد الناصر ومودته ، وان يضمن الى جانب ذلك سلامة إسرائيل بعدما أخذ وعدا شفويا قاطعا بأن مصر ستسعى الى تخفيف حدة التوتر القائم بين العرب واسرائيل في المنطقة – ولقاء هذا الوعد ستتعهد الولايات المتحدة بالسكوت عن صفقة الأسلحة وعدم الاعتراض عليها بشرط ان يعلن عبد الناصر في الخطاب الذي اشرنا اليه أعلاه بأن مصدرها (براغ) أي تشيكوسلوفاكيا ... وفي نهاية هذه المحادثات صرح عبد الناصر علناً لزائريه بأن لابد من مساندته مساندة كاملة اذا ارادت الولايات المتحدة ان يتم الاستقرار في المنطقة إذ

لا يمكن تنفيذ ذلك إلا عن طريق زعيم يستطيع فرض نفوذه على العالم العربي بأسره ... ويملي عليه الشروط التي ربما لا تتقبلها الأمم المعنية .

رأي المخابرات الامريكية في عبد الناصر

ومن جهة اخرى استطاع كيم روزفلت وزميله كوبلند اقناع الولايات المتحدة بأن تثبيت زعامة عبد الناصر المطلقة في الشرق الأوسط مفتاح للسلام في ارجائه ... وقد أثبت عبد الناصر هذه القدرة أمام العالم بأسره باتخاذ اولا خطوات حازمة للسيطرة على الأوضاع في مصر ومن جهة اخرى استطاع استمالة العالم العربي بتنظيم دعاية مركزة واسعة النطاق واستطاع الى جانب ذلك النجاح في مغامراته السياسية عند شراء الأسلحة السوفييتة ، كما اكتسب رضا السوفييت باتخاذ هذ الخطوة الجريئة – وبذلك اصبح الرئيس المصري محط آمال الجميع . فلا غرابة اذاً ان يسعى الغرب الى مساندة عبد الناصر والاحتفاظ بصداقته ، وقد يفسر لنا ذلك ايضا اسباب فتور "دالاس" بعد ان كان السند الأكبر والمشجع لميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط ... خصوصا بعد اطلاعه على توصيات مركز المخابرات الأمريكية بعد رجوعهم من مصر – لقد وجد وزير الخارجية الأمريكي في وعود عبد الناصر الشفوية املاً يستوجب التمسك به لإبعاد الخطر عن إسرائيل ... ولذلك اصبح لميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط اهمية ثانوية في نظره ... فالحكمة تقضي ان تتقيد أمريكا علناً بمثل هذه الاتفاقية لأن الميثاق التركي العراقي كان يحمل في صيغة البند الخامس منه ما يثير مخاوف إسرائيل ويعزلها عن المنطقة بأسرها – وعلى ذلك فقد تطور منهاج أمريكا السياسي كما أسلفنا واصبح همها الأكبر ارضاء عبد الناصر حرصاً وأملا في حماية إسرائيل .

التنافس الدولي على السيطرة في الشرق الأوسط

ومن الأسباب التي ساعدت ايضا على بث عوامل التفرقة في اساليب السياسة على الصعيد الدولي هو التنافس الخفي القائم بين الأمم الاستعمارية الكبرى على حوض البحر الأبيض المتوسط . كانت الولايات المتحدة تجهر على الدوام بأن ليس لها اطماع

استعمارية قط . مع العلم انها استطاعت بواسطة امكاناتها الشاسعة وغناها الوافر تثبيت سياسة اقتصادية عالمية واسعة النطاق ... ومع ذلك لم يكن لديها على سواحل هذا البحر العامر مرفأ خاص بها رغم اتساع مصالحها في المنطقة خصوصاً بعد حصول شركة Aramco على امتيازات النفط في الظهران ، وهي التي كانت تتمتع بها بريطانيا قبل ذلك ... وجدت أمريكا على الساحل الاسرائيلي مركزا استراتيجيا مختارا لحماية مصالحها في الشرق الأوسط ، فتوثقت الروابط بينهما حتى اصبحت إسرائيل علنا ربيبتها في المنطقة ... وفي ذلك ما يفسر لنا تمسكها الدائم بالدفاع عنها في كل ما يمكن ان يمسها من قريب أو بعيد .

ومما لا شك فيه ايضا هو ان شركات النفط الكبرى كانت تلعب دورا رئيسيا في المنطقة الـ .B.P والـ IPC ...الخ فهي التي كانت تحرك مجرى الاتجاه السياسي الذي كانت تتخذه حكوماتها للمحافظة على مصالحها في البلاد التي تستخرج منها النفط ... كانت هذه المؤسسات تعتمد قبل كل شيء على الحاكم القوي الذي يستطيع ادارة دفة الأمور فيها وقمع مصادر الشغب الطارئة إذ طالما تضررت مصالحها عند توقف ضخ النفط نتيجة اضطرابات سياسية داخلية . وتشهد الأحداث بأن سياسة الغرب كانت تتمثل على الدوام للنهج الذي تفرضه عليها تلك الشركات ... بل كثيرا ما كانت تغير مجرى سياستها التقليدية لتساير عدو الأمس حفظاً لمصالحها .

نتائج عدم وجود سياسة موحدة في المنطقة

وبالإجمال نجد ان دول الشرق الأوسط محاطة بمن يطمع في مغانمها من كل جانب ... وكان المسؤولون فيها يشعرون بخطورة هذا التنافس ... ولكن تقدير مدى الخطر وتدارك الأمور بأساليب حازمة كانت تختلف حسب الأوضاع الجغرافية والظروف السياسية والاقتصادية ودرجة النضوج السياسي والاجتماعي الذي تتمتع به شعوب تلك البلاد .

لم تكن مصر مثلا تلمس وطأة المناورات السوفييتية وأساليب الحرب الباردة بالشكل الذي كانت تشعر به تركية والعراق وايران ... ولكن مما لاشك فيه هو ان الطبقات الواعية جميعاً في تلك البلاد كانت تلمس جليا ضعف الامكانيات المادية التي

تتمتع بها لإنماء مواردها ومستواها وقابليتها المحدودة لحماية سيادتها في عالم يرضخ لسلطان القوة والبطش .

ونظرا لعدم وجود سياسة موحدة بين تلك المجموعة وهي التي اراد نوري السعيد ان يحققها بميثاق دفاعي واقتصادي شامل ... كانت كل دولة تسعى الى علاج مشاكلها الخاصة على حدة ... وتعطي الأولوية للخطوات التي تهمها وتقبل العروض التي توافقها – وبهذه الصورة تسربت الى المنطقة عناصر مختلفة وانفتحت ابواب التنافس بين ذوي المصالح في مرتع خصب ، فكانت النتيجة تشتيت الجهود الجماعية وفك روابط التضامن المنشود بين الأمم القاطنة في رحاب الشرق الأوسط .

مصر
وسياسة الضباط الأحرار

سياسة الضباط الأحرار

كان الضباط الأحرار عندما تقلدوا الحكم في وادي النيل يتظاهرون بالوحدة التامة في الرأي والأهداف والمنهاج ، ولكن الظروف اثبتت فيما بعد بأن ميولهم واتجاهاتهم السياسية كانت تختلف اختلافا عظيما ... فمنهم المعتدل كمحمد نجيب الذي لم يكن في الواقع سوى قناع مؤقت لفئة لا يعرف عنها العالم شيئا ، وكان من بينهم المتطرفون كعزيز علي المصري وخالد محي الدين وعلي صبري ، ومنهم المندفعون كجمال سالم وأخيه صلاح سالم ، كما كان بعضهم يتطور ويساير وفقا للظروف كأنور السادات وحسين الشافعي .... وكان خير من يحسن السيطرة من بين اعضاء القيادة هو العقيد جمال عبد الناصر الذي استطاع بقوة شخصيته ودهائه ان يسود فوق الجميع ويقضي على كل من ينافسه .

التعاون القائم بين الضباط الأحرار والمنظمات السرية والدولية

كانت شبكة منظمة تدير الاتصالات ما بين مركز الضباط الأحرار والمنظمات السياسية والعقائدية والارهابية السرية التي كانت تعمل في الخفاء في ارجاء مصر وذلك قبل تاريخ الانقلاب ... وكان منهاج الخطوات المزمع اتباعها منظما على الصعيد المحلي والدولي على حد سواء . وعلى سبيل المثال نقول ان الغاية من انتخاب محمد نجيب رئيسا للدولة ، وهو الشخصية المعروفة باعتدالها ، كانت فقط لتطمين العالم على حسن نوايا اصحاب الانقلاب وعدم انجرافهم نحو التطرف ، كان من جهة اخرى صلاح سالم ، بالتضامن مع محمد حسنين هيكل ومصطفى أمين على اتصال دائم بدائرة المخابرات الأمريكية ، كما كان علي صبري وخالد محي الدين هما الوسطاء بين الضباط الأحرار واليساريين .... ولا يخفى ايضا بأنه كان لأنور السادات صلات مباشرة مع الأخوان المسلمين وغيرهم من الذين حبذوا تبديل نظام الحكم في مصر ... وهكذا كان لكل عضو منهم اختصاص في هذا المجال ، وذلك لمواجهة أية حركة تمردية في الداخل أو أية معارضة طارئة من الخارج .

سياسة الحكم الجديد في البداية

لقد اتبع النظام الجديد في البداية اسلوب اللين والمجاملة مع كافة اقطار العالم وعلى الأخص بلاد الشرق الأوسط ... فكانت الجرائد في تلك الفترة تترنم بالروابط الأزلية القائمة بين كافة البلاد العربية ، وبالأخوة التاريخية التي تجمع ما بين مصر وتركية ... فلم تعلن الحكومة الجديدة العداء لأي دولة في الخارج ... ولم تنقض المواثيق المبرمة بل ابدت احترامها للروابط والمعاهدات الموجودة واقتصرت فقط على اعلان نيتها في تبديل نظم سياسة مصر الاقتصادية .

كانت القرارات الجديدة تشمل تعميم الاصلاح الزراعي وتأميم عدد من مؤسسات القطاع الخاص كما تمت مصادرة اموال اعضاء الأسرة المالكة وعدد من أصحاب الثروات المرموقة بحجة تأمين العدالة الاجتماعية ... واغلبها اجراءات داخلية ، وبناء على ذلك سكنت المعارضات في الداخل والخارج على حد سواء أملا بأن تستطيع تلك الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة القضاء على الأسباب التي كانت تزعزع

عوامل الاستقرار في وادي النيل منذ فترة طويلة .

القضاء على المعارضين كمخطط للقيادة

والجدير بالملاحظة في هذا المقام بأن علاقة الحكومة القائمة مع العناصر التي ساعدتها على قلب نظام الحكم الملكي في مصر ظلت ودية الى ان تركزت قواعد الحكم الجديد ... والفضل في ذلك لأعضاء القيادة الذين كانت لهم اتصالات مباشرة بالخلايا والمنظمات السرية التي ساندت الانقلاب .

لقد كان الرئيس عبد الناصر وعدد من اعوانه المقربين يعرفون ما يجري في الخفاء كاملا ...وفي ذلك ما يفسر نجاح القيادة في قمع الحركات المعادية للسياسة المرسومة ... فكان الغاء مجلس الوصاية الخطوة الأولى في منهاج خططهم وتلا ذلك عزل محمد نجيب لمجرد اعتراضه على بعض التصرفات التعسفية ضد عدد من اعضاء الوفد ... فكانت النتيجة ان الهيئة المسيطرة على تنفيذ المنهاج في القيادة العامة امرت عملائها بتنظيم اضراب عام على الفور لشل حركة النقل في ارجاء الدولة ، وبذلك ارغم محمد نجيب على الاستقالة ، ثم نقل رأسا الى دار نائية تحت الحراسة حتى لا يتيسر له الاتصال بمن يسانده من اعوانه في الجيش .

اقصاء المعارضين

واستمرت هذه السياسة ضد الشخصيات وكافة العناصر أو المنظمات التي يمكن ان تعرقل سير الانفراد بالسلطة فلم ينجو حتى مجلس الدولة من بطش الحكم القائم مع العلم بأن الضباط الأحرار كانوا قد اتصلوا بالدكتور السنهوري رئيس مجلس الدولة بعد الانقلاب مباشرة للإطمئنان على شرعية الخطوات التي اتخذوها من الناحية الدستورية ... ومما يدعو الى العجب هو ان الدكتور السنهوري لم يعارضهم في حينه بل رحب بقدومهم واخبرهم بأن مجلس القيادة هو الذي له حق وضع أسس الدستور المناسب ... ولا ندري اذا كانت هذه الفتوى ترجع الى خوف السنهوري من بأسهم أو ان الدافع لهذا التصرف هو امله في ان يصبح هو المرجع أو السند القانوني لهم عند وضع دستور المستقبل ... وعلى كل حال نضيف الى ذلك بأن السنهوري اصبح هو ايضا بعد

مدة قصيرة أحد ضحايا الحكم القائم ، ففي يوم صاخب اتجهت لوريات المظاهرات المنظمة الى مبنى مجلس الدولة في القاهرة فحطم المتظاهرون كل ما فيه ولم ينج السنهوري من شر بأسهم إلا بالانزواء تحت المنضدة التي حمته من ضرباتهم العشوائية . والجدير بالذكر ان الشرطة لم تتخذ أي اجراء ضد المتظاهرين ، ولم يبق للسنهوري أي ذكر بعد ذلك . ومن الغريب هو ان العراق اراد فيما بعد ان يستعين بالدكتور السنهوري لاستكمال بعض الأبحاث القانونية التي سبق ان قدمها للحكومة العراقية ، فارسلت اليه كتابا رسميا مسجلا عن طريق مجلس الدولة الذي كان يرأسه قبل بضعة شهور ... وإذا بالكتاب يرجع بعد عدة أسابيع وعلى المغلف ملاحظة تقول بأن مقر اقامة هذا الشخص غير معروف ... وهكذا كان مجلس القيادة يسدل الستار على ذكر كل من كانت الهيئة الحاكمة في مصر ترغب في اخفائه واهمال وجوده للأسباب التي تضمرها ... كما كانت تتحاشى التعاون مع أي فرد من أقطاب العهد المباد مهما كانت قدرته العلمية .

طرق تثبيت قواعد الحكم الجديد

كان أهم ما يرنو اليه مجلس القيادة هو تثبيت قواعد النظام الجديد من الوجهة القانونية دوليا خوفا من ان يستطيع انصار الحكم السابق الاضرار بهم بالتعاون مع الأقطار الخارجية ... وبناء على ذلك اتخذ القائمون بالأمر خطوات متزنة مدروسة فاستطاعوا أولا القضاء على سمعة الحكومات السابقة وبعض أقطاب العهد الملكي بالتشهير بهم في محاكم علنية بتهمة الفساد والرشوة ...ثم توصلوا بالتدريج الى تحطيم التكتلات السياسية في مصر ، فانحلت كافة الأحزاب السياسية وشلّت حركة أنصار السلام واليسارية المتطرفة ، وكان مصير الأخوان المسلمين الذين تمردوا على الحكم القضاء المبرم ... فلم يبق في وادي النيل أثر لأية معارضة منظمة في النهاية ...وظهر اخيرا على مسرح السياسة في مصر بصورة سافرة صاحب السلطة الفعلية ومحرك شبكة الاتصالات الخفية المتعددة الرئيس جمال عبد الناصر .

عبد الناصر والحكم الفردي

لقد أصبح واضحا ان الحاكم الجديد مستبد النزعة يؤمن بالحكم الفردي وعندما تمت له السيطرة الكاملة على مقدرات مصر تبلورت شخصيته الدكتاتورية كاملة ... لم يبق لنظام الشورى المصطنع الذي كان يجمع زمرة الضباط الأحرار في بداية الحكم الجمهوري أثر يذكر على مر الأيام إذ تم اقصاء كل من يعارضه بالتدريج ... وفي آخر عهد حكمه كان عبد الناصر لا يقبل المناقشة في الأمور التي تتعلق بالسياسة التي صمم ان يتبعها ، بل كان يفرض ارادته على العالم العربي بأسره ويأمل ان يفرض زعامته الشخصية المطلقة على الوطن العربي الكبير من الخليج العربي الى المحيط الأطلسي .

سبب اعتماد عبد الناصر على أجهزة الدعاية

وقرر عبد الناصر ان يكتسب تلك الزعامة عن طريق دعاية واسعة النطاق كالتي نظمها جوبلز لتثبيت قواعد حكم هتلر ... وقد استطاع في هذا المجال ان يقنع الدول الكبرى بقدرته على السيطرة الكاملة على المنطقة بأسرها اذا تمت له الزعامة المطلقة فيها ... وسنروي تفاصيل الخطوات التي اتخذها لتحقيق ذلك فيما بعد .

ومما لا شك فيه هو ان الدول الكبرى في الشرق والغرب على حد سواء اعتبرته الزعيم المثالي والشاب الجرىء في دولة فتية تتمتع بمركز اجتماعي واستراتيجي مرموق وانه سيتطيع تكييف سياسة المنطقة واخضاع الرأي العام فيها حسب ارادته ، لقد أثبت فعلا قدرته بعد ان ثبت هيبة الحكم في وادي النيل ... فهو الذي استطاع بقوة ودهاء ان يقضي على العناصر المختلفة التي كانت تزعزع الاستقرار في مصر قضاءً مبرما . فلا عجب اذن ان تتسابق الدول العربية والشرقية والعالم العربي بأسره لكسب مودة ومساندة شخصية مرموقة لها قدرة السيطرة على مقدرات أهم منطقة استراتيجية في الشرق الأوسط ... وبذلك أصبحت مصر محط أنظار الدول المتنفذة من جهة ، وركن آمال الدول العربية والأسيوية من جهة أخرى .

أهمية الإذاعة

لجأت القيادة في تنظيم اسلوب الدعاية في مصر الى الطريقة التي استعملتها إلمانيا

النازية في عهد هتلر وذلك بالتعاون مع خبراء ألمان من اللاجئين الذين كان لهم خبرة مشهودة في تنظيم الدعاية النازية ... ويذكر الذين عاصروا الحرب العالمية الثانية بأن ركن (حي العرب) من اذاعة برلين كان له أثر بالغ في توجيه مشاعر العالم العربي أثناء تلك الفترة .

لقد أصبح للإذاعات اللاسلكية في عصرنا هذا شأن يوازي شأن السلاح قوة وجبروتا ... خصوصا في مجالات الحرب الباردة ... وعلى الأخص في الأوساط التي لم يستكمل فيها النضوج الاجتماعي ... وقد استطاع عبد الناصر ان يمهد الطريق الى ذلك فحصل بمساندة الولايات المتحدة على أقوى جهاز اذاعي لدعم زعامته في الشرق الأوسط ... وهكذا افتتحت الحكومة المصرية دائرة مستقلة للدعاية والأعلام كانت تستنفد ثلث ميزانية الدولة ان لم يكن أكثر .

اسلوب الدعاية في مصر في بداية العهد الجديد

كان اسلوب الدعاية في بادىء الأمر يدعو الى التفاؤل ... فظلت المصادر الاعلامية من اذاعة وصحافة ومنشورات تجامل الشرق والغرب والدول العربية والإسلامية على حد سواء ... ولكنها كانت تبرر بشتى الوسائل الخطوات التي كانت تتخذها الحكومة المصرية ضد الفئات التي بدأت تتذمر في أرجاء وادي النيل ، وتنعتها تارة بالرجعية أو الانتهازية ، وتعتبرهم أعداء للوطن والعدالة الاجتماعية والاصلاح ...

كان أمل الناطقين بالضاد حينذاك أن تدعم تلك الدعاية المنطقة المركزة بقوة البث وسحر الاسلوب وحدة العرب في المنطقة بأسرها - لم تقتصر السلطة الحاكمة على تنظيم الدعاية الاذاعية فقط ، بل بدأت ايضا بتجنيد اعلامي شامل ، يسانده طابور مدرب في الخارج من المعلمين والتلاميذ والأطباء الى جانب عدد لا يستهان به من الضباط والدبلوماسيين ... وكان النظام الجديد ينفق عليه بسخاء .... وبناء على ذلك تفاءلت الأمة العربية خيرا ، وظلت تترقب تطور الأمور في أرض الكنانة بأمل ان يصبح هذا التجنيد الشامل مصدر قوة لإعلاء شأن العروبة بأسرها في العالم ... وبعد مدة وجيزة أقامت دائرة الاعلام في مصر اذاعة رنانة تلقب (بصوت العرب) فبدأ هذا الركن أولا بث دعاية واسعة النطاق لتثبيت مقام الرئيس الجديد ... ثم باشر بنشر المبادىء

السياسية التي أراد الحكم القائم ان يفرضها لا على المصريين فحسب بل على العالم العربي بأسره ... وبالتدريج تطور اسلوب الركن المذكور واتخذ (أحمد سعيد) في مصر الطريقة التي كان يتبعها (يونس بحري) المذيع العراقي الذي اشتهر اثناء الحرب العالمية الثانية بأسلوبه اللاذع ... ونجح حينذاك من برلين بإثارة مشاعر المستمعين العرب والتشهير بالجهات التي كانت تساند الحلفاء ، والمعلوم ان دوائر الاعلام في مصر اتخذت هذه الطريقة النازية في تنظيم الصحافة والاذاعة ، وانها استعانت بالخبراء النازيين الذين لجأوا الى مصر بعد اندثار عهد النازية في ألمانيا . ومما يدعو الى الأسف ان هذه الدعاية المركزة لم تخدم أهداف الوحدة المنشودة ، وذلك رغم قدرتها وامكانياتها الهائلة في توجيه سياسة الوطن العربي الكبير . بل على العكس فإنها أساءت لمبادىء الوحدة العربية ، وزرعت انعدام الثقة بين الحكومات ، وصنفت أقطار الوطن العربي بين رجعي وانتهازي ، وتقدمي وثوري .

التمهيد للمباحثات السياسية بين مصر والعراق

فعندما اصحبت القيادة في يد الضباط الأحرار أراد القائمون بالأمر في مصر جس نبض البلاد العربية المجاورة قبل البداية في تنظيم علاقاتهم السياسية بصورة عامة . وفي مستهل سنة ١٩٥٣ وصل الى بغداد الضابط المتقاعد عز الدين السيد بقصد النزهة والصيد مع عدد من اصدقائه المصريين ، فاتصل بالعقيد صباح السعيد نجل نوري السعيد الذي كان يشغل منصب مدير السكك الحديد والطيران المدني في العراق ... إذ كانت تربطهما معرفة سابقة . فتمت أثناء تلك الفترة زيارات متعددة لمنزل العائلة . كان المهندس عز الدين السيد في أحاديثه يشيد دائما بالحكم الجديد ، ويبالغ في وصف وطنية واخلاص الضباط الأحرار ، كما كان يؤكد بحرارة بأن العالم العربي سوف يستفيد فائدة جمة من تقارب مصر والعراق ومساندة الحكومة العراقية لرجال الانقلاب .

وضع محمد نجيب في مركز القيادة

وعند الرحيل تقرر ان يعود المهندس عز الدين الى القاهرة وان يلحق به العقيد صباح السعيد بعد ذلك ليحمل رسالة شفوية من أبيه الى الرئيس محمد

نجيب ، وكان المفروض ان يهيء المهندس عز الدين السيد للمقابلة المنشودة بين الطرفين .

وبعد مرور يومين من وصول صباح السعيد الى القاهرة طلبت القيادة اليه فعلا الحضور الى المقر ... فذهب في الموعد المحدد برفقة عز الدين واستقبله عدد من الضباط ومن بينهم عبد الحكيم عامر بكل بشاشة وترحيب ... ثم طلبوا منه ان يطلعهم على مضمون الرسالة التي جاء بها من بغداد وذلك نظرا لغياب محمد نجيب بسبب حدوث ظروف طارئة استدعت خروجه من المقر .

وعندما أخبرهم صباح السعيد بأنه يحمل رسالة شفوية تخص محمد نجيب فقط ... ارتبك الضباط وقالوا ان الأفضل تأجيل المقابلة الى موعد آخر - وبعد أيام تحدد الموعد الجديد وتكرر الاسلوب نفسه عندما اصر صباح السعيد ان لا يتفوه بالرسالة إلا بحضور محمد نجيب ... فبدا الارتباك على الوجوه وكثر الهمس بين الضباط وارادوا تحديد موعد آخر ... ولكن صباح السعيد شعر بغموض الموقف فاعتذر قائلا بأن مستلزمات وظيفته لا تسمح له بإطالة اقامته في القاهرة وان الأفضل ان تتصل القيادة رأسا بالحكومة في العراق اذا احتاج الأمر لذلك .

تعليق نوري السعيد على ما تقدم

وأدرك نوري السعيد فورا بعد الاطلاع على تفاصيل تلك الزيارة ان الانسجام مفقود بين أعضاء القيادة ، وأنهم لا يدينون بنفس المبادىء السياسية - كانت الحالة حينذاك في المقر متوترة ... فالرقابة شديدة ... والاستجوابات مرهقة والأوضاع مرتبكة ... ومن الصعب ان يدرك المرء من هو صاحب الأمر والنهي في تلك المؤسسة . كانت الرسالة التي أراد نوري السعيد ان يبعث بها الى محمد نجيب تهدف الى تحديد موعد لمقابلة شخصية بينه وبين رئيس الدولة المسؤول في نظام الحكم الجديد في مصر ... وكان تمسك نوري السعيد بأن يقابله على انفراد يرجع الى رغبته في التفاهم مع المسؤول المصري الأول شخصيا .... والاطلاع عن كثب على برامج السياسة التي ستنفذها الحكومة القائمة ، ونوع التعاون والمساندة المطلوبة من العراق في تلك الظروف ... إذ لا يخفى بأن شخصية محمد نجيب معروفة باعتدالها على الصعيد الدولي

في حين كانت شخصية باقي أعضاء القيادة مجهولة الى حد كبير ... وقد أظهرت الأيام بعد ذلك ان محمد نجيب لم يكن المسؤول الأول أو القائد الأعلى في مجلس القيادة إذ تبين لنا مما تقدم بأنه كان منذ البداية مراقبا ومعزولا في نفس المقر ... وان شخصيته كانت مجرد ستار أو قناع على نظام حكم له أساليب وأهداف ثابتة خاصة .

المعاهدة التمهيدية بين مصر وبريطانيا

وفي ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ عقد اتفاق تمهيدي بين بريطانيا ومصر فيما يتعلق بقاعدة قناة السويس والجدير بالذكر هو ان المادة الأولى فيه تعالج موضوع انسحاب القوات البريطانية من الأراضي المصرية ... كما ان المادة الرابعة تبين الظروف التي يمكن للقوات البريطانية ان تعيد احتلالها لقاعدة القنال في حال وقوع هجوم سوفييتي على تركية .

وفي ٤ آب سنة ١٩٥٤ عاد نوري السعيد للحكم ، وكان يتابع عن كثب الاتفاقية التركية الباكستانية المعقودة يوم ٢ أبريل ، والاتفاق التمهيدي الذي عقد بين مصر وبريطانيا حول قاعدة قناة السويس ... واذا بوزارة الخارجية في بغداد تعلق بأن الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومي ، مع وفد مكون من عشرين شخصا ، سيزورون الملك فيصل وولي العهد الأمير عبد الله في مقرهم الصيفي في سرسنك ... ويبدو لنا ان الأتفاق التمهيدي الذي عقدته مصر مع بريطانيا حول قناة السويس كان هو الدافع الذي جعل مصر تقترح عقد اجتماع لبحث العلاقات العربية .

محادثات سرسنك

واستغل نوري السعيد هذه المناسبة أثناء المباحثات لاستعراض السياسة الخارجية للعراق وبحث الخطر الشيوعي المتواصل الذي يهدد من الشمال ، ثم تطرق الى السياسة العربية بصورة عامة ... واتسمت تلك المباحثات وفقا لما أشار اليه البيان المشترك بالصراحة والروح الأخوية كما قرر الطرفان تنظيم التعاون من جهة وتحديد موقف العرب في القضايا الدولية من جهة أخرى" وهنا تتحتم الاشارة الى النقاط التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين وهي تتلخص في :

(١) تقوية ميثاق الضمان الاجتماعي .
(٢) التعاون في مكافحة المبادىء الهدامة بتبادل المعلومات مع الخبراء العراقيين حول الموضوع .
(٣) التفكير في إعادة تنظيم السكرتارية العامة للجامعة العربية .
(٤) تبادل المعلومات في الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

وعند انتهاء المباحثات تفاءل الجميع خيرا نظرا للروح الودية التي رافقت المباحثات .

كتاب سري من نوري السعيد الى عبد الناصر

ويتحتم علينا في هذا المقام الإشارة الى الخطاب الذي أرسله نوري السعيد الى جمال عبد الناصر بيد صلاح سالم على أثر انفضاض اجتماع سرسنك في العراق عندما شعر بأن الرئيس المصري تنصل من الانتماء لميثاق بغداد وانه يصر على احياء معاهدة (التضامن العربي) فقط لصد هجوم اسرائيل . كان العراق يخشى بأس الجبهتين الروسية والإسرائيلية على حد سواء عندما فكر في انشاء ميثاق بغداد ، وكان يعلم الى جانب ذلك أن امكانيات العرب العسكرية محدودة فأراد ان يطمئن على قوة الدفاع الذي تستطيع مصر ان تقدمه وقت الحاجة كما أظهر استعداده لتجميد ميثاق بغداد إذ تأكد من ذلك ... وفيما يلي ما كان يتضمنه الكتاب الذي حمله صلاح سالم الى مصر : قال "ان العراق على استعداد لأن يعلن تجميد عضويته في حلف بغداد اذا تقدمت القاهرة بمشروع معاهدة عسكرية جديدة قادرة على ان تضمن للعرب من القوة والأسلحة والجنود المدربين ما يمكنهم من التصدي للأخطار الصهيونية والشيوعية على حد سواء ، وان تكون هذه المعاهدة جادة في ان يحمل العرب مسؤوليتهم على الصعيد العسكري بحيث تتوحد القيادات والتدريب على كافة المستويات .

لقد ظن صلاح سالم عند تسلم هذا الكتاب بأنه نجح في مهمته نجاحا ملموسا وأعلن عن تفاؤله نتيجة اجتماع سرسنك ... ولكن يبدو ان الرئيس لم يوافق على تصريحاته العلنية في هذا الشأن فكانت النتيجة ان السلطات في مصر أوقفته في المطار

وحينئذ انتشر خبر وجود انقسام في صف أعضاء القيادة . فتلاشى التضامن العربي الجماعي العسكري المنشود وزادت الخلافات في أرجاء المنطقة والسر في ذلك تسرب الضغط الروسي على القيادة في ارجاء وادي النيل .

وعند عودة صلاح سالم الى القاهرة أشيع في الأوساط السياسية بأن توقيفه تم فور وصوله الى المطار ، كما تم التحقيق معه حول التصريحات التي أدلى بها أثناء محادثات سرسنك ، وفي ذلك ما يبين لنا جليا ان اعضاء القيادة أنفسهم كانوا تحت الرقابة إذ كان عليهم تنفيذ السياسة المرسومة فقط دون أي تصرف داخل المنهج المحدد .

الأخطار التي كانت تواجه الشرق الأوسط

من مخلفات الحرب العالمية الثانية ظهرت تيارات سياسية وعقائدية ومذهبية مختلفة في ربوع المنطقة التي تمتد ما بين النهرين من نهر الأندوس في الشرق الى ضفاف البحر الأبيض المتوسط غربا ... وقد شعرت أغلب البلاد الكائنة في ارجائها ما يهدد الاستقرار فيها - كانت بلدان النطاق الشمالي وفي مقدمتها باكستان وتركية وايران تخشى من تسرب النشاط السوفييتي الى بلادها وذلك بانتشار وسائل الحرب الباردة ، في حين كانت البلاد العربية ترى في إسرائيل خطرا مباشرا على كيانها ولا تنظر الى الخطر السوفييتي بعين الأهتمام ، بل تعتقد ان في مساندة الغرب لإسرائيل وفي غض النظر عن التوسع الصهيوني على حساب العرب هو الخطر الداهم الذي يهدد الأمة العربية .

والى جانب هؤلاء نجد ان بعض الأمم القاطنة في تلك المنطقة كانت تجاهد بشتى الوسائل للتخلص من براثن الأستعمار لاكتساب سيادة بلادها الكاملة ... كمصر بالنسبة لقناة السويس والعراق للحصول على جلاء المملكة المتحدة من قاعدتي الشعيبة والحبانية ... ولكن مما يدعو الى الأسف ... هو ان بعض الدول المذكورة كانت تسعى فقط الى اتقاء الأخطار القريبة الداهمة دون التفكير في ايجاد سياسة طويلة الأمد لوقف مد الأخطار القريبة والبعيدة على حد سواء .

رأي نوري السعيد في الدول الأستعمارية

والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان نوري السعيد كان الوحيد من بين أقطاب العرب الذي ادرك أهمية التضامن مع أمم مجاورة مستقلة ذات سيادة تدين بنفس المبادىء للمحافظة على سلامة المنطقة من كافة النواحي ... فتجاربه الطويلة في ميادين السياسة الدولية منذ يقظة العرب وثورة الحسين المشهودة ، ومرافقته الدائمة للأمير فيصل بن الحسين أثناء محادثاته المتعددة التي كان يجريها مع أقطار الغرب لتحرير البلاد العربية ، جعلته يتفهم عن كثب نفسيتهم وأهدافهم الخفية . كان يقول مثلا بأنه لا يثق كثيرا في وعود الأنكليز ، فهم يماطلون في مساوماتهم في الأمور التي تتعلق بمصالحهم ، وقد إندس الى جانب ذلك في صفوف أجهزتهم السياسية منذ تقلد "دزرائلي" الرئاسة عدد من بين الذين يخدمون المبادى الصهيونية ... ولكن الأنكليز كانوا حسب تقديره أرحم من الفرنسيين في تطبيق قوانينهم الأستعمارية فالأستعمار البريطاني يهدف من قبل كل شيء الى المحافظة على المصالح التجارية الخاصة بالأمبراطورية البريطانية في حين يجتهد الفرنسيون في دمج وفرض القومية الفرنسية على الشعوب المستعمرة بشتى الأساليب .

وبالاجمال كان نوري السعيد يؤمن بأن البلاد التي تدين بالديمقراطية أهون شرا من الدول التي تتمسك بالعنصرية كالنازية والصهيونية ، أو تمارس دكتاتورية صارمة ، أو تتبع نظم الشيوعية التي تجعل من الانسان آلة صماء في جهاز الدولة .

والمعلوم ايضا هو ان نوري السعيد كان معاصرا لحركات تحرير البلاد العربية ويتتبع دائما ما يجري فيها عن كثب ... وبالإضافة الى ذلك كان العراق متجاورا مع تركية وايران ، ويعلم المطلعون بأن اغلب الاتفاقيات التي وقعت بين العراق وجارتيها ، تمت ايضا على يد نوري السعيد وكذلك الباكستان . فعلاقاتها مع العراق منذ التقسيم كانت تزداد وثوقا على مر الأيام - وبناء على ذلك يجب الاعتراف بأن نوري السعيد كان خبيرا بكل ما يدور في هذه المناطق ، ويتتبع باهتمام تطور الأحداث فيها .... ، وانه كان خير من يستطيع تقدير الأمور الجارية في ارجائها بصورة دقيقة ... فالخبرة والتجارب خير موجه لرجال الدولة - وخير ضمان للمحافظة على سلامة البلاد .

الطرق التي أراد نوري السعيد اتباعها لمواجهة الدفاع عن المنطقة

كان نوري السعيد يعلم ايضا بأن ليس بين الدول الأسيوية أو العربية من تستطيع بمفردها مجابهة الأخطار المحيطة بها ماديا أو عسكريا ... وقد أثبتت تجربة الحرب الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ ، وأحداث ايران في عهد مصدق ، ومآسي التقسيم بين الهند وباكستان ، صدق هذه النظرية ... فعندما تولى نوري السعيد رئاسة الوزارة في سنة ١٩٥٤ وجه اهتمامه لتثبيت قواعد الاستقرار في المنطقة نظرا لتدهور أحوال الأمن فيها . وبعد الاطلاع على مجرى التيارات الهدامة التي كانت تشكو منها باكستان وتركية وايران وبعد تقدير ما كانت تضمره إسرائيل من جهة اخرى في الجبهة الغربية ، شعر نوري السعيد كخبير سياسي وعسكري بأن مصير هذه الرقعة الاستراتيجية التي تضم البلاد العربية والأسيوية في خطر داهم ... فهي بين أنياب كماشة تضمر سحقها في أي وقت . وبناء على ذلك بدأ يفكر جديا في هذا الأمر لعله يهتدي الى حل جماعي مناسب لمواجهة الأعاصير المقبلة قبل ضياع الفرصة .

طلائع الميثاق الدفاعي للشرق الأوسط

وجد نوري السعيد في ميثاق النطاق الشمالي الذي ابتدعته أمريكا بإيحاء من (دالاس) وزير الخارجية مثلا يحتذى به إذ كان الهدف من هذا المشروع حماية دول تخشى الاعتداء بتسرب النشاط السوفييتي الى بلادها ، وكان في مقدمة الدول المذكورة باكستان وتركية وايران . وبعد الاطلاع على تفاصيل ميثاق دفاع النطاق الشمالي والاتفاقية التي أبرمت بين تركية وباكستان فكر نوري السعيد في تشكيل ميثاق دفاعي أوسع نطاقا يضم البلاد الاسيوية والدول العربية على حد سواء ، بشرط ان يكون مستندا الى المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، ومتضمنا الشروط التالية :

(١) أن تكون الدول المنتسبة اليه على قدم المساواة .

(٢) أن تنتظم العلاقات الودية بينها في المجالات السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية على حد سواء ...

(٣) أن تتخذ اجراءات جماعية للقضاء على الاعتداءات ومناورات الحرب الباردة

في المنطقة .

(٤) العمل المشترك في سبيل تأمين الرخاء والأستقرار في ارجائها – فالحكمة تقضي بتوثيق مجالات حسن التفاهم بين أمم وفئات أثبتت منذ قديم الزمن استعدادها الفطري للتنافس والتناحر ... كما أن التضامن لحمايتها من مشاكل الطائفية والمذهبية والعنصرية هو أمر حيوي بل واجب أنساني محتم يعتمد على التعاون بإخلاص بين الأطراف جميعا .

الغاء المعاهدة الثنائية بين العراق وبريطانيا

وكان نوري السعيد يعتقد بأنه لا يمكن لمثل هذه الكتلة ان تنجح إلا اذا كانت قوية أو تعتمد على مساندة أمم قوية دون شروط أو قيود ... لتبقى حصنا مستقلا صامدا ينعم بالحياد الايجابي ويتفرغ لحفظ سلامة البلاد المنتسبة اليه فقط .

ومن الشروط التي تمسك بها نوري السعيد لضمان مبدأ المساواة بين الدول المنتسبة الغاء المعاهدة الثنائية القائمة بين العراق وبريطانيا منذ سنة ١٩٣٠ ، وكان يتمنى ايضا ان تنتسب مصر الى الميثاق الجديد للحصول على الجلاء التام عن قناة السويس دون قيد واتفاقية ثنائية اخرى . أما خير ما كان ينتظره من إبرام هذا الميثاق الدفاعي الجديد فهو شل أية حركة اعتداء تصدر من إسرائيل ... فقاعدة الميثاق مثبتة على البند (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، وهو يفرض التضامن الكامل بين أعضاء الميثاق في حالات الاعتداءات الخارجية .

ويبدو أن فكرة المشروع الدفاعي المقترح قوبلت في حينها بمنتهى الترحيب من قبل الدول الغربية وعلى الأخص بريطانيا وأمريكا .... إذ كان حرص تينك الدولتين شديدا على مصالحهما المتعددة في الجبهة الشرقية ، وكانا يتمنيان دوام الاستقرار في ارجائها . لم يكن في ذلك الوقت بين دول تلك المنطقة الثائرة على الدوام ما يضمن احلال السلام فيها نظرا للمشاكل المحلية والدولية التي تحيط بها ، ومما زاد الطين بلة الصراع الذي نشأ بين العرب واليهود بعد تقسيم فلسطين ، ولذلك بدأت الدول الكبرى في محاولات تسعى الى احلال حسن التفاهم في المنطقة .

اسرائيل تشعر بالخطر

لم ترق فكرة المشروع الدفاعي المقترح لإسرائيل إذ رأت فيه تهديدا صارخا لتثبيت كيانها ، كما وجد السوفييت في تلك الكتلة المتماسكة سدا يقضي على آمالهم التوسعية – ومن ثم بدأت المناورات الخفية تبث الشكوك والظنون وتثير الفتن حول النوايا المقصردة التي ادت الى انشائه ، وذلك في سبيل احباط حماس الدول القوية التي اظهرت استعدادها لمساندة المشروع من جهة ، والقضاء على وحدة الصف العربي من جهة اخرى ... وسنروي فيما بعد ...على هامش الأحداث .. بعض المحاولات السرية التي بذلتها العناصر الهدامة في هذا السبيل ... والتي اضاعت من جرائها الأمة العربية وسائر اقطار المنطقة في الشرق الأوسط فرصة ذهبية لا تعوض ... فرصة كانت ترمي الى تحقيق الاستقرار والازدهار للمنطقة بأسرها ، وتضع الدول الكائنة في نطاقها على قدم المساواة مع أرقى الشعوب في العالم ضمن ميثاق متوازن مبني على أسس ميثاق الأمم المتحدة .

الميثاق المقترح ودستور الجامعة العربية

كانت النقطة التي يستوجب حلها عند مناقشة موضوع الميثاق الجديد هي ايجاد كيفية لضمان ترابط الميثاق المنتظر بدستور جامعة الدول العربية ....فاقترح نوري السعيد الأسس التالية لبناء صرح الميثاق المذكور .

كانت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة في نظره القاعدة المثالية أو بالأحرى القاسم المشترك الذي يستطيع ان ينسجم مع الالتزامات القانونية التي ترتبط بها كافة البلاد المعنية ، فالمعلوم ان ميثاق الضمان الاجتماعي والدفاع المشترك العربي يستندان الى هذه المادة من جهة كما اعترفت ايران وتركية وباكستان بسلامة هذه القاعدة كأساس مشترك من جهة اخرى . وبالإضافة الى ذلك كان نوري السعيد مطمئنا لهذا الحل بالنسبة للعراق والتزاماته ... إذ لم يكن في بنود المادة أي عائق سياسي يحول دون التوقيع على الميثاق مع دول غير عربية ، ويقتصر على الدفاع والتعاون الاقتصادي . وفي هذا المقام يجب الاشارة بأن العراق لم يكن الدولة العربية الوحيدة التي وقعت اتفاقيات مع دول غير عربية ، إذ سبق لعدة دول عربية اخرى ان ابرمت اتفاقيات مماثلة نذكر من بينها :

(١) الاتفاق التمهيدي بين مصر وبريطانيا الموقع في ٢٧ يوليو (تموز) سنة ١٩٥٤ وهو الذي لم تتعرف عنه البلاد العربية إلا بعد التوقيع بمدة ...
(٢) الاتفاق السعودي مع الولايات المتحدة حول استخدام مطار الظهران والمساعدات العسكرية المتفق عليها ... الذي أبرم في شهر يونيو (حزيران) ١٩٥١ .
(٣) معاهدة التحالف المعقودة بين بريطانيا والأردن في ١٥ آذار (مارس) ١٩٤٨ .

الخطوات التي كان نوري السعيد يريد ان يتخذها قبل الشروع في التنفيذ :

قرر نوري السعيد قبل اتخاذ خطوات حاسمة في هذا الموضوع التشاور أولا ، مع البلاد المعنية ، ثم التحري لمعرفة مدى استعداد الولايات المتحدة وبريطانيا لتوسيع التزاماتها تجاه الميثاق الدفاعي الجديد دون فرض امتيازات أو شروط جديدة ... كما اراد تثبيت قواعد هذا الميثاق بين الدول المنتسبة اليه على اساس المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة بشروط متكافئة ... واراد الى جانب ذلك ان تكون الصيغة عند تحرير الميثاق مفحمة بروح المادة (٥٢) لعدم اثارة مخاوف السوفييت . وهنا يجدر بنا الوقوف قليلا لبيان المقصود من هذه الخطوة – كان نوري السعيد في مفاوضاته ينظر دائما الى المدى البعيد ، فهو عندما اقترح ان يكون اسلوب الصياغة مشبعا بروح المادة (٥٢) ، كان يفكر في وقع وتأثير هذه الصيغة على السوفييت إذ كان لا يرغب في استفزازهم .

فالمادة (٥٢) تنطوي على حل الخلافات بطرق سلمية ، وقد يروق للسوفييت الشعور بأن هذا التكتل الجديد لن يلجأ الى العنف أو التهديد لحل مشاكله المقبلة .

كان نوري السعيد يؤمن بأنه يكفي الحصول على قوة دفاعية ثابتة لاتقاء شر أي عدوان ، ولكن يجب ان يسعى المرء أولا الى حل الخلافات الطارئة بالتي هي أحسن ، فويل للضعيف في مجالات السياسة ، إذ لا راحة لأمم لا تساندها قوة ، ولكن من الخطر ان يتبع الانسان طرقا وعرة ... وقد يؤدي مثل هذا التهور الى خسارة فادحة في النهاية على المدى الطويل ، وبناء على ذلك قرر نوري السعيد ان يضمن أولا مساندة الأمم القوية للمشروع ، وان يقترح بعد ذلك عند تحرير الميثاق واستعمال روح المادة (٥٢) من ميثاق الأمم المتحدة التي توصي بحل الخلافات بطرق سلمية لعدم استفزاز اعداء

التكتلات والمواثيق .

أهمية الميثاق بالنسبة لمصر

واراد نوري السعيد الى جانب ذلك ان يبين لأصحاب النفوذ في مصر بأن الدخول في هذا الميثاق قبل عقد اتفاقية ثنائية جديدة مع بريطانيا (كسب لمصر وطريقة مثلى للتخلص من التزامات كالتي وردت في الاتفاقية التمهيدية الموقعة في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ ..) ولعله اشار على صلاح سالم اثناء اجتماعات سرسنك بأنه كان من الافضل ان تنقسم الاتفاقية التمهيدية الى قسمين ، وذلك بجلاء القوات البريطانية عن السويس وهو أمر يخص مصر وحدها ... أما القسم الآخر وهو الذي يفرض رجوع القوات البريطانية الى قاعدة السويس عند وقوع أي اعتداء على تركية فأمر هام يمس كافة البلاد التي يمكن ان تمر بها القوات الدفاعية ... وأفضل الحلول هو أن تعالج هذه المشكلة عن طريق الانتساب الى ميثاق يضم دول المنطقة وبلادا اخرى ذات سيادة وقوة ونفوذ لضمان صدّ العدوان بصورة عامة دون الارتباط بقيود معينة ، كما فعل العراق بالانتماء الى ميثاق يضم دولا متكافئة وعلى قدم المساواة ، ولا تخضع إلا للشروط التي تضمن احترام سيادتها ورخائها الاقتصادي فقط .

الأوضاع الاقتصادية في مصر وتأثيرها على سياستها العامة

لم تنته المشاكل الداخلية في مصر بمجرد اقصاء أو توقف بعض المتنفذين من أقطاب العهد الملكي ... إذ كانت مصادر المشاغبات متعددة بسبب وجود الأوكار المتطرفة التي كانت قد ساعدت القيادة على قلب نظام الحكم في مصر دون ان تحصل على ما كانت تأمله من وعود ... وبناء على ذلك ظلت مصر تساير كافة دول العالم الى ان يتم لها السيطرة على الأوضاع الداخلية ... وكانت لهجة الصحافة والدعاية حينذاك تدعم وتمجد التضامن العربي والأخوة الاسلامية بحرارة متناهية .

نوري السعيد في مصر

وفي صباح احد الأيام رنّ الهاتف في منزل نوري السعيد في بغداد ، واذا بالصاغ

جمال سالم يطلب الى نوري السعيد زيارة مصر بناء على دعوة موجهة من قبل الرئيس جمال عبد الناصر للتشاور ... ثم أكد له الى جانب ذلك بأن لا اساس قط لما اشيع بعد مقابلات سرسنك عن وجود خلاف بين اعضاء القيادة ... واضاف مجاملا بأن الكل يرحب بقدومه .

وعندما وصل نوري السعيد الى القاهرة في ١٤ سبتمبر قوبل من اعضاء مجلس القيادة بكثير من الرعاية والاحترام ... لقبوه بأستاذنا نظرا لتاريخ حياته السياسية الحافلة ، وشكروه على الجهود المتواصلة التي كان يبذلها في سبيل خدمة مصر والعروبة ، سواء اكان ذلك عند تأسيس الجامعة العربية ، أو في التضافر مع السيد ظفر الله خان الباكستاني لدعم قضية الجلاء عن قاعدة السويس .

كانت اقامته في القاهرة محاطة بتحفظات مشددة ومقابلات محدودة بحجة انها اجراءات أمن اعتيادية نظرا للظروف الحرجة التي تمر بها مصر ، ولاحظ نوري السعيد ايضا بأن النقاش في الاجتماعات التي توالت بعد ذلك كان يدور على الدوام بينه وبين عبد الناصر فقط ... فاقتنع اقتناعا كاملا بعد تلك الجلسات بأن جمال عبد الناصر هو الحاكم بأمره في الدولة ، وانه مصدر الحل والربط في القيادة .

وعندما بدأت المباحثات اهتم نوري بشرح المشاكل التي تحيط بالشرق الأوسط بصراحة متناهية ... فبين لهم جهراً أن الوقت قد حان لدعم التعاون بين دول المنطقة لصد خطر العناصر الهدامة والأطماع الاستعمارية التي تحيط بها من كل جانب ، ثم اضاف الى ذلك بأنه يرى في ابرام ميثاق دفاعي واقتصادي بين تلك الدول خير وسيلة لتحقيق الاستقرار السياسي والازدهار الاجتماعي الشامل في هذه المنطقة ... ففي توثيق روابط هذه الكتلة الجبارة على أسس المادة (٥٢) من ميثاق الأمم المتحدة ما يضمن انسجامها مع ميثاق الضمان الجماعي والدفاع المشترك بالنسبة لجامعة الدول العربية ، ولاشك ان في توثيق الروابط بين الدول الاسلامية المجاورة والأمة العربية عن طريق ميثاق دفاعي مشترك ربح عظيم ، إذ ان في قدرة هذه الكتلة المتماسكة شل النشاط الهدام المتسرب من الشمال ، وفي وسعها ايضا القضاء على حركات اسرائيل التوسعية وآمال الصهاينة في فلسطين .

رد فعل عبد الناصر في حينه

لقد أظهر عبد الناصر في حينه تفهمه الكامل للأوضاع التي شرحها نوري السعيد ، ولكنه طلب التريث في الأمر حتى تنتهي مصر من مشاكلها المعلقة في الداخل والخارج ، وعلى الأخص مشكلة اتفاقية الجلاء عن قاعدة السويس ، إذ تجاوزت مماطلات بريطانيا سبعين عاما دون الوصول الى نتيجة نهائية .

وعندما طلب منه نوري السعيد تحديد مدة الانتظار للشروع في تأسيس الميثاق المشار اليه لم يستطع عبد الناصر تعيين تاريخ ثابت ولكنه وعد بدرس المشروع فور انتهاء المشاكل التي تحيط به ... وحيئذ اجابه نوري السعيد بأن العراق يرجو ان يتم البت في هذا الموضوع بسرعة حتى يتم الغاء المعاهدة الثنائية التي تربطه ببريطانيا لاستكمال سيادته في التاريخ المحدد ....واضاف الى ذلك بأن البلاد المجاورة التي حبذت المشروع تشعر ايضا باتساع نطاق الفتن واخطارها في المنطقة وتأمل ان يكمل التآزر لتدارك الأمر بسرعة .

ولكن عندما تردد عبد الناصر في تحديد فترة الانتظار ... سأله نوري السعيد عن الخطوات التي يجب للعراق ان يتخذها في هذا الصدد بالنسبة للظروف السياسية القائمة ، فكان جواب الرئيس المصري كجواب الرئيس الهندي "نهرو" عندما طرح عليه نوري السعيد نفس السؤال اثناء زيارة مماثلة للهند ، إذ اجابه عبد الناصر مبتسما :

> "انك خير من يدرك مشاكل وطنك ، ولك الحرية المطلقة في اتخاذ الخطوات التي ستدفع الأخطار عنها في الوقت المناسب" .

ظن نوري عند سماع هذا الجواب أن عبد الناصر تفهم بوضوح مشاكل العراق فأبدى ارتياحه ، ثم اخبره بأنه سيمر على تركية بعد رجوعه من لندن لاجراء بعض المشاورات مع (مندرس) ، فتمنى له عبد الناصر كامل التوفيق . وهكذا انتهت المقابلات في مصر دون حصول ما يعكر صفو المباحثات ، واهتم عبد الناصر بالحضور الى المطار شخصيا لتوديع نوري السعيد عند السفر .

غيوم طارئة في جو المباحثات

فبعد تبادل التحية والمشاعر الودية في المطار قبل السفر الى بغداد انتهز نوري السعيد فرصة سانحة نصح فيها عبد الناصر مخلصا ، نظرا لشعوره بتوتر العلاقات بين اعضاء القيادة ، بوجوب المحافظة على وحدة الصف حتى لا تتزعزع ثقة العالم في تضامن الضباط الأحرار وهم في مستهل حياتهم السياسية ... ثم اشار برفق الى وجوب اعادة المياه الى مجاريها ، وعدم استعمال القسوة مع محمد نجيب زميلهم السابق . لقد شعر نوري السعيد رأسا في تلك اللحظة بأن النصيحة لم ترق لعبد الناصر ... فلم يكترث بالتعليق عليها بل تطرق الى موضوع آخر في الحال - ومن يدري ؟ فربما اعتبر عبد الناصر تلك النصيحة تدخلا في شؤون الدولة ، أو تآمرا على سلامة الحكم ... وليس من المستبعد أن يكون هذا الحادث بداية الأسباب التي عكرت صفو علاقاتهما فيما بعد .

أما الحادث الثاني فهي الملاحظة التي أبداها نوري السعيد عند التشاور مع صلاح سالم اثناء محادثات سرسنك ... إذ قال له انه كان من الافضل لمصر ان تأخذ رأي الجامعة العربية قبل المبادرة بعقد الاتفاقية التمهيدية الثنائية مع بريطانيا في موضوع الجلاء ، إذ لا يجوز لها ان تسمح للفرق البريطانية بالرجوع الى قاعدة السويس والمرور عبر الأراضي العربية في حالة حدوث الاعتداء على تركية دون استشارة اصحاب الرأي فيها مقدما - لم يكن نوري السعيد يرمي عند ابداء تلك الملاحظة الى انتقاد تصرفات الحكام في مصر بل اراد مخلصا ان يشير الى نواحي الضعف في الاتفاقية المذكورة ، وقد وافقه صلاح سالم في هذا الرأي حينذاك ، ويعلم القارىء بعد ذلك ما اصاب صلاح سالم في مصر عندما انتشرت اخبار توقيفه في مطار القاهرة .

هذه بعض المشاكل التي حلت منذ البداية في سماء العلاقات بين مصر والعراق وعكرت صفوها ... ويعلم الله وحده بعد ذلك عدد المناورات الخفية التي خلقت الشكوك وشوهت الحقائق وصدعت العلاقات الودية القائمة بينهما في ظروف كان العالم العربي أحوج ما يكون فيها الى التضامن الوثيق ، وذلك في وقت كان الأطماع الاستعمارية فيه تحيط به من كافة الجهات كما كان الخطر الصهيوني يتربص بيقظة ودهاء للإستفادة من توتر العلاقات بين ابناء الأمة العربية الواحدة .

تطورات الاحــداث

ما قبل النكسة

ومن سوء الحظ ان عبد الناصر اتبع الاسلوب نفسه على الصعيد الدولي ، فكان يجهر مثلا في احدى خطبه الشعبية الرسمية ، وهو يشير الى المعسكر الغربي "اللي ما يعجبوش الكلام ده يروح يشرب من البحر" ومن البديهي ان في لهجة الأزدراء والاستخفاف التي كان يطيب له استعمالها احيانا ما نفّر عددا لا يستهان به ممن وضعوا في شخصه ثقة وآمالا حسنة ، ولكن يجب الاعتراف رغم ذلك بأن اللهجة المليئة بالثقة والاعتزاز التي كان يستعملها عبد الناصر خلقت له شعبية نادرة بين عامة الشعوب العربية ، هذا الى جانب الدعاية المركزة التي كانت تذيعها دوائر الاعلام لمساندته ، وقد استطاعت هذه القوة المنظمة ان تحيط شخصيته بهالة من البطولة حتى في مواقف الضعف والانكسار ومثل ذلك حرب ١٩٦٧ .

وتشهد الأحداث ايضا بأنه استطاع ان يتخلص من أغلب حكام العرب الذين

اعترضوا طريقه داخل البلاد وخارجها ، وذلك باستعمال نفس الاسلوب ، أي بتنظيم (المقالب) لإقصائهم أو القضاء عليهم ، وذلك بالتعاون مع كافة الفئات التي تناهض الحكومات القائمة أو المأجورين الذين يحسنون الدس ويثيرون الشغب للحصول على غنيمة شخصية ، وفي التكاتف المنظم ما بين هؤلاء وبين دوائر الاعلام في مصر ما جعل منهم سلاحا رهيبا مدمرا في يد قائد طموح هدفه الأكبر السيطرة على بلاد تمتد من المحيط الأطلنطي الى الخليج العربي تحت سلطانه - وليته تذكر ما أصاب نابليون بونابرت عندما داعبه حلم توحيد أوروبا ، مع العلم بأن بونابرت كان القائد المحنك ... وكان مستندا على جيش مدرب جبار ، وامكانيات عسكرية واقتصادية متوفرة ، وصلات سياسية منسقة ، ورغم كل ذلك لم يستطع بجبروته ان يحقق حلمه الكبير لتوحيد أوروبا عندما اطلق لطموحه العنان .

كان من الصعب أن يتكهن الانسان بما يجري وراء الستار ... فوجود عنصري السرية والمفاجآت لا يضمن الصفاء في العلاقات السياسية ، وقد تثبت لنا الأحداث بأن الثقة اضمحلت ثم تلاشت بين عبد الناصر وكل من تعامل معه سياسيا ، وذلك عندما انكشفت لهم الحيل الصامتة .

في اليمن

وفي سرد تفاصيل قضية اليمن ما يكشف النقاب عن بعض الأساليب المحيرة التي استخدمتها الأجهزة الناصرية للسيطرة على نظام الحكم القائم في أرجاء الوطن العربي الكبير .

لم تكن الوحدة التي تغني بها (كتاب الميثاق) مبنية على صياغة فكر قومي متماسك يستند الى تعميم مبادىء العدالة والأخوة والمساواة بين أبناء الأمة الواحدة مع تطبيق تلك المبادىء ايضا في تنظيم العلاقات القائمة بين شعوب الوطن العربي الكبير ، إذ تبيّن على العكس أن الاسلوب الذي اتبعته القيادة لتطبيق الميثاق الموعود في اغلب الأحيان يفرض وصايتها على شعوب حائرة متفككة أثملتها الدعايات والشعارات والوعود المثيرة .

كان محركها يتمتع بدهاء الزعيم الذي يتقن تطبيق الطرق التي يفرضها احيانا

العمل الشعبي والجماهيري في ميادين السياسة الملتوية ... إذ كاني طيب للشعوب التي انتهكت حقوقها المشروعة اتباع سراب وآمال براقة تبشرها باسترداد الوطن السليب والحرية والكرامة ، ولا شك ان في فحص الوسائل التي استعملها عبد الناصر لتحقيق مآربه في مختلف الدول ما سيكشف لنا عن حقيقيته كقائد وزعيم ورجل دولة في سجل التاريخ الحديث .

فاليمن كما يعلم الجميع بلد عريق يعتز بتاريخه وتقاليده العربية والاسلامية الموروثة ، وقد استطاعت الفئات الحاكمة فيه عبر السنين ان تحافظ على استقلال البلاد وعلى طابع صنعاء المرموق ، داخل اسوارها المتينة في شبه عزلة من تيارات العالم الخارجي ، كان لحكامها السلطة الدينية والتشريعية المطلقة في ادارة شؤون الدولة منذ تاريخ بعيد ، وكان الامام احمد رئيس العشيرة الحاكمة حينذاك هو الآمر الناهي في المنطقة بأسرها الى تاريخ وفاته في سنة ١٩٦٢ - وفي شهر مايو سنة ١٩٥٩ قام ولي العهد محمد البدر بأعباء الحكم مؤقتا اثناء غياب والده الذي سافر للاستشفاء في أوروبا ..

اعجاب ولي عهد اليمن بصوت العرب

كان ولي العهد معجبا بالمبادىء التي كانت تذاع من صوت العرب في عهد القيادة الناصرية وتنادي بالوحدة والحرية والكرامة والمساواة ... وكان يتمنى ان يحقق ذلك في بلاده ، واذا به يسمح لإذاعة اليمن ان تعلن على الشعب بأن عهدا جديدا كله يسر واطمئنانا سيسود على البلاد قريبا ، ثم أعقب تلك البشرى بالافراج عن عدد من السجناء ، وبأجراء بعض تعديلات في القوانين السائدة ، لقد حركت وعود البرامج الاصلاحية ونغمات الوحدة مشاعر الشباب في المجتمع ولكنها اثارت عدم الارتياح عند بعض المتنفذين .

وبناء على ذلك نصح السفير المصري الذي كان الصديق والمرشد لولي العهد بأن يعالج الموقف بإكرام المتذمرين من جهة ، وذلك بصرف مبالغ مرموقة على اصحاب النفوذ من اعضاء الفئة الحاكمة ، ثم برفع اجور افراد الجيش اليمني من جهة اخرى لحمل كافة انصار الامام على السكوت وقبول سير الأوضاع ، إذ بدأت هذه الفئات

تشعر بتسرب المبادىء الاشتراكية في البلاد وتوسيع الفتنة بين أفراد الأمة .

وعندما رجع الامام احمد بعد فترة العلاج الى اليمن اتخذ فورا قرار قمع هذا التيار الجارف ، فأمر بحبس ولي العهد محمد البدر فترة من الزمن ، وأوقف بث الشعارات عن طريق الاذاعة ، إذ اعتبرها السبب المباشر لإشعال روح التوتر والتمرد في البلاد .

وعند ذلك ملأت برامج الاذاعة اليمنية صرخات تخاطب عبد الناصر قائلة :

لماذا سمعت أجواء العالم ادعاءاتك الكاذبة ؟
لماذا تخاطب الملأ بهذا الصوت المشين ؟
لماذا اغتصبت أموال الناس كرها ؟

اننا جميعا نحب الوحدة ولكن من وراء راية الاسلام ، ولا نريد لتعاليم الرسول بديلا .

كان جواب صوت العرب على هذا الهجوم هو تحريض الشعب والجيش والجماهير علنا ضد الحكام ... وعندما توفى الامام احمد من جراء سكتة قلبية في سنة ١٩٦٢ هلل صوت العرب معلنا أن هذه نهاية الملوك المستبدين ، وانه هكذا سيقضي الملك سعود والملك حسين ايضا ، فإنهما في الواقع اموات ولكن مراسيم الدفن لم تتم بعد . وفي هذه المهاترات المشينة ما يثبت بأن عبد الناصر كان يريد ان يقيم وحدته المنشودة على اشلاء الحكومات التقليدية والعروش تحت زعامته بمساندة الاتحاد السوفييتي عسكريا ، وبجهود العملاء الذين يرتاح اليهم في المناطق التي ينوي السيطرة عليها .

البدر يتولى الحكم

وبعد وفاة الامام احمد اصبح الحكم للامام البدر في اليمن ، وفي مستهل خطابه الرسمي وعد العاهل الجديد الشعب اليمني بأنه سيسعى بكل جوارحه الى تحقيق وحدة العرب ، كما وعد بإصلاحات اجتماعية اخرى ، ولا يخفى ان القيادة في مصر كانت

تعلق عليه آمالا جسيمة ، ولكنها تعلم الى جانب ذلك بأن السيطرة الكاملة على بلاد لا تكون إلا عن طريق الجيش لأن الحكم التقليدي لم يكن يقبل أي نفوذ أجنبي بأي حال من الأحوال .

لم يكن الامام البدر بالنسبة لمصر سوى عنصر مفيد يستعان به لتسهيل فترة الانتقال فقط إذ لم يكن في استطاعته التخلص من سيطرة العشيرة للتحكم في مصير اليمن .

فظلت الدعوة الى الثورة من اذاعة مصر تحرك اليمن والجيوش للتمرد والعصيان في نفوس الشعب اليمني ، وعلى الأخص لأن قائد القوات اليمنية عبد الله السلال كان يتفق سرا مع السفير المصري في صنعاء على حيلة لقلب نظام الحكم في البلاد ببراعة لا تدعو الى الشك ، إذ اتفق الطرفان على ان يذهب السفير المصري ، وهو احد المقربين للامام البدر ، الى القصر ويخبره محذرا بأن انقلابا يدبر له في الخفاء ولينصحه الى جانب ذلك بأن لابد ان يختار فرقة القائد عبد الله السلال لحراسة القصر نظرا لإخلاصه الكامل لأسرة الامام . فكانت النتيجة بعد مرور اسبوع من تاريخ اعتلاء البدر العرش باليمن ان احاطت قوات السلال القصر واطلقت المدفعية نيرانها مهددة دون هجوم مباشر ... فإذا بالحرس الخاص يفر هاربا من القصر منذ اللحظة الأولى ، ويسمع البدر صوت القائد السلال على امواج الأثير وهو يعلن بأن حكم الامام الخائن قد انتهى .

والجدير بالذكر أن البدر كان قد تسلّم ورقة بإمضاء عبد الله السلال قبل دقائق معدودة من احد رسل القوة التي احاطت بالقصر وفي سطورها الموجزة ما يلي : (انني ما زلت في صفك يامولاي) - نظر البدر الى الورقة بمرارة واشمئزاز إذ شعر بأنه كان ضحية مؤامرة رخيصة ، واستطاع رغم حراجة الموقف ان يتسلل فورا من باب جانبي الى احدى الحدائق المحيطة بالقصر ، ومنها الى مكان امين ليلتقي بأنصار عشيرته الذين لم يجرفهم التيار الناصري .

أسباب الحرب الداخلية في اليمن

ومن هنا بدأت المأساة الكبرى مأساة الحرب الداخلية الطاحنة التي نشأت بين

الملكيين وأنصار الجمهورية ، وهي التي فرقت بين أشقاء أمة واحدة ، وكلفت الجهتين بل العالم العربي بأسره خسارات لا تعوض وما زالت اليمن الى يومنا هذا مسرحا لتطاحن التيارات المختلفة ولم يندمل بعد جرح التفرقة الأثيمة . وفور حدوث هذه الاضطرابات ارسل عبد الناصر الى تلك الجهة النائية ٨٠ ألف جندي مزودين بالطائرات والعتاد الثقيل لتثبيت اقدام (الاشتراكية) في المنطقة متجاهلا بأن في شمال بلاده اعداء العرب الحقيقيين الذين يتربصون ويتحينون الفرص لتوسيع نطاق ممتلكاتهم في الأراضي العربية ومن ثم لم يعد تسرب التيار السوفييتي الى اليمن امرا خفيا .

ولمس النظام السعودي عظم الخطر وقام فورا بمساندة الملكيين وبدأت من ذاك التاريخ بين الطرفين معارك طويلة دامية استنفدت جهودا واموالا طائلة . والجدير بالذكر هو ان الحرب التي نشبت في اليمن لم تكن نكبة على شعبها فقط إذ جرت في أذيالها مصائب جمة على الدول التي اشتركت في معاركها ، ولا يخفى ان من اهم اسباب نكسة حرب ١٩٦٧ هو انشغال نخبة الجيش المصري في حرب اليمن ، وحصر وخزن الطائرات العسكرية والعتاد الثقيل في تلك الأماكن النائية ، وهو السبب الأساسي الذي لم يتيح للجبهة العربية الصمود بجدارة في وجه العدو الأسرائيلي .

وكل ما جنته مصر من تلك المغامرة الخطيرة في حرب اليمن هو مرارة الهزيمة ووزر التدخل في شؤون دولة حليفة عربية لتفتيتها واباحة هدر دماء عربية بسلاح عربي .

فهل كان ذلك ما يرمي إليه "الميثاق" أو شعار الوحدة والاخوة الناصرية ؟

الصهيونية في العراق

والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن عملاء الصهاينة نظرا لحركاتهم الهدامة في بغداد على اثر قيام دولة اسرائيل مباشرة كما ثبت ذلك في ملفات دائرة الأمن العام العراقية إذ فيها وصف لتلك الحركات المريبة نذكر منها ما يلي :

عندما تأكدت الشرطة من وجود نشاط مشبوه في معبد اليهود الذي كان يسمى في بغداد بـ "التوارة" ، فكر المسؤولون في طريقة مشروعة لتفتيش مؤسسة لها حرمتها الدينية وقررت الحكومة ان يصطحب مدير شرطة بغداد عند دخول المبنى

سفراء مصر وبريطانيا وامريكا كشهود .

وتبين بعد دخول "التوراة" ان الاسلحة كانت مكدسة في الدور الارضي من المكان المذكور ، ويبدو ان بعض الشباب الصهيوني كان يتدرب سرا على استعمالها عند الحاجة لأشعال الفوضى باسم الدفاع عن النفس .

فالمعلوم هو ان اليهود في العراق لا يميلون الى السكن في الأرياف ، فكان عدد من يقطنون العاصمة أكثر من ٥٠ ألف يهودي ، والفئات الأخرى القاطنة في بلاد الرافدين ، إذ كانوا يعتبرون من المواطنين المخلصين ، ويخدمون العراق بصدق ، على الأخص في المجالات المالية والاقتصادية وذلك لحين اقامة دولة اسرائيل . إن تطورات الأحداث والاستعدادات السرية الخطيرة التي اكتشفهتها الشرطة في مبنى "التوراة" في بغداد ، دعت الحكومة الى اتخاذ اجراءات حاسمة ادت الى اقصاء بعض المشبوهين ، الى جانب اسقاط الجنسية العراقية عمن في يرغب في الانتماء لاسرائيل دون اغتصاب اموالهم أو ممتلكاتهم .

وبناء على ذلك استغلت اسرائيل الظروف المحيطة لاقناع المعسكر الغربي بأن تقديم المساعدات العسكرية للبلاد العربية تهديد صريح لكيانها ، فكان لها ما شاءت ، واصبح تردد أمريكا وعدم استجابتها لطلبات عبد الناصر المتكررة سببا في ابرام صفقة الأسلحة التيشكوسلوفاكية التي زعزعت ثقة الغرب في عبد الناصر بصورة نهائية .

المد الصهيوني في العراق

وبعد ان تم لإسرائيل النجاح في تعكير صفو العلاقات الناشئة بين الولايات المتحدة والقيادة في مصر اصبح هدفها الاكبر هو القضاء على ميثاق بغداد والحكم القائم في العراق حتى يتم لها احتكار مساندة الغرب كاملا ، وبناء على ذلك استعانت بالأوكار الصهيونية في بغداد وبالمركز الشيوعي فيها وكافة المنظمات والاحزاب المحلية التي كانت تعارض الميثاق ، ويشهد على ذلك ملفات دائرة الأمن العراقية التي تحمل اسماء الاعضاء البارزين فيها مع اخبار اتصالاتهم العربية بأقطاب الطابور الخامس في العراق .

اسبا ب الهجوم الاسرائيلي على غزة

ومن سوء الطالع ان عبد الناصر لم يدرك عمق الدهاء الذي تذرعت به اسرائيل لتنظيم خطتها ، فلم تمر اربعة ايام على توقيع ميثاق الدفاع التركي العراقي واذا بإسرائيل تشن هجوما مبيّتا على غزة ، لقد تعاطف العالم بأسره مع مصر في حينه وصوّت مجلس الأمن بالاجماع على التنديد بإسرائيل ، ولكن بدلا من ان يستفيد عبد الناصر من التفاف الرأي العام العالمي حوله ويدرك بأن الغرب وحده بوسعه ان يوقف اسرائيل عند حدها وقت الحاجة ، وبدلا من ان يتفق مع اعضاء الميثاق الجديد لتحصل مصر على سيادتها الكاملة كما حصل عليها العراق بالانتساب الى تلك المنظمة الدفاعية ، وبدلا من ان يرحب بالمعونات الاقتصادية والعسكرية التي كان الغرب سيقدمها مختارا لكافة اعضاء هذا الحصن المتين ، وبدلا من ان يشجع الدول العربية على التكاتف والتآزر والانتساب الى مؤسسة من أهم بنود دستورها عدم قبول عضوية أية دولة تمس سلامة دول الجامعة العربية ، وبدلا من كل ذلك ، فانه اكتفى بأن طلب باصرار سحب قوات الطوارئ الدولية للامم المتحدة التي تقوم على الحدود للحيلولة دون اصطدام الطرفين .

الاتصالات بالمعسكر الشرقي

بدلا من كل ذلك شرع عبد الناصر سرا في الاتصال بالمعسكر الشرقي عن طريق زملائه اليساريين في القيادة دون التفكير في عواقب هذه الخطوة السياسية الخطيرة للقضاء على المشروع المذكور .

ظن عبد الناصر انه يستطيع ان يحتمي في كل تصرفاته بما كان يسميه بـ (الحياد الإيجابي) مع العلم بأنه من المستحيل ان تنعم دولة من طراز مصر بما تعنيه هذه التسمية ، فكل اتفاقية في العالم لها قيودها ومستلزماتها ، وعلى الأخص اتفاقيات الصفقات العسكرية التي تشمل العتاد وقطع الغيار اللازمة لإصلاح الطيارات والدبابات والصواريخ الخ ... هذا الى جانب التدريب الفني اللازم لاستعمالها وانها تعتبر اغلالا في عنق كل من يريد الحصول عليها ، ومما لا شك فيه هو ان كل من مارس السياسة أو الحكم في العالم يعلم هذه الحقيقة وعلى الأخص هؤلاء الذين شجعوه على اتخاذ هذه

الخطوات مثل (نهرو) ، مع العلم بأن هذا الأخير ظل متمسكا بانتسابه الى الكومنولث وهو زعيم كتلة الحياد .

لست في موقف يهدف الى التشكيك في نوايا عبد الناصر أوا لتشهير بأهدافه الوطنية فالمثل الجاري يقول : "كل شيخ وله طريقة" : ولكل حاكم اسلوب ، ولكن في تحليل ومناقشة الوسائل التي اتبعتها القيادة لتحقيق تلك الأهدا ما يظهر بوضوح عدم نضجهم وقابليتهم لمواجهة الأمور بطريقة سليمة ... فالعبرة في ميادين السياسة بالنتائج .

تطور أهداف الضباط الأحرار

كان من أهداف الضباط الأحرار ، على حد قولهم عند قيام ثورتهم المشهودة في سنة ١٩٥٢ ، تحرير مصر من الأستعمار البريطاني والخلاص من النظام الملكي الأقطاعي الفاسد ، وكانت الغاية القصوى تهدف الى إحياء روح جديدة تتمسك بكرامة الفرد وتأبى قبول العبودية ويتوج تلك الأهداف تحقيق وحدة العرب ، ولا يخفى انه مما يدعو الى الأسف الشديد في هذا المقام هو ان طرق التطبيق وضعت دون وعي أو ادراك ، إذ لم يكن لها خطة مرسومة لتوضيح الطرق السليمة التي يجب ان تتبع على المدى الطويل .

كان من السهل نسبيا ان تتخذ القيادة قرارا فوريا للقضاء على الاقطاع والرأسمالية بجرة قلم مع الاحتفاظ بأغلب رؤوس الأموال في المؤسسات المؤممة بعد التخلص من أصحابها والاستغناء عن المدراء الأجانب لأدارتها ، ولكن ليس من الهين انماء الوعي المطلوب وايجاد العناصر اللازمة لبناء المستقبل ، فاستيعاب معاني الاشتراكية وتفهم ان ما تمنحه من حقوق وتفرضه من واجبات أدى الى بلبلة الأفكار لدى الشعب في مواقف عديدة ، حتى اضطر عبد الناصر أن يفسر المفاهيم التي يقصدها فقال ان الاشتراكية في قاموس القيادة لا تعني القضاء على الرأسمالية لتحل مكانها ديكتاتورية طبقية اخرى كالعمالية مثلا ، لأن الغاية المطلوبة هي اقامة ديمقراطية شاملة بين طبقات الشعوب ، وعندما تعم هذه الروح في ارجاء الوطن العربي بأسره يمكن الوصول الى وحدة شعبية شاملة تمتد من الخليج العربي الى المحيط

الأطلسي . وقد آلى على نفسه ان يقود حملة العرب في طريق الوحدة والحرية والعزة والكرامة ، ولكنه لم يعين الوسيلة أو الطرق السليمة التي سيتخذها لتحقيق الغاية المنشودة ، وفي فحص الوسائل التي استعملت في هذا السبيل ما سيكشف لنا درجة حكمته ، فلا يجوز قط ان تطغى الأهواء الشخصية كالطموح أو روح المقامرة على التفكير السليم عند معالجة المشاكل التي تتعلق بمصلحة الوطن ومستقبل الشعوب .

لكل مقام مقال

وليس من المنتظر ان يكون عبد الناصر حائزا على جميع الصفات المطلوبة ، فقد حباه الله بشخصية قوية ساحرة ، وهي التي يتميز بها عادة الزعيم الناجح ، ولكنه كان قليل الخبرة والتجارب ، وهي العوامل الأساسية التي تلهم الحكمة عند التصرف .

كانت تجاربه تنحصر في معرفة البيئات التي نشأ فيها وعاشرها في طفولته وشبابه ، فكان يعلم عن دخائلها والتيارات الخفية التي كانت تتنازعها وطرق الاتصال بمراكزها السرية ، كما كان الى جانب ذلك يتقن الاسلوب والشعارات التي تهز مشاعر الشعب وعواطفه ويقوده مختارا بسحر الكلام . وبناء على ذلك استطاع عبد الناصر ان يسيطر على سواد الشعب المصري ويقضي على اصوات المعارضة من جهة ، وعلى المناورات من جهة اخرى بصرامة متناهية عندما تسلم زمام الحكم .

والجدير بالملاحظة في هذا المجال هو ان الاسلوب الذي استطاع ان يدعم سيطرة عبد الناصر على الشعب المصري يختلف تماما عن الطرق التي يجب ان يستعملها الحاكم المحنك في المعاملات الدولية ، يقول المثل الدارج : لكل مقام مقال – وعلى ذلك يتحتم على السياسي القدير ان يعامل كل دولة بما تمليه عليه العلاقات القائمة بينهما .

كانت تجارب عبد الناصر العسكرية والسياسية في النطاق الدولي محدودة الى حد كبير ، وبعد ان تولى الحكم ظلت اتصالاته السياسية بالخارج قائمة على نفس النمط الذي كان يتبعه مع المنظمات والدول التي كان يتعامل معها سرا قبل أحداث ٢٣ يوليو فكان نشاط السياسة الدولية في عهد القيادة قائما على السرية التامة من جهة وعلى اسلوب المفاجآت من جهة اخرى ، إذ كان عبد الناصر يقوم بأجراءاته دون استشارة الزملاء أو الدول التي يهمها الأمر ، وذلك عن طريق اتصالات ثنائية مباشرة

ودون الاهتمام بما يمكن ان تنتجه هذه المغامرات السياسية من مشاكل وأضرار في الأجواء الدولية عامة .

إسلوب عبد الناصر السياسي

وفي ما يلي عدد من الموقف السياسية التي اتخذها عبد الناصر أثناء الحكم وهي تبرز اسلوبه في السياسة بصورة واضحة ، ففي سنة ١٩٥٤ أبرمت مع بريطانيا اتفاقية ثنائية تمهيدية لإخلاء قاعدة قناة السويس – لم يستشر مصر عند ذلك أي عضو من اعضاء الجامعة العربية ، مع العلم ان في بنود هذه الاتفاقية ما يسمح لجنود المملكة المتحدة بالعودة الى القناة اذا تعرضت تركية لعدوان من الشمال ، لم تهتم الحكومة المصرية عند ابرامها بأخذ آراء الحكومات العربية التي تجاور تركية والتي ربما تجبرها الظروف المحيطة فجأة الى الدخول في معارك للدفاع عن سلامة ارضها وسمائها .

لقد فاتح نوري السعيد عبد الناصر في هذا الموضوع اثناء زيارته لمصر فيما بعد ، ونصحه قائلا بأنه كان من الأفضل ان لا تورط مصر نفسها بمعاهدات ثنائية مع حكومات استعمارية ، فمن الصعب فك القيود التي يفرضونها ، بل يستحسن الدخول كما سيفعل العراق ، في ميثاق دفاعي مشترك مع بلاد حرة مجاورة ، وعلى قدم المساواة بينها ، حتى يتم تأمين التعاون الكامل المنظم بينهم وقت الحاجة ، لم يعلق عبد الناصر على هذا الاقتراح ولكن الجدير بالذكر هو ان تلك الفترة التي اجريت فيها تلك الاتفاقية التمهيدية الثنائية مع بريطانيا كانت فترة مودة بينه وبين تركية، ويثبت ذلك في خطابات عبد الناصر الى جانب ما كانت تنشره الجرائد المصرية حينذاك من ثناء عاطر على بلاد تجمعه بشعب وادي النيل صلات الرحم والدين والتاريخ التي لا تفصم .

تبدل الآراء والمواقف في السياسة المصرية

ومن العجيب ان هذه المشاعر الودية الطافحة لم تستمر طويلا إذ كان اسلوب عبد الناصر السياسي متقلبا ، فلطالما اصبح صديق اليوم عدو الغد دون سبب مباشر ، ولا يمكن ان يكون لأصحاب مثل هذه النزعة خطة سياسية طويلة الأمد لإدارة دفة الدولة ، كما لا يمكن لمن يتصف بالتقلب ان يوحي بالثقة في اتصالاته الدبلوماسية .

وفي سنة ١٩٥٧ قامت اتصالات جديدة بين مصر واسرائيل عن طريق الأمم المتحدة لإنهاء المشاكل الناجمة من احتلال اسرائيل لقطاع غزة والملاحة في خليج العقبة ، وكان الوسيط بين الطرفين (هامرشولد) ، كان مندوب اسرائيل عند اجراء هذا الاتفاق المستر (بينو) وزير خارجية فرنسا وكان مندوب مصر (محمود فوزي) وزير خارجيتها فتم الاتفاق بين الطرفين وبرضائهما تحت اشراف الأمم المتحدة وفي منزل المستر همرشولد نفسه تم التوقيع عليها في ٧ مارس سنة ١٩٥٧ ، لقد اتسمت هذه الاتصالات بالسرية التامة ، وعلى أثر ذلك انسحبت الجيوش الاسرائيلية من أرض مصر ، كما وقف جيش الأمم المتحدة على الحدود المشتركة لحفظ الأمن في المنطقة .

والجدير بالملاحظة هو ان مصر تمسكت عند وضع بنود هذه الاتفاقية بأن لها حق طلب انسحاب جيش الأمم المتحدة المرابط على الحدود اذا ارادت ذلك في المستقبل ، وقد ظلت اخبار هذه الاتفاقية الثلاثية مكتومة الى ان ظهرت نتائجها في سنة ٦٧ عندما طلب عبد الناصر بإلحاح سحب جنود الأمم المتحدة من الحدود ليثبت سيادته المطلقة على المنطقة معتمدا في ذلك اعتمادا كليا على قوة مصر العسكرية وما قدمه السوفييت له من عتاد وسلاح .

لقد فوجئت الجامعة العربية عند سماع هذه الأخبار إذ لم يأخذ عبد الناصر رأي أي عضو فيها قبل اعلان الخبر ... فاتصل الملك حسين من جهة ووزير الدفاع العراقي من جهة اخرى بالقائد الأعلى عبد الناصر للإطلاع على جلية الأمر فطمأنهما عبد الناصر قائلا : انني لا احتاج الى أي معونة عسكرية منكما فباستطاعتي وحدي الوصول الى "تل أبيب" وكل ما ارجوه تأييد معنوي يثبت التكاتف بيننا لما املكه من جيش وعتاد . فمن البديهي اذاً ان تغتنم اسرائيل فرصة سحب جنود الأمم المتحدة لتخترق دون اية مقاومة حدود بلد يفتقر الى قيادة منظمة والى جيش ينقصه التدريب العسكري ويجهل استعمال السلاح والعتاد الوارد من الشرق والذي كلف مصر جهودا وأموالا طائلة وعلى ذلك حدثت الكارثة .

النكسة الكبرى

وفي هذا المقام يعز علي أن القي مسؤولية هذه النكسة الكبرى التي منيت بها

مصر في ١٩٦٧ على أي مصري شب على أرضها أو شرب من ماء نيلها ، مع العلم بأن أقلام أولئك الذين ارادوا ان يدافعوا عن القائد الأعلى حينذاك وصفت بالخيانة من كانوا تحت امرته ، وحملوهم وزر الهزيمة .

ولاشك أن العذر في هذا المقام أقبح من الذنب ، ويكفينا ان نقول بهذه المناسبة (رحم الله امرءا عرف قدر نفسه ووقف عند حدودها) وهكذا تلاشى العتاد الذي جمعته مصر بشق الأنفس لمدة عشر سنوات طوال ، فذهب هباءا منثورا ، كما هلك سبعون ألف جندي مصري في مجاهل سيناء ، ودخل الجيش الاسرائيلي الى حدود مصر منتصرا ، وزادت الطين بلّة عندما أراد عبد الناصر ان يعالج هذه الهزيمة المنكرة باقحام جيش الأردن في القتال حين لمس أن الجيش الاسرائيلي على وشك غزو بلاد النيل فطلب الى الملك حسين ان يعلن الحرب على اسرائيل ويأمر الجيش العربي المرابط على حدودها بالهجوم فورا ، فسأله العاهل الأردني هاتفيا على مسمع من المسؤولين اذا كان لديه طائرات لحماية جيش الأردن فإذا بعبد الناصر يؤكد بأن الطائرات المصرية في طريقها لحماية جيش الأردن ، هذا مع العلم بأنه لم يكن في القوة الجوية المصرية ما يكفي لحماية مصر .... إذ كان اغلبها مرابطا في اليمن .

لم تفد بسالة الجيش الأردني عند الهجوم ، بل تعرض لخطر الإبادة لعدم وجود غطاء جوي يحميه واستمر بعد ذلك القتال بالسلاح الأبيض في القدس دون ان تظهر في الأفق طائرة واحدة ، وكانت هذه اللعبة الخطيرة سببا في ضياع الضفة الغربية والقدس الشريف ، كان الافضل ان لا يعلن الجيش الأردني الحرب في مثل هذه الظروف ، بل كان عليه ان يقف صامدا دون ان يتحرك على الحدود ، الى ان تأتيه النجدة ، ولكن جاء اصرار عبد الناصر ووعوده الوهمية لتجعله ضحية رخيصة للعدو ، ومن نتائج هذه الحركة الهوجاء احتلال الضفة الغربية ، وما زال القدس في قبضة اسرائيل الى يومنا هذا ، ومازال في علم الغيب سؤالان يحتار المرء في تفسير اسبابهما وهما :

أولا : لماذا طلب عبد الناصر سحب جيش الأمم المتحدة المرابط على الحدود المشتركة ؟ وما هي القوة التي كان يستند عليها عندما أصر على ذلك ؟

ثانيا : لما أقحم عبد الناصر الأردن في القتال وعرّض جيشه للإبادة وهو يعلم بأنه لا يستطيع ارسال طائرات لحمايته ؟ فلا يوجد عذر معقول لتبرير هذا التصرف المحير ، والله اعلم بالسرائر .

إسرائيل وميثاق بغداد

تمهـــيد

تجدر بنا الاشارة الى اقطاب الصهيونية الذين قامت على اكتافهم دولة اسرائيل امثال (هرتزل) رائد الفكرة الصهيونية و(ويزمان) اول رئيس لدولة اسرائيل .

كانت خطتهم مدروسة ومحكمة ، إذ كان ظاهرها يرمى الى حماية اتباع نبي الله موسى من شر المعتدين ، في حين كان البروتوكول الصهيوني يهدف الى انشاء دولة سياسية تمتد من النيل الى الفرات ، ويثبت ذلك ماتفوه به (هرتزل) اثناء اجتماع المؤتمر اليهودي الذي عقد في (بازل) ١٨٩٨ إذ قال : "تأمل ان يكون لنا وطن في غضون عشر سنوات، ومن المحتمل ان يظهر هذا الوطن الى الوجود في نحو ثلاثين عاما ... ولكن من المؤكد ان يصبح هذا الوطن حقيقة واقعة بعد خمسين عاما" ، ان الجهود المتواصلة التي بذلتها هذه الزمرة كأفراد وجماعات للوصل الى الغاية المنشودة مدونة في الكتاب الذي الفه (وايزمان) عندما اصبح رئيسا لدولة اسرائيل وعنوان الكتاب (التجربة والخطأ) وفيه وصف دقيق للمحاولات الدبلوماسية المتعددة التي قاموا بها كأفراد وجماعات مع اقطاب العالم الغربي من جهة والشخصيات العربية في الشرق

الأوسط من جهة اخرى . وتثبت لنا محتويات الكتاب انهم استعانوا بكافة الاساليب واغتنموا كل الفرص المؤاتية لتحقيق اهدافهم .

كان وايزمان شخصية جبارة تجمع ما بين دقة الباحث الكيمائي ، ومرونة السياسي القدير الذي يزن الاحداث والامكانيات بترو وحكمة ، فهو يروي في كتابه أن النجاح في ميادين السياسة يستند الى ركيزتين هما التعليم والمال ، كما يعترف بأن التعاون مع (روثتشايلد)الثري اليهودي المشهور دعم الجهود التي جعلت من الحلم الصهيوني حقيقة واقعة وهي دولة اسرائيل .

ويذكر وايزمان الى جانب ذلك بعض الاساليب التي كان يستعين بها في مقابلاته المتعددة مع المسؤولين لاقناعهم بوجهة نظره . فهو اثناء احدى محادثاته مع المستر (تشمبرلين) فاجأه رئيس وزراء بريطانيا بطرح السؤال التالي حين قال : ما هو رأيك ياترى اذا فكرنا في انهاء مشكلة الوطن القومي وعرضنا عليكم (أوغندا) بدلا من فلسطين ؟ انها والحق يقال بلاد جميلة وافرة الخيرات وهي الى جانب ذلك تستطيع ان تضم امتكم كاملة في ارضها الواسعة .

وعند سماع الاقتراح نظر (وايزمان الى تشمبرلين) مبتسما واعقب سؤاله بسؤال آخر فقال : وانتم ياسيادة الرئيس ما هو رأيكم في مدينة باريس ؟ نظر تشمبرلين اليه بدهشة واجابه انها ولا شك مدينة رائعة ولكن ما هو علاقة ذلك بسؤالي ؟ وهنا شرح وايزمان السبب بدهاء قائلا ... هل يمكنك ان تقبل ياسيادة الرئيس استبدال لندن بباريس ؟ فأجاب تشمبرلين بحماس طبعا لا من البديهي ان لا اقبل ذلك قط ، اذا كيف يمكنك ان تعرض علي قبول (اوغندا) بدلا من ارض الميعاد التاريخية ياسيدي ؟ وفي هذا الحوار ما يثبت لنا براعة وايزمان في النقاش .

رأي وايزمان في زعماء العرب

اما موقفه ورأيه في زعماء العرب الذي اتيحت له فرصة مواجهتهم فقد دوّنها ايضا في كتابه المذكور حين قال : "لم يكن الاقناع سهلا ميسورا ، ولكنني كنت أجتهد أن أسايرهم على قدر الامكان واروي لهم ما تحملناه من اعتداء وتعسف من بعض البلاد المعادية ، وابين لهم وجهة نظرنا اثناء الاجتماعات والمؤتمرات المتعددة التي جمعتنا" . كنت اثناء ذلك اشعر بشيء من التجاوب واللين عند بعض الشخصيات العربية امثال علي ماهر المصري وعدد ممن اتيحت لي فرصة لمقابلتهم ، ولكن الشخص

الصلب الوحيد الذي لم استطع اقناعه بأي حال من الاحوال بقبول فكرة تأسيس دولة اسرائيلية فهو المسمى نوري باشا السعيد* ، ولكنني شخصيا اعتقد ان سبب عناده وتصلبه يرجع الى رغبته في ايجاد منفذ للعراق الى البحر الأبيض المتوسط عن طريق تأسيس دولة سورية الكبرى تضم العراق وسورية والأردن وفلسطين ، ثم تحديد بعض المناطق فيها لاسكان اليهود مع تحديد هجرتهم . ويعتقد وايزمان ان طموح العراق هو سبب تصلب نوري السعيد ضد فكرة انشاء الوطن القومي اليهودي . ونقول بعد سماع هذا التعليق بأن خير الفضل ما شهدت به الأعداء .

اسرائيل وميثاق بغداد

لعبت اسرائيل دورا مشهودا في تحطيم ميثاق بغداد ، ولا غرابة في ذلك ، فالصهيونية العالمية بعد ان نجحت في اعلان وعد بلفور حصرت جهودها في محاربة كل ما يهدد مصالحها أو يكون عقبة في تنفيذ خططها التوسعية . وبناء على ذلك قامت اسرائيل بدعاية واسعة النطاق في البلاد العربية ضد فكرة اشراك العراق في منظمة ترمي الى حماية الشرق الأوسط والدفاع عنه ، ففي مقابلة صحفية اجراها موشي شاريت يوم ٤ نوفمبر ١٩٥٥ قال فيها : "اننا لا نرى ان العراق شريك صالح للدخول في اي مشروع دفاعي عام في الشرق الأوسط بل نعتبر الاتفاقية العسكرية التي ابرمت بين الولايات المتحدة والعراق اجراء عدائيا يستوجب اللوم من جهة اسرائيل" وفي سنة ١٩٧٠ اعلن السناتور "جافيتز" بصراحة بأن الاتفاقية المذكورة كانت انحرافا مشينا في سياسة امريكا تجاه اسرائيل .

عدم اعتراض اسرائيل على تأسيس الحزام الشمالي

والجدير بالملاحظة هو ان اسرائيل لم تعترض على فكرة تأسيس الحزام الشمالي وان المستر "دالاس" استمر في مواصلة مساعيه في هذا السبيل باطمئنان كامل ، كما شجع العراق و تركية بعد ذلك على دعم مشروع اوسع لصد المد الشيوعي على ان تشترك فيه دول الشرق الأوسط لتدارك استفحال هذا الخطر المبين . ولا يخفى ان عوامل متعددة دخلت بعد ذلك في مجرى السياسة الدولية لتبديل اتجاه المخطط

* Weizmann, Chaim, Trial and Error, Hamish Hamilton, London, 1950, p. 500.

المذكور . وثبت ذلك جليا فيما ورد في كتاب المستر غولمان السفير الأمريكي في العراق تحت عنوان (العراق تحت حكم الجنرال نوري)* وهي السنوات التي اقامها في المملكة العراقية ، وفيه يعترف السفير بأن أمريكا تخلت فجأة عن مشروع الميثاق بعد ان شجعته بحرارة . لقد اعترف (دالاس) ايضا عندما اتى لزيارة نوري السعيد في السفارة العراقية في أنقرة على اثر اجتماع صاخب لدول الميثاق في تركية ١٩٥٨ إذ صرح حينذاك انه لا يستطيع ان يقوم بأية حركة تغضب اعضاء الكونجرس ولكنه وعد بأن قضية فلسطين ، ستوضع على جدول اعمال الجمعية العمومية لسنة ١٩٥٨ وان الولايات المتحدة ستساعد في طلب تنفيذ كافة القرارات السابقة التي تخص فلسطين ولكن القدار جاءت بما لم يكن في الحسبان فسبق السيف العذل .

وبهذه المناسبة علينا ان نذكر أن دول الميثاق عند اجتماعها في طهران سنة ١٩٥٦ منعت بريطانيا من حضور الاجتماع الى ان تم انسحاب القوات البريطانية من أرض مصر كاملا ، ولاشك ان في كل ما ورد أعلاه ما يثبت ان اسرائيل كانت وراء كل المحاولات التي ترمي الى تحطيم الميثاق وقد استعانت بدهاء خارق لتدبير أمورها .

ازدواج السياسة الأمريكية

ويرجع نجاح اسرائيل في تنفيذ خططها في هذا المجال الى ازدواج السياسة الأمريكية ، إذ من المعلوم ان القرارات السياسية النهائية في الولايات المتحدة لم تكن تصدر دائما من وزارة الخارجية بل كثيرا ما كانت توصي بها دائرة المخابرات الأمريكية دون ان يكون للجهات الرسمية علم بها . ومثل ذلك ان (كوبلند) و(كيم روزفلت) مندوبي دائرة المخابرات الأمريكية وصلا الى القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر ، واتفقا على امور جوهرية بحضور مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل دون ان يعلم السفير الامريكي بحضورهما الى العاصمة ، والمعلوم ان (دالاس) صرح مرارا بان الاعتماد على تقارير الشباب الواعي الذي تضمه هذه المؤسسة أفضل بكثير من التوصيات الرسمية التي يقدمها السفراء . ومن المسلم به هو ان هذه الفئة لعبت دورا ملموسا في ربوع الشرق الأوسط ، إذ توطدت علاقاتها مع عملاء المعارضة الذين كانوا ينعتوهم بالمثقفين في بغداد ، كما استفادت من المعلومات السياسية التي كانت

---

* Gallman, Waldemar J., Iraq Under General Nuri, The Johns Hopkins Press, Baltimore, 1964.

تكتنزها مؤسسة شملان ، الى جانب ما كانت تستورده من مركز المخابرات المصرية في بيروت ومن المعارضين في سورية ... ولا شك ان هذه الطريقة المزدوجة في توجيه سياسة الولايات المتحدة كانت ولا تزال سببا في عدد من المشاكل والمآسي التي يشقى منها العالم في نطاق السياسة الدولية .

الاستئثار بصداقة أمريكا

والجدير بالذكر هو ان اسرائيل عرفت كيف تستميل الولايات المتحدة للإستئثار بصداقتها والامكانيات العسكرية والاقتصادية الواسعة التي تتمتع بها في العالم ، فنفوذ الصهيونية في الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا لا ينكر ، والكل يعلم الى جانب ذلك ان قواعد امريكا البحرية والجوية على البحر الأبيض المتوسط هي موانىء اسرائيل ، وبناء على ذلك لا يمكن لأمريكا ان تتبع سياسة تضر باسرائيل حتى لا تضر مصالحها الخاصة ، كما ان الدخول في حلف دفاعي مع العرب في الشرق الأوسط امر من شأنه ان يثير شكوك اسرائيل بل هو تهديد صريح لسلامتها .

كان الشبح الذي تخشاه اسرائيل بالدرجة الأولى هو الرئيس جمال عبد الناصر بعد ما حقق صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية ... لقد بدل هذا الحادث المهم سياسة امريكا تبديلا كاملا في الشرق الأوسط ، وعلى اثر ذلك قرر (دالاس) ان يستعين بـ (كوبلند وكيم روزفلت) من اعضاء المخابرات الأمريكية لاتخاذ خطة سرية مع مصر للمحافظة على السلام في ربوع هذه المنطقة الحساسة .

كان سبب هذا الاختيار وجود علاقة شخصية وثيقة متبادلة بين الطرفين ترجع الى ايام تجولهما في الشرق الأوسط ، وكان كيم روزفلت بالذات يؤمن بأن مصر بقيادة عبد الناصر تستطيع ان تنفذ مثل هذه الخطط ، إذ كان يعتقد بأن هذا الزعيم الشاب ، بجرأته ، والذي تحدى العالم بأسره بصفقة الأسلحة ، خير من يستطيع ان يسيطر على الناطقين بالضاد ويلهب مشاعرهم بدعاية جبارة ، واساليب حاسمة كما فعل في مصر عندما تسلم السلطة فيها ورد لها هيبة الحكم المفقود .

الجلسات السرية بين عبد الناصر والمخابرات الأمريكية

وفي كتاب كوبلند (The Game of Natoins) وصف طريف للجلسات السرية التي اجراها عبد الناصر مع اعضاء المخابرات الأمريكية قبل اذاعة موضوع الأسلحة

التشيكوسلوفاكية ، وفيه تفاصيل تلك الزيارة السرية التي لم يكن يعلم بها حتى سفيري بريطانيا وأمريكا في القاهرة ، مع اسماء الحاضرين في الجلسة والقرارات التي اتخذت بين الطرفين شخصيا في الاجتماع المذكور .

وأهم ما تمخض عنه هذا الاجتماع هو تنفيذ الاقتراح الذي طرحه روزفلت على عبد الناصر بعد ان هنأه بدبلوماسية بارعة على موقفه الجرىء في قضية الأسلحة ، إذ ختم الجلسة قائلا : " انك ياصديقي بعد ان احرزت هذه الشعبية النادرة والتقدير العظيم في العالم العربي بأسره يمكنك الآن ان تستفيد من البطولة التي اكتسبتها لتقوم بدور ايجابي لا يستطيع ان يحققه سوى رجل دولة عظيم مثلك فتقول في خطاب رسمي مثلا : اننا قمنا بصفقة الأسلحة للدفاع عن انفسنا فقط ، اما اذا ارادت اسرائيل ان تقوم بجهود مشترك لإحلال سلام دائم في المنطقة فأنا اوافق مبدئيا على ذلك ، وعند سماع هذا الاقتراح اجاب عبد الناصر فورا لا بأس .. انها فكرة جديرة بالدراسة ، وبناء على ذلك استمر النقاش حول هذا الموضوع الى منتصف الليل تقريبا لتقرير صيغة النص الذي يحمل مثل هذا الاقتراح في صلب الخطاب الذي كان على الرئيس ان يلقيه لإعلان خبر صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية ، وأخيرا طلب عبد الناصر الى روزفلت كتابة الصيغة المقترحة لفض الاجتماع بعد ذلك على ان يقدم روزفلت في اليوم التالي مسودة الصيغة قبل اذاعة الخطاب لدراسة محتوياته ، والجدير بالذكر هو ان التغيير الوحيد الذي طرأ على النص المذكور هو استبدال جملة السعي للصلح مع اسرائيل بجملة السعي لتخفيف وطأة الحزازات القائمة في الشرق الأوسط .

لم تكن صفقة الأسلحة وحدها الخطر الذي كانت تخشاه اسرائيل ، بل كان شبح ميثاق بغداد يهدد من جهة اخرى آمالها التوسعية وهنا ايضا نجد ان السياسة المتقلبة التي كانت تتبعها أمريكا في الشؤون الدولية بتأثير من دائرة المخابرات كانت العامل الأساسي الذي دفع الحكومة الأمريكية الى عدم دعم الميثاق المذكور .

والسبب في ذلك هو ان رجال المباحثات الامريكية عندما رأوا الرئيس عبد الناصر سرا بعد نجاحه في تدبير صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية ، لمسوا جليا بأن هذا النجاح ضاعف ثقة الرئيس بنفسه حتى اصبح يعتقد بأن في استطاعته السيطرة على مجرى السياسة لا في العالم العربي وحده بل على الشرق الأوسط بأسره ، ولذلك بادرت أمريكا فورا بتوثيق علاقاتها وقدمت له بعض المساعدات الحيوية بأمل تجميد حركاته ضد اسرائيل ، وضمانا لمصالحها الخاصة المرتبطة بسلامة حليفتها المفضلة .

الحياد الإيجابي في نظر عبد الناصر

ولكن اطماع عبد الناصر كانت اوسع من ذلك بكثير ، إذ اسكره النجاح ، فكان همه الاكبر هو اكتساب زعامة كاملة على العالم العربي ، ووزنا دوليا على المسرح العالمي .

كانت الخطوة الايجابية الاولى في هذا المضمار هي اتخاذ (الحياد الايجابي) شعارا له أسوة بنهرو وتيتو ، وكان لنجاحه في مؤتمر باندونغ الذي كان يضم عددا وافرا من الأمم الاسيوية والافريقية ما تسبب في دعم مقامه بين تلك الدول ، فكثيرا ما كان هؤلاء يلجأون الى وساطته في امور خاصة لحل بعض مشاكلهم مع بلاد الاستعمار ، وهو الامر الذي احاط عبد الناصر بهالة الزعيم ككرجل يتمتع بنفوذ واسع النطاق في قارات آسيا وافريقيا والعالم العربي والغربي على حد سواء .

كان الحلم الذي يصبو اليه هو ان يجعل مصر ، وهي مركز لقاء القارات الثلاث الكبرى ، مصدرا ترجع اليه الشعوب والمنظمات والدول على الاطلاق للنظر في مشاكلهم مع حكامها أو مع بلاد الاستعمار .

وكانت الشعارات التي يتشح بها عبد الناصر على الدوام للتأثير على مشاعر الشعوب هي الاشتراكية والحرية والعزة والكرامة ، ولا شك ان لتلك الكلمات المثيرة سحرا مبينا فهي تحيي الأمل في القلوب المكلومة ، وتنفث القوة في النفوس التي سحقها الذل والاستبداد وتحيي فيها الصمود والاعتزاز بكرامة الانسان .

تنظيم اساليب الدعاية

كان على مصر اذن ، لتنفيذ هذا المخطط الوطني الكبير ، تنظيم اساليب الدعاية للسيطرة على الرأي العام العالمي فأنشأت المنظمات التالية :وكالة مخابرات عامة لدراسة المناطق التي يجب التركيز عليها ، ثم فتحت مكتبا خاصا لدراسة الطرق المثلى التي يجب اتباعها بمرونة مع الشعوب التي تقطن في جنوب الصحراء ، كما ألحقت بمكتب الرئاسة وحدة صغيرة لتأمين ارتباط الخطط الرئيسية بطرق التنفيذ في البلاد المعنية . والجدير بالذكر هو ان اكثر المستشارين نفوذا في مركز المخابرات كان المدعو (فرانك بيرنك) ، وهو الذي استطاع ان يجمع في مصر عددا من عملاء الحكم النازي الذين برزوا في قسم الاعلام في المانيا وتشتتوا بعد ذلك في العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت العلاقة بينه وبين رئيس وكالة المخابرات العام في مصر المدعو

(سعد افرق) متينة الى حد كبير وكثيرا ما استعملت في تلك الوحدة الطرق التي كانت متبعة في المانيا النازية في مجالس الدعاية والتأديب .

ويتحتم علينا في هذا المقام ان نذكر بأن الوطنية الصادقة ورغبة الاصلاح لا يجوز ان تستند على المغامرة والارتجال ، فمن لا يحاسب الواقع ويجري وراء السراب يرتطم حتما بصخرة الخيبة والفشل .

سياسة الحكم المنفرد

كان ضعف الحكم في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، وتناحر الأحزاب فيها ، وتسرب التيارات الهدامة في ارجائها ، وسوء الاحوال الاقتصادية بوجه عام ، من الأسباب التي سهّلت حدوث الانقلاب دون اي اعتراض من المعسكر الغربي ، إذ كان الاخراج محكما . كان محور الانقلاب زمرة من الضباط الأحرار الذين كانوا على اتصال بعدد من أهل الصحافة المصرية ممن يتمتعون بصداقة مركز المخابرات الأمريكية وكان استمرار الملكية تحت اشراف الوصي على العرش سمو الأمير عبد المنعم ما يثبت ولو شكليا حسن نية المتآمرين ومجرد رغبتهم في الاصلاح ، فنجح الانقلاب دون هدر دماء ... فلم تعارض أمريكا لحسن علاقة المخابرات الأمريكية بالضباط الأحرار ، كما اطمأنت روسيا لوجود أمثال خالد محي الدين في صفوف المتآمرين ، أما البلاد العربية فقد توسمت بزوغ فجر جديد على بلاد وادي النيل، وهكذا ظل عبد الناصر خلف الستار ينتظر الوقت المناسب ، وفي جواره من يسهّل عليه الاتصال بالجهات المختلفة التي سيحتاج اليها للقبض على زمام الحكم للتخلص من كل من يعارضه في أية لحظة .

لم يكن الاتجاه السياسي للضباط الأحرار واضحا في البداية ، إذ كان المفروض ان يستهدف الحكم تحت رئاسة محمد نجيب الى وضع حد لتناحر الأحزاب السياسية في مصر ثم تطهير المجتمع من الفساد ودعم الاستقرار في ارجاء الدولة .

لقد تبين جليا فيما بعد بأن اعضاء هذه الزمرة على اختلاف اوضاعهم كان لهم اتصالات سرية في الداخل والخارج مع الحكام والأوكار والمنظمات السياسية والعقائدية المختلفة ... كما ظل عبد الناصر من وراء الستار يتمسك بالجهات التي ستمكنه من القبض على زمام الحكم في الوقت المناسب .

لقد استطاع بالتدريج ان يسيطر على الموقف بعد التخلص من امثال محمد

نجيب والسنهوري ومنظمات المعارضة والأحزاب السياسية بدهاء وجرأة متناهية ، وبناء على ذلك اقتنع المعسكر الغربي واصحاب المصالح في المنطقة بأن من الحكمة اكتساب صداقة حاكم يتمتع بمثل هذه القدرة والشعبية في بلد له اهمية دولية استراتيجية فريدة ، وفعلا بدأت أمريكا رغم علمها بأن زمرة الضباط الأحرار تضم عددا من اصحاب الميول اليسارية ، بدأت بإعلان استعدادها لمساعدة مصر بما يقارب ٤٠ مليون دولارا اقتصاديا ، ثم بما يوازي ٢٠ مليون دولار عسكريا لدعم الثقة والتعاون بين الجهتين .

ثقة المخابرات الأمريكية في سيطرة عبد الناصر

كان أهم ما تصبو اليه الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هو المحافظة على سلامة اسرائيل ، إذ كانت توصيات المخابرات الأمريكية والبلاد التي تجاور اسرائيل لإزاحة ما يهدد هذه القاعدة المثالية الوحيدة التي تستخدمها أمريكا بحرية كاملة في نطاق البحر الأبيض المتوسط ، وكان الرئيس عبد الناصر في نظر رجال المخابرات هو الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يسيطر على الأمن في المنطقة ، كما استطاع ان يعيد الاستقرار الى بلاد وادي النيل عندما قبض على الزمام فيها . كان هذا على الأخص رأي كيم روزفلت بعد المقابلة السرية التي اجراها مع الرئيس المصري على اثر تنفيذ صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية ، وقد اشرنا في الفصل السابق الى تفاصيل هذه المقابلة السرية التي لم يعلم عنها سفراء بريطانيا والولايات المتحدة في القاهرة في حينه . لقد استعمل كيم روزفلت اثناء تلك الزيارة دهاءه الدبلوماسي لإنقاذ ما يمكن انقاذه . فلم يلجأ للعتاب أو التحدي كما كان يتوقع عبد الناصر ، بل بدأ بتهنئة الرئيس على موقفه الجرىء الذي اثار اعجاب الشرق والغرب ووضعه في صف الزعماء العالميين .

لقد لمس روزفلت على اثر تلك الزيارة أن هذا الزعيم الشاب يحسن الاصغاء الى من يجالسهم ، وانه اذا اقتنع بفكرة يحسن تنفيذها بجرأة ، ولذلك يجب الاعتراف بأنه خير من يستطيع السيطرة على الأوضاع في العالم العربي اذا قدمت له الامكانيات اللازمة . كان عبد الناصر قد صرح اثناء الحديث في قضية الصلح اثناء اجتماعه بروزفلت بأن فرض أمور من هذا النوع على شعوب حرّة أمر عسير ولا يستطيع

ذلك سوى زعيم مطلق له من النفوذ والامكانيات ما يسمح له بسحق المعارضة عندما يشاء ، وعلى ذلك أوصى كيم روزفلت بأن تلتزم الولايات المتحدة جانب عبد الناصر فورا وتساعده على فرض زعامته على المنطقة بأي ثمن لعله يستطيع فرض السلام في ارجائها .

فلا عجب إذ ان يبذل مستر دالاس منهجه السياسي بعد الاطلاع على رأي من دعاهم عبد الناصر سرا للتشاور في الأمر بعد صفقة الأسلحة ، ومن البديهي ايضا ان يصبح ميثاق بغداد الدفاعي أقل اهمية في نظره رغم اشتراكه شخصيا في انشائه وتثبيت قواعده وتشجيع اهم بلاد الشرق الأوسط على الانضمام اليه ، ويثبت حدوث هذا التغيير الفجائي في سياسة الولايات المتحدة ما ورد في كتاب مستر غولمان السفير الأمريكي في بغداد تحت عنوان (٤ سنوات تحت حكم نوري) .

صفقة الأسلحة التشيكية

كانت صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية هي السبب الاساسي في تبديل مجرى السياسة الدولية في منطقة الشرق الأوسط ، إذ كان لها وقع القنبلة في الأوساط الدولية ، لم تكن هذه الحركة كما تصورها البعض نتيجة لمشاعر الغضب والتحدي التي غمرت الرئيس عبد الناصر عندما مل الانتظار دون ان تفي الولايات المتحدة بوعودها العسكرية والاقتصادية ، بل كانت حركة مدروسة بجس نبض المعسكر الغربي من جهة ، واستعداد السوفييت لمساندة مصر من جهة اخرى . لقد اهتزت مشاعر العالم بأسره عندما تحدى عبد الناصر المعسكر الغربي واتجه لروسيا للحصول على السلاح المطلوب ، ولكنه كان تحديا مدروسا ، إذ لم يدر العالم بأن عبد الناصر المصري طلب في الوقت نفسه حضور رجال المخابرات الأمريكية الى مصر لكبح جماح الولايات المتحدة وتخفيف الحادث عليها قبل اعلان اخبار الصفقة رسميا .

وقد اتفق الطرفان بعد التشاور على الطريقة التي يجب ان تستعمل عند اذاعة الخبر ، ويروي لنا التفاصيل كتاب لعبة الامم لكوبلند ، فما اكثر الالعاب التي تدور في الخفاء داخل دهاليز السياسة .

تأثير المغامرة الجريئة

ومما لا شك فيه هو ان هذه المغامرة الجريئة احاطت عبد الناصر بهالة البطولة

والنصر ، وجعلته يحظى بإعجاب شامل ، ولكن المغامرات مع الأسف تجر عادة في اذيالها مشاكل متعددة .

لقد وجدت اسرائيل في صفقة الأسلحة ما يهدد سلامتها ، والى جانب ذلك شعرت الولايات المتحدة بأن مصر افسحت المجال لتسرب السوفييت الى تلك المنطقة الحيوية ، فشراء الأسلحة يملي قيودا وشروطا صارمة على كل مشتر ، إذ يجب ان يبقى التموين مستمرا ، والتدريب على استعمالها قائما ، كما يستلزم دوما الحصول على قطع الغيار المطلوبة ، وبذلك يصبح مشتري السلاح تحت رحمة البائع على مر الأيام ، فليس من السهل فك القيود والروابط بعد ان تستحكم ، أو اعادة الثقة بعد ان تزعزعها المناورات الخفية ... وهكذا ظهرت فجأة في مجرى السياسة الأمريكية عقبات متعددة .

لم يجد مستر دالاس امامه حلا افضل من ان يقتدي بتوصيات روزفلت الذي بدأ قبل كل شيء عند زيارة عبد الناصر بتهدئة خاطر الرئيس المصري فأكد له صداقة الولايات المتحدة ، فهي تعتبره الزعيم المثالي الذي يستطيع ان يسيطر على مشاعر الجماهير في المنطقة ، وقد تمكن روزفلت بمجرد اثارة غرور عبد الناصر الكامن ان يدخل في نص الخطاب الرسمي الذي اذاع فيه الرئيس خبر شراء صفقة الأسلحة بأنه مستعد للعمل في سبيل تخفيف حدة التوتر السائد في الشرق الأوسط . والجدير بالذكر في هذا المقام ان روزفلت طلب ايضا من الرئيس المصري في حينه ان يشير الى صفقة الأسلحة بأنها تشيكوسلوفاكية وليست روسية ، مع اضافة ما يشير الى تخفيف التوتر القائم في المنطقة لتهدئة الخوف الذي سيغمر اسرائيل عند سماع الخبر ، ولا نخفي ان تبديل اسم المصدر من الأسلحة الروسية الى تشيكوسلوفاكية كان ايضا لتخفيف الصدمة وعدم ادخال اسم روسيا في مثل تلك المعاملات .

عبد الناصر يعد المخابرات الأمريكية بتخفيف التوتر في الشرق الأوسط

لم تكتف اسرائيل بما احرزته من توفيق عندما ساعدتها الولايات المتحدة واقنعت عبد الناصر بأن يصرح جهرا في خطابه التاريخي بأنه سيسعى الى تخفيف التوتر القائم في منطقة الشرق الأوسط ، بل بدأت من جهة اخرى تشهير الهجوم على ميثاق بغداد وقد صرح موشى شاريت في احدى مقابلاته الصحفية بأن الاتفاقية العسكرية التي أبرمت بين الولايات المتحدة والعراق اجراء عدائي يستوجب اللوم من

جهة اسرائيل ، ولا غرابة في ذلك فإن انشاء هذا الحصن المنيع في الشرق الأوسط كان من شأنه عزل اسرائيل والقضاء على مطامعها التوسعية .

ومما يؤسف له ان الرئيس عبد الناصر أخذ ايضا في تلك الفترة موقفا عدائيا غريبا ضد الميثاق - انه لم يكتف فقط بعدم الانضمام اليه ، بل سخّر الاعلام في مصر على القيام بحملة شعواء ضد المنظمة المذكورة للقضاء عليها ، ولا يستبعد ان يكون الدافع لهذا الموقف هو ضغط السوفييت الخفي على عبد الناصر ، إذ كانت علاقاتهما السرية على خير ما يرام ، ويعلم الجميع ان اقتحام الستار الحديدي والتسرب الى الشرق الأوسط هو من احلام روسيا منذ زمن بعيد ... وقد اثبتت الأيام ان القضاء على الميثاق المذكور كان خدمة غير مباشرة قدمها الاعلام المصري لإسرائيل من جهة ، وللسوفييت من جهة اخرى ، بل من المؤكد ان الروابط الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية التي كان الميثاق سيقيمها بين البلاد المتحالفة كانت ضمانا لعدم حدوث الحروب الضارية التي احرقت الأخضر واليابس فيما بعد في ايران والعراق على حد سواء مدة ثماني سنوات عجاف .

الهجوم المصري المكثف على ميثاق بغداد

كان الهجوم المكثف الذي ظل صوت العرب والاعلام في مصر يشنه على ميثاق بغداد يرمي الى اثارة الشكوك حول وجود بنود سرية فيه لصالح المستعمر واسرائيل ، فنفثت سموم هذه الاشاعات في كافة ارجاء البلاد العربية حتى اصبح الشك يقينا في بعض النفوس ، والدليل على ذلك انه عندما حدث انقلاب ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ في العراق كان اول ما قام به المتآمرون بعد الاطاحة بالنظام الملكي القائم هو الهجوم على دار ميثاق بغداد للسطوعلى كافة الوثائق الموجودة فيه ونقلها الى القاهرة لفحص محتوياتها . والجدير بالذكر ان القائمين ببحث تلك المستندات لم يجدوا فيها ما يثير الشك أو الانتقاد ، إذ كانت اهداف الميثاق ترمي فقط الى رفع مستوى الشعوب المشتركة فيه اجتماعيا واقتصاديا الى جانب تنسيق الدفاع المشترك عن المنطقة عسكريا وقت اللزوم ، فلم تستطع محكمة الشعب التي اقيمت خصيصا لمحاكمة المسؤولين في النظام الملكي برئاسة المهداوي وهو الذي اشتهر بابشع صنوف القذف والتشهير ، ان يعثر بين الأوراق ما يثبت وجود اتفاقيات أو بنود سرية من شأنها الاضرار بالقضية أو سلامة البلاد المتحالفة .

الضغط الروسي

ولا يخفى انه من الصعب تفسير السبب الذي دفع عبد الناصر الى الهجوم على هذا المشروع بذلك العنف عندما تم توقيع العراق وتركية على الميثاق ، إذ كان باب الاشتراك مفتوحا للدول التي ترغب في الانضمام اليه ، كما كان العلاقات بين مصر والعراق ، ومصر وتركية على خير ما يرام في حينه ، لم يحدث الى جانب ذلك ما يمكن ان يمس مصر بحال من الاحوال ويضر البلاد العربية بارتباط يتنافى مع الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية ، بل كان في الامكان ايضا ان تتخلص مصر بعد الانضمام اليه من الاحتلال البريطاني في قاعدة السويس ، شأنها شأن العراق الذي توصل بعد الانتساب الى الميثاق الى تحرير الحبانية والشعيبة كاملا .

ولا يستبعد ان يكون الدافع لهذا الموقف هو ضغط روسيا عليه وعلى بعض اعضاء القيادة وعلى الأخص بعد المفاوضات التي جرت بين الفريقين للحصول على الأسلحة السوفيتية ، فمما لا شك فيه هو ان مماطلة امريكا والمعسكر الغربي بصورة عامة بتأثير من الصهيونية العالمية هي التي دفعت مصر الى اللجوء الى السوفييت ، فانتهز خروتشوف تلك الفرصة لتحقيق الحلم الذي كان يساور روسيا من زمن بعيد ، واقنع ذوي الشأن في مصر بأن بلاده على استعداد كامل للوقوف الى جانب مصر على الدوام ، بل من المؤكد ان يكون خروشوف قد استغل نقطة الضعف التي لمسها كيم روزفلت في الرئيس عبد الناصر ، وهي حب الزعامة ، فأقنعه بأنه كزعيم مرموق لا يجوز له الدخول في منظمات ليس له فيها الكلمة العليا ، فمركزه بين الشعوب العربية من المحيط الى الخليج ، ونفوذه في المنطقة ، يعطيانه حق الزعامة المطلقة فيها .

كان خروشوف اثناء الاجتماعات التي كان يجريها عبد الناصر بحضوره في الغردقة مع اقطاب الحياد الايجابي أو الشخصيات البارزة الاخرى للتشاور في امور سياسية جوهرية ، كان يستغل تلك المناسبات ليرفع من شأن الرئيس امام الحضور بطريقة مسرحية ومثل ذلك .... ان عبد الناصر كان على الدوام يقصد بأن يكون آخر من يحضر الى غرفة الاجتماع ، فيقوم خروشوف فورا عند قدومه ويقول بصوت عال عند دخوله : وصل سيادة الرئيس ، فينهض الجميع لاستقباله ، ولا شك ان هذه المعاملات الاستثنائية بتكرارها في مناسبات مختلفة احاطته بهالة الزعامة على الأخص بين شعوب العالم الثاني .

نظرة السوفييت تتطابق مع نظرة اسرائيل

استطاع الكرملين ان يقتحم الستار الحديدي باستمالة عبد الناصر ، وتمكن من ادخال نفوذه الى قلب الشرق الأوسط ، فلم يبق ما يهدد المد السوفييتي في المنطقة سوى ميثاق بغداد الدفاعي ، وهو السد المنيع الذي جمع ما بين باكستان ، ايران ، تركية ، والعراق ... فكان لابد من ازالته والقضاء على النظم الحكومية في البلاد التي تمسكت بإنشائه في الشرق الأوسط .

وهكذا اصبحت نظرة السوفييت لتلك المنظمة مطابقة لنظرة اسرائيل ، إذ شعر الطرفان بأن ازالتها من الوجود ستزيح عنهما خطرا اكيدا وعلى اثر ذلك ازداد ضغط اسرائيل على أمريكا ، فانطفأ حماس دالاس فجأة بعد ان كان شعلة وهاجة ، واكتفى بعد ذلك بحضور اجتماعات الميثاق الدورية بصفة مشاهد فقط ، وقد اعترف فعلا عندما اثار تردد أمريكا اعتراضا صاخبا في احد اجتماعات دول الميثاق في أنقرة ١٩٥٨ ، حين قال بأنه لا يستطيع ان يقوم بأية حركة تغضب اعضاء الكونغرس ، وفي هذا الاعتراف الصريح ما يثبت ان أمريكا ستجتهد دوما في كبح جماح كل من تحدثه نفسه بمس سلامة اسرائيل .

تبدل آراء دالاس في ميثاق بغداد

لقد تبدلت آراء دلس في ميثاق بغداد تماما عندما تبين له بأن رغم ترحيب دول الميثاق بانتماء البلاد التي ترغب في الانضمام اليه فهي تشترط ان لا يكون بينها وبين الاعضاء المشتركين نزاع سياسي – ولا شك ان وجود العراق مؤسسة الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية كفيل بحرمان اسرائيل من الدخول في الميثاق المذكور ، ويشهد على ذلك المذكرة التي ارسلها اعضاء الميثاق الى بريطانيا عند نشوب حرب العدوان الثلاثي إذ طلبوا من ايدن في حينه الانسحاب وعدم الاشتراك في دورتهم إذ لا يحق ان تتواطأ بريطانيا مع اسرائيل فالعراق عضو في مؤسسة الدفاع المشترك العربية فعلى بريطانيا سحب جيوشها رأسا من الأراضي المصرية فورا اذا ارادت ان يبقى انتماؤها لميثاق بغداد .

لقد رأى دالاس في النهاية بأن الحل الوحيد لتخفيف حدة هذه المشاكل مؤقتا هوالتزام جانب عبد الناصر ومساعدته على تثبيت زعامته في المنطقة ، فالتفاهم مع شخص واحد يتمتع بسلطة واسعة اسلم عاقبة من التعامل بعدد اكبر عند حسم الخلافات المتشعبة ، بل ربما يمكن كبح جماح عبد الناصر بالحسنى والتعاون معه

للوصول الى ازالة التوتر السائد في الشرق الأوسط بالطرق المحكمة التي استعملها لتأمين السلام في مصر .

التنافس الدولي على الشرق الأوسط

عبد الناصر وممارسة سياسة المغامرات

وانصافا لعبد الناصر في ميزان التاريخ فإنه يجب الاعتراف بأن المساومات المرهقة وتلاعب الغرب في تنفيذ العهود والمواثيق دفعته الى اعتناق سياسة التحدي والمغامرات ... ويشهد التاريخ بأن ساسة العالم العربي ذاقوا الأمرين من مماطلات الشعوب المستعمرة منذ فجر النهضة العربية ووصلت بهم الى انتهاج سياسة اليأس والملل . فلا غرابة إذن ان مجازفة عبد الناصر في قضية الأسلحة السوفييتة وجدت العذر له على ما أقدم عليه حتى من الساسة الذين يرفضون استعمال سياسة المقامرة في الأمور التي تتعلق بمقدرات الوطن نظرا لخطورتها ... لأنها لو نجحت مرة فقد تفشل مرارا ويكون الوطن هو الضحية . ومن التعليقات القيمة في موضوع سياسة التحدي مع تحليل موقف عبد الناصر في قضية الأسلحة السوفييتة ما جاء في المقال الذي نشر في ٢٦-٢٨ يوليو سنة ١٩٥٨ في مجلة Life International الأمريكية تحت عنوان "الوصية الأخيرة لنوري السعيد" وذلك بعد استشهاده أثر الانقلاب العسكري الذي قضى على الحكم الملكي الهاشمي في العراق ، ففيه تقييم مركز لهذه الخطوة الجريئة من

الناحية السياسية والاجتماعية والعسكرية وأثرها على مصر والعالم العربي على المدى القصير والطويل .

تنبؤات نوري السعيد بعد تلك الأحداث

كان نوري السعيد يعتبر سياسة المجازفات استهتارا وذنبا لا يغتفر في حق الدولة ... وقد صرح في الخطاب التاريخي الذي أذاعه من بغداد في شهر ديسمبر سنة ١٩٥٦ بأنه "يحق لرجل الدولة الأمين ان يغامر بحياته ومركزه وبكل ما يملك اذا اراد ذلك ... ولكن لا يجوز له قط ان يجازف بمقدرات أو كيان الأمة التي يرعاها" ... ورغم تمسك نوري السعيد بهذا المبدأ ... فقد صرح في المقال الذي نشرته Life International بأن الخطـوة التي اتخذها عبد الناصر عندما ضاق ذرعا بعناد امريكا لا تستوجب اللوم قط ، فهي نتيجة لتصرفات الحكومة الأمريكية وعدم اكتراثها بحقوق العرب ، والاستهتار بالقضية الفلسطينية أو بمصير اللاجئين العرب ، هذا بالاضافة الى عدم الاستجابة الى مطالب مصر العسكرية والاقتصادية - وبناء على ذلك اضطر عبد الناصر الى قبول العروض السوفيتية التي سمحت بتسرب النفوذ السوفييتي الى الشرق الأوسط .

لقد كانت حركة عبد الناصر نتيجة حتمية لسوء تصرف دول العالم الحر تجاه العرب ، ولكنها كانت تفتقر من الأساس الى حكمة رجل الدولة الناضج من جهة ، وإلى حسن تقدير القائد المحنك من جهة اخرى ، فمن قصر النظر ان يتصور الانسان ان "الغرب" سيقف مكتوف اليدين ليرى خصومه يتسربون بالتدريج تحت شعار الحياد الى منطقة حيوية تتشابك فيها مصالح الشرق والغرب اشتباكا كاملا ، ومثل ذلك هو انه ليس للشرق الأوسط أسواق اخرى لنفطه سوى الغرب ، أما اذا اردنا تقدير مدى المساعدات العسكرية الفعلية التي تستطيع مصر ان تحصل عليها من السوفييت عند الحاجة فإننا نجد ان عبد الناصر لم ينجح في تقييم مداها من الناحية الاستراتيجية مطلقا ، فهو رغم تدريبه العسكري لم يدرك بأن من المستحيل ان يقف السوفييت الى جانبه في ميادين الحروب اذا قرر اشهار العداء للغرب علناً ... وذلك نظرا لبعد المسافات وصعوبة المواصلات - والمعلوم ايضا عن سياسة السوفييت هو عدم دخولهم في حروب سافرة ، فهم يقتصرون على تقديم العتاد واستعمال اساليب الحرب الباردة دون التعرض لاصطدام الجيوش في ميادين الوغى . وقد اثبتت الأحداث فيما

بعد أن ما قاله نوري السعيد في هذا الشأن كان الصواب .

تحليل واقعي

ورغم هذه الملاحظات في تصرفات عبد الناصر سياسيا وعسكريا فقد ظل نوري السعيد يعاتب المعسكر الغربي والأمم المتحدة في المقال المذكور ويحمّلها سياسة اليأس التي ينتهجها الفلسطينيون من جهة ، وسياسة المجازفات التي ابتدعها عبد الناصر في المنطقة من جهة اخرى . ثم اختتم حديثه قائلا : "انني كعربي ورغم صداقتي للعالم الحر أقول جهراً : "ان طاقتي في التحمل بلغت النهاية ... فقد طفح الكأس ... ويشاركني في مشاعري كافة المسؤولين العرب في العالم" - لقد سبق ان نصحناكم مرارابضرورة انصافنا وحل قضيتنا قبل ان يستفحل الأمر ... ولكنكم تجاهلتموها ، فحلّت في المنطقة المشاكل والخطوب الماضيــة ، والآن ارى كوارث مقبلة في الأفق البعيد ، فهي ان حلت مرة عن طريق اليأس الذي اعترى ناصرا ... فلا بد ان يتجدد سعيرها عن طريق عناصر شيوعية وارهابية اخرى في المستقبل القريب ، ويقيني ان اخمادها حينذاك لن يكون هينا بحال من الأحوال" .

هــذا هو خلاصة ما سطّره نوري السعيد في مجلة Life International سنة ١٩٥٧ ، وقد يجد القارىء في هذه الفقرة الأخيرة صورة واقعية للأحداث الحالية التي تنبأ بوقوعها في منطقة الشرق الأوسط نتيجة للسياسة الخاطئة التي ما زالت الأمم الغربية تسلكها بتحيز مخزٍ ... فالسكوت واهمال القضايا الحيوية التي تخص الأمة العربية والتي اشار اليها (ايزنهاور) في خطابه التاريخي هي التي سببت الفوضى الدامية المستمرة التي يئن الشرق الأوسط من وطأتها اليوم ، وقد تمتد شظاياها الى العالم بأسره ، لأن في الخفاء من يغذيها وينفق في سبيل اشعال نارها بالسلاح والمال ، وقد اثبتت الحوادث ايضا ان الاتحاد السوفييتي عجز عن مساعدة مصر عسكريا بصورة فعالة سنة ١٩٦٧ لتفادي الاضرار بمصالحه الخاصة أو التعرض للهزيمة ، فالسياسة لا تخدم سوى المصالح ، ولا تعرف التضحية في سبيل الصداقة أو المجاملة .

طريق تسرب الشيوعية الى الشرق الأوسط

كان نوري السعيد نظرا لتخوفه من تسرب الشيوعية الى الشرق الأوسط ينصح ذوي الشأن في المعسكر الغربي على الدوام بضرورة تقديم المساعدات العسكرية

والاقتصادية لمصر دون مماطلة حتى لا يلجأ عبد الناصر الى السوفييت لتسليح الجيش المصر أو لإقامة مشروعات حيوية كسد أسوان ، إذ كان يؤمن بأن سياسة امريكا السلبية في هذا الشأن وعدم استجابتها لطلبات مصر ستفتح باب الشرق الأوسط على مصراعيه لتسرب المد السوفييتي . ويروي لنا مستر (غولمان) في كتابه تفاصيل حديث دار بينه وبين نوري السعيد في هذا الشأن - ويتلخص قول الرئيس العراقي في "ان ما دام بن غوريون مستمرا في كيل الضربات لمصر ليخضعها بإظهار قوته فليس لمصر إلا ان تتسلح ، وان تتسلح بقوة ، وتسليح مصر شيء مهم في حد ذاته ، ولكن المصدر الذي يجهزها بالسلاح هو أمر في غاية الأهمية ... إذ له تأثير قاطع على المنطقة بأسرها ، فعلى أمريكا ان تدرك هذه النقطة . ان في ما تقدم تحذير واضح للغرب بعدم اتباع سياسة المماطلة في تقديم المساعدات العسكرية للعرب ، حتى لا تفلت الأمور بتسرب النفوذ الشيوعي الى الشرق الأوسط عن طريق شراء الأسلحة .

كان عبد الناصر يدرك اهمية هذه النقطة ايضا ، فعندما أبرزها له برهان الدين باش اعيان ، وزير الخارجية العراقي ، اثناء مقابلة خاصة ...أجابه الرئيس المصري بأنه سيقلص عدد المدربين الروس الى الحد الأدنى لتلافي النشاطات المشبوهة من جانبهم . ويبدو ايضا أنه لم يستطع صد التيار الجارف فتقدم المد الشيوعي بخطوات راسخة وسط الأزمات التي كان يمر بها الشرق الأوسط ... ولما سقطت وزارة فارس الخوري سنة ١٩٥٥ انحازت سورية نحو مصر واتضحت ميولها اليسارية في الجبهتين المدنية والعسكرية . وقد اثبتت التحريات بعد ذلك ان الأموال السعودية كانت تساند مصر وسورية في تحريض ضباط الجيش السوري واشعال الفتن لمقاومة العراق ، وفي ايلول سنة ١٩٥٦ جاءت تقارير تفيد بأن موسكو ستوسع خطتها للتوغل بالجيش السوري باسم تدريب السوريين على استعمال الدبابات والطيارات وصيانتها ، وكأنها بذلك تسعى الى نقل القواعد التي تدير حركاتها العسكرية في الشرق الأوسط ما بين سورية ومصر ...

شعور السعودية بالتسرب الشيوعي

لم تشعر السعودية بهذه الحركات الخفية إلا بعد فوات الوقت واتساع نطاق الخراب ، وقد اعترف الملك سعود بن عبد العزيز للدكتور عبد الله الدملوجي سفير العراق المتجول ، وذلك بعد زيارته لواشنطن سنة ١٩٥٧ بأنه يستشعر جلياً خطر التيار

الشيوعي الساري في الشرق الأوسط ، وابدى له قلقه من ميول سورية اليسارية ومن الدور الذي تلعبه مصر في تلك المنطقة ... ومن ثم تبدل موقف السعودية تجاه ميثاق بغداد ، كما توقف الهجوم عليه من دوائر الاعلام فيها .

وعندما زار الملك سعود العراق بعد ذلك في شهر بريل سنة ١٩٥٨ ، وتم الصفاء الكامل بين العائلتين الهاشمية والسعودية اقيمت حفلات الضيافة المعتادة للعاهل السعودي ومن بينها حفلة غداء في دار نوري السعيد في بغداد ، واثناء ذلك دار الحديث حول الأوضاع العالمية ، وأبدى الملك سعود استياءه من بعض المناورات العدائية التي نظمت ضده واشتركت فيها بلاد بالغ هو في مساندتها بالمال الغزير فقال : "يانوري لقد تدهور سعر الريال السعودي في السوق بسبب اسرافي في بذل مساعداتي لمصر وسورية ، وكان الشكر على ذلك "قنبلة تحت فراشي" . وقد اشير في حينه بأن مناورات خفية كانت تحاك ضد العاهل السعودي في القيادة المشتركة ، ولما تجلت الأمور ، اوقف الملك سعود صرف المعونات المعتادة للجهات المعنية ، وبناء على ذلك دبرت مؤامرة للتخلص منه ولكنها اكتشفت في الوقت المناسب .

الاسلوب السياسي الذي اتبعه عبد الناصر بعد صفقة الأسلحة

ويبدو ان جمال عبد الناصر بعد نجاحه في تجربته الأولى على مسرح السياسة الدولية اصبح يفكر في السير وفق مخطط يسمح له بالمحافظة على التوازن في علاقاته مع مختلف المعسكرات حتى يتمكن من السيطرة على مجرى الأمور بمهارة اساليبه الخاصة التي كانت تعتمد على السرية في المفاوضات ، والجرأة في تنفيذ ما تفرضه من خطوات ، والدعاية المكثفة بما تطلبه من اجراءات ، فأطلق على اسلوب عمله اسم سياسة (الحياد الايجابي) ، واتشح الى جانب ذلك "بالقومية العربية" في رحاب الوطن العربي الكبير للسيطرة على مشاعر الأم القاطنة فيه ما بين الخليج العربي شرقاً الى ضفاف المحيط الأطلسي غربا .

مع اسرائيل عن طريق فرنسا

ومن الخطوات الأولى التي انجزها عبد الناصر لإثبات صدق نيته عندما اعلن انه سيسعى الى تحسين العلاقات المتوترة ما بين العرب واسرائيل . وهي الاتفاقية السرية التي وافقت مصر عليها في الخفاء بالنسبة لمرور البواخر الاسرائيلية .

وفي مذكرات Mr. Pineau وزير خارجية فرنسا التي نشرت بعد أزمة السويس ما يثبت بأن الاتفاق حدث فعلا بين اطراف ثلاثة في دار مستر همرشولد وذلك في نيويورك ، إذ كان Mr. Pineau نفسه مندوبا عن حكومة اسرائيل ، ومحمود فوزي مندوبا عن الحكومة المصرية ويشهد Mr. Pineau في مذكراته على ذلك .

مع الاتحاد السوفييتي

ومن جهة اخرى توطدت صلاته بالاتحاد السوفييتي عن طريق تسليح الجيش المصري ، فارتبطت مصر بالسوفييت ارتباطا كليا نظرا لضرورة الرجوع الى المصدر لصيانة العتاد الوارد ، وتأمين وصول قطع الغيار المطلوبة على الدوام ، فكثر عدد الفنيين الروس من جراء ذلك في انحاء القطر المصري ، وتوغل رجالهم الى اعالي النيل عندما ، أوكل اليهم بناء مشروع السد العالي ، وهكذا حقق الاتحاد السوفييتي حلما ساعده الغرب في تحقيقه بقصر نظر سياسي واضح ، وبمماطلة وعدم مساندة الأمم العربية في الشرق الأوسط التي تتشابك مصالحها بها استراتيجيا واقتصاديا تشابكا كاملا .

مع الولايات المتحدة

أما الولايات المتحدة فقشد بدأت تغدق على مصر ما يساعدها على النهوض اقتصاديا ... من حبوب ومواد كيمياوية وغذائية وآلات زراعية وصناعية ... الخ . هذا الى جانب دعم مطلق لزعامة عبد الناصر في العالم العربي ، ولكن رغم حسن التفاهم الذي حدث بين الدولتين عن طريق مركز المخابرات الأمريكية ظلت الولايات المتحدة تماطل وتتصرف بتحفظ شديد في الأمور التي تتعلق بتقديم السلاح والعتاد ، كما أبت ان تساعد مصر في اقامة السد العالي "وهو المشروع الذي عقد عليه عبد الناصر آمالا عظيمة لإنعاش القطر المصري زراعيا وصناعيا " إذ كان يؤمن بأن الأجيال القادمة ستعتبره أثرا تاريخيا بارزا لعهد زاهر ، ولكن مع تطور الأحداث بدأت عدم الثقة تسيطر على الطرفين .

مع بريطانيا

كانت علاقة الأنكليز في البداية مع اعضاء القيادة تدعو الى التفاؤل ، خصوصا بعد ان اجريت المفاوضات التمهيدية الثنائية حول اخلاء قاعدة قناة السويس ، فالكل

يعلم بأن بريطانيا لم تكن على اتفاق مع الملك فاروق شخصيا ، وانها اهانت مصر والعرش عندما اقتحم السفير البريطاني اللورد كيلرن ، يصحبه الجنرال ستون ، سراي عابدين في غضون الحرب العالمية الثانية وهدد الملك فاروق بالاقالة اثناء المد النازي ، إذ لم يعد الصفاء بينهما كاملا بعد ذلك . وعندما اعلنت ثورة ٢٣ يوليو دعمت بريطانيا الضباط الأحرار واستمرت العلاقات ودية بينهما ... ومن الخطوات التي اتخذها الطرفان بتر وادي النيل بفصل مصر عن السودان واتخاذ القرار بعدم اقامة وحدة فدرالية بينهما كالتي كان يتمسك بها الملك فاروق شخصيا (تحت التاج المصري) – لقد لاحظ عبد الناصر عندما عولج هذا الموضع بأن اقامة فدرالية بين الدولتين كانت سترجح انتخاب محمد نجيب رئيسا للاتحاد المذكور وتثبت زعامته على القطرين ... فوالدته سودانية الأصل ، وشعبيته في البلدين عظيمة – ويقال ان هذه الشعبية المزدوجة كانت ضمن العوامل التي سببت اقصاء محمد نجيب والقضاء على فكرة الفدرالية ، إذ كان هدف عبد الناصر الأقصى تأمين الزعامة المطلقة لشخصه فقط ، حتى ولو كان ذلك على حساب حرمان مصر من مصدر منابع مياهها الطبيعية الوحيدة . أما الأنكيز فقد وجدوا في الاتفاق المذكور حلا مثاليا لمشكلة عويصة دامت سنين طويلة ، فتم الفصل فيها بين الجهات الثلاثة بالتراضي . واذاعت مصادر الاعلام في مصر بأن ما قامت به الحكومة المصرية هو عين الصواب وان العلاقات القائمة بين الأطراف جميعا على خير ما يرام – لكن عندما تبلورت سياسة جديدة في الأفق بعد حدوث صفقة الأسلحة السوفيتية تزعزعت الثقة عند جهات متعددة . ويبدو ان تخوف بريطانيا على مصالحها في الشرق الأوسط جعلها تفكر من جديد وتنتحل مختلف الأعذار للاستمرار في احتلال قاعدة قناة السويس .

مع البلاد العربية

أما البلاد العربية فقد اتخذ عبد الناصر ازاء كل منها اسلوبا خاصا للوصول الى السيطرة عليها باسم القومية العربية ، وكان خير معين له في هذه العملية الشاقة المتشعبة "صوت العرب" وعدد من العملاء المدربين ، وسنتطرق الى نشاط هذا الطابور الخامس داخل العالم العربي وخارجه في فصول مقبلة ان شاء الله .

لقد انتخب عبد الناصر من كل دولة عربية شخصيات تتمتع بشعبية متوفرة ليتعاون معها وقت الحاجة ، فآوى من بينهم من شردته بلاده كالرئيس شكري

القوتلي ، كما بالغ في تكريم الحكام المتنفذين من بلادهم على الأخص اذا وجد عندهم الاستعداد الكامل لمساندته والسير في ركابه مثل (بن بيلا)، ومن اساليبه المعروفة اغتنام فرصة وجود حزازات شخصية بين الحكام للاستعانة عند الحاجة بالجهة التي تستطيع القضاء على من يعارضه أو يقف في سبيله ... وقد تمكن بواسطة الاموال الطائلة التي جمعها من كافة المصادر دعم زعامته المطلقة في اغلب ارجاء البلاد العربية . ولاشك ان معظم الانقلابات المتعددة التي حدثت في العالم العربي اثناء فترة الحكم الناصري كانت تتمتع بدعم القيادة الناصرية في الخفاء وبإيحاء من صوت العرب .

اسلوبه على الصعيد الدولي

أما اسلوبه على الصعيد الدولي فقد تطور بشكل ملموس بعد ان تمت صفقة الأسلحة السوفيتية ، ولاشك ان دخول امريكا والسوفييت في صميم حياة مصر السياسية غير مجرى الأمور فيها . لقد اكتسبت مصر بعد تلك الخطوة اصدقاء جددا ، فأصبح لها ارتباطات والتزامات جديدة ، ولكنها في الوقت نفسه تعرضت لبعض المشاكل نتيجة التنافس والصراع الخفي المتواصل القائم بين الأمم المتنفذة التي اصبحت لها مصالح في المنطقة . كان عبد الناصر يعتقد في البداية بأنه يستطيع الاحتفاظ بالتوازن في علاقاته الدبلوماسية معهم جميعا ، وزادت ثقته في نفسه لنجاحه في مجازفاته السابقة ، اليس هو الذي نجح في قمع كافة الحركات والاضطرابات الداخلية في مصر بصرامة وجرأة متناهية ، فلم يعارضه احد قط داخل البلاد وخارجها ؟ وعندما غامر في قضية الأسلحة بالاتفاق مع السوفييت لم يعترض عليها المعسكر الغربي في حينه بل تقبل الواقع صامتا ، ولما بدأ بالتدخل رويدا في شؤون الدول العربية لم يجد من يعاتبه أو يوقفه عند حده ، فأصبح يؤمن بعد ذلك بأن الجرأة والاقدام ، وعدم التردد في اثارة الاشتباكات واشعال روح التنافس والشقاق بين الحكام أو الدول المتنفذة هي خير طريقة للوصول الى ما يريد ، عملا بالمثل القائل : "فرق تسد" .

وعلى سبيل المثال نقول انه ... لما رأي عبد الناصر ان العراق اكتسب سيادته الكاملة قبل مصر بمجرد انتمائه الى الميثاق الدفاعي المشترك ، عزّ عليه ان تماطله بريطانيا في الجلاء عن قاعدة السويس ... وهو الزعيم الصلب الذي اعترفت بقدرته الدول جميعا ، فقرر ان يستعمل اسلوبه السياسي بجرأة ، وفاجأ الملأ بمغامرة خارقة

جديدة هزت اركان العالم بأسره ، وهي تأميم قناة السويس . لقد نجحت هذه المجازفة ايضا نجاحا باهرا بتدخل امريكا ، إذ استطاعت حكومة "ايزنهاور" ان تسيطر على الموقف وذلك بإرسال اسطولها السادس الى البحر الأبيض المتوسط ، فوضعت حدا للانفجارات التي حدثت في المنطقة بوقف مؤامرة العدوان الثلاثي من جهة ، وبمجابهة تهديد السوفييت من جهة اخرى ، كما ردت لمصر عزتها وكرامتها . والجدير بالذكر ان هذه المقامرة الخطيرة رفعت عبد الناصر الى الأوج .

أثر صفقة الأسلحة في ابعاد مصر عن نطاق الميثاق الدفاعي للشرق الأوسط

وليس من المعقول ان يتصور الانسان ، بعد مراجعة الالتزامات التي فرضتها صفقة الأسلحة على مصر ، هذا الى جانب الارتباطات والوعود الاخرى التي قامت بها الحكومة المصرية لمختلف البلاد التي آزرتها ، بأن مصر ستقبل الدخول في اي ميثاق يؤثر على علاقاتها بأم ساندتها في انهاء تلك العملية الشائكة ، وبذلك تم القضاء على امل اشتراك مصر في ميثاق دفاعي شامل يعزل السوفييت من جهة ، واسرائيل من جهة اخرى .

لقد شعر نوري السعيد في حينه بأن ضغط تلك الدول لن يترك للرئيس المصري حرية التصرف ، فلتمويل العتاد وقطع الغيار اللازمة للجيوش اهمية كبرى في حياة الدول عسكريا ، بل هي سبب خضوعها للدولة المصدرة في اغلب الاحيان حتى لا تتوقف الارساليات الدفاعية الملحة عند الحاجة . ومع ذلك كان نوري السعيد يأمل أن لا تضغط على البلاد العربية الاخرى بعدم الانتساب اذا وجدت تلك الدول فائدة ملموسة ، سياسية واقتصادية في الاشتراك في الميثاق المذكور ... ولكن يبدو ان ضغط السوفييت كان اكبر ، وكان على عبد الناصر ان يبرر موقفه ويشرح الاسباب التي دفعته الى رفض الاشتراك في ميثاق فيه ضمان للخير والاستقرار بالنسبة للشرق الأوسط بأسره . وبناء على ذلك بدأت الدعاية في مصر تهاجم التكتلات العسكرية علناً متجاهلة ان الاتفاقيات الثنائية التي اجرتها مصر مع بريطانيا أو السوفييت في قضايا الجلاء وصفقة الأسلحة هي في واقعها ارتباطات عسكرية ثابتة خاضعة لالتزامات الاتفاقيات العسكرية المعتادة .

ومن ثم تبلورت الحملة جلياً ضد الميثاق ، وزاد الهجوم عليه عنفا ، على أثر عقد الاتفاقية مع تركية واشتراك بريطانيا فيه بعد الغاء معاهدة ١٩٣٠ الثنائية ،

وتسليم مطارات الحبانية والشعيبة والمعقل للسلطات العراقية ، وهي الخطوات التي باركها الشعب العراقي في حينه عندما اكتسب كامل السيادة على بلاده في ٥ ابريل ١٩٥٥ .

الدوافع الخفية الاخرى للهجوم على الميثاق

ومن الاسباب التي أدت الى عدم اشتراك مصر في الميثاق هو شعور عبد الناصر بأنه لا يستطيع التزعم على مجموعة تضم أمما متعددة ومتنفذة ، وقد نصحه هؤلاء الذين ارادوا استغلال سيطرته على العالم العربي بأن لا يتنازل عن تلك الزعامة بالدخول في منظمات لا تكون له الكلمة العليا فيها . ويقال ان عبد الناصر كان يتعمّد دخول الاجتماعات – حتى مع الرؤوساء – متأخرا حتى ينهض الجميع مرحبين بالرئيس . لقد حدث ذلك في اجتماع للرؤوساء بالغردقة حضره (خروشوف) ، فانتصب واقفا ومعه الحاضرون مرحبين بالرئيس !

ومما لا شك فيه هو ان "خروشوف" لعب دورا ملموسا في الخفاء لتوجيه مصر من جهة ، ولإقناع السوفييت بدعم مصر من جهة اخرى ، مؤكدا للسوفييت بأن عبد الناصر سيتمكن من ان يفتح امامهم ابواب المنطقة بأسرها ، وكان فشله في تقدير الأوضاع الحقيقية وما يخفيه المستقبل من اهم الأسباب التي أدت الى انهاء سطوة خروشوف في الكرملين .

أما الخطوة التالية التي قرر ان يتخذها عبد الناصر فهي القضاء على تلك الكتلة الدفاعية التي اتخذت اسم (ميثاق بغداد) ، وكأن النزاع لم يكن نزاعا على خطط سياسية أو مبادىء ، بل على كرسي الزعامة في المنطقة ، ويعتقد الكثيرون بأنه لو لم يسرع عبد الناصر في ابرام صفقة الأسلحة السوفيتية في الخفاء تحت تأثير المغرضين ، ولو كان الميثاق اتخذ اسم (ميثاق مصر) بدلا من ميثاق بغداد ، لسانده عبد الناصر دون اعتراض ، لما في الانتساب اليه من فوائد عديدة ، بل ربما وجد في تلك التسمية الجديدة ما يثير غروره عندما يشعر بأن مصر في عهده ستصبح مركز ميثاق جبار يجاري السد العالي قوة وصمودا . ولكن يغلب على الظن بأن ارتباطاته الوثيقة لم تترك له مجال الاختيار .

تأميم شركة القنال

قصر النظر في تقدير مجرى الأمور على الصعيد الدولي

لقد أثبتت الأيام قصر نظر الاطراف الذين حاربوا ميثاق بغداد ، وبينت ضعف تقديرهم لمجرى السياسة الدولية على المدى الطويل ... ويقيني ان التقارب والتعاون الايجابي في تلك المنطقة بين الأمم الاسلامية والعالم العربي كانت تشكل قوة اجتماعية واقتصادية ودفاعية جبارة وضمانا للأمن والا ستقرار في ارجائها ، بل ربما كان الشرق الأوسط فيما بعد يستطيع ان يتفادى حروبا قاسية كتلك التي نشبت ودمرت دولتين اسلاميتين مزدهرتين ، كإيران والعراق ، كان الشرق يعقد عليهما آمالا كبارا . ونضيف الى ذلك ان من المؤكد ان اسرائيل كانت ستتحاشى الزحف على الضفة الغربية في الأردن ، أو الاقدام على الحركات التعسفية التي اجرتها في الشرق الأوسط فيما بعد ، لو كان امامها سد دفاعي متين يسانده العالم الحر ، فقد أثبتت الأيام بأن الحياد الايجابي الذي تمسك به عبد الناصر هو بالنسبة للأمم الضعيفة خدعة صارخة وسوء

تقدير ، وهكذا ضاعت فرصة تكوين هذا الحصن الدفاعي بالتعاون مع دول حرة متكافئة وبمؤازرة العالم الحر ، فاغتنمت اسرائيل هذه الفرصة النادرة لاستمالة المعسكر الغربي كاملا بعد ان زرعت بذور الشك والتفرقة في أركان العالم العربي ، فأصبح ضحية سوء تقدير وقصر نظر المسؤولين فيه ، وهكذا تم القضاء على ميثاق بغداد .

تنظيم الهجوم المركز

بدأ هجوم الدعايات المنظمة ضد ميثاق بغداد ينتشر عندما تبلورت أهدافه البناءة ، واصبح له كيان واعتبار في العالم الحر خصوصا بعدما اشتركت فيه دول متكافئة مستقلة للتعاون المثمر في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدفاع المشترك . وبناء على ذلك شعرت الجهات التي كانت ترى فيه حجر عثرة لتنفيذ أهدافها ضرورة القضاء على الميثاق ، وكانت الفكرة الأساسية التي بنوا عليها هجومهم هي الاعتراض على اتفاقية مبنية على تكتلات عسكرية حتى لو كانت دفاعية فقط ... واصبح مقر قيادة الهجوم هو الجمهورية المصرية تحت شعار القومية العربية والحياد الايجابي .

كانت الجمهورية المصرية بالنسبة للفئات المعرضة هي المنفذ لأهدافهم الخفية نظرا لما تتمتع به في العالم العربي من مكانة اجتماعية واستراتيجية وامكانات مادية اخرى ... وقد وجدوا في الرئيس عبد الناصر خير شريك ومعين .

ومن ثم بدأ تنظيم هجوم مركز واسع النطاق عن طريق الاذاعة والصحافة في مصر ، كما تم تدريب طابور خامس مكون من رجال المخابرات والمعلمين والأطباء والتلاميذ وعدد من رجال الدين الذين اشتركوا في اداء المهمة داخل البلاد وخارجها . كان الهدف الأول من ذلك هو تثبيت زعامة عبد الناصر في العالم العربي ، ثم القضاء على ميثاق بغداد ، وعزل العراق وحكامه باسم القومية والعروبة .... والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان الاعلام في مصر استنفد اموالا طائلة من ميزانية الدولة ومن الرصيد الذي استطاعت القيادة ان تجمعه من مصادرة املاك الاثرياء بعد الانقلاب العسكري ، هذا الى جانب الهبات العالمية التي كانت ترسلها السعودية ودول الخليج ، والمساعدات الاعسكرية والاقتصادية الدائمة التي كان السوفييت من جهة والأمريكان من جهة اخرى يقدمونها للمحافظة على صداقة الزعيم الشاب الذي اصبحت له الكلمة العليا في المنطقة .

ميثاق بغداد في الميزان الدولي

ورغم عدم اشتراك مصر في الميثاق واستمرار الدعاية بانتقاد أهدافه ... ظل باب الانتساب مفتوحا كما قررته بنود الاتفاقية بأمل ان يتمكن عبد الناصر بعد تصفية المشاكل المحيطة به ادراك الفوائد التي ستكتسبها مصر والأمم العربية من الانتساب الى الميثاق ، على الأخص بعدما شاهد بنفسه الخطوات المثمرة التي بدأت الدول الآسيوية المشتركة فيه ان تقوم بها في اجتماعاتها الدورية - كان المأمول حينذاك ان تكف مصر عن مهاجمة الميثاق واشهار العداء لحكام العراق فتعود المياه الى مجاريها .

لقد ذهبت مع الأسف كل تلك الآمال مع الريح رغم ازدهار البرامج الاقتصادية التي سارت عليها الأمم المشتركة ، وكان انتساب بريطانيا علنا ، وحضور امريكا في الاجتماعات الرسمية كمشاهد ، ومن الخطوات التي وضحت للعالم بأن الغرب يساند هذه المؤسسة ، ومن المؤسف اثناء تلك الفترة أن البنك الدولي قرر عدم مساندة مشروع السد العالي ، إذ تبين للمسؤولين فيه أن ليس في مساندة عبد الناصر ما يدعو الى الاطمئنان ... فتذرعوا بالمماطلة .... وحيئذ لجأ عبد الناصر رأسا الى مغامرة صارخة اخرى لاجتذاب الانظار اليه واثارة عواصف جديدة لإثبات اهميته في المنطقة ، فأعلن تأميم قنال السويس .

تنتأميم شركة القنال وتأثيره على الصعيد الدولي

دوت هذه القنبلة السياسية كالصاعقة في انحاء العالم بأسره فالمعروف في القوانين الدولية أن الغاء عقد من جانب واحد هو خرق للعرف المألوف ، وأغرب ما في الأمر هو ان تاريخ انتهاء هذا العقد كان قاب قوسين أو أدنى ... ولا يحتاج الأمر الى مثل هذه الحركة العنيفة لتصفية الموضوع . لقد فوجيء أعضاء شركة القنال عند سماع الخبر ، واهتزت الأوساط السياسية وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا خوفا على مصالحهما الحيوية في تلك الشركة - بل أصبحت تخشى على مستقبلها من جراء الخطوات التي كان يتخذها عبد الناصر دون سبق انذار . وانصافا للتاريخ نقول ان مصر ذاقت الأمرين من تمسك بريطانيا بقاعدة السويس لمدة تجاوزت سبعين عاما . إذ كانت تعد تارة بالاخلاء ثم تتراجع تارة اخرى ، وتجد حججا متواصلة للاستمرار في احتلالها ... وقد زاد قلقها عندما شعرت بتوغل النفوذ الروسي الى المنطقة عن طريق مصر ،

فاندفعت في مناضرة ميثاق بغداد واشتركت فيه بأمل ان تحمي هذه المؤسسة الدفاعية ارجاء المنطقة من تسرب الحرب الباردة اليها خصوصا بعد أن تم الجلاء عن قاعدة السويس في ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، فقد شعر جمال عبد الناصر بأن نجاح ميثاق بغداد سيقلل من نفوذه في المنطقة ، فقرر من جديد استعمال أسلوب العنف والمفاجأة كخير وسيلة لابراز اهمية مكانته السياسية في العالم ، فقرر بين عشية وضحاها القضاء على مصالح الغرب في شركة القنال ، واستملاك الأرباح العظيمة التي كانت تجنيها من ادارة الملاحة فيه ... فتم ذلك في ٥٦ - ٧ - ٢٦ بعدما اطمأن عبد الناصر بأن لا وجود لجندي بريطاني واحد في قاعدة السويس .

ويبدو ان الرئيس جمال عبد الناصر قبل القيام بتنفيذ هذا القرار الخطير اعتمد على مساندة السوفييت والبلاد الاشتراكية الاخرى ، كما ثبّت علاقاته بالدول المحايدة بعد الاجتماع مع "نهرو وتيتو" في (بريوني) في ١٩ يوليو ١٩٥٦، وعلاوة على ذلك كان الرئيس المصري يعتمد على سكوت امريكا عن طريق مركز المخابرات الأمريكية ؛ ويعلم بوجود خلافات وتنافس خفي بين اعضاء المعسكر في آن واحد ، وذلك في وقت عصيب كانت فيه احتياجات مصر المالية ، لا تكفي لسد ميزانية الدولة من جهة أو مواجهة المصاريف التي كانت تستنفدها الدعاية الناصرية من جهة اخرى .

التأميم في القانون الدولي

ومن المسلم به هو ان التأميم حقا مشروع في الدول التي تؤمن بالاشتراك بالنسبة للمؤسسات المحلية ، وذلك باتباع الاجراءات القانونية التي تفرضها الدولة عند التأميم ، أما العقود الدولية فهي عادة تستوجب التفاهم بين الطرفين على طريق الحل ومدة التعاقد ، كما يؤخذ بعين الاعتبار عند انهاء الاتفاقية الظروف المحيطة ، والخسائر الناتجة ، والتعويضات المنتظرة ، ولكن عندما يلغى الاتفاق من جانب واحد دون رعاية الحلول القانونية الموضوعة فقد يصل الأمر بين الطرفين احيانا الى نزاع سافر ربما يؤدي الى حروب ، خصوصا اذا تعلق الأمر بممر استراتيجي دولي تشتبك فيه مصالح أمم متعددة كالقنال .

كان جمال عبد الناصر يدرك ذلك ولكنه آثر المقامرة في هذا المجال رغم قرب انتهاء مدة العقد الأصلي المبرم عند تأسيس الشركة ، والذي كان سينتهي اجله في مدة وجيزة -، أما الدافع المباشر كحركة اليأس التي قام بها عبد الناصر فهو القرار الذي

اتخذه البنك الدولي بعدم تمويل مصر لإقامة السد العالي ، وعلاوة على ذلك امتنعت امريكا وبريطانيا عن مساندته في هذا الشأن ، فرأى عبد الناصر في هذا الموقف المشترك الذي اعلنته الأمم الغربية تجاهه اهانة صريحة ودليلا على انعدام الثقة فيه لشعورها بانحياز مصر للبلاد الاشتراكية ، وبناء على ذلك لجأ عبد الناصر الى تلك المغامرة إذ وجد فيها ما يشفي غليله ويثبت قدرة مصر على ادارة الملاحة في القنال والقيام بالالتزامات الدولية دون مساعداتهم .

محاولات عبد الناصر لتخفيف وطأة التأميم

لقد اثبت عبد الناصر قدرته على تحدي الغرب علنا ، ولكنه كان في الخفاء يسعى الى تهدئة الخواطر لتصفية الأمور سرّا ، والدليل على ذلك هو انه رغم الدعايات الصاخبة التي كانت تشنها مصر ضد العراق وضد نوري السعيد بالذات ، أبرق عبد الناصر برسالة الى السفارة المصرية في المملكة المتحدة فور اعلان قرار التأميم ، وطلب الى القائم بالأعمال فيها ، السيد سامي أبو الفتوح ، ان يواجه نوري السعيد في لندن ، حيث كان الرئيس العراقي يقض اجازته مع العائلة ، لكي يتباحث معه في طريقه لتهدئة الزوبعة التي اثارها خبر التأميم في الأوساط السياسية في لندن .

وصل سامي أبو الفتوح بشكل فجائي الى الشقة التي كنا نقطن فيها في Chelsea الساعة التاسعة مساء بعد تاريخ التأميم بيومين ، وذلك بعد مخابرة تليفونية ، ولما تمت المقابلة بينهما سألناه عن سبب هذه الزيارة ، فقال نوري السعيد أن عبد الناصر اراد ان يستعين به لحل مشكلته مع الأنكليز في شأن التأميم ، ثم اضاف أنه سيذهب الى وزارة الخارجية في الصباح للبحث في هذا الموضوع ، وعلى أثر ذلك نظرت اليه بدهشة ظاهرة ثم قلت له : "أيطلب منك عبد الناصر التوسط رغم هجوم صوت العرب المتواصل ضدك ؟" فأجابني بعصبية ظاهرة قائلا : "اتركينا من هذه الخزعبلات ... الموقف خطير ... ويتحتم علينا التآزر حالا ، فإسرائيل عالباب ... افهموا ذلك جيدا ... لسنا اطفال .. فالمصلحة واحدة ... " ثم انصرف الى حجرته غاضبا ، والله يشهد على ما اقول . لقد كان هذا هو موقف الرجل الذي ظل صوت العرب والصحافة المصرية تكيل له الافتراءات ردحا طويلا من الزمان .

موقف دول الميثاق في الدفاع عن قرار التأميم

ويتحتم عليّ في هذا المقام أن أسرد المواقف الأخرى المشرّفة التي انتهجها نوري السعيد والحكومة العراقية اثناء أزمة السويس في لندن وفي العراق وعلى الصعيد الدولي ، وذلك لفضح الافتراءات المزيفة التي سجلتها الدعاية المصرية ضد رجل ساهم وضحى في بناء أركان العروبة ووحدتها بالنفس والنفيس .

لقد توالت محاولاته بعد ذلك في الأوساط السياسية البريطانية لتهدئة جو ملبد بالغيوم ، وتمسك نوري السعيد في كل محادثاته بإبراز اخطاء المعسكر الغربي في معاملاته مع حكام مصر والبلاد العربية .

لقد ذكّرهم بمحادثات سابقة بالغ هو خلالها في الالحاح على امريكا وبريطانيا بوجوب تسليح الجيش المصري فورا ، وعدم ترك المجال لتسرب نفوذ أمم اخرى في المنطقة عن طريق التسليح نظرا لخطورته على الاستقرار في المنطقة ، كما انتقد الموقف السلبي الذي اتخذه البنك الدولي تجاه مصر عندما سحب موافقته على تمويل مشروع السد العالي ، وتحاشت امريكا وبريطانيا تقديم اية مساعدة لمصر في هذا الشأن ، وبين نوري السعيد للمسؤولين ايضا أن هذه المواقف السلبية هي التي دفعت عبد الناصر الى اتخاذ هذا السبيل ، وقد يفسر موقف الغرب حتما بأن الغرض الأساسي هو حماية اسرائيل من غضب الشعب الفلسطيني الذي شرد من بلاده ، واغتصبت أوطانه ، دون رحمة أو انصاف ، واضاف الى ذلك بأنه لا يمكن ان يلام رئيس دولة كان يطمع في تحرير بلاده وينعش الأوضاع الاقتصادية فيها حين يسعى الى العثور على المصادر التي تحقق اهدافه اذا شعر بالاخطار المحيطة ، فالحاجة الملحة تبرر الوسيلة احيانا وخصوصا بالنسبة لشاب لم تصهره التجارب بعد ، فمن الصعب ان يتكهن بما ستنتهي اليه العلاقات المقبلة مع جهات لها مطامعها واساليبها الخاصة ، وذلك رغم كل ما يستطيع ان يتخذه الانسان من احتياطات لاتقاء ما لا يحمد عقباه ، ثم أردف يقول : لقد خاب ظن العرب مرارا في حسن نوايا الغرب منذ فجر نهضتهم ، وقد مرّت بي شخصيا تجارب قاسية اثناء مفاوضاتي المتعددة ، وفي سعي تقدير ما يوحيه اليأس في نفوس الذين يقاسون ظلما أو عدوانا .

السعيد يرفض الاجتماع بدول الكومنولث

وعلى اثر اعلان التأميم دعى (انطوني ايدن) رئيس وزراء بريطانيا وعدد كبير

من رجال السياسةومن اقطاب الكومنولث لأخذ ارائهم في هذا الموضوع ، وكان من بين الذين دعوهم الى هذا الاجتماع نوري السعيد ، وطارق العسكري الوزير المفوض في السفارة العراقية ، وفي الموعد المحدد ذهب الرجلان الى مكان الاجتماع فاستقبلهما انطوني ايدن بلهفة وترحاب ... وبعد التحية نظر نوري السعيد الى الجموع الحاضرة ثم سأل المستر ايدن : لمن الدعوة ؟ ومن هم الحاضرون ؟ فأجابه ايدن لقد جمعت مندوبي الكومنولث لهذا الاجتماع واردت الاستنارة برأيك في عملية التأميم ، لنتخذ قرارا اجماعيا في هذا الموضوع ، فظهرت الدهشة على وجه نوري السعيد فسأله مستفزا : هل دعيتم مندوب امريكا لهذا الاجتماع فالموضوع يهم العالم بأسره وعليكم اخذ رأي الاطراف جميعا ... فاضطرب مستر ايدن عند سماع هذا الاعتراض واجاب : لقد اكتفيت بجمع ممثلي الكومنولث واردت سماع رأيك الشخصي في هذا الموضوع ، فابتسم نوري السعيد ثم اعتذر قائلا : ظننت ان هذا الاجتماع سيضم ممثلي الدول الكبرى واصحاب الشأن في قضية التأميم للتشاور فيما يمكن القيام به لحل الأزمة السياسية التي نشأت عنها ، ولكنني أجد نفسي هنا في محور الكومنولث ، فاسمحوا لي بالإنسحاب لأنني لم اكن يوما ما عضوا في الكومنولث ، وهكذا رفض نوري السعيد حضور الاجتماع ، وأبدى مستر ايدن دهشته وامتعاضه .

ما دار بين نوري وايدن

ورغم هذه المواقف المشرفة تمسكت دعاية المغرضين بتشويه تفاصيل حديث دار بين المستر ايدن ونوري السعيد اثناء حفلة عشاء رسمية وكان التشويه مقصودا ، ونشرت بعض الاخبار بأن نوري السعيد كان يحرّض ايدن ضد عبد الناصر بعد حركة التأميم ، اثناء العشاء وانصافا للحقيقة والتاريخ نذكر تفاصيل الحديث كاملا كما رواه لنا نوري السعيد في حينه ، قال : "كنا نتباحث في موضوع شركة القنال فقلت لإيدن بأن التأميم من حق الشعوب ، وانه يجب الاتفاق بالحسنى حول المشاكل التي ستنجم من الغاء العقد القائم ، فشعرت باستيائه من كلامي ، إذ بدأ يعاتبني على دفاعي عن حركة التأميم واللهجةالقاسية التي يستعملها عبد الناصر لتبرير موقفه ، كان ايدن يأمل أن أبدي سخطي على هذا الموقف ، وعندما كرر العتاب ، ضقت ذرعا به ، وقلت له بانفعال ظاهر : "التأميم من حق الشعوب ولا أرى فيه شائبة ، اما اذا كان بينكما ثأر وتشعر بريطانيا بأن مصالحها مهددة فأنتم احرار في اتخاذ قراراتكم ، فلست وصيا

على عبد الناصر ، بل اقول لكم جهرا بأنه لم يأخذ رأي اية دولة عربية عندما قام بحركة التأميم ، ورغم ذلك فإنني احذركم تحذيرا قاطعا ، وانصحكم بعدم اقحام اسرائيل في اية خطوة تتخذونها ضده فالعالم العربي بأسره سيهاجمكم ، وسيكون صوت العراق داويا وسيقف ثابتا الى جانب اخوانه العرب ..." .

لقد كرر نوري السعيد هذا التحذير في اجتماعاته مع كافة المسؤولين السياسيين في لندن ويشهد على ذلك ما اعلنه في خطابه المشهود الذي القاه في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ... هذا الى جانب الاجراءات الحاسمة التي اتخذتها الحكومة ا لعراقية فور وصول نوري السعيد الى بغداد .

بيان الحكومة العراقية

ففي ٥ اغسطس ١٩٥٦ اصدرت الحكومة العراقية بيانا رسميا جاء فيه أن العراق يعترف بحق مصر في تأميم قنال السويس ، وان الحكومة العراقية تأمل أن تستعمل الحكمة اثناء المحادثات لإيجاد الحلول التي تضمن لمصر سيادتها واستقلالها وتحفظ كرامتها ، وأضاف البيان بأن في مثل هذه الظروف يجب على الأمة العربية ان تحتاط وألا يغيب عن بالها اثناء انشغالها بتفاصيل النزاع ، بأن اسرائيل تترقب وتتحين الوقت المناسب بل وربما تغتنم فرصة وجود هذه الأزمة للوصول الى مآربها في الشرق الأوسط ، ويدل ما تضمنه البيان العراقي من نصائح على بعد نظر نوري السعيد حينما أشار الى جهود اسرائيل الخفية ، إذ تحققت مخاوفه بعد حين وتعرضت مصر لمؤامرة العدوان الثلاثي .

أما عبد الناصر فقد ارتاح لصدور مثل هذا البيان وطلب إلى سفير العراق في مصر في ٩ أغسطس ان يبلغ حكومته تلغرافيا شكره وتقديره لموقف العراق ، وكان المأمول ان يزول الجفاء بين الطرفين بهذه المناسبة وان تتم تصفية العلاقات بينهما ، ولكن يبدو ان ضغط الوشايات كان اكبر ، فظل العراق بعد ذلك يبذل اقصى الجهود لمساندة مصر في أزمتها عملا بمبادئها الاساسية والتزاماتها تجاه الجامعة العربية ، وذلك رغم استمرار سياسة العداء التي شنتها الدعاية المصرية ضد حكام العراق وميثاق بغداد بالذات ، فعندما بدأ العدوان الثلاثي على مصر بادر العراق فورا إلى اعلان استعداده لبذل كافة الجهود التي تستلزمها الأخوة وقدسية المواثيق ، وبناء على ذلك طلب نائب وزير الخارجية في مصر من سفير العراق ارسال برقية تحمل شكر حكومته وامتنانها

على موقف العراق النبيل تجاه مصر اثناء محنتها ...

دول الميثاق تدعم حق مصر

وأعظم من ذلك ما حدث في اجتماع اعضاء ميثاق بغداد في طهران عندما استأنفوا اعمالهم الدورية في ١٩٥٧ تحت رعاية جلالة شاه ايران ورئاسة الجنرال اسكندر ميرزا رئيس دولة باكستان ، إذ تشهد سجلات ذلك الاجتماع المثير تفاصيل الموقف الجرىء الصلب الذي اتخذه نوري السعيد عندما هدد علنا بانسحاب العراق من كتلة تضم مندوب بريطانيا ان لم تنسحب الجيوش المغيرة من مصر فورا ، وعلى اثر ذلك اتخذت وفود البلاد الاسلامية وهي تركية وايران وباكستان والعراق قرارا يحتوي على الطلبات التالية :

١ – انسحاب القوات المغيرة على مصر مباشرة دون قيد أو شرط .
٢ – اطلاق سراح كافة جنود مصر المعتقلين اثناء العدوان .
٣ – احترام سيادة مصر وسلامة أراضيها كاملا .
٤ – السعي في حل مشكلة فلسطين .

كان هذا هو موقف تلك البلاد الاسلامية على الصعيد الدولي بتأثير من نوري السعيد في اجتماع طهران ، وهي الدول التي لم يوافق عبد الناصر على التعاون معها لأسباب خاصة تتعلق بزعامته من جهة ، وبتأثير المعسكر الشرقي عليه من جهة اخرى ، ونضيف الى الجهود الي بذلها العراق في هذا السبيل اشتراك جلالة الملك فيصل الثاني في المؤتمر الذي عقد في لبنان بدعوة من السيد كميل شمعون ، والذي ضم ملوك ورؤساء الدول العربية للبحث في شأن العدوان ، والجدير بالذكر هو ان القرارات التي اتخذتها الدول العربية في المؤتمر المذكور كانت مطابقة نصا وروحا لتلك التي سجلتها اجتماعات طهران .

بيان الدول الاسلامية

وتكرر بعد ذلك اجتماع الدول الاسلامية في بغداد ، فأعلنوا من جديد فأعلنت تأييدها الشامل لمصر وللقضية العربية الكبرى ، وهي قضية فلسطين ، وبناء على موقفهم

النبيل في هذا الشأن بعث الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه الى اعضاء المؤتمر اثناء الاجتماع رسالة شكر وتقدير على ما قاموا به في سبيل الدفاع عن مصر والمحافظة على سيادتها واستقلالها .

هذا بعض ما بذله العراق في سبيل مساندة مصر في محنتها ، وقد استعان ايضا بالبيان الذي اصدرته الحكومة يوم ٥ أغسطس وارسلت نسخا منه لكافة البعثات الدبلوماسية الموجودة في العراق ، الى البعثة العراقية التي تعمل في الأمم المتحدة ، والى مؤتمر الملوك ورؤساء العرب الذي عقد في لبنان وفي ذلك ما يظهر موقف العراق جهرا امام الجميع ، هذا الى جانب هبة مالية قدرها مائتا الف دينار لضحايا العدوان الثلاثي الغاشم على مصر .

فهل يجوز بعد كل تلك الخدمات التي قدمها العراق للعروبة ، والمواقف الأخوية النبيلة التي اتخذتها حكومة العراق ، وعلى رأسها نوري السعيد ، لمساندة مصر في محنة السويس ان يكون جزاؤهم جزاء سنمار ، وان يتهموا زورا بالخيانة والتقصير ، كما رددتها مرارا وتكرارا بعض الجرائد المأجورة واذاعة صوت العرب .

ليس من الممكن تبرير مثل هذا الموقف ، فهو لا يتفق وأبسط قواعد الأخوة واللياقة ، وترفضه سنن الأمانة والشرف ، فحبل الأكاذيب قصير ، وسيشهد التاريخ على ذلك في المستقبل ، فالله متم نوره ولو بعد حين ، ولكن الشيء الذي لا يمكن ان ينكر هو ان سيل الدعاية المصرية سرى في الآفاق العربية كريح صرصر عاتية ، حاملا بذور الفتنة والتفرقة فأعز من أراد ، وأذل من أراد ، ورفع حكومات واهية ، كما أسقط عروشا ثابتة ، وخلق في المنطقة بأسرها مجتمعا جديدا مخدرا بالأكاذيب التي اوحاها الاعلام بصور وافكار مشبوهة ، وفي الرجوع الى طريق تنظيمها ما يسوقنا الى معرفة النوايا الأصلية التي خططتها مراكز الدعاية والتيارات التي تسربت اليها ، والمؤثرات السياسية والاجتماعية التي جعلت منها أداة شر وتفرقة بدلا من عنصر خير لتعزيز وحدة الأمة العربية وحفظ كرامتها .

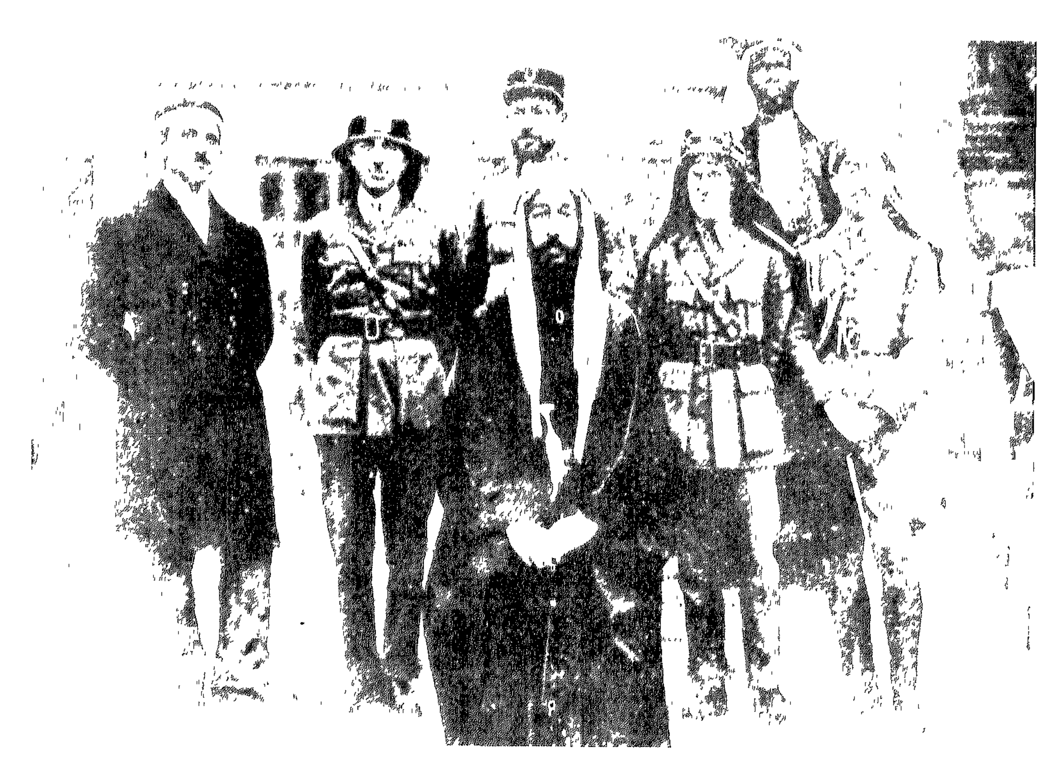
وقبل الدخول في تفاصيل الدورالذي لعبه مركز الاعلام في مصر في تقرير مصير الدول العربية يجب ان لا يغيب عن الذاكرة ان مشكلة فلسطين كانت وما زالت القاعدة الاساسية التي خلقت وسببت المآسي والمشاكل التي اكتسحت وزعزعت اركان العالم العربي .



شارع الرشيد ـ بغداد سنة ١٩٢٠

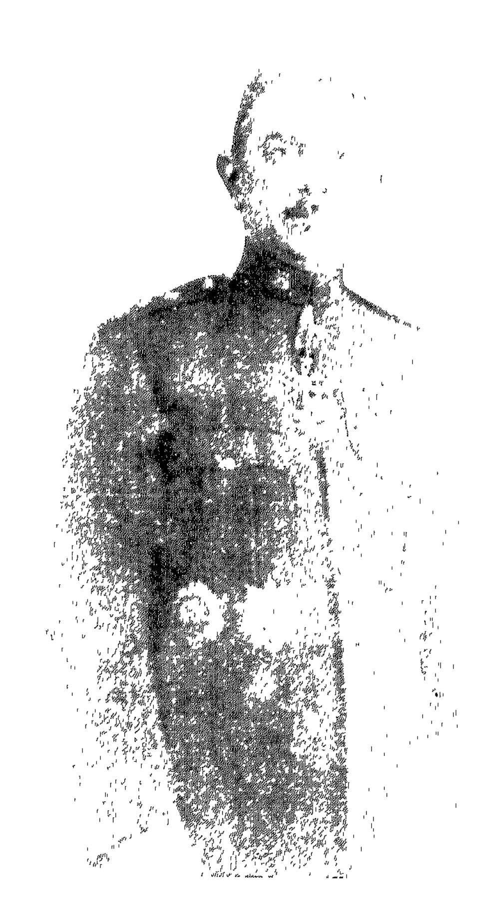


ساحه الميدان في بغداد سنه ١٩٢٠

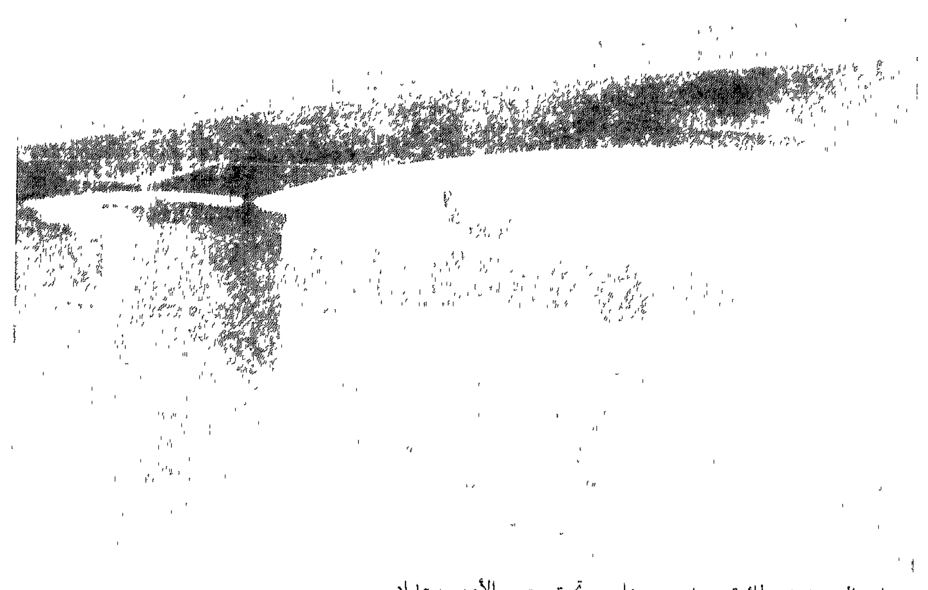


الملك فيصل الأول فى مؤتمر الصلح باريس
الواقفون من اليمين الى اليسار تحسين قدرى، لورنس، الكولونيل براى، نورى السعيد، رستم [illegible]

الاحتفال بتتويج الملك فيصل الأول في بغداد سنة ١٩٢١



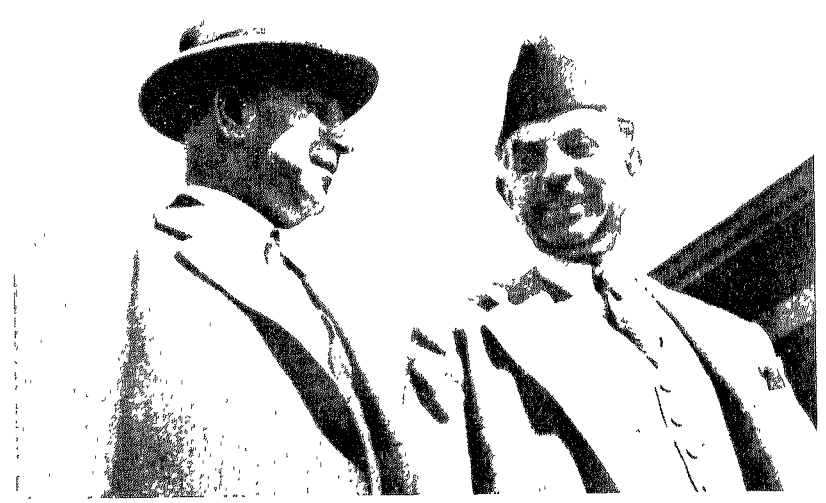
نوري السعيد وزيرا
للدفاع العراقي سنة ١٩٢٦



صباح السعيد في طائرته عند مرورها من تحت جسر الأمين ببغداد



نوري السعيد وزوجته مع ابنهما صباح يوم زفافه الى عصمت السعيد سنة ١٩٣٦



نوري السعيد مع الدكتور غروبا وزير المانيا المفوض في بغداد



نوري السعيد وعلي جودت الايوبي وجميل المدفعي عند عودتهم الى العراق بعد فشل حركة رشيد علي الكيلاني



نوري السعيد بين الشيخ مصطفى المراغي ومصطفى النحاس



وسدل وبلكي
مع الحفيدين فلاح وعصام



نوري السعيد مع
حفيديه فلاح وعصام
رحمهم الله جميعا



نوري السعيد مع ولده صباح وحفيديه فلاح وعصام رحمهم الله جميعا



صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني رحمه الله وعلى يساره الملك الراحل سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وعلى يمينه رئيس الوزارة العراقية نوري السعيد



نوري السعيد مع مجموعة من رجالات العهد الملكي يتوسط صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني وولي العهد الأمير عبد الاله (من اليمين الى اليسار)
تحسين قدري، الدكتور فاضل الجمالي، نوري السعيد، الأمير عبد الاله، الأمير زيد، جميل المدفعي، عبد الملك الخصيري، نوري القره غولي



الملك فيصل الثاني في احدى الاحتفالات الرسمية مع مجموعة من رجالات العراق السياسيه. وهم (من اليمين الى اليسار). الدكتور فاضل الجمالي، عبد الوهاب مرجان، نوري السعيد، الدكتور محمد حسن سلمان، توفيق السويدي (وراء الأمير عبد الاله)، الأمير عبد الاله ولي العهد، علي جودت الأيوبي، جميل المدفعي (وخلفه علي ممتاز الدفتري)، خليل كنه، السيد محمد الصدر، الدكتور ضياء جعفر، الأمير رعد بن زيد، قاسم خليل

الضمير العالمي لم يتحرك

لم يفلح اقطاب الدول العربية رغم الجهود التي بذلوها في تحريك الضمير العالمي لرفع ظلم مبين اشتركت في انزاله على الشعب الفلسطيني الاعزل صرامة هتلر من جهة ، عندما طرد اليهود من البلاد التي احتلها ، والدول الغربية من جهة اخرى عندما ساندت الصهيونية لتثبيت اركان دولة سياسية قوامها العنصرية .

ويذكر القارىء ايضا أن مندوب مركز المخابرات الأمريكية ورفيقه كوبلند تمكنا من اقناع عبد الناصر بأن امريكا مستعدة لدعم مصر سياسيا واقتصاديا اذا حاول عبد الناصر القضاء على التوتر القائم بين العرب واسرائيل .

لقد قام عبد الناصر فعلا بعد ذلك بمحاولات متعددة في هذا السبيل ، فسمح اولا بمرور البواخر الاسرائيلية من خليج العقبة ، واتفق على ذلك في اجتماع ثلاثي سري في منزل همرشولد ، كان محمود فوزي يمثل فيه ، كما كان (بينو) وزير خارجية فرنسا ، يمثل اسرائيل ، بحضور رئيس الأمم المتحدة وفي مذكرات بينو تفاصيل الاجتماع المذكور .

وعندما القى المستر ايدن في سنة ١٩٥٥ خطابه المشهود الذي طلب فيه الى العرب واسرائيل استعمال الحكمة والمرونة للوصول الى حل وسط ، رحب جمال عبد الناصر بالخطاب المذكور ، وبدأت في اعقاب ذلك مفاوضات جدية بين مصر من جهة ، وبريطانيا وامريكا والبنك الدولي من جهة اخرى لتمويل مشروع السد العالي . واثناء سير المفاوضات المذكورة طلب السفير البريطاني مقابلة نوري السعيد واخبره بأن في نية جمال عبد الناصر تصفية التوتر القائم بين اسرائيل والبلاد العربية ، ولكنه يخشى فقط معارضة العراق في هذا الشأن ، فأجابه نوري السعيد بأن العراق لا يمكن ان ينفرد بمعارضة حلول عادلة ، على الأخص اذا وافقت عليها البلاد التي تجاور اسرائيل . وبعد ايام معدودة زار السفير المصري نوري السعيد ايضا وفاتحه في الموضوع نفسه ، وعلى اثر ذلك أرسلت الحكومة العراقية مذكرة رسمية الى سفيرها في مصر ذكرت فيها بأن سفير مصر في العراق اراد معرفة رأي الحكومة العراقية في التعليق الذي اصدره الرئيس جمال عبد الناصر بعد سماع خطاب المستر "ايدن" ، وبناء على ذلك يطالب العراق كعضو في الجامعة العربية :

اولا : بتنفيذ القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة بالنسبة للقضية الفلسطينية .

ثانيا : يوافق العراق على الحلول التي تتفق عليها الدول الأربعة المجاورة لفلسطين وهي الأردن وسوريا ومصر ولبنان .
ثالثا : العراق مستعد للتعاون مع مصر للوصل الى حل عادل لمشكلة فلسطين .

عبد الناصر يشكر العراق

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٥٥ ابرق سفير العراق في مصر الى الحكومة العراقية ليخبرها بأنه قابل الرئيس عبد الناصر ، وانه علم منه بأنه تسلم رد حكومة العراق عن طريق السفير المصري في بغداد ، وانه يشكر الحكومة العراقية على هذا التعاون الكريم ... ولكنه يرى ان لا داعي في الوقت الحاضر لتنفيذ الاقتراح المقدم من قبل سورية والذي تطلب فيه اجتماع اللجنة السياسية للبحث في هذا الموضوع ، لأن الافضل بالنسبة للظروف القائمة هو ان تقام اولا اتصالات دبلوماسية مع المسؤولين على انفراد ، ثم يجب بعد ذلك معرفة رأي انكلترا وامريكا ومقترحاتهما في هذا الشأن قبل الرجوع الى اللجنة السياسية .

ويبدو من تلك المحاولات ان الرئيس عبد الناصر أراد ان يثبت للحكومات الغربية حسن نيته في التوسط لإحلال الاستقرار في المنطقة ، إذ كان يأمل حينذاك الاستعانة بالبنك الدولي وبدعم امريكا وبريطانيا رغم وجود الارتباطات المتينة التي قيدته بالمعسكر الشرقي عن طريق صفقة الأسلحة .

كان عبد الناصر يؤمن ببراعته السياسية ، وبقدرته على القفز بين المعسكرين ، مع حفظ التوازن بينهما ، وكانت طبيعة المقامر فيه تدفعه الى المغامرة على الدوام ، حتى لو كلفه ذلك مالا يمكن تعويضه ، ونذكر بهذه المناسبة حديثا دار بينه وبين وزير خارجية العراق بعد صفقة الأسلحة ، إذ عندما زاره السيد برهان الدين باش اعيان موفدا من قبل حكومة العراق ، ومحذرا من العواقب التي يمكن ان تتعرض اليها مصر بتوغل النفوذ الروسي اليها بعد صفقة الأسلحة ، اجابه عبد الناصر بثقة واعتداد بأنه قابض على الزمام وانه حريص على ألا يفلت ، واراد باش اعيان ان يوضح له بأنه ليس من السهل التخلص من براثن دولة تستطيع بأساليبها الخاصة هز اركان شعوب وحكومات مستعمرة والتسلط على مقدراتها ، فأجابه الرئيس باستخفاف ظاهر ثم ماذا ؟ "لا تنس ياصاحبي انني جئت من الشارع ولا يهمني قط لو رجعت الى الشارع" وقد يبدو جليا من هذا الجواب الغريب بأن الرجل رغم ما كان

يتمتع به من شخصية جبارة ساحرة كان يفتقر الى الصفات الاساسية التي يجب ان يتميز بها رجل الدولة الأمين من حكمة وحرص على مصالح الوطن حتى لو هانت عليه المغامرة بنفسه وبما يمتلك .

العدوان الثلاثي

لقد تضمن البيان الرسمي الذي اصدرته الحكومة العراقية في ٥ أغسطس ١٩٥٦ تحذيرا سافرا للأمة العربية من النوايا الخفية التي ربما تدفع اسرائيل الى اغتنام فرصة أزمة التأميم لتحقيق مآربها ، وقد حدث ذلك فعلا عندما تآمرت اسرائيل مع فرنسا وبريطانيا للهجوم على مصر . كان الجو السياسي الدولي مكفهرا على اثر تأميم قناة السويس ، وكان الوضع في فرنسا وبريطانيا متوترا ولكنهما لم يقررا الدخول في حرب سافرة رغم اتخاذهما الاستعدادات البحرية والعسكرية الكاملة لمواجهة الطوارىء . وجدت اسرائيل حينذاك الفرصة سانحة للقيام بمناوراتها ، فاتصلت بالحكومة الفرنسية ، وبالغت في تصوير الأوضاع ، فقالت ان مصر تمنع مرور البواخر الاسرائيلية من قناة السويس ، وانها سدت خليج العقبة ، وان الأحداث في غزة خطيرة ، وان جيشا مصريا مسلحا يرابط في سيناء ، وان طائرات روسية تحلق فوق المنطقة ، وانه بناء على ذلك يتحتم على اسرائيل ان تتخذ خطوات حاسمة لحماية نفسها ، فالموقف خطير ، ومستقبلها مهدد ، ولكنها قبل كل شيء تريد ان تعلم مدى المساعدات التي تستطيع فرنسا وبريطانيا ان تقدمها اثناء المعركة إذ يجب قبل كل شيء القضاء على القوة الجوية في مصر .

ومن ثم بدأت مفاوضات جدية بين الاطراف الثلاث في الخفاء ، واتفقوا بينهم سرا على طريقة الهجوم بمؤامرة مخزية اتخذت فيها فرنسا وبريطانيا موقف الوسطاء بحجة فض النزاع ... ولكن عندما اقتحمت الجيوش الاسرائيلية على حين غرة أرض مصر ، وبدأت المعركة تدخلت الطائرات البريطانية والفرنسية فورا بحجة وقف القتال ، ولكنها اقتصرت فقط على قصف مطارات السلاح الجوي المصري وقضت على الطائرات الجاثمة فيها كاملا ، لقد اثارت هذه المؤامرة المشينة سخط العالم بأسره ، فهددت روسيا بالتدخل لصد الهجوم الغاشم ، كما بادرت امريكا بإرسال اسطولها السادس للسيطرة على الموقف واحباط النار المشتعلة في تلك المنطقة الحساسة ، وتحمّل المستر ايدن وزر تلك الخدعة المخزية التي دبرتها اسرائيل ، وسار هو وفرنسا في

ركابها سرا ظنا منهما ان هذه الخدعة ستنطلي على الجميع ، فكانت بالنسبة له انتحارا سياسيا إذ استقال على اثر ذلك عضو بارز في وزارة الخارجية البريطانية عندما تجلت المؤامرة ، وتبين ان مستر ايدن كان يعمل في الخفاء دون استشارة زملائه المسؤولين .

نتائج الهزيمة

أما مصر فقد خسرت في هذه الجولة سلاحا وعتادا ورجالا كما لو تكبدت هزيمة كبرى ، ولكن الرأي العام العالمي شرقا وغربا وقف في صفها ، فارتفعت أسهم الرئيس عبد الناصر عاليا ، وتحولت الخسائر المادية الفادحة الى نصر سياسي مبين .

كانت نتيجة العدوان الثلاثي المباشرة سيطرة امريكا على سياسة الشرق الأوسط إذ اضطرت مصر الى مجاملة الولايات المتحدة اعترافا بفضلها في رد العدوان من جهة واملا في الحصول على اعانات جديدة لتعويض بعض الخسائر المادية التي تكبدتها من جهة اخرى ، ولكن عملا بالسياسة الناصرية المرسومة فقد احيطت كل تلك الاجراءات السياسية بالكتمان الشديد .

ومثل ذلك الاتفاقية السرية التي اجرتها مصر مع اسرائيل بضمان من الأمم المتحدة في شهر مارس ١٩٥٧ .

ما كسبته اسرائيل

لقد منيت فرنسا وبريطانيا من جراء العدوان الثلاثي بهزيمة سياسية كبرى ، ولكن اسرائيل استطاعت بفضل مساندة امريكا الحصول على فوائد مرموقة في الشرق الأوسط عن طريق الاتفاقية السرية التي تمت في حفلة غداء خاصة في دار المستر همرشولد في نيويورك ، اي بضمان الأمم المتحدة ، بحضور السيد محمود فوزي وزير خارجية مصر ، والمستر (بنيو) وزير خارجية فرنسا المنتدب من قبل اسرائيل ، ففي الاجتماع المذكور تم الاتفاق بين مصر واسرائيل على ان لا تنسحب القوات الاسرائيلية من غزة وخليج العقبة إلا اذا احتلت قوى الأمم المتحدة تلك المناطق الحساسة بضمان من الأمم المتحدة .... والجدير بالذكر ان هذه الاتفاقية لم تفرض على الرئيس المصري قط ، بل تمت برضاه كما سجلت بإمضاء وزير خارجيته ، وبحضور المستر همرشولد ... ولكنه فضّل ان تبقى تلك الوثيقة سرا مكتوما حتى لا يطلع العالم العربي على ما يدور وراء الستار ... وقد سجل المستر (بنيو) تفاصيل هذا الاجتماع في كتابه .

ويبدو ان الرئيس عبد الناصر بعد حل أزمة السويس ورد اعتبار مصر رغم الهزيمة ، اصبح يؤمن بقدرته على حفظ التوازن السياسي في لمنطقة باستعمال التلاعب وباللجوء الى السرية التامة في مفاوضاته . لقد استفاد اولا في أزمة السويس من صداقة روسيا عندما هددت بالتدخل لصد العدوان الثلاثي ... كما استفاد من خوف امريكا على مصالحها نظرا للموقف الذي اتخذته حينذاك عندما اسرعت بإرسال اسطولها السادس الى البحر الأبيض المتوسط لوقف الهجوم الغاشم واحباط النيران التي اشعلها المعتدون . وجد عبد الناصر نفسه بعد مرور هذه الأزمة مدينا لأمريكا التي انقذته من اعداء الأمس ، فأصبحت الولايات المتحدة بالنسبة لمصر صاحبة المكانة الاولى والكلمة العليا في اجراءات الوساطة بينه وبين المعسكر الغربي.

اتفاقية بينو كارضاء لأمريكا بعد أزمة السويس

لقد حاول الرئيس عبد الناصر فعلا ارضاء الولايات المتحدة بعد احداث السويس فنفذ بعض مطالبها ، واستعملت السرية التامة في اغلب المباحثات بينهما حتى لا تثير اي اعتراض من اي جانب ، وكان الامل ان يستفيد الطرفان من هذا التقارب ، فتحتل الصداقة الأمريكية دون قيود استعمارية مكانة انكلترا في الشرق الأوسط ، إذ اعتبرته امريكا زعيم العرب الذي يجب رعايته والاحتفاظ بصداقته ، فمن المنتظر ان يصبح هذا الشاب الجرىء صاحب الحل والربط في المنطقة .

ولما احتلت امريكا مركز الوسيط العادل بعد أزمة السويس في منطقة الشرق الأوسط ، وجد العرب بريق امل في الخطاب الذي القاه ايزنهاور في شهر يناير سنة ١٩٥٧ امام الكونغرس ، واعلن فيه ان تغلغل الشيوعية ليست المشكلة الوحيدة التي يواجهها العالم ... إذ يجب ايضا ايجاد حل لقضية فلسطين وعلاقة العرب بإسرائيل ، كما يتحتم التفكير جديا في مستقبل اللاجئين العرب ، واضاف في هذا التصريح بأن الأمم المتحدة مهتمة بهذه القضايا ، وان الولايات المتحدة تساند الأمم المتحدة لتحقيق هذه المهمة .

كان عبد الناصر قد وعد مركز المخابرات الأمريكية فيما سبق بعلاج التوتر القائم بين العرب واسرائيل اذا تمت له الزعامة المطلقة في ارجاء المنطقة ... فزاد تفاؤل الولايات المتحدة بعد العدوان الثلاثي عندما احتلت امريكا مكان الصدارة في المعسكر الغربي واستردت مصر السيادة الكاملة على أرضها بفضل مساندتها ... ظنا منها ان

هذا القائد اللبق سيستطيع بنفوذه وشخصيته الساحرة ان يفرض الحلول المتفق عليها على الرأي العام العربي لإحلال السلام في المنطقة .

ومن جهة اخرى كان السوفييت يأملون ايضا ان تحقق لهم زعامة عبد الناصر في الشرق الأوسط مكاسب مهمة إذ قدمه خروشوف لأعضاء الكرملين كالبطل الذي تحدى المعسكر الغربي ، وفتح للسوفيت رحاب الشرق الأوسط ، وبناء على ذلك ارسل السوفييت لمصر عتادا وأسلحة تسمح بالسيطرة على المنطقة بأسرها ... على حد قول خروشوف .

لقد شعر الرئيس عبد الناصر حينذاك بأنه اصبح محط آمال روسيا وامريكا على حد سواء ، ولكنه لم يدرك بأن الوقوف بين اطماع معسكرين متنافرين امر في غاية الخطورة ، لأن التنافس والتناحر بينهما ينتهي في الاغلب بالقضاء على الفريسة من الجهتين ، ومما لا شك فيه ان نجاحه في مغامراته السابقة جعلته يثق بقدرته على حفظ التوازن ، فأصبح يفكر في خطة تضمن له اهمية سياسية ثابتة كصاحب الكلمة الفاصلة في الامور التي تتعلق بكيان المنطقة .

سلاح الدعاية

ويبدو انه وجد الحل المثالي الملائم الذي يستطيع به ان يحتفظ بسيادته الشخصية ويضمن الى جانب ذلك استمرار صداقة الروس دون اثارة قلق اسرائيل على مصير مستقبلها ، وهو ازاحة كيان هذه الكتلة الدفاعية الناشئة التي يخشاها السوفييت واسرائيل على حد سواء بعدم اشراك العرب فيها .... وبناء على ذلك قرر الرئيس عبد الناصر ان تكون الخطوة الحاسمة الاولى التي يجب ان تتخذها هي السيطرة الكاملة على دول الجامعة العربية ، واخماد صوت المعارضة لها ، حتى ينطلق في تنفيذ برامجه بحرية كاملة ، وتكون كلمته هي المسموعة في المعسكرين الشرقي والغربي على حد سواء .

كان الرئيس المصري يقدر اهمية الدعاية في توجيه الرأي العام ، فكانت الصحافة والاذاعة والطابور الخامس الذي دربه الاعلام في مصر يعمل بنجاح داخل البلاد وخارجها لتثبيت قواعد النظام الجديد - ومثل ما شاهدناه في لندن - إذ كانت كتب الميثاق والمطبوعات الناصرية تفوق كتب الدين والفقه عددا في مكاتب المركز الثقافي الاسلامي ، كما كانت السفارة المصرية تصرف هبة شهرية لرابطة الطلاب

العرب لتنظيم نشاطهم في مختلف المعاهد التي ينتسبون اليها ... هذا الى جانب المراكز الحساسة الاخرى كالاذاعة والصحافة وهلم جرا والدليل على ذلك انه عندما حدث العدوان الثلاثي الغاشم على مصر قامت مظاهرات صاخبة منظمة في لندن تحت اشراف الطلاب العرب ضد الحكومة البريطانية لاشتراكها مع المعتدين - وقد هزت هذه الأحداث مشاعر عدد لا يستهان به من الجمهور البريطاني ، واثارت اعتراض عدد كبير من النواب الانكليز ضد تصرفات المستر ايدن وكان الفضل في ذلك لدعاية منظمة تتمتع بكل عوامل النجاح .

ومن دواعي الأسف الشديد هو ان القائمين بالأمر في دوائر الاعلام المصري اتخذوا بالتدريج اسلوبا يتنافى مع ما كان ينتظره العالم العربي منهم من توجيه كريم ، إذ اصبح الهدف الاسمى لهذه المؤسسة دعم دكتاتورية عبد الناصر على البلاد العربية والقضاء على كل من لا يمتثل لإرادته .

اسلوب دائرة الاعلام

ولا يخفى ان القيادة كانت تستعين بدائرة الاعلام الى اقصى الحدود لتنفيذ اهدافها ، وانها كانت ترسل جنود مخابراتها الى البلاد المختلفة لنشر مبادىء القيادة واثارة الجو المناسب فيها لتحقيق مآربها ، وذلك بتنظيم اوكار سرية ، وبالتعاون مع عدد من المنظمات المحلية للقضاء على اية معارضة لا تتفق اراؤها مع ما يمليه على الأمة العربية "صوت العرب" .

بدأت الدعاية اولا بمساندة كل من يمشي في ركابها ، ثم سعت الى الاطاحة بالحكومات التي لا تمتثل لأوامرها ، ويشهد على ذلك الاحداث التي مرت بها اليمن وليبيا وسوريا والجزائر ولبنان والأردن ثم العراق معقل ميثاق بغداد في النهاية .

كان هذا الميثاق هو حجر العثرة الاكبر الذي سعت الحكومة الناصرية الى ازاحته بكل ما أوتيت من قوة ، وذلك بعد ان ارتبطت ارتباطا وثيقا بالاتحاد السوفييتي عن طريق تسليح الجيش المصري واقامة السد العالي ... وكان القضاء على هذا الميثاق الناشىء هو الحل المثالي الوحيد الذي سيمكّن عبد الناصر من الاحتفاظ بسيادته الشخصية على العالم العربي ويضمن الى جانب ذلك استمرار صداقة السوفييت دون اثارة قلق اسرائيل على مصير مستقبلها ... ومن ثم بدأ الهجوم المركز يزداد عنفا كل يوم على ميثاق بغداد من دوائر الاعلام في القاهرة .

تنظيم الدعاية والهجوم المكثف

كانت الصحافة في مصر رهن اشارة الحاكم منذ بداية العهد الجديد .. فلم يعد للأقلام الحرة مجال للتعبير عن آراء المعتدلين ... ولم يبق لأصحاب الرأي والخبرة اي صوت يسمع ، إذ تجندت الصحافة كاملا لتنفيذ السياسة المرسومة . وصادف اثناء احدى زياراتي لمصر ان دعتني السيدة احسان القوصي الى منزلها في المعادي ، وهي زوجة الكاتب المعروف محمود العزب موسى ، احد اقطاب الصحافة في مصر الذي اشترك في تحرير الركن السياسي في جريدة الأهرام ردحا من الزمن ... وانا لعلى مائدة الغداء اذ التفتت السيدة احسان الى زوجها وقالت له: اخبر عصمت هانم يامحمود عما دار بينك وبين الرئيس اثناء المقابلة في الاسبوع الماضي ، فابتسم الاستاذ العزب وقال بعدم اكتراث : مش مهم ، عصمت هانم تعرف شعور الرئيس فيما يخص ميثاق بغداد ، ولكن عندما الحت عليه السيدة احسان وابديت اهتمامي بالموضوع قال لي : لقد طلبت مني ادارة جريدة الأهرام الذهاب الى مكتب القيادة لمواجهة الرئيس عبد الناصر ، فعند المقابلة ابدى الرئيس رغبته في ان تظهر يوميا في الأهرام مقالة تنتقد حلف بغداد ونوري السعيد الى ان يتم القضاء على فكرة الميثاق . كان العزب موسى من الصحفيين الذين يحترمون رسالة الصحافة ، ولا يعتبرونها اداة تخضع لإرادة الحكام أو سلعة تجارية تباع وتشترى ... فأجابه بما يلي : الافضل ياسيادة الرئيس ، انتخاب من يعرف نوري السعيد اكثر مني لأنني لم اقابله قط في حياتي ، اما فيما يخص ميثاق بغداد فقد سبق ان وصفتموه عدة مرات في خطبكم الرسمية بأنه "مولود ميت" ولا يمكن ان يقال فيه اكثر من ذلك . والجدير بالذكر ان الاستاذ محمود العزب موسى استقال بعد ذلك بأسبوعين من ادارة التحرير في جريدة الأهرام إذ وجد من الصعب تلبية الاوامر التي كانت تفرض عليه ، ولما سألته عن الاسباب التي اوجدت عند عبد الناصر هذه العقدة ضد الميثاق رغم ان ليس به ما يمس مصر أو العروبة بأي حال من الاحوال ، اجاب الاستاذ العزب بابتسامة غامضة "الله اعلم" ولكن يغلب على ظني ان عبد الناصر يرغب ، بل يصر ، على ان يكون هو المحور والمحرك والقائد في منظمة تكون الدول العربية فيها احد الاطراف ، ولا اظنه يقبل الدخول في أية مؤسسة لا تكون له فيها الكلمة العليا والزعامة المطلقة . والجدير بالذكر هو ان تلك الحملات المشينة لم تتوقف عن الهجوم على الميثاق ومن اشتركوا فيه رغم جهود السفارة العراقية والوسطاء الذين كان يهمهم عدم تصديع

الجبهة العربية ... ولكن هيهات .

في سفارة تركية بالقاهرة

كنت في تلك الفترة اتردد كثيرا على مصر لزيارة اهلي ، ومتابعة دراساتي العليا في معهد دار الحقوق الفرنسية في القاهرة ، فكان قلقي يزيد في كل مرة لما كنت المسه في ابواق الدعاية من عداء مستمر ينذر بسوء المصير ، وفي ذات يوم وصل التهجم الى درجة التحريض العلني ضد المشتركين في ميثاق بغداد ، وعلى الأخص تركية والعراق ، فضقت ذرعا وشعرت بقرب حدوث الكوارث ، وبعد التفكير قررت الذهاب فورا لمقابلة السيد زورولو سفير تركية في مصر لعله يستطيع الاحتجاج على تلك التصرفات الخطيرة ويقنع الحكام في مصر بضرورة احترام العلاقات الدبلوماسية القائمة بين الدول ، لم تكن لي معرفة شخصية بالسفير التركي ، ولكنني كنت قد قابلت اخاه السيد فطين زورولو وزير الخارجية مرارا في تركية مع السيد عدنان مندرس رئيس الوزراء . وعند وصولي الى السفارة اخبرت السكرتير بأنني احمل رسالة خاصة للسفير ، فذهب ليخبره وبعد برهة وجيزة قادني السكرتير الى مكتب السفير وقابلني السيد زورولو بكل بشاشة وترحاب . بدأت بالاعتذار له لحضوري دون اخذ موعد ، وشرحت له مخاوفي من تلك الحملات التهجمية التي تهدد الاستقرار في المنطقة وتوجه بصفة خاصة ضد العراق وتركية ، ويبدو ان الاضطراب كان ظاهرا على ملامحي ، فأراد السفير ان يطيب خاطري وسألني بهدوء "اتقصدين الهجوم المتواصل الذي تقوم به الدعاية هنا ؟ قلت نعم ... فابتسم قائلا "لا تجزعي ياسيدتي الصغيرة" فلا قيمة ولا تأثير لهذه الجعجعة ، انها كنباح الكلاب الثائرة وستنتهي عندما يصيبهم الاعياء" .

نظرت اليه بدهشة ظاهرة وايقنت انه غير مقدر لخطورة الموقف فقلت له : ياسيادة السفير ان الشعوب تتأثر بسحر الدعاية ولا اخفي عليك بأن ما اسمعه على الدوام ضد حكوماتنا منذ وصولي الى القاهرة زعزع حتى ثقتي في نفسي ... فالشعوب كما وصفها الشاعر البليغ أحمد شوقي في احدى مسرحياته تشبه الببغاء (فعقلها في أذنيها) فقهقه السفير عند سماع هذا التشبيه وأردف يقول : "لا تجزعي ياسيدتي الصغيرة ... سيصيبهم الاعياء حتما عن قريب" .

المواقف السلبية تشجع الهجوم

لقد اذهلني هذا الموقف السلبي وقد تبين لي فيما بعد ان كافة اقطاب الجيل القديم كانوا لا يقدّرون اهمية الدعاية في توجيه مصير الأم .. - كان نوري السعيد يقول مثلا ان النقود التي تصرف من اموال الشعب في سبيل الدعاية تبذير مشين ، إذ كان يؤمن بأن اقامة مستشفى أو صرف اموال الأمة على مشاريع حيوية افضل رد على ادعاء المدعين ، ولكن الايام اثبتت بأن منظمات الدعاية في القرن العشرين هي التي اصبحت تقود الرأي العام كما تشاء وتوجهه الى ما تشاء وفقا لمهارة القائمين بإدارتها .

كانت اذاعة صوت العرب تحسن هذا الاسلوب ببراعة متناهية ، فيتخلل برامجها الشيقة نشرات اخبار دورية ، وتعليقات تتضمن ترويج الاشاعات والاحداث والاساطير المنسوجة بطريقة جذابة تهز المشاعر وتصل الى الاعماق دون ان تترك للفكر فرصة لتحليل واقعها ، وقد نجحت في ذلك نجاحا مبينا .

وتأييدا لما ذكرته عن تأثير الدعاية على الجماهير هو ما رواه لنا المهندس يوسف زينة عندما ذهبت للحج في السعودية سنة ١٩٧٥ ، قال انه نشأ في قطاع غزة وان الترفيه الوحيد الذي كان يتمتع به اللاجئون والمقيمون في تلك المنطقة هو الاستماع الى اذاعة صوت العرب ، ثم أردف يقول : كنا نؤمن بكل ما يتفوه به احمد سعيد فأصبحنا نكره الحكم في العراق ونعتقد ان الحكام فيها اعداء لنا بل اعداء العرب على الاطلاق ... وبناء على ذلك اذكر بأن المرحوم ابي عندما سمع خبر الانقلاب العسكري ، وبعد ان تأكد من مصرع الحكام في العراق امر بذبح سبع خراف للاحتفال بهذه المناسبة .

لم يتوقف الهجوم برغم الجهود المبذولة ، بل زاد حدة على مر الايام ، وقامت الدعاية تحذر الملك فيصل الثاني من سوء العاقبة اذا استمر في مساندة رئيس وزرائه نوري السعيد ، وعلى اثر هذا التحذير طلبت حكومة العراق الى سفيرها في مصر مقابلة الرئيس عبد الناصر لوضع حد لتلك المهاترات ، والغريب في هذا الامر هو ان الرئيس تملص من تلك المسؤولية الأدبية وحلف ايمانا غلاظا بأن لا علم له على الاطلاق بما يذاع في صوت العرب ، وقال ان برامج تلك المؤسسة لها ادارة مستقلة لا علاقة لها بالاذاعة الحكومية .

لم يقتصر صدور تلك الحملات من الاذاعة أو على صفحات الجرائد بل كان

هجوما شاملا ، واصبح التحريض يذاع حتى من فوق المنابر بحجة ان سياسة العراق عزلت بلاد الرافدين عن سائر دول العالم العربي ، ومما يدعو الى الأسف الشديد ان يكون الشيخ الباقوري ، وزير الأوقاف واحد أقطاب الحكومة الناصرية ، من بين الذين حللوا دم الحكام في العراق اثناء خطبة الجمعة في مسجد سيدنا الحسين ... ونذكر بهذه المناسبة ان السيدة نصرة الخضيري زوجة سفير العراق في مصر ، التقت بعد ذلك بأيام في احدى الحفلات الرسمية بالشيخ الباقوري فرفضت مصافحته وقالت له بلهجة قارصة "انني لا اصافح من يحلل دماء المسلمين المخلصين من فوق المنابر" ثم تركته وهو في حالة ارتباك .

افتراءات كاذبة

ومن رجال الجيش الذين استعانت بهم الدعاية لتضليل الرأي العام العربي هو قائد الجناح علي صبري الذي استباح لنفسه ان يشهد علنا على صفحات الجرائد بأن الطائرات التي هاجمت مطار القاهرة اثناء العدوان الثلاثي كانت تمول في العراق ، مع العلم بأن طائرات القصف نظرا لحجمها المحدود لا تستطيع حمل وقود يكفي لقطع مسافات شاسعة كالتي تمتد ما بين مصر والعراق ، هذا الى جانب الحقيقة الواضحة التي لا تقبل الجدل وهي ان الدول المغيرة على مصر اي انكلترا وفرنسا واسرائيل كانت تمتلك على ضفاف البحر الأبيض المتوسط وفي الجزر القريبة من سواحل مصر عددا من محطات وصهاريج الوقود لتموين طائراتها وسفنها العابرة ، ويتبين من ذلك جليا بأن المقصود من تصريحاته كان التشهير فقط بموقف العراق زورا اثناء حدوث العدوان ، بشهادة مسؤول بارز وقائد طيران محنك حتى تصدقه العامة .

الافتراءات تسري الى العراق والاردن

كان صدى هذا الهجوم المكثف يجتاز افاق العالم العربي بأسره ويثير مشاعر الناس فيه ... ومن القصص الطريفة التي اذكرها ما حدث يوما اثناء حفلة استقبال خاصة بالسيدات اقيمت في منزلنا في العراق . كانت القاعة مكتظة بالزائرات ، واذا بأحدى السيدات تدخل وهي تلهث ، وعلى وجهها علامات الاضطراب والذهول ... فسألناها عن السبب فقالت : الم تسمعن صوت العرب ؟ قلنا لا ماذا في صوت العرب ؟ اجابت: الاخبار تؤكد بأن الدم الى الركب في شارع الرشيد . بدأ الرعب

على وجوه الحاضرات ، وقامت كل منهن تبحث عن عباءتها وتستعد للرحيل ، وفجأة اعترضت احدى السيدات وقالت : دعونا اولا نتأكد من الخبر ثم التفتت الى السيدة القادمة وسألتها : اذن كيف مررت من شارع الرشيد للوصول الى هنا ؟ هل كان الطريق محتشدا والمعارك دامية ؟ اجابت : لا ... لقد كان المرور عاديا حينذاك ، فنزعت احدى الحاضرات عباءتها على الفور وقالت بتهكم : اذن هذه حتماً كذبة جديدة من اكاذيب احمد سعيد ... فامتعضت القادمة عند سماع هذا التعليق واجابت بحدة ، العفو ... لقد سمعت الخبر بأذني في السيارة وانا في طريقي الى هنا ، وصوت العرب لا يكذب .

وفي هذا المقام يصح لي ان اكرر ما قاله احمد شوقي عن سرعة انقياد الشعوب لسحر الدعاية والكلام ... "إذ يا لها من ببغاوات عقلها في أذنيها" .

لقد اثارت هذه الافتراءات المتواصلة ردود فعل عنيفة في اغلب الأقطار العربية ، وروى لنا السيد بهاء الدين نوري سفير العراق في الأردن بعض التفاصيل عن تأثير تلك الاشاعات المغرضة في عمان . كانت الجرائد المحلية تنقل الاخبار المذاعة من مصر دون تحفظ أو تدقيق ، وكانت مظاهرات منظمة تجتاز شوارع عمان كلما زاد صوت العرب سخطا على الحكام في بغداد ، وفي ذات يوم احاطت مظاهرات صاخبة بالسفارة العراقية في عمان ، وارادت ان تقدم احتجاجا للسفير على تصرفات الحكومة التعسفية في العراق - وبناء على ذلك اظهر السفير استعداده لمقابلة وفد من بين المتظاهرين ، فتمت المقابلة ودخل اعضاء الوفد الى مكتبه وفي ايديهم قصاصات تحمل الاخبار الواردة في الجرائد المصرية وهي التي كانت تصف حدوث معارك دامية في شوارع بغداد .

كان السفير يعلم بأن مجرد نفي الاحداث بالكلام سوف لا يقنع الوافدين ، فاقترح بأنه على استعداد لمصاحبتهم فورا الى العراق على جناح طائرة خاصة حتى يقتنعوا بأن تلك الاخبار مغلوطة ، وانه لا أثر لأشلاء أو دماء في شوارع بغداد ... لم يقتنع الوفد بهذا الحديث فقال رئيسهم بأن من السهل ان تمحو الحكومة آثار اجراءاتها التعسفية قبل وصولهم الى بغداد ، فأجابهم السفير قائلا : نعم ... ولكن حتى اذا فرضنا امكان محو آثار الدم والقتال في الشوارع فهل يمكن اسكات نحيب الثكالى ومظاهر الحداد في ارجاء المدينة ، ان حكومة العراق ستترك لكم حرية التجول فيها والاتصال بكل من يروق لكم استجوابه ، والطائرة جاهزة في

المطار لنقل من يرغب في الاطمئنان على الاوضاع في العراق ، كان الجواب واضحا ومقنعا ، فذهب رئيسهم للتشاور مع المتظاهرين في الخارج ، وبعد مدة قصيرة رجع ليخبر السفير بأنهم سحبوا الاحتجاج وهكذا انفض التجمهر بسلام ، لكن تصحيح الاخبار المغلوطة والقادمة من ابعاد شاسعة امر معقد وعسير ، فإذا نجح مرة فقد يتعذر تصحيحه مرات .

وفي بغداد كان نشاط الطابور الخامس ينتشر في الخفاء بإشراف رجال المخابرات المصرية وبالتعاون مع عدد من الاطباء والمعلمين المدربين على هذه الاساليب الى جانب الاحزاب المعارضة والانتهازيين والسفارات التي كانت تخدم اهداف الشيوعية والصهيونية في العراق .

الغرض من الهجوم

كان التخطيط يهدف الى ابادة الملكية والقضاء على ميثاق بغداد – وذلك بتسميم الجو وبث الاشاعات المغرضة – ونظرا للرخاء الذي كانت تعيش فيه البلاد حينذاك بعد اكتساب سيادتها الكاملة وتبلور المشاريع الاجتماعية والاقتصادية فيها لم تجد الدعاية العدائية ما تلوم به العراق سوى انتسابها الى الميثاق ، وفتشت عن هجوم عنيف لا يرتكز على المنطق بل يعتمد على افتراءات تتشح بلباس القومية العربية والعزة والكرامة . كان القائمون بالأمر يعلمون ان خير وسيلة للوصول الى هذا الغرض هو التسرب الى القوات التي تستطيع نشر الفوضى ، أو قلب نظام الحكم بطريقة جذرية ، واهمها الجيش والشباب المتعلم ... وكانوا يدركون ايضا بأن القضاء على العهد الملكي يحتم التخلص من شخصيات ثلاثة هي : الملك فيصل الثاني ، وولي عهده الأمير عبد الاله ونوري السعيد الذي عاصر العهد الهاشمي في العراق منذ نشأته . كانت المطبوعات والمنشورات تصل الى دار السفارة المصرية في الحقائب الدبلوماسية ، وكان رجال المخابرات ينتحلون شتى الوظائف من سعاة وخدم في السفارة للتجسس أو القيام بالمهام السرية المنوطة بهم ... وصادف ان قبضت الشرطة في المطار على رجل يدعي محمد علي عيسى عندما وجدوا في حقيبته وثائق وكتب ومنشورات تفضح نوايا الحكومة المصرية وسعيها المتواصل للأطاحة بحكام العراق ، ولكن السفارة المصرية ادعت بأن لا علاقة لها بهذا الرجل ... فاقتصرت الحكومة العراقية بسلبيتها المعهودة على عتاب دبلوماسي لعدم رغبتها في زيادة التوتر ولتفادي القطيعة . وبعد ايام

معدودة انفضحت شخصية محمد علي عيسى الحقيقية ، وتبين انه احد اعضاء المخابرات المصرية ، وذلك عندما اذاعت الجرائد خبر نعيه بعد اصطدام القطار الذي كان ينقله لزيارة أهله في الصعيد .

دور اساتذة المعاهد

ولا يخفى ان اغلب البلاد العربية كانت تستعين بأساتذة المعاهد المصرية للتدريس في بلادها ، فشكلت الحكومة المصرية من هذه الفئة طابورا خامسا مدرّبا لإرسالهم الى الدول التي كانوا يوفدون اليها ... لقد كانت القومية العربية والمشاعر المتطرفة هي السحر الذي ينفذون به الى عقول ونفوس الشباب ، فأثملتهم هذه الدعاية المركزة ، وجعلتهم على استعداد للسير وراء ركب من انتحل زعامة العروبة بسحرها الجبار ، غير مدركين أو متجاهلين بأن وثبة العرب بدأت سنة ١٩١٥ ، وان السعي لتوحيد كلمة العروبة جسّد جامعة الدول العربية قبل ان يكون لعبد الناصر في الأفق السياسي أي وجود ، ولما شعرت الحكومة في العراق بأن تأثير هذه الفئة يهدد الاستقرار في المدارس ، اتخذ وزير التعليم قرارا بإبعاد قسم منهم الى الالوية ، وقال لهم انه مستعد لفسخ عقد من لا يرغب الانتقال . والجدير بالذكر هو انه لم يكن من بين هؤلاء من قدم الاستقالة ، بل استمر نشاطهم حتى في الالوية النائية .

ومن دواعي الأسف ان السياسة التعليمية في العراق لم يكن لها نهج خاص لتخطيط الدراسة بحيث تطابق عدد المتخرجين من مختلف المعاهد حاجة البلاد اجتماعيا وعلميا واقتصاديا ، وذلك حتى لا تشكو الدولة من تضخم عدد المنتسبين الى دراسات معينة مع وجود نقص واحتياج الى عدد اكبر من الطلاب في مناهج اخرى ، ومثال ذلك ان دار الحقوق كانت تفتح باب الانتساب على مصراعيه للطلاب دون التفكير في وجود مجال لتوظيفهم فيما بعد ... فكانت النتيجة ان عدد المتخرجين في كلية الحقوق اصبح يفوق احتياجات الدولة في الوظائف الادارية والمحاكم والمكاتب ... الخ . ولا يخفى ان البطالة التي تمس طبقة المتعلمين في المجتمع تجعل منهم عنصرا خطيرا على الدولة ، وعلى الاخص اذا تخرجوا على أيدي اساتذة متطرفين يحسنون شحن افكار الطلاب بالشعارات المثيرة .

دور المنظمات السياسية

كانت المنظمات السياسية المستترة هي السند الخفي للسياسة الناصرية في ربوع العالم العربي ، وقد كانت القاهرة مركز الادارة بفروعه الممتدة من شرق البلاد العربية الى غربها ... بل يمكن القول بأن مصر في حينه كانت ملجأ لأقطاب المعارضة في المهجر .

لقد وجد عبد الناصر بأن تلك الفئات الجامحة هي خير من يستطيع ان يستند عليها لنشر دعايته داخل بلادهم ، فأكرم مثواهم الى اقصى الحدود واغدق عليهم كامل رعايته تحت رقابة شديدة للإستعانة بهم في الوقت المناسب . ومثال ذلك ان رشيد عالي الكيلاني كان يستشار في الامور التي تتعلق بالعراق ، وعبد الكريم الخطابي في المسائل التي تخص الريف المغربي ، وصالح بن يوسف عن نشاط الاحوال في لجنة ارتباط تحرير تونس ، وبن نيس عن الجزائر ، وابو نوار عن الأردن . وكثيرا ما كانت القيادة تستعين بأسماء بعض البسطاء لإخفاء الشخصيات الرئيسية التي كانت تتعاون معهم سرا . وقد ظل هذا الاسلوب متبعا في كافة البلاد العربية بما فيها موريتانيا واليمن وسورية ولبنان والكويت والبحرين .

أما المعارضات السافرة فكانت تتشح عادة بشعارات القومية العربية ، ووحدة الصف ضد الطغاة والعملاء ، فتجرف بسحرها عددا لا يستهان به من المواطنين من بين الشباب ، ذلك في وقت كانت الدكتاتورية في مصر أشد بأسا من حكم اية دولة عربية في المنطقة . ومما لا شك فيه هو ان القيادة المصرية بذلت اقصى الجهود لتحقيق السيطرة على مشاعر الأمة العربية بمساندة المعارضين في كل مكان ، فدعمت اكرم الحوراني وصلاح البيطار وكلاس اقطاب البعث السوري ، كما ساندت في الكويت الحزب القومي برئاسة جرام القطاني ، وكان اعضاء الحزب المذكور يشغلون ٦٠٪ من الدوائر الحكومية في تلك الدولة الصغيرة ، وكان اغلب هؤلاء من المصريين والفلسطينيين ، وانتشرت الدعوة الناصرية ايضا في قطر والبحرين ، ولكنها ركزت بنشاط طابورها الخامس في الأردن والعراق بصورة خاصة ، ففي بغداد كان اعضاء هذا الطابور يديرون حركاتهم في اوكار سرية اهمها السفارة المصرية التي اصبحت منذ عام ١٩٥٧ مركزا للمؤامرة الكبرى ضد ميثاق بغداد والحكم القائم ، كما تحول قسم من ارجائه الفسيحة الى مخازن لحفظ المنشورات الناصرية والأسلحة الخفيفة.

فالجدير بالذكر انه رغم سعة بناء المسكن ومرافقه في حي الوزيرية في بغداد

فإن السفير المصري لم يعد يسكن في دار السفارة في السنتين الاخيرتين بل في فندق من فنادق العاصمة ، كانت اعمال السفارة تجري في دائرة المكاتب التي تواجه مدخل الدار على الطريق العام ، أما دار السفارة وما تحتويه والبنايات الخلفية وما كان يجري في ارجاء الحديقة الشاسعة داخل السور المحيط بها من مخابرات واتصالات ومؤامرات خفية فقد ظلت محاطة بسرية تامة الى صباح يوم ١٤ تموز عندما فتحت السفارة ابواب المدخل على مصراعيه لإخراج عدد من اللوريات تككدست فوقها صور عبد الناصر وشعارات لتمجيد الثورة أو بالأحرى الانقلاب .

جنود الطابور الخامس

وقبل الشروع في وصف ما أصاب العراق بصورة خاصة ارى من الضروري وصف منهج التدريب الذي اتبعته الدعاية الناصرية للسيطرة على العالم العربي بأسره ، إذ وجدت بأن افضل طريقة هي الاستعانة بالشباب من جهة وبالجيوش من جهة اخرى .

فالأزهر مثلا يجلب الى مصر سنويا عددا لا يستهان به من الطلاب ، ومصر من جهة اخرى ترسل بانتظام آلافا من المعلمين الى كافة البلاد العربية ، وتدفع لقسم منهم نصف مرتباتهم ، وقد صرح احد المسؤولين في دائرة الاعلام بأن الغاية المقصودة من هذه السياسة التعليمية هي تربية نشيء جديد متشبع بالشعارات الناصرية ، وبذلك يصبح كل تلميذ متخرج في الجامعات المصرية احد جنود هذا الطابور الخامس المدرب .

كان الاسلوب نفسه يستعمل في المعسكرات الغربية المختلفة عن طريق الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الجيوش الليبية والسعودية والسودانية .. وفي فترات الاجازات كانت سفرات ترفيهية تنظم لقوادهم في مصر لتعزيز الروابط معهم واشباع نفوسهم بدعايات مركزة ليصبحوا فيما بعد خير اداة لنشر المبادىء التي اعتنقوها في اوطانهم .

النشـاط الهـدام في العراق

أما بالنسـبـة للعراق فقد تم التسـرب الى الجيش بطرق متعددة اهمها ضباط المخابرات المصرية الذين كانوا يتسللـون الى العـراق بأسمـاء مسـتعـارة ووظائف منتحلة ... وقد سبق ان ذكرنا اسم الساعي محمد علي عيسى الذي اوقفته سلطة الجمارك متلبسا بتهمة نقل منشورات سياسية من القاهرة ضد الحكم القائم ، وقد ثبت بعد ذلك عندما جاء نعيه في الجرائد المصرية على اثر حادث اصطدام قطارين عندما توجه الضابط المذكور لزيارة اهله في الصعيد .

كان لدائرة المخابرات دورحاسم في تغذية مختلف الطبقات في العراق والاتصال بكافة الأوكار التي كانت تعارض ميثاق بغداد ، ومن بينها المراكز الشيوعية والصهيونية وبعض القنصليات الاجنبية ، وفي هذا المقام يتحتم علينا ذكر ما قام به عدد من معلمي كلية الحقوق في التأثير على بعض قواد الجيش – كان بعض ضباط الجيش العراقي المرموقين يحضرون الدورة المسائية في كلية الحقوق ، وكانت العقائد السياسية هي اهم المواد التي يهتم بدراستها هؤلاء ... فلا عجب ان يحرك التوجيه المركز الذي

كان بعض معلمي هذه المؤسسة يبثونه في تلاميذهم لإثارة مشاعر الطموح في صدورهم كما اشعلتها الدعايات السرية في نفوس الضباط الأحرار في مصر وفتحت لهم ابواب القيادة والحكم المطلق .

دور الكيلاني في اثارة عوامل التمرد

وفي هذا الصدد نستعين بما ذكره المؤلف المشهور Hechin في كتابه المسمى بـ "ربيع عربي" ففيه وصف مسهب لحديث خطير ادلى به رشيد عالي الكيلاني مدبر انقلاب سنة ١٩٤١ في العراق ، ويبدو من حديثه جليا .... أنه كان يستشار بتنظيم المعارضة العراقية في القاهرة ، وانه كان على اتصال وثيق بعناصر الانقلاب في العراق – لقد اكد رشيد عالي للكاتب المشار اليه في ربيع سنة ١٩٥٨ في القاهرة بأن العراق سيتخلص حتما من الحكم القائم بنفس الطريقة التي اتبعها هو في سنة ١٩٤١ ، اي بواسطة الجيش ، بعد مدة وجيزة ، وفيما يلي ملخص الحديث : "كان المؤلف يعتقد بأن الكيلاني يسكن في الرياض ، فإذا به يفاجىء عندما اخبره الرئيس عبد الناصر اثناء المقابلة الخاصة التي اجراها معه بأن الكيلاني يقيم في ضاحية من ضواحي القاهرة بسرية تامة ، وانه مستعد لتحديد موعد لمقابلته اذا اراد ذلك ، وسيرافقه ضابطه حتي يسمح له بالوصول اليه . لقد رحب Hechin بالفكرة واتجه رأسا مع سرافق خاص الى المقر السري بعد ان شكر الرئيس عبد الناصر على حسن مقابلته .

ويبدو مما شرحه رشيد عالي الكيلاني ودوّنه Hechin في كتابه ما يثبت الدور الحاسم الذي قام به هذا الرجل الداهية في تدبير انقلاب سنة ١٩٥٨ بالتعاون مع السلطات المصرية . لقد سأله الكاتب الفرنسي بعد تبادل ذكريات ترجع الى ايام النازية ، فقال له هل بقيتم على اتصال بالعراق بعد خروجكم منه قبل ١٧ عاما ؟ اجاب الكيلاني "طبعا" ، ولكن ... على من تعتمدون فيه الآن للأطاحة بالحكم القائم ؟ أجاب : على الجيش بكل تأكيد ، فنحن اول من اقحم الجيش لإنقاذ الشعب من حكومة استعمارية سنة ١٩٤١ ، ولا تنس ان ابناء واحفاد الضباط الذين ايدوا حركتنا في ذاك التاريخ اصبحوا اليوم يشغلون مراكز مرموقة في الجيش العراقي ، وليس بوسعهم نسيان العقاب الذي اصاب اجدادهم في حينه ... وبعد برهة "استطرد يقول ... ولا تنس ايضا ياسيدي بأنني سليل الأسرة الكيلانية المعروفة ، وان جدي الكبير مدفون في بغداد ، فأنا في بلدي في العراق ، وما الهاشميون سوى دخلاء جاء بهم الانكليز

من الحجاز .

وهنا يجدر بنا ان نتوقف قليلا للتحقيق في اصل النسب الشريف ... فالكل يعلم بأن اجداد الكيلاني هاجروا من افغانستان ، اما اصل البيت الهاشمي فمن مكة المكرمة ، ومن سلالة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، لقد ذهبت بعثة مختارة مكونة من رؤوساء العشائر من اشراف اهل العراق سنة ١٩٢١ الى مكة المكرمة لمقابلة الشريف حسين زعيم الثورة العربية الكبرى ولمبايعة ولده الهاشمي الامير فيصل حتى يستطيع سليل البيت بحكمته وكريم نسبه ان يجمع العشائر والاقليات المتباينة تحت لواء واحد في العراق .

لقد استمرت هذه المقابلة بين (ميشان) والكيلاني مدة غير قصيرة بين الطرفين وقد ذكر تفاصيلها المؤلف في كتاب (ربيع عربي) ولما بدأ القلق ينتاب المرافق المصري في الردهة المجاورة قرر المحرر ان يستأذن فقام وهو يقول لمحدثه : شكرا على حديثكم المشوق ... انني اشكر الظروف التي جمعتنا ولكن متى نراكم مرة اخرى ؟ فكان الجواب : "قريبا ... وفي بغداد ان شاء الله" . بدت الحيرة على وجه HECHIN فأردف يقول : هل تطورت الامور الى هذا الحد ؟ انني في طريقي الى بغداد بعد زيارة بعض بلاد الشرق الأوسط ... فأجابه رشيد عالي مبتسما .. لا تتأخر في الطريق ياسيدي ... فإن غدا لناظره قريب" .

الضباط المتمردون

لم يكن نشاط زمرة الضباط المتمردين امرا خفيا على دائرة المخابرات العراقية إذ تأكد ذلك للمسؤولين مرارا وتكرارا ، ولكن نظرا لولاء اغلب امراء الجيش للتاج من جهة ، وكثرة انتشار الاشاعات والمشاغبات المغرضة التي كانت تذاع من صوت العرب من جهة اخرى ، لم يهتم رئيس الاركان (رفيق عارف) بتطهير صفوف الجيش من العناصر المشكوك في امرها ، بل كان يكرر دائما باعتزاز أن الجيش العراقي في قبضة يده .

وفي هذا المجال اذكر انني سألت اللواء الركن غازي الداغستاني عن رأيه في عبد الكريم قاسم الذي كان تحت امرته عندما قامت الثورة ، وذلك بعد خروجه من السجن ووصوله الى لندن ، فأجابني بأن قاسما كان ضابطا مثاليا ، وانه استطاع بدهاء خارق ان يحيط نزعته السياسية بسرية تامة ، ومثل ذلك انه شاهد مرة عبد

الكريم قاسم وهو يحطم المذياع في نادي الضباط عندما كان احمد سعيد يكيل السب والشتائم من القاهرة على الحكام القائمين بالعراق مدعيا بأنه لا يجوز لجيش يرأسه الملك فيصل الثاني بأن يستمع الى اقوال مأجور يهاجم العراق ، كانت ثقة الداغستاني بضابطه المفضل عظيمة جدا ، ولما طلب اليه رئيس اركان الجيش مراقبته بناء على التقارير السرية الواردة من المخابرات العراقية والأردنية ، استشاط الداغستاني غضبا وقال : هذا اكثر الضباط ولاء للعرش واكثرهم كفاءة ، فإذا الح وزير الدفاع واصدر امرا بعزله فإنني سأقدم استقالتي فورا وفي نفس الوقت .

ونشير في هذا الصدد بأن لا غرابة فيما كان يظهره قاسم من ازدراء وتحدّ للهجوم الناصري على العراق ، إذ تبين فيما بعد أن عبد الكريم قاسم كان شيوعيا وهكذا كان العقيد وصفي طاهر ، وقد صرح (نيكيتا خروشوف) في حديث له امام الحاضرين اثناء احد اجتماعاته السياسية في القاهرة ... وذلك بعد الثورة ، بأن الزعيم الاوحد كما كان قاسم يلقب نفسه ، كان منتسبا الى الحزب الشيوعي قبل احداث الثورة بأربع سنوات .

وبذلك يمكننا ان نجزم بأن الضباط المتآمرين في العراق ، بين شيوعي ، وناصري ، وانتهازي ، تكاتفوا رغم تفاوت عقائدهم السياسية ، لهدم النظام القائم بدافع الطموح إذ اغراهم نجاح الضباط الأحرار ، وقد اثبتت الايام بعد ذلك انهم كانوا مجرد اداة لتنفيذ من ساندوهم .

لقد رسمت كل فئة على حدة خطوط الانقلاب المنتظر ، فكان يدير احداها العقيد رفعت الحاج سري الذي سمى بجمال العراق ، بالتعاون مع ناظم الطبقجلي ... وكون عبد الكريم قاسم بمؤازرة عبد السلام عارف النواة الثانية ... وبعد ذلك تم ائتلاف الطرفين في سنة ١٩٥٤ وانتخبت لجنة مركزية مكونة من اثنتي عشرة شخصية لإدارة الحركة الثورية ... وفي سنة ١٩٥٨ انضمت اليهم نواة الموصل فأصبح عدد الضباط المنتسبين الى تلك المنظمة الثورية ما يقارب المائة وخمسين ضابطا واغلبهم من الضباط الصغار .

بوادر الانقلاب

وفي تلك الفترة تكررت حوادث تثبت بأن وراء الأكمه ما وراءها ، إذ عندما ذهب الملك والامير في مطلع شتاء ١٩٥٧ الى معسكر الحبانية لحضور مناورات

الجيش سقطت قنبلة على بعد امتار منهما ، وساد الاعتقاد حينذاك بأن المسألة قضاء وقــدر ، وفيما بعد تبين بأن المحقق في القضية كان من الضباط الأحرار .

ومن ثم تراكمت التقارير السرية والتحذيرات خصوصا بعد ان كاد الوفد الأردني يلقي حتفه عندما انفجرت قنبلة تحت السيارة التي كانت ستنقل الوفد الى مطار في بغداد ، ولكن التحقيقات في هذه المرة ايضا لم تسفر عن شيء ووضعت ضمن لائحة القضاء والقدر .

والجدير بالذكر ان نوري السعيد قبل ان ينتقل الى رئاسة وزارة الاتحاد الهاشمي فكر في مواجهة عدد من الضباط الذين سجلت اسماؤهم في ادارة الأمن للتحدث اليهم ونصحهم ، فلما قابل قاسما خاطبه مداعبا وقال : لماذا تريد ان تتخلص منا ياكرومي ؟ هزت هذه الدعابة مشاعر قاسم فامتقع لونه ، وثار قائلا : يعز عليّ ان اسمع منك هذا الكلام يا باشا ، فطلقة واحدة من يدك اخف علي وقعا من تلك التهمة . وفي مثل هذا التصرف ما يثبت قدرة هذا الشخص العجيب في السيطرة على اعصابه للوصول الى مآربه . ومن القصص المثيرة ايضا ما رواه رفعت الحاج سري لعدد من زواره في السجن بعد ما اصدر عليه (قاسم) الحكم بالاعدام واستأثر بالزعامة المطلقة لنفسه ، قال : سأواجه الموت غدا وربما استحق ذلك ، فقد حذرني نوري السعيد من سوء العاقبة عندما ذهبت لمقابلته اثناء التحقيق الذي اقيم مع بعض الضباط الأحرار قبل الانقلاب ... إذ عندما تقابلنا قال لي : اجلس ياولدي ، ان صلتي بخالك المدفعي صلة خاصة ، فهو اخي وزميلي في الجهاد ، وقد اشتركنا في بناء العراق ، ويؤسفني ان اخبرك بأن التقارير السرية تقول بأنك وبعض زملائك الضباط تقومون باتصالات مشبوهة ، لقد جئت بك الى هنا لأقول لك ناصحا : بأننا اذا استطعنا اثبات ما تقومون به في الخفاء ضد الحكم القائم فلا تنتظروا منا الرحمة ، لأن علينا حماية مصير أمتنا ، أما اذا وفقتم في الاطاحة بنا فأنتم ايضا اصحاب الخسارة ، لأن الكسب والتفوق سيكون للشيوعيين المتربصين الذين يتحينون الفرص ، هذا ما تنبأ به نوري حينذاك ، وهذا هو ما حدث الآن فعلا ... فقد ثبت ان عبد الكريم قاسم عضو في الحزب الشيوعي ، وقد استطاع فعلا ان يقضي علينا - وينفرد بالحكم .

التكاتف للقضاء على الميثاق

والجدير بالملاحظة هو ان الحركة الثورية كانت تنظم في الخارج واشترك في

حياكة شبكتها عناصر مختلفة ، وعلى الأخص هؤلاء الذين ارادوا القضاء على ميثاق بغداد ، لقد تعددت واختلفت غاياتهم الخاصة ولكنهم تكاتفوا لإزالة العقبة الكبرى التي وقفت في سبيل طموحهم ، فمن العسير مثلا ان يتسرب النفوذ السوفييتي الى ربوع الشرق الأوسط اذا تم اقامة مثل هذا الحصن المتين ، وبناء على ذلك بذلت الاحزاب والأوكار اليسارية نشاطا ذريعا لمساندة كل من حارب هذا المشروع داخل العراق أو خارجه . ومن جهة اخرى ايقنت اسرائيل بأنها ستختنق داخل حدودها الضيقة وتذهب احلام الصهيونية مع الريح اذا احيطت بهذه الكتلة الجبارة . وفي تعليق السير انتوني نجد وثائق وزارة الخارجية البريطانية رقم (٦) ما يؤيد ذلك . يقول الوزير البريطاني بأن السفير الاسرائيلي اراد ان يتحدث عن الوضع الامني في الشرق الأوسط مع الاشارة بشكل خاص الى الحلف العراقي ، واراد ان يعرف رأيه حيال ذلك .

قال الوزير البريطاني ما يلي : لقد شرحت له وجهة نظرنا في الموضوع واذا بالسفير (ايلات) يلح ويكرر شكواه بطريقة مملة من عزلة اسرائيل وتهديد جيرانها المتواصل . فاكتفيت بالقول بأنني بدأت اضجر واسأم من هذه الشكوى عن انعدام امن اسرائيل ومن عزلتها ، وانني لا اعتقد ان اسرائيل لديها اي سبب للشعور بالقلق الحقيقي .

كان هذا جواب السير انتوني نتنج في حينه لعلمه بأنه رغم وجود مناوشات فردية بين حين وآخر على الحدود بين مصر واسرائيل فقد كان عبد الناصر يجري اتصالات سرية مع موشى شاريت الذي كان اكثر اعتدالا من بن غوريون ، وذلك من خلال المكتب الصحفي للسفارة المصرية في باريس طوال السنة التي سبقت الهجوم على غزة في سنة ١٩٥٥ ، وكان الشرطان الاساسيان اللذان وضعهما عبد الناصر للوصول الى تسوية سلمية مع اسرائيل حينذاك هما :

اولا : عودة الفلسطينيين الى اوطانهم ومساكنهم في فلسطين .

ثانيا : انسحاب الجيوش الاسرائيلية من النقب الجنوبي لتأمين اتصال سري بين مصر والأردن .

ورغم وجود مثل هذه العراقيل العويصة بين الطرفين فقد كان الغرب يتفاءل خيرا لوجود هذه الاتصالات السرية بين مصر واسرائيل ... والجدير بالذكر هو ان المناوشات

العسكرية على الحدود بين الفريقين قلت بشكل محلوظ في عهد موشي شاريت .

ولكن عندما تم امضاء الميثاق التركي في بغداد ، رأت اسرائيل ان في بنوده ما يحتم عزلتها كما اوضحنا ذلك فيما سبق ، وعلى الاخص ان المشروع يجد تشجيعا من الأمم الغربية ، اما عبد الناصر فقد وجد ان الانتساب الى كتلة تجمع بين العرب والبلاد الآسيوية الاخرى ستحرمه من الاستئثار بالزعامة المطلقة في المنطقة ، كما وجدت فرنسا في نجاح هذا المشروع الذي اقيم دون استشارتها تهديدا لسلطانها ومصالحها الحيوية في المنطقة ، ونذكر بهذه المناسبة ان دائرة الأمن في بغداد اضطرت في الايام الاخيرة الى مراقبة القنصلية الفرنسية ، كما قطعت عنها الاتصالات الهاتفية بعد كشف بعض الحركات المشبوهة .

ونضيف الى هؤلاء بعض من آزروا المشروع في البداية وشجعوا العراق على اقامة صرحه ، كالولايات المتحدة التي فتر حماسها فجأة ، واكتفت بدور المراقب في اجتماعات ميثاق بغداد للأسباب التي ذكرناها سابقا ، واخيرا رأت انكلترا ايضا ، بعد العدوان الثلاثي انها لا تستطيع املاء ارادتها على كتلة الميثاق بعدما وقف نوري السعيد وقفته المشهودة بحضور اسكندر ميرزا في الاجتماع الدوري الذي اقيم في سنة ١٩٥٧ في ايران .

النشاط الهدام في سورية

ان اللغة والتقاليد والأهداف السياسية المشتركة هي ولا شك من العوامل الاساسية التي تجمع الشعوب العربية وتدعم روابطها ، فهذا امر لا جدال فيه ، ولكن وجود تلك العناصر الجوهرية الموحدة لا تفرض الاندماج المطلق الذي يحتم الغاء الشخصية أو القضاء على الذات الاصلية في الشعوب ، ولم يدرك عبد الناصر هذه النقط الاساسية عندما آلى على نفسه قيادة الأمة العربية لتحقيق الوحدة المنشودة .
فسورية كما يشهد لها التاريخ الحديث بلد عربي ناضل ببسالة ضد الاستعمار ، وساهم بالكثير في سبيل احياء مجد العروبة ، ولا يخفى ان فكرة القومية العربية وتخطيط مناهجها السياسية المختلفة وجدت في رحاب الشام مرتعا واسعا ادى على مر الايام الى نشر تعاليم متعددة في هذا المقام . ولكن هذا البلد الناشىء كان رغم المشاعر الوثابة التي يضمرها الشعب يفتقر الى الخبرة والنضوج الاجتماعي الذي يستطيع ان يدعم أسس نهضته على قواعد مدروسة واضحة ، إذ طالما كانت الافكار والشعارات المثيرة تلهب حماس الجمهور لتنطفىء بعد ذلك تحت وطأة تيار جديد .

كانت سورية من اسرع البلاد العربية استجابة لنداء العروبة ... وبعد التحرر ظن الشعب بأن مجرد الحصول على الاستقلال سيمكن الحكام من حل المشاكل الادارية والاقتصادية والسياسية السائدة في المجتمع السوري ، ولكن تطور الامور مع الأسف في تلك الدول الناشئة لم يحقق الأمل المنشود ، وزاد الطين بلة نكسة العرب في فلسطين. وبناء على تدهور الأوضاع الداخلية استطاع القائد حسني الزعيم ان يستأثر بالحكم في سورية دون مقاومة عندما اعلن في خطابه بأن الجيش السوري سيتولى قيادة الدولة لأخذ الثأر ولتحرير فلسطين .. فيما نشرته جريدة الف باء في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر ١٩٤٨ .

وصف الأوضاع المحزنة التي وصلت اليها البلاد حينذاك

وفيما يلي نص لبعض ما نشر في المقال المذكور: "لا يوجد في البلد شخص ينعم بالارتياح فالكل يشتكي من سوء الحال ، الوزراء في هياج مستمر ، والاحزاب في غضب متواصل ، والشكوى تنبعث من كافة الجهات ، ورجل الشارع يسب علنا في الطريق .

فلا عجب اذن لو سار الجمهور في ركاب قائد باسل يطلب الثأر للشعب الفلسطيني ويعلن بأن ما وصل اليه الحال في الوطن العربي نتيجة حتمية لإهمال وتسيب الحكام والجيوش العربية ، وان لا سبيل لإصلاح الاوضاع إلا باستعمال القوة واخذ الثأر .

وهكذا نجح اول انقلاب عسكري في سورية وادى الى انزواء الحكام المدنيين في عقر دورهم . لم يستطع حسني الزعيم بعد اعتلاء كرسي الحكم تحقيق ما وعد به فلم يثأر لفلسطين ، ولم ينجز الاصلاحات المنشودة ، وتناسى كلمات خطابه الرنان الذي الهب مشاعر التضامن العربي في نفوس الجمهور عندما تعالت في شوارع دمشق مظاهرات صاخبة تضم عددا لا يستهان به من الرجال والنساء الثائرات والكل ينادي بحرارة ... نريد الثأر لفلسطين ...

شعر الرجل بعد تسلم زمام الحكم بأن درب الانتصار طويل المدى ، وان سورية مازالت في اول طريق نهضتها ، ولكنه آلى على نفسه ان يتدرب على أصول الحكم الصحيح ، وشرع في تنسيق علاقاته الدبلوماسية بالدول المختلفة .

وبهذه الصورة خمدت نار وثبة الثأر لفلسطين في أرض سورية لتثبت في ارجائها

افكار وايديولوجيات جديدة يقود اكثرها تيارات ونفوذ المصالح الاجنبية .

النفوذ الاجنبي يتسرب الى سورية

وبعد مدة وجيزة تكررت زيارات السفير الفرنسي الى مقر حسني الزعيم الذي خلع على نفسه حينذاك رتبة ماريشال في القوات المسلحة السورية ... ولكن عندما انتشرت اخبار المساعدات المادية والعسكرية التي كانت تقدمها فرنسا لحسني الزعيم أخذ القلق يساور السفير البريطاني فيما يمكن ان يصيب نفوذ بريطانيا في المنطقة اذا ما توثقت روابط سوريا بفرنسا على حساب انكلترا .

كان في الجمهورية السورية ، وعلى الأخص في المقاطعات الشمالية ، من يؤمن بالوحدات الطبيعية الاقتصادية ، كوحدة وادي الفرات في الشرق الأوسط ، على نمط الذين يساندون فكرة وجوب المحافظة على وحدة وادي النيل في القارة الأفريقية ... وكان الزعيم سامي الحناوي قائد القوات المسلحة السورية والرجل الذي كان موضع ثقة حسني الزعيم بل ساعده الأيمن من بين الذين يؤيدون توثيق روابط المودة والتفاهم بين سورية والأردن والعراق ... وكانت بريطانيا تفكر حينذاك في طريقة مثلى لوقف نفوذ المد الفرنسي في المنطقة فاستعانت بالحناوي ، لهذا الغرض بجهود الميجر سترلنج احد المستشرقين البريطانيين والصديق الحميم للزعيم الحناوي ولم يكن الميجر سترلنج في الواقع سوى عضو سري في شبكة المخابرات البريطانية .

اصوات التذمر تعلو

كانت اصوات التذمر وعدم الارتياح قد بدأت تسري رويدا في المجتمع السوري مع مرور الأيام ، فوجد العميل البريطاني فرصة سانحة للقيام بعمل ايجابي لوقف توغل النفوذ الفرنسي في البلاد .. واستطاع ان يقنع القائد سامي الحناوي سرا بوجوب تدبير انقلاب عسكري للتخلص من رجل يفكر في احياء النفوذ الفرنسي من جديد في سورية .. ثم اغدق عليه الأموال اللازمة لتنفيذ المؤامرة .

وفي مساء ١٣ اغسطس ١٩٤٩ احاطت القوات العسكرية بدوائر الاذاعة ومخفر الشرطة . ثم وجهت المدفعية الثقيلة افواهها الى منزل حسني الزعيم من اسطح البيوت المجاورة ، وامرته مكبرات الصوت بالاستسلام للقيادة الجديدة .

قام الرجل رأسا بتنفيذ الامر دون اية مقاومة ، فاصطحبه الضابط عصام مريود

الى ساحة سجن المزة . وعند وصول الركب الى الساحة ذهل حسني الزعيم حين رأى امامه الزعيم سامي الحناوي واتضح له انه اصبح اسيرا لرجل كان ينعم بثقته الكاملة . واستشاط السجين غضبا فذهب يسب ويلعن وينعت من خان صداقة مقدسة بأرذل النعوت ، ولكنه انهار فجأة بعد ذلك وبدأ يتوسل ويرجو ان يسمحوا له بترك البلاد الى منفى لا رجوع ، منه ثم ذكّر الجنود الحاضرين بلهجة مؤثرة بأنه هو الذي قاد الجيش الى الحكم ، وانه ما زال المواطن والقائد النزيه المخلص الذي لم يدنس يده بنهب قرش واحد من اموال الأمة . كان لهذا الدفاع المثير اثره على الجنود المتربصين لتنفيذ حكم الاعدام عليه فلما شعر مريود بترددهم قام على الفور وأشهر مسدسه واطلق النار رأسا على حسني الزعيم ووزير خارجيته فأرداهما قتلين ... وهكذا نجح الانقلاب العسكري الثاني في سورية الناشئة بقوة الحديد والنار .

اسلوب سامي الحناوي في الحكم

لم يشغل سامي الحناوي في النظام الجديد مركزا سياسيا معينا ، ولكنه تمسك بالاشراف على مجرى الامور في سورية في انتظار الوقت المناسب الذي يتم فيه البت في الحلول التي اشار اليها الميجر سترلنج عند قيام الانقلاب ، وقبل ان يتم تثبيت كيان الدولة وقواعدها السياسية الجديدة شعرت المملكة العربية السعودية بوجود مساع خفية ترمي الى توثيق العلاقات بين سورية ومملكتي العراق والأردن وهي المملكتان الهاشميتان اللتان كانت السعودية تخشى ان يزداد نفوذهما في المنطقة .. وإذ بها تجد في شخص أديب الشيشكلي رئيس الفرقة العسكرية السورية في حلب من يستطيع احباط هذه المساعي ... وهكذا استطاع "البترودولار" في هذه المرة تدبير الانقلاب العسكري في سورية وهو الذي انتهى بنفي سامي الحناوي خارج البلاد ، وقد لاقى الأخير حتفه بعد مرور سنين في بيروت على يد احد اقرباء وزير الخارجية الذي كان الحناوي قد امر بقتله حين قام الانقلاب العسكري الثاني في سورية .

أديب الشيشكلي في الحكم

لم يتربع أديب الشيشكلي على كرسي الحكم في سورية اكثر من أربع سنوات ، وذلك رغم الرخاء النسبي الذي عم البلاد في تلك الفترة وهي التي استثمرت سورية فيها مواردها الطبيعية زراعيا وصناعيا بمساندة فرنسا بشكل ملموس .

ويبدو ان الشعب السوري بعد تكرر الانقلابات في نظم الحكم المتعاقبة اصبح يقبل التجديد على الدوام ، ويرنو الى حياة افضل واسلوب حكم مثالي . كانت الانقلابات تحدث وكأنها مسرحيات عسكرية ليس فيها صراع الثورات ، كما كانت ضحاياها محدودة .... فالشعب السوري لا يميل الى العنف ، ولكنه متقلب المزاج والمشاعر فيندفع تارة وراء فكرة مثيرة ليهملها بعد ذلك فجأة لأهون الاسباب ، فطالما انبعثت الآراء والمبادىء الحزبية والسياسية من ارجائها كالبركان الثائر لتخمد بعد حين كما انطلقت من انحائها شعارات ، مبادىء متعددة رن صداها عاليا في اجواء العروبة ، حتى اصبح الشعب لا يخشى أو يعارض اي تبديل إلا اذا مست الاجراءات المتخذة المصالح الفردية - فاحترام النظام الاقتصادي المتوارث وعدم الاعتداء على الممتلكات الفردية هما اهم ما يتمسك به المواطن السوري .

كانت مناقشات الافكار السياسية وانتقاد النظم الادارية السائدة تدور علنا في المقاهي وفي أوكار الاحزاب المختلفة ، وبالتدريج اصبح انتقاد سياسة الشيشكلي ينتشر في صفوف الجمهور السوري بتأثير من الجهات التي كانت تخشى من تسلط النفوذ الفرنسي من جهة ، ومن توسع الاطماع السعودية من جهة اخرى .

وبناء على ما تقدم بدأت فكرة احياء وحدة وادي الفرات تعود من جديد ، وتبلورت اهميتها في دعم كيان سورية ، فتبنى الفكرة قائد فرقة حلب الزعيم فيصل الاتاسي ، واعلن في ٢٥ فبراير ١٩٤٥ بأن ضباط قطاع سورية في الشمال لا يجدون مانعا من الانتماء الى العراق لأن المنطقة بأسرها تشكل وحدة طبيعية ، وعندما اكتشف أديب الشيشكلي أن بريطانيا والعراق يدعمان تمرد فيصل الاتاسي وفرقته توسم مالا تحمد عقباه ففر هاربا الى لبنان ، ولكنه لاقى حتفه على يد احد الدروز الذي اراد ان ينتقم لجاليته لعلمه بأن الشيشكلي كان الشخص الوحيد الذي عارض في منح الحكم الذاتي للجالية الدرزية القاطنة في سورية .

مقدرات سورية تتأرجح بين اقطاب الرأي

وهكذا ظلت مقدرات سورية تتأرجح بين اقطاب اصحاب الرأي في الدولة وكل منهم يترنم بالنغمة التي تروق له ، ولكن القوة ساعة التنفيذ كانت دائما في قبضة رجال الجيش .

كان اغلب الضباط في ذلك العهد من طبقة برجوازية ، وهي طبقة تحترم التقاليد

العائلية والاجتماعية الموروثة ... ولكن عندما بدأت التيارات المختلفة تتنازع السلطة في البلاد شعر الجميع بضرورة تسليم الامور الى المدنيين ، وعلى رأسهم شخصية قوية تستطيع السيطرة على الفوضى السائدة ، وتم الاتفاق على شكري القوتلي الذي كان قد امضى فترة طويلة في مصر بعيدا عن بلاده – ولم يكن القوتلي بالرجل القوي الذي يستطيع رد هيبة الحكم في بلد انعدم فيه الوفاق – إذ اصبحت الاحزاب والهيئات المختلفة فيه في سباق متواصل للاستئثار بالسلطة حتى وصلت البلبلة الى الأوج ، وتساءل الناس الى اين المصير ؟

كانت دمشق في ذلك الوقت تستمع بإعجاب كبير الى اذاعات القاهرة التي اثملت على الأخص الشباب المتحمس ، وبناء على ذلك فكر رئيس المخابرات السورية عبد الحميد السراج الاستعانة بالرئيس جمال عبد الناصر لحل الوضع المتأزم نظرا للشعبية الجارفة التي اكتسبها في العالم العربي عن طريق الدعاية ... لعله يجد الطرق الناجحة للسيطرة على الموقف في سورية ، كما فعل قبل ذلك في مصر .... ومن ثم بدأت المشاورات السرية تجري بين الطرفين بسرية تامة وتم الاتفاق بينهما ...

تقلب الأوضاع في سورية الى حين قيام الاتحاد

وفي ٢٧ يناير سنة ١٩٥٨ ذهب قائد القوات السورية المسلحة عفيف البزري لزيارة الرئيس شكري القوتلي دون سبق انذار ، وحمله معاتبا وزر البلبلة السائدة في البلاد ، فاضطرب القوتلي عند سماع هذا التعليق السافر ، وطلب منه ان يفسر له بصراحة السبب الحقيقي الذي دعاه الى القيام بهذه الزيارة المفاجئة ، فأجابه البزري بصرامة متناهية : نحن ياصاحب الفخامة امام امرين : إما الحرب الأهلية والفوضى ، أو الاستعانة بعبد الناصر لحل الأزمة الراهنة ... فما هو القرار ؟ لم يخبره البزري حينذاك ان الاتفاق على مشروع الوحدة بين سورية ومصر كان قد تم فعلا ، وانه شخصيا سافر الى مصر في ١٣ يناير بصحبة ثلاثة عشر ضابطا لمقابلة عبد الناصر لوضع أسس الاتحاد ، ولكنه استمر في الحديث حتى اقنع القوتلي بوجوب السفر الى مصر فورا ، واصر على ان يكون ذلك في صباح اليوم التالي مصطحبا معه كافة اعضاء مجلس الوزراء .

وفي الليلة نفسها ارسل رئيس المخابرات عبد الحميد السراج الى منزل كل عضو من اعضاء مجلس الوزراء ضابطا ليبقى معه حتى الصباح ليصطحبه بعد ذلك

شخصيا الى المطار حتى لا يترك لأي فرد منهم فرصة التخلف أو الافلات .

توقيع صيغة الاتحاد

وبهذه الخطة المسرحية العجيبة تم الاتجاه المنشود ، إذ عند وصول الوفد الى القاهرة وقع الطرفان على صيغة الاتحاد في قصر القبة ، فاكتسب عبد الناصر بموجب صيغة الاتفاق السيادة الكاملة على الجمهورية العربية المتحدة ، واندمجت في البلدين السلطات السياسية والادارية اندماجا كاملا داخل اطار اتحاد شامل تحت سلطاته المطلقة ، إذ اضطر شكري القوتلي بموجب هذا الاتفاق الجبري على التخلي عن سيادة جمهورية سورية وهو الذي كان قد أقسم امام البرلمان السوري عندما اعتلى كرسي الحكم ان يحافظ على دستور البلاد المقدس ...

بل يقال انه بعد ان تم التوقيع على وثيقة الاتحاد تنفس القوتلي الصعداء ، وخاطب الرئيس عبد الناصر قائلا : "لك الشكر الجزيل ياصاحب السيادة ... لقد اعفيتني الآن من تحمل مسئولية شاقة جائرة وهي ادارة شؤون خمسة ملايين نسمة يعتقد نصفهم بأنهم حائزون على صفات الزعيم المثالي ، ويؤمن ربعهم بأن لهم كرامة الانبياء ، بينما يتشبه على الاقل عشرة في المائة منهم بالله سبحانه وتعالى" .

وعلى كل حال ليس من الانصاف الحكم على تصرفات الناس في مثل هذه الحالات الاستثنائية عندما تكون الكلمة الفاصلة للعنف والارهاب ، فالله اعلم بالنيات .

ومن الأمور التي تدعو الى العجب هو ان عبد الناصر بعد ان توصل الى تحقيق مآربه تجاهل تماما تضحيات البزري وجهوده التي ادت الى نجاح توقيع وثيقة الاتحاد بين مصر وسورية ، فكان جزاؤه الاستغناء عن خدماته نهائيا ، ويفسر البعض بأن سبب هذا التصرف كان ترضية لأهل شمال سورية ووسيلة لإخماد التنافس الذي نشأ بينه وبين السراج ، فرجحت كفة هذا الاخير عند عبد الناصر لخبرته الواسعة في التنظيم وادارة شؤون المخابرات ، حتى اصبح بعد ذلك وزيرا للداخلية ، واخيرا حاكما لمقاطعة الاتحاد الشمالية .

عبد الناصر في سورية

وبعد ان تمت الاجراءات الرسمية للإتحاد في مصر ، فكر عبد الناصر في رد الزيارة للشعب السوري ، فاستقبلته الجماهير المحتشدة في طريق دمشق بحرارة

بالغة ، واعدت الاحتفالات لتكريمه ، فخاطبهم ليشكرهم بصوت كله ثقة واعتزاز وقال : "ما الجمهورية العربية المتحدة سوى نواة للوطن العربي الكبير المنتظر الذي سيمتد اركانه ان شاء الله من جبال طورس وحدود كردستان شرقا الى ساحل مراكش على المحيط الأطلسي غربا" . لقد نقلت الاذاعات خطاب الترحيب الذي القاه شكري القوتلي في صحن المسجد الأموي الشريف في حينه ثم جواب عبد الناصر الذي قال فيه ما يلي : "ان طريق الاتحاد هو طريق النصر ، ونحن نسير فيه بجد واطمئنان ، بينما نجد حولنا عروشا تهتز تحت اصحابها وتنبىء بسوء المصير" .

كان في هذا الخطاب الواضح تحدٍ صريحٍ وانذار لكل من تحدثه نفسه بعدم السير في ركبه ولا شك ان في هذا التحدي اشارة عابرة لما كانت تخفيه الأقدار من تهديد صامت لحكام البلاد المجاورة .

وبعد اعلان الاتحاد رسميا امتلأت الدوائر في سورية فورا بالموظفين المصريين الذين ارسلوا اليها لتطبيق النظم المصرية في الدوائر والمؤسسات الحكومية وفي المدارس والمحاكم وحتى صفوف الجيش ... أما الشيء الوحيد الذي لم تبدله السلطات المصرية فهو النقد السوري الذي ظل متداولا في الاسواق كما ظلت ادارة المقاطعة الشمالية تحت امرة العسكريين حتى لا تتلاعب في مقدراتها أيدي المدنيين .

روح الانفراد بالحكم في الجمهورية العربية المتحدة

كانت النظم التي وضعت لإدارة شؤون الجمهورية العربية المتحدة مثلا واضحا لقلة خبرة من قاموا بوضع أسس الوحدة الناصرية ، كما تجلت فيها روح الانفراد بالحكم . فالوحدة في شرع من هتفوا لها في البلاد العربية كانت بمثابة استجابة طبيعية لنداء يرمي الى جمع الكلمة وصيانة حقوق الأمة العربية ووحدتها ، وكان المتوقع ان يتمتع كل شعب في بلاده بالنظم التي تتناسب واوضاعه الاجتماعية وتؤمن رعاية مصالحه ، إذ كان الهدف الأساسي تحقيق وحدة قائمة على روح التضامن والمساواة بين الجميع ، على ان لا يستأثر فريق منها بالسيادة المطلقة على حساب الآخرين . كان امل أقطاب سورية عندما قبلوا الغاء الدستور السوري ان تصبح الرئاسة دورية ، وتعود يوما الى دمشق كما كانت في عهد الأمويين .... وهكذا كان أمل باقي أقطاب الدول العربية ، ولكن استفراد مصر بالسلطة المطلقة حكم على الوحدة الناصرية بالفشل . والجدير بالذكر بأن روح التحكم الناصري كانت حجر العثرة الأساسي الذي

فرق منذ البداية بين القيادة الناصرية والحكم الهاشمي في العراق .

وعندما تم انشاء الجمهورية العربية المتحدة اهملت القيادة في مصر دراسة احوال سورية عن كثب لإدراك نوع ا لمساعدات والاصلاحات المطلوبة ، واهتمت قبل كل شيء بإرسال اخصائيين من مصر للسيطرة على شبكة المخابرات المحلية في سورية دون الاكتراث بوضع برامج الاصلاح المنشود لخدمة المصالح المشتركة ، وزاد الاستياء بعد ذلك عندما ارسل عبد الناصر امرا اداريا الى عبد الحميد السراج ١٩٦١ وطلب اليه تطبيق قوانين التأميم المتبعة في مصر على المقاطعة الشمالية للجمهورية العربية المتحدة ، كان في هذا الاجراء الارتجالي ما يثبت عدم تقدير المسؤولين للأوضاع القائمة في سورية إذ تجاهلت تماما الفروق الأساسية بين النظم والتقاليد الاجتماعية والاقتصادية المتبعة في القطرين .

فالأرض ، ورؤوس الاموال المتداولة في سورية ، هي ممتلكات سورية بحتة ، في حين يملك الاجانب نصف رؤوس اموال المؤسسات الاقتصادية القائمة في وادي النيل ، وبناء على ذلك يؤثر التأميم في مصر على الاموال الاجنبية بوجه خاص ، أما في سورية فالتأميم يضر مصالح المواطن السوري في الصميم ، نظرا للنظم الاقتصادية التقليدية المتوارثة في المجتمع السوري من زمن بعيد .

فلا عجب اذن ان تثير هذه الاجراءات الصارمة سخط اصحاب القطاع الخاص ، وعلى الأخص طبقة رجال الاعمال والملاك في سورية . وقد أدى ذلك فعلا الى زعزعة ثقة الشعب السوري في فوائد مثل هذا الاتحاد بعد ما بدأت الاموال المحلية تتسرب الى الخارج ، وبعد ان تدهورت احوال السوق والاقتصاد السوري .

ان تطبيق نظم اقتصادية وقوانين لا تلائم المجتمع دون رعاية أو تهيئة الجو المناسب لقبولها بالرضا يثير حتما السخط والتمرد ، فلعنصر الزمن اهمية عظمى لتهيئة فترات الانتقال ، ويتحتم على اصحاب الشأن استعمال الأساليب التي تناسب المحيط وتخدم الهدف المنشود .

تبدل موقف السعودية

فالجدير بالذكر هو ان الاتحاد لا يحتم الاندماج المطلق الذي يقضي على ذاتية الاطراف المتآزرة ، ولكنه في المفهوم الناصري كان يعتبر ويفرض تطبيق نفس الأساليب الادارية والاقتصادية على الجميع ، وكانت مصر مصدر السلطة المطلقة في

الجمهورية العربيةالمتحدة ، ومن ثم تدهورت الاحوال تدريجيا وارتفعت اصوات الاحتجاج من كافة الجوانب حتى وصلت الى صفوف الجيش وقد وصف الزعيم عبد الكريم زهر الدين ، آمر القوات السورية في العهد المذكور ، وضع الجيش السوري كما يلي قال : "نحن الآن تحت سيطرة الاستعمار المصري كما كنا في عهد الاستعمار الفرنسي ، فالوظائف المهمة في صفوف جيشنا تدار من قبل افراد جيشهم ، أما ضباطنا في مصر فيجلسون فقط على مكاتب ادراجها فارغة ، ولا سلطة لهم على الاطلاق" .

"ان روح التضامن المنشود من الوحدة مفقود بيننا ، فالمفروض في الدول المتحدة التشاور عند وضع القوانين الادارية لاختيار ما يناسب ويخدم فكرة الوحدة دون تحكم أو استبداد ، ولكن اخواننا في الجنوب مع الأسف تجاهلوا هذا المبدأ الأساسي وفرضوا علينا قوانينهم فرضا" .

وعلى مر الأيام ازداد السخط خصوصا عندما اصبحت بعض الدول تساعد الشعب السوري على التحرر ... فقد اشيع حينذاك بأن المملكة العربية السعودية اصبحت تخشى حركة الرئيس عبد الناصر التوسعية وطموحه في السيطرة على العالم العربي وان مؤامرة سعودية دبرت في الخفاء لاغتياله اثناء احدى سفراته ولكن المخابرات السرية ، وعلى رأسها عبد الحميد سراج استطاعت ان تكشف النقاب عنها في الوقت المناسب ، ظلت حركة الاستياء بعد ذلك تتضخم وتعم في ارجاء المنطقة ، وزاد الطين بله انقطاع المطر في السنوات الأربعة التي دام فيها الاتحاد ، إذ توقفت الأمطار وشحت ، واعتقدت العامة بأن الاتحاد هو الذي در اللعنة على البلاد .

لم يستطع عبد الحكيم عامر أو السراج رد الامور الى نصابها ، ولم تسفر محاولات الصلح عن شيء ، وانتهى الأمر بأن القى الجيش القبض على السراج وعبد الحكيم عامر معا فأرسلا الى مصر ، وظل عبد الناصر بعد ذلك يحاول عبثا مع الميجر جلال جريدي استرداد السيطرة على الجيش فلم يفلح ، إذ تم القبض على الجريدي وأعوانه بعد حين في مطار اللاذقية بعد معركة عابرة ، ويقال في هذه المرة بأن اموالا اجنبية ساعدت الجيش على التمرد .

ويجب الاشارة في هذا المجال الى أن حركة التحرر التي اتخذها الجيش لا تعني ان سورية كانت تأبى فكرة الاتحاد ... فالحدود التي يعترف بها الشعب السوري هي حدود الوطن العربي بأسره ، والدليل على ذلك هو ان النشيد الوطني السوري يمجد

الأمة العربية والحرب المقدسة التي يجب ان يخوضها الشعب ببطولة دون ذكر اي حدود ، ولكن التحكم الاستبدادي الذي ذاقته سورية في فترة الاتحاد مع مصر ، وتدخل شبكة المخابرات في صميم حياة الشعب ، وعدم احترام الأساليب التقليدية التي كانت سائدة في المجتمع السوري وعلى الأخص الاستئثار بالحكم في اطار الاتحاد ، كانت كلها من العوامل التي خلقت استياءا شاملا وأدت الى تمرد الجيش السوري في المقاطعة الشمالية للتخلص من ضغط حكام الجنوب .

لقد قرر الجيش الرجوع الى الثكنات بعد الحركة المذكورة ، واذا بتيارات سياسية جديدة تهب في الأفق السوري مصدرها حزب البعث في هذه المرة ، فأعلن راديو دمشق حدوث انقلاب وقيام وزارة مدنية جديدة من بين اعضائها عشرون بعثيا يرأسها صلاح البيطار ، وكان وزير داخليتها أمين الحافظ .

تسرب مبادىء البعث الى الجيش وصعوبة اخضاع الحزب لعبد الناصر

كانت مبادىء حزب البعث الاشتراكي الذي أسسه ميشيل عفلق في سورية قد تسربت تدريجيا الى صفوف الجيش ، واستتب الأمر بعد ذلك للحزب المذكور بعد انشاء منظمة الحرس القومي لتأمين بقائه ، ولم تفلح محاولات انصار الوحدة في مصر في مقاومة هذا التيار الجارف للسيطرة على الموقف إذ عندما قام انقلاب آخر في ٨ مارس سنة ١٩٦٣ انقسم الجيش السوري على نفسه بتأثير الحرس القومي البعثي فعمت الفوضى في البلاد واشتعلت على أثر ذلك معركة دامية بين الطرفين ، كان عدد ضحاياها ثمانمائة قتيل تقريبا ، فكانت اعنف معركة اهلية في تاريخ سورية الحديث . لقد شعر عبد الناصر حينذاك ان اخضاع حزب البعث لأمرته امر عسير ، فالجهتان تترنمان بالوحدة العربية ، ولكن لكل منهما طريقته واسلوبه واهدافه وبناء على ذلك ورغم تجدد المحاولات التي اجريت بينهما للتفاهم على أسس انشاء فيدرالية بين مصر من جهة ، وحكومات البعث في سورية والعراق من جهة اخرى ، لم يتم أي اتفاق بينهما ، وفي نقل بعض ما كان يدور في الجلسات التي كانت تعقد لهذا الغرض بين عبد الناصر وعدد من اقطاب البعث ما يثبت صعوبة التوفيق بين اطماع جهات همها الأكبر الاستئثار بالسيطرة ، وهي تبين الى جانب ذلك بأن الاجهزة السرية طالما كانت سببا في عرقلة الأمور واثارة الشغب والفتن بين الأطراف البعثية .

أسباب الانفصال

كان عبد الناصر يفتخر بمستوى اجهزة المخابرات المصرية ويقارنها بالتي تعمل في سورية والعراق ، فقال في احدى جلسات النقاش في موضوع الاتحاد لعلي صالح السعدي الوزير العراقي ما يلي : ان الأجهزة السرية المصرية لا تعتمد على طبقة الحراس والخدم والمأجورين أو على الطرق العقيمة التي تعمل في وسورية منذ ايام الشيشكلي ... ان اجهزتنا تقوم بدورها بإسلوب علمي دقيق ، ولا يمكن اكتشاف مصدر البث قط . ومثل ذلك اننا كنا نعلم عن يقين بأن على الاقل ثلاثين في المائة من سكان البلاد لا يقبلون الاتحاد ، ولكن ابتهاج الأمة العربية بالفكرة هي التي شجعتنا على المضي في هذا السبيل فورا ... وبمناسبة اخرى التفت الى البيطار وقال له بسخرية ظاهرة "لقد دهشت عندما قرأت توقيعك على عريضة المطالبين بانسحاب سورية من الجمهورية العربية المتحدة ... فما هو القصد من ذلك ياترى ؟

هل اراد البعث تحطيم مصر مثلاً ؟ .... أو كان الهدف اقصائي انا شخصياً ؟ ... ومما لا شك فيه هو ان شعور عبد الناصر بما كان يخالج حزب البعث من نفور في قبول القيادة المصرية في مشروع الاتحاد هو الذي دفعه الى المماطلة اثناء التشاور في تجديد انشائه واصراره على عدم التوقيع على اي قرار من هذا النوع مع البلاد التي يحكمها حزب البعث مهما كانت صيغتها ، خصوصا بعد ان ظهرت في صفوف الحزب المذكور انقسامات عديدة مصدرها العقائد الدينية والطائفية أو الطموح الشخصي وهي العناصر التي تقضي عادة على وحدة الصف ، لقد وصف الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل ، لسان حال الرئيس جمال عبد الناصر ورئيس تحرير جريدة الأهرام ، الأوضاع المؤسفة التي وصل اليها حزب البعث بالتدريج بما يلي ، قال : "ان الوضع السائد في صفوف البعث اليوم يذكرني بما يدور في منظمات (المافيا) في صقلية وفي الولايات المتحدة ... انهم وقت الحاجة يتحدون ويتكتلون رأساً ، ثم يبدأ بعد ذلك الانقسام والقتال بينهم دون هوادة الى ان يستولي على الغنيمة من يبقى منهم على قيد الحياة" .

مصر ومشروع الفدرالية

ويفسر لنا ما تقدم اسباب الحذر الشديد الذي التزمه عبد الناصر عندما فوتح في المشروع الفيدرالي بين مصر وسورية والعراق ، إذ ظلت الفكرة مجرد حبر على

ورق ، كما ظل موقف مصر سلبيا فلم يرفض أو يقبل عبد الناصر العروض والمحاولات المتكررة في هذا الشأن وكأنه ينتظر فرصا سانحة اخرى ... وشتان بين موقفه المتردد في هذه المرة ، وبين صوته الرنان في رحاب الجامع الأموي اثناء زيارته لدمشق بعد تأسيس الجمهورية العربية المتحدة حين اعلن جهرا وبإيمان قاطع بأنه يرى عروشا تقليدية تهتز تحت اصحابها في البلاد المجاورة ، منبئا بأن الثورة التي اشعلتها اجهزته السرية بدأت تسري لتقضي على النظم المتوارثة الثابتة فيها ... فلا يخفى بأن اشعال الثورة الناصرية في الوطن العربي هو جزء لا يتجزأ من برنامج الميثاق ، وان تلك الحركة المتفجرة كانت تقام باسم الحرية والعروبة والديمقراطية مع العلم بأن البلاد التي سيطر عليها هذا القائد الجبار لم تذق اثناء حكمه الديكتاتوري طعم الحرية أو الديمقراطية قط .

كان عبد الناصر يدّعي احيانا بأنه لا يطلع دائما على ما تقوم به اجهزة الدعاية في مصر ، إذ عندما احتج سفير العراق على تحريض سافر من اذاعة صوت العرب ضد نظام الحكم في العراق اثناء العهد الملكي ، اقسم عبد الناصر بأن لا علم له بذلك قط ، لأن للاعلام دائرة مستقلة وليس للحكومة المصرية اي دخل في ادارة شؤونها ، ولكن الايام اثبتت غير ذلك إذ كانت الاموال الطائلة تصرف على الدعاية على الجهاز السري والطابور الخامس في مصر لتطبيق الخطط الناصرية وكان هذا الاسراف سببا مباشرا لتدهور العملة المصرية في الاسواق المالية .

الأوضاع الاقتصادية تتدهور

فعندما تسلم الضباط الأحرار قيادة الحكم في وادي النيل كان الجنيه المصري يفوق الباوند الاسترليني قيمة ، وكان يسنده غطاء ذهبي موفور في بنك مصر ولاشك ان سلامة العملة دليل واضح على سلامة الاقتصاد ، اما الشكوى والتذمر الذي كان سائدا في وادي النيل حينذاك فمصدره ضعف الحكام والتناحر المستمر بين اقطاب الاحزاب ... والمشاكل الدولية والالتزامات المتعددة التي فرضتها الظروف وحروب الشرق الأوسط فاستغلتها التيارات الهدامة من جهة والمطامع الاستعمارية من جهة اخرى لاثارة القلق في بلد له موقع استراتيجي مرموق وامكانيات حيوية متوفرة .

وعندما تم الانقلاب العسكري وتولى الضباط الأحرار زمام الحكم في البلاد كان الامل ان يأخذ الاصلاح المنتظر مجراه الطبيعي على قواعد سليمة ثابتة وبطرق انسانية

مدروسة لا غبن فيها ولا ارهاق حتى يتم التطور المنشود دون عنف في جو مشبع بالطمأنينة والاستقرار ولكن القدر شاء غير ذلك .

والجدير بالذكر هو ان ليس كل حاكم برجل دولة مقتدر ، خصوصا إذ لم يستعن بأهل الخبرة والمعرفة لتخطيط البرامج وتنظيم اسلوب التنفيذ ، وبناء على ذلك اخذ الارتجال والتقدير الشخصي مع الأسف الشديد مكان الدراسة والتخطيط السليم في برامج الاصلاح ، فصرفت اموال الدولة دون تمييز باسم الاشتراكية والتقدمية على اجهزة الدعاية المتعددة .

وفيما يلي موجز لتركة الديون التي اثقلت كاهل مصر بعد الحكم الناصري ، ويستحسن الاشارة في هذا المقام بأن مصر كانت تطالب بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية بديون مرموقة ، وان موارد اخرى باهظة دخلت الى خزينة الدولة بعد اعلان التأميم في مصر ، هذا الى جانب تأميم قناة السويس ، ونضيف الى ذلك المساعدات المالية المستمرة التي كانت ترد من بلاد النفط العربية لمساندة القيادة المصرية ، ورغم ذلك كانت ديون مصر عندما تسلّم انور السادات الحكم تقدر بمليار دولار امريكي - هذا الى جانب الديون المستترة الخاصة بالسوفييت والتي تتعلق بثمن الاسلحة والعتاد الذي لم يعلن عنه رسمي وتقدر بما يوازي ثلاث مليارات دولار بالعملة الصعبة ... ولكن عندما استحق الدفع لم يكن في خزينة الدولة ما يوفي الدين المطلوب فاضطرت الحكومة الى رهن القطن المصري لحساب السوفييت لعدة سنوات ، واخيرا لم تستطع مصر تسديد السلفة المستحقة للسوفييت لبناء السد العالي ، وهو المشروع الضخم الذي تكلف ثلاثمائة مليون بفوائد قدرها ٥ر٢٪ ... ويجدر بنا التساؤل في هذا المقام بعد احصاء الديون التي لم تدفع من خزينة الدولة ، الى اين ذهبت خيرات مصر فالشعب يحيا في تقشف كامل ؟ ... الى اين ذهبت الاموال التي ابتزها التأميم من الأمة المصرية ، وتلك الهبات المالية التي قدمتها الدول الصديقة ، وكيف اختفى وتلاشى الغطاء الذهبي الذي كان يسند الجنيه المصري في البنك الأهلي ، واخيرا كيف يمكن تفسير اسباب العجز المريع الذي اصاب الاقتصاد المصري واثقل كاهل مصر بالديون ؟

اسباب الديون المتراكمة

لم تصرف كل هذه الأموال الطائلة في حروب تتعلق بالدفاع عن حريةالأمة العربية واستقلالها ، إذ برهنت الايام بأنها كانت ترسل بلا حساب لتمويل التمرد

والعصيان في اليمن وسورية ولبنان والأردن والعراق لخدمة الثورة الناصرية ... ومثل ذلك ما ورد في محضر الجلسة التي اقيمت في مصر في مارس ١٤ - ١٩٦٤ ففيه اعتراف صريح لعبد الناصر بفضح بعض ما كان يدور في الخفاء لتمويل المناورات السرية .

الجلسة المشهودة واسباب فشل الاتحاد والاعتراف بما كان يدور في الخفاء

كان المقصود من الاجتماع الذي تم في التاريخ المذكور بين سورية ومصر والعراق يرمي الى دراسة الأخطاء التي ادت الى فشل مشروع الجمهورية العربية المتحدة ، فطلب عبد الناصر عند افتتاح الجلسة من الوفود الحاضرة ان تسود الصراحة التامة في الاجتماع المذكور ليتم بناء صرح المستقبل على أسس سليمة . وبناء وعلى ذلك بدأ مندوب سورية يشرح وجهة نظر بلاده وقال : ان مصر في الجمهورية المتحدة لم تحترم سيادة سورية ولم تراع عقلية اهل البلاد ، بل فضلت ان تحكم المقاطعة الشمالية بواسطة عملائها دون اخذ رأي رجال الثورة السورية في كيفية ادارة الامور. وعند سماع هذا الانتقاد استشاط عبد الناصر غضبا وقال : انكم تتهموننا زورا بأننا دولة بوليسية ، واننا نتبع في الحكم اساليب الدول الرجعية والاستعمارية والصهيونية، ولا يخفى عليكم طبعا بأن حزب البعث يسير على نفس النظام ، فلو كان لهذه التهم اي اساس فانني ارجو ذكر ولو اسم واحد من اسماء هؤلاء العملاء . وهنا تدخل الوزير العراقي علي صالح السعدي في الحديث وقال : اسمح لي بالجواب ياسيادة الرئيس ، ليس في استطاعتكم الاطلاع على كل ما يحدث حولكم ، ولا شك عندي ان مسائل متعددة لا تكشف امامكم ، ومثل ذلك اننا لاحظنا مرة على احد اعضاء حزب البعث مظاهر ثراء حديث فذيلناه رأسا بعد ان اكتشفنا بأنه يرتشي للتجسس على اعضاء حزب البعث . وثار عبد الناصر لسماع هذه التهم الجديدة وصاح قائلا : من المستحيل ان تكون تلك الأموال من عندنا . فأجاب علي صالح السعدي : انني ياسيدي مع الأسف الشديد اروي لكم الواقع ، لقد قبضها العميل في مصر مع المنشورات التي طبعت في بلادكم ووزعت عندنا ، فهل تعلمون مثلا بأنه يوجد لاجيء عراقي سياسي في مصر يدعى فؤاد الركابي يقوم بدور الوسيط بين جهازكم السري ، وحقي اسماعيل حقي لتنفيذ تعاليمكم في العراق ؟ ... وفجأة قطع عبد الناصر الحديث وقال بحماس : دعوني الآن اذن ان اسألكم انا بدوري وبصراحة تامة عن مصير الاموال

الطائلة التي بعثناها سابقا لحزب البعث ، لقد ارسلنا على دفعتين ما يعادل سبعين الف دينار ، اي ما يقارب مليون جنيه استرليني ، لخدمة اهداف الأمة العربية فماذا تم في ذلك وكيف صرفت ياترى ؟ فسأله الوزير السوري عن تاريخ ارسال الهبة المذكورة إذ لم يكن له علم بها .... فأجابه عبد الناصر باستخفاف بأن تلك الاموال ارسلت في حينه لميشيل عفلق ، ولكنني لا اعلم شيئا عن كيفية انفاقها ، وهنا تدخل علي صالح السعدي ثانية في الحديث وقال انني اعلم بتاريخ وصول تلك الهبات ، لقد كان ذلك في سنتي ٥٨ و٥٩ ياسيدي ، ولكن الذي تسلم المبالغ المذكورة هو طالب شبيب وليس ميشيل عفلق ياسيدي ، وعلى اثر ذلك طوى عبد الناصر فجأة الموضوع ، وانتقل الى مناقشة مشروع الفيدرالية دون كشف النقاب عن الاسباب التي دعت الحكومة المصرية الى صرف المبالغ المذكورة لميشيل عفلق لينقلها بدوره الى طالب شبيب احد اقطاب حزب البعث في العراق ... كما ظلت طرق انفاقها سرا مبهما ، وكل ما نستطيع ان نستنتجه مما تقدم هو ان الرئيس عبد الناصر اراد استغلال قابليات حزب البعث لخدمة اهداف الوحدة الناصرية ولكنه تبين جليا بعد ذلك ان البعث هو الذي عرف كيف يستغل عبد الناصر وصوت العرب وموارد الخزينة المصرية لتثبيت مبادىء الحزب ونفوذه في اقطار الشرق الأوسط ... والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان طالب شبيب اصبح في الجمهورية العراقية وزيرا للخارجية . ونضيف الى ذلك بأن عبد الناصر كان يعلم بحقيقة نوايا حزب البعث وتجاهله عندما حضر اجتماع يوم ١٤ مارس ١٩٦٤ ، إذ شاع علنا في الأوساط المحلية بعد حل الجمهورية العربية المتحدة بأن الاتحاد لن يتزعمه عبد الناصر ، ورغم ذلك لم يقاطع الاجتماع بهم عندما تجددت المحاولات لإنشاء صرح فيدرالية جديدة بين مصر وسورية والعراق .

اسلوب عبد الناصر

كان عبد الناصر يحضر تلك الاجتماعات جميعا ولكنه كان يحرص على ان لا يوقع ورقة واحدة إذ كان احدالاطراف يمثل حزب البعث ، وذلك ليثبت للعالم بأنه لا يحارب فكرة الفيدرالية ، فلم يبدأ بالقطيعة ، بل فضل الانتظار ليتحين الفرص التي ستسمح له بتأديب البعث وكسب الجولة الاخيرة . ومما لا شك فيه هو ان التصريحات التي جاءت على لسان الرئيس عبد الناصر في محضر الجلسة المذكورة تدل بوضوح على أن اموالا طائلة كانت مع الأسف الشديد تصرف بلا حساب من الخزينة المصرية

للإطاحة بالفئات التي لا تساند الوحدة الناصرية ، ويقدر ما صرفته مصر على الأجهزة السرية والدعايات والاعلام وحرب اليمن المؤسفة لمجرد دعم سلطان عبد الناصر وزعامته بما لا يقل عما استنفدته حرب فلسطين .

النشاط الهدام في لبنان

ان لبنان قطر يتمتع بخصائص نادرة من جمال طبيعي ، ومناخ مثالي ، وموقع استراتيجي ممتاز ، إذ يقع ساحله على بحر دولي يجمع ما بين آسيا وأوروبا وأفريقيا ، كان موطنا للحريات تعيش في ربوعه أمم وطوائف متعددة ، ويفتخر كل منها بأصالته وتقاليده القبلية ويتمسك بعاداته وعقائده الراسخة تحت ظلال الأرز الشامخ وسماء لبنان الصافية .

كان معقلا لأصحاب الفكر ، ووطنا لمن لا وطن له ، وملجأ للمضطهدين وضحايا التعسف والارهاب ، فلا عجب اذن ان يصبح ايضا مركزا مثاليا لبث الدعايات وترويج الاشاعات ونشر الدسائس والفتن ، ومرتعا خصبا لكل نشاط هدام .

لقد استغل المستعمر البريطاني لبنان من زمن بعيد فأنشأ مؤسسة شملان بغية الاطلاع على اوضاع الشرق الأوسط عن كثب ، واستقر في بيروت ايضا الجاسوس الشيوعي البريطاني (فلبي) لخدمة السوفييت ، وبث الدعايات المسمومة في الشرق الأوسط الى ان اكتشف امره ، وكانت بيروت ايضا المركز المفضل للدعاية الناصرية

بإشراف سفير مصر عبد الحميد غالب ، كما كانت فرنسا تجد في منظمة الكتائب خير من يخدم مصالحها في المنطقة .

وهكذا اصبحت التيارات المتضاربة تسري بحرية في اجواء لبنان لتستخدم الطوائف المتباينة فيها كما تشاء وذلك ببث الدسائس واشعال نار الفتن لعلمها بأن الغلبة لمن يحسن اساليب الحرب الباردة ... وقد صدق من قال (فرق تسد) وزاد الطين بله توسع المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط ، وتآخمت اسرائيل جنوب لبنان ، وعلى الأخص نمو العلاقات المتينة التي نشأت بينهما ، إذ لا خطر اكبر على الشعب العربي من تضافر قوة الدولار بدهاء الصهاينة ، ولكن الشعب اللبناني مع الأسف لم يدرك هذا الخطر الأساسي ، ولم يعتصم بحبل الا بحبل الاتحاد الأخوي الصادق لمجابهته ، فتوغلت بين الطوائف والجاليات المختلفة بذور الفتنة ، وانفرط عقد الأخوة واصبحت تلك البقعة الزاهرة فريسة رخيصة للمنتفعين .

اسباب التفسخ

أما اذا اردنا التمعن في اسباب هذه الظواهر المؤسفة وجب علينا الاعتراف بأن طريقة تقسيم خريطة الشرق الأوسط بعد الحرب العظمى كانت تحمل بذور التفسخ والانقسام ، فعندما زالت الامبراطورية العثمانية في سنة ١٩١٨ وانسلخت عنها معظم ممتلكاتها ، تعاونت الفئات المارونية مع فرنسا للحصول على جبل لبنان ، وتوصلوا في حينه الى وضع طرابلس ووادي البقاع وصيدا وصور وميناء بيروت تحت رعاية فرنسا ، مع العلم بأن مركز ادارة تلك المناطق في زمن الاتراك كان ثابتا في عكا ودمشق وحلب ، ولم تكن تابعة لجبل لبنان قط . يجب الاضافة الى ذلك ان الشعب السوري كان يأمل ان يطبق مشروع لجنة ويلسن في المنطقة ، وهو المشروع الذي كان يحبذ منح حكم ذاتي لجبل لبنان داخل مقاطعة سورية ، ولكن الشعب السوري شاهد بمرارة بعد ذلك كيف بتر الاستعمار الدولي مناطق حيوية واقتصادية بطرابلس وصيدا وبيروت من كيان سورية ... والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان عددا لا يستهان بهم من الموالين لكنيسة الروم الأرثوذكس ومن الدروز اشتركوا حينذاك مع المسلمين السنة والشيعة لشجب القرار الذي جعل لبنان بلدا فرنسيا عربيا (فرانكو - آراب) ، شعاره أرز يحيط به علم فرنسي .

لبنان الكبير والحزازات الموجودة فيه

وبعد انشاء لبنان الكبير على النحو المذكور ظلت بعض المشاكل والحزازات قائمة ولكنها زالت نسبيا مع مرور الأيام ما بين سنتي ٤٣ - ٧٥ وعلى الأخص في عهد بشارة الخوري ورياض الصلح ، إذ ادى التفاهم بينهما الى نوع من الاستقرار الاجتماعي ، فتمّ وضع دستور البلاد على قواعد اقرتها الطوائف المختلفة ، وبدأت مظاهر الرخاء تنجلي حتى اصبحت بيروت بالتدريج مركزا اقتصاديا مرموقا ، فلجأت اليها الجموع من كل صوب حتى زاد عدد سكانها عشرة اضعاف ما كانت عليها في سنوات معدودة .

ان هذا التطور الاجتماعي والاقتصادي السريع في بلد تسود فيه الحريات كاملا يقضي عادة على توازن النمو الطبيعي فظهرت فروق شاسعة بين طبقة الأثرياء القاطنة في بيروت الكبرى ومناطق كسروان والمتن والغرب والشوف وبين سكان المنطقة المنسية وجبل أميل والبقاع كان المأمول ان تصبح بيروت تدريجيا مركزا اقتصاديا عالميا ومصرفا دوليا في قلب العالم العربي ، واذا بمؤامرة خبيثة تقضي عليها بين عشية وضحاها في سنة ١٩٧٥ . كانت آثار تلك المؤامرة واضحة ولكن العالم باسره تعامى عنها فلم يستعد لبنان لمجابهة مصدر الشر الذي كان يلاحقه ، واذكر انني عندما ذهبت لزيارة اخت لي في بيروت بعد النكسة الأولى رأيت بشكل ملفت للأنظار ان التدمير اقتصر على المصارف والفنادق وسوق الطويلة ... وهي الشرايين الرئيسية التي تغذي اقتصاد لبنان ، وكأن عملاء الشر قد تعمدوا اصابة لبنان في الصميم للقضاء على ازدهارها الناشىء .

قال جبران خليل جبران الشاعر اللبناني الأصل وهو يروي مشكلة بلاده : "ويل لشعب كل فئة فيه أمة" لقد تبلورت هذه الظاهرة جليا بعد ان حصل لبنان على استقلاله ، إذ سرعان ما قامت كل طائفة فيها بتثبيت كيانها وخدمة مصالحها مستندة على كل من يقدم لها الدعم سواء اكان السند من الداخل أو الخارج . كانت لبنان في الظاهر تمتلك كل ما تتمتع به الدول الحرة الثابتة ... إذ كان لها حكومة مركزية ، ودستور ، ومجلس نيابي ، وجيش للدفاع عنها ، وشرطة للمحافظة على الأمن فيها ، اسوة بكل الدول الحرة في العالم ... ولكن تحكم روح الطائفية والتعصب العقائدي والنزعة العشائرية والانانية الفردية جعلت من لفظ العروبة رمزا لا دليل على ثبوته في المنطقة . فلم يعد الثوب المنسق الذي ظهرت به لبنان على المسرح الدولي سوى خلعة

مهلهلة لا متانة فيها ، تتمزق أوصالها عند هبوب اقل ريح ، لتبرز اصرافا مبتورة ، ومتشابكة دون انسجام .

والدليل على ذلك هو فيما يلي :

ان الجبهة اللبنانية وهي مارونية النزعة تتضمن :

١ - الكتائب الموالية لعائلة الجميل
٢ - الأحرار بزعامة آل شمعون
٣ - جيش التحرير بزغرتا برئاسة آل فرنجية

ورغم وحدة عقائدهم الدينية شبت بينهم مرارا حزازات عدائية ثابتة . أما الاحزاب التي تنتمي الى الحركة القومية ففي مقدمتها :

١ - الحزب التقدمي الاشتراكي واغلبه من الدروز برئاسة اسرة جنبلاط
٢ - الحزب القومي السوري الاشتراكي ومعظمهم روم ارثوذوكس ومسلمون من السنة
٣ - المرابطون وهم الموالون لمبادىء عبد الناصر
٤ - الحزب الشيوعي اللبناني
٥ - البعث السوري الاشتراكي
٦ - البعث العراقي الاشتراكي
٧ - حزب الأمل الشيعي .

ولا حاجة للقول بأن كل تلك الفئات لها رجالها وسلاحها واساليبها الدفاعية للمحافظة على كيانها والسيطرة على من حولها اذا دعت الحالة الى ذلك ، وقد اثبتت الظروف بأن حزب الكتائب هو اكثرها نظاما واستعدادا للقتال .

ونضيف الى من ذكرناهم اسراب اللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا الى لبنان عندما شردهم المد الصهيوني ، فوجدوا في رحابه مقرا يأويهم ، ولكن الاندماج المنشود لم يتم بينهم وبين سكان المنطقة بل ظلوا في اوكارهم متمسكين بجنسيتهم

ومبادئهم ، واستمروا في متابعة اساليبهم لتثبيت جذورهم والدفاع عن انفسهم بعدما اقتلعتهم قوى الاستعمار الصهيوني من أرض فلسطين . والى جانب هؤلاء علينا ان نذكر ايضا الأقليات الكردية والأرمن المنتشرة في ارجائها .

وبناء على ما تقدم يكفي ان يلقي المرء نظرة فاحصة على تلك الطوائف المتباينة التي جمعتها الأقدار في منطقة واحدة ليدرك ان لكل منها اساليبها وعقائدها ومصالحها الخاصة ، وان السيطرة عليها جميعا أمر غريب ، على الأخص اذا اجتذبتها المصالح الفردية والتيارات السياسية ، فحفظ الاستقرار في البلاد الناضجة يتطلب حكومة مركزية واعية مستندة على جيش موال وشرطة أمينة للمحافظة على الأمن في ارجائها . لم تكن هذه الأجهزة الادارية سليمة في لبنان ، إذ كانت العنصريات تقوم فيها بدور هدام ولا تتمسك بالحياد المنشود عند أداء وظائفها .

وبناء على ذلك اصبحت كل فئة تدرب رجالها للدفاع عن مصالحها الخاصة ، وقد ادى هذا التفكك الاجتماعي الى تفتيت وحدة الصف فتمزقت أوصال هذه الدولة الناشئة بالتدريج .

التيارات العقائدية في لبنان

لقد بدأت هذه الظواهر تسري في المجتمع اللبناني منذ منتصف الخمسينات بشكل واضح ومصدرها ضعف الحكم في المنطقة وقوة تسرب التيارات العقائدية الجارفة اليه من كل جانب ، ويجدر بنا في هذا المقام الرجوع الى منبع هذه التيارات ومسبباتها ، ففي سردها ما يفسر لنا غموض التطورات المتعاقبة ، لقد استجدت فعلا أمور متعددة في ارجاء منطقة الشرق الأوسط بعد التقسيم في سنة ١٩٤٧ أهمها :

١ – جهود اسرائيل لتثبيت قواعدها في مقرها الجديد ، وسعيها المتواصل لتوطيد جذورها من جهة ، واخماد المساعي التي ترمي الى استرداد حقوق الفلسطينيين المغتصبة من جهة اخرى .

٢ – ظهور أمريكا وروسيا الى جانب انكلترا على مسرح سياسة الشرق الأوسط بعد احداث السويس والتنافس بينهم للتوغل وبسط نفوذهم في المنطقة .

٣ – السياسة الأمريكية المزدوجة التي أدت الى الخراب عندما اهمل (دالاس)

السياسة الدولية التي اقرها الرئيس (أيزنهاور) امام الكونغرس في سنة ١٩٥٧ ، ليتبع نصائح المخابرات الأمريكية التي لم تخدم سوى الصهيونية .

٤ - فشل المفاوضات السرية التي استمرت بين عبد الناصر واسرائيل ثم اتجاهه سرا الى روسيا بعد ان يئس من اقناع الغرب بالحصول على الأسلحة اللازمة للجيش المصري من جهة ، والقرض المطلوب لإقامة السد العالي من جهة اخرى .

٥ - ونضيف الى ذلك النجاح الاعلامي الذي حصلت عليه مصر وذلك بنشر وتصدير المد الناصري الى كافة البلاد العربية باسم القومية العربية والحرية والعزة والكرامة .

٦ - واخيرا يجب ذكر نشاط الاحزاب البعثية والاشتراكية والشيوعية التي استعانت في البداية بالشعارات والاعلام الناصري لرفع اصواتها ، وتثبيت كيانها وخدمة مصالحها الخاصة من وراء الستار .

كما يجب ان لا ننسى كل الفئات التي كانت تتاجر باسم فلسطين ، وتعتبرها قميص عثمان لاثبات عروبتها واخلاصها للقضية العربية .

لم يكن من الصعب اكتشاف مجرى التيارات الخطيرة التي كانت تعتري منطقة الشرق الأوسط حينذاك ، وعلى الأخص لبنان موطن الحريات العقائدية والمذهبية والسياسية والمركز المثالي لتنظيم الخطط المرسومة ، فالمظاهرات حرة ، والجرائد صريحة ، وتهريب الأسلحة يجري على قدم وساق ، والرشوة تذر الرماد على العيون ، واغتيالات فردية تجري بين حين وحين والشرطة في سبات عميق .

النشـاط الهـدام في الاردن

لقـد لمست شـخصيـا احتـمـال وقـوع احداث خطيـرة منذ سنة ١٩٦٩ عندمـا أوفدوني كمندوبة لمجلة الأكونومست البريطانية لكتابة تقرير عن الأحوال الاجتمـاعية والاقتصادية في ايران ... كان في نيتي زيارة اختي في بيروت ، وابني في عمان ، اثناء تلك الرحلة ، واذا بالأخبار تعلن قبل سفري بيومين بأن مؤامرة لاغتيـال صاحب الجلالة الملك حسين دبرت من قبل زمرة من الفلسطينيين المتطرفين في عمـان، فأصيبت سيارته اثناء مروره قـرب مخفـر شـرطة عند شارع جـريدة الدستور ، فـقتل شخصـان اثناء المعركة ونجا الملك ، بأعجوبة وانقطعت الأخبار بعد ذلك نهائيا .... فعندمـا انتشر خبر الاعتداء شرع الجيش الأردني بالنزول من ثكناته الى ابواب العاصمة للأخذ بالثأر من زمرة المعتدين ، وامام هذ الخطر الداهم اعتصم جورج حبش القائد المتطرف لجبهة تحرير فلسطين في فندق (الأردن) وقبض على سبع رهائن أمريكية من نزلاء الفندق ، ثم اعلن رسـميا بأنه اذا دخل الجيش الأردني مدينة عمان ، فسيكون مصير الرهائن الأمريكية القتل حتما .

وبناء على ذلك بدأت المفاوضات تجري ما بين السفارة الأمريكية والقصر الملكي في الحمر ، وقائد القوات المسلحة الأردنية في المعسكر ، وجورج حبش في الفندق ، لإنقاذ الرهائن ووضع حد لبوادر حرب أهلية حتمية في عمان - بدأت طلائع الفوضى تعم حينذاك في المدينة ، واصبح صوت الرصاص يدوي في الطرق دون انقطاع ، فالمعلوم ان أهل المخيمات مسلحون وان اغلب سكان الأردن يحملون السلاح ، وتلا ذلك انطلاق صاروخين من تل المخيمات فوقع احدهما وسط حديقة الحمر الملكية ، والآخر على مدخل قصر الأمير حسن ، فقتل الكلب الرابض في احد زوايا القصر ... وهكذا ظل الأردن مدة ثلاثة ايام طوال في عزلة تامة ، وحرب أهلية ، إذ كان المطار مغلقا والأسلاك الكهربائية والتلفونية مقطوعة والجيش على أبواب المدينة والشعب في رعب متواصل والكل يردد أين المصير ؟

في طريقي الى عمان

لقد دفعني غموض الموقف الى الاسراع في السفر للاطمئنان على الأوضاع السائدة في الاردن ، وعلى مصير ولدي الكابتن فلاح الذي كان احد طياري مؤسسة عالية ، ولكن عندما حلقت الطائرة بنا في سماء لندن علمت من قائدها بأنه سيضطر للنزول بنا في بيروت لأن مطار عمان مغلق ، وقال لا علم لأحد بما يدور في الأردن . لقد ساورني القلق الشديد في حينه ، ولكن رحمة الله تجلت قبل مرور بضع ساعات على مغادرتنا لندن إذ اقبل قائد الطائرة مرة اخرى نحوي مبتسما وقال : ابشري يا أم فلاح لقد توسط العراق بين الفريقين فأوقفا اطلاق النار وسمحوا لي هاتفيا بالنزول الى مطار عمان رأسا دون المرور ببيروت ، وعند سماع هذا الخبر تنفست الصعداء وحمدت الله عز وجل على سلامة العاقبة فهو اللطيف الخبير . وعندما حلقت الطائرة بنا فوق مطار عمان وشهدت منظر الحصار الشديد حوله ايقنت ان احداثا عنيفة مرت بتلك البلاد منذ انقطاع اخبارها عن العالم ، كانت الخيم العسكرية تحيط بالمطار وكأنها تلال بيضاء ... وعندما دخلنا المبنى لم نجد في مكتب الادارة سوى ثلاثة موظفين لم تتح لهم فرصة الرجوع الى منازلهم منذ حدوث الاضطرابات - كانت قمصانهم ملتصقة بأبدانهم من شدة حرارة الجو وكان مصدر قوتهم الوحيد هو ما يجود به الجنود المرابضون حولهم والتي لا تتجاوز مقدار قرصة خبز أو كوب حليب - إذ كان الوصول الى المدينة امرا مستحيلا .

في المطـار

وبعد دخولي الى ردهة الاستقبال بادرت بالسؤال عن ولدي فلاح وعن طريقة الاتصال به هاتفيا ، فأجابني الموظف المسؤول بأن وقف اطلاق النار لم يصدر إلا قبل ساعات معدودة وان الاتصال الهاتفي لا يزال مقطوعا ، ثم اضاف ليطمئنني بأنه رأى فلاح بصحبة طاقم الطائرة عند وصولهم الى المطار ليلة الاضطرابات بالذات ، وقال انه يعتقد بأنهم وصلوا الى دورهم قبل ان تسوء الحالة في ارجاء عمان . ضاقت الدنيا في نظري من شدة القلق فخرجت من مبنى المطار الى حيث موقف سيارات النقل التي لم تستطع العبور الى المدينة نظرا لحرج الظروف .

كانت مكبرات الصوت تذيع خبر وقف اطلاق النار بين حين وآخر ، فبادرت دون وعي اخاطب زمرة السائقين الجالسين في سياراتهم قائلة : اخواني لقد اعلنت الأبواق وقف اطلاق النار فهل من بينكم من يستطيع مصاحبتي الى عمان ؟ بدا التردد على الجميع ثم تشاوروا بينهم قليلا وتقدم احدهم بعد ذلك قائلا : "اخبريني ياسيدتي الى اين تريدين الذهاب ؟" قلت : الى بيت الكابتن فلاح السعيد قرب مخفر الشرطة في شارع جريدة (الدستور). بدا الارتباك على وجه السائق ، وقال متلعثما : هناك بدأت المعركة ، ياسيدتي ، ورجال الأمن يحيطون بالمنطقة ... إذن اوصلني الى فندق عمان – فأجاب الرجل بانفعال : لا يمكنني المرور من تلك المنطقة فهناك يسكن جورج حبش ورجاله والرهائن الأمريكية ، فأنا ايضا مشغول البال على اهلي ولكنني لا اريد ان اتعرض للخطر ... واخيرا تذكرت منزل احدى صديقاتي ، وهي ارملة سفير العراق في الأردن سابقا ، وقلت له هل يمكننا الوصول الى منزل بهاء الدين نوري ؟ لم يكن المنزل المذكور بعيدا عن فندق عمان ، فتأفف السائق قليلا ولكنه ضغط على نفسه ثم قال : امرنا لله ياسيدتي هيا بنا .. وبعد ان حمل امتعتي الى السيارة توجهنا الى داخل مدينة عمان .

ان منظر مدخل مدينة عمان بتلالها وأوديتها المنبثقة تحت سمائها الصافية توحي عادة بالراحة والاطمئنان ولكنني في هذه المرة شعرت بكآبة موحشة عند دخول المدينة إذ تجلت المنطقة امامي وكأنها ساحة حرب شعواء .

كان الطريق العام مشحونا بالصخور المبعثرة والأسلاك الشائكة ، ومن حين لآخر كان بعض الملثمين يراقبون المرور من وراء الصخور القائمة على الجانبين ... وبعد مدة وجيزة ارتفعت يد فجأة من بين الصخور لإيقاف السير ثم بدا وجه ملثم وبعد برهة

اشارت اليد المنتصبة للسائق بالاستمرار في طريقه فزاولنا المسير . وهنا التفت السائق وقال وهو يضحك ملء شدقيه : لقد كنت على وشك ان اطلب منك ياسيدتي عند صعودك الى السيارة خلع القبعة عن رأسك حتى لا يعتقد المرابطون بأنك أمريكية فقد قتلت سيدتان اجنبيتان اثناء الاضطرابات الأخيرة ، وعلى اثر ذلك صرح ياسر عرفات بأنه سيحكم بالاعدام على كل من يعتدي على سيدة اجنبية فيبدو لي ان قبعتك هي التي حمتنا في هذه المرة إذ لا يمر احد من هنا دون تفتيش السيارة عند المرور .

لقد اظهرت أسفي الشديد حينذاك على ما وصلت اليه الأوضاع في الأردن فأجابني السائق بحدة : كل ما وصلنا اليه ياسيدتي هو نتيجة تصرفات سيدنا ، لقد فتح لهم ابواب بلادنا ، وفتحنا لهم بيوتنا وقلوبنا ، فانظري الآن الى ما وصلنا اليه ... لقد شعرت من هذا الحديث عظم الهوة التي فرقت بين الأشقاء في الأردن ، فوجدت من الحكمة ان لا انحيز لأي فريق بينهم بل قلت له وفي صوتي نبرة الأسى "ليس من الانصاف ياابني القاء اللوم جزافا على أي انسان ، فرأس البلاء هو الاستعمار الذي شرد البائسين ، وغرس الانشقاق في النفوس فما حيلة الملك في مثل هذه الظروف أيقفل الباب في وجه المشردين ؟

ان جلالة الملك الحسين يعتبر الأردنيين عينه اليمنى ، والفلسطينيين بالنسبة له عينه اليسرى ... ولا يهمه سوى الوفاق بين الطرفين ولكن لعنة الله على الاستعمار واصحاب الأطماع الخبيثة فهم الذين يبثون التفرقة بين ابناء الشعب الواحد .

ويبدو ان كلماتي استطاعت تهدئة خاطر السائق نوعا ما ، فاستمرّ في السير دون اثارة اعتراضات اخرى الى ان وصلنا الى منزل زوجة سفير العراق السابق بهاء الدين نوري . وعندما طرق السائق باب الدار المقفلة انبعثت من ورائها اصوات مرتعبة لتستفسر عن الطارق فأجبت بصوت مرتفع ... أنا يافضيلة . أنا عصمت السعيد . لقد وصلت من لندن ... افتحي ... وبعد برهة انفتح الباب بحذر شديد فلمحت امامي في ردهة شبه مظلمة اشباح سيدات ثلاث ينتفضن رعبا وارتباكا والكل يلهث متعثرا ... كيف ؟ كيف ... وصلتي لقد ظنناك من فئات المقاومة عندما طرقت الباب وكدنا لا نفتح ... فطيبت خواطرهن بالمزح الخفيف والقبلات وحملت الأمتعة الى الداخل قائلة : لقد وصلت الى عمان على بساط الريح لأطمئن عليكن ، وسرعان ما بدأت الواحدة بعد الأخرى تروي الأحداث الجارية ، وكيف انقطع الضوء والهاتف ، وكيف دوت اصوات الرصاص والقذائف في اجواء عمان ، الى وقت وقف اطلاق النار .

كانت روائح العفونة تنبعث من الثلاجة لانقطاع التيار الكهربائي وكان أثر حريق حديث ظاهر في حجرة الجلوس نتيجة لقذيفة طائشة أشعلت ستائر الشباك .

وشاءت الأقدار ان لا تمر اكثر من نصف ساعة من وقت وصولي الى دار السيدة فضيلة حتى تجددت الاتصالات الهاتفية فاسرعت الى الهاتف لأطمئن على ولدي ... وعندما سمع فلاح صوتي سألني بلهفة : من أين تتحدثين ياأمي ؟ قلت : من بيت فضيلة يافلاح لقد جئت للأطمئنان عليكم . قال : انني وصلت مع الطاقم الى بيتي ليلة الاضطرابات ، فنصحت زملائي بعدم مغادرة المنزل الى ان يستقر الأمن ، وبناء على ذلك بقينا مسجونين في داري دون كهرباء أو طعام سوى ما وجدناه في داخل المنزل مدة ثلاثة ايام ، والآن وصلني أمر تليفوني قبل دقائق معدودة لأتوجه مع الطاقم الى المطار للقيام بمأمورية خاصة ... انني اعتقد يا أمي بأن من الأفضل ان امر في طريقي الى منزل فضيلة لأصطحبك معنا الى المطار حتى تسافرين بأول طائرة ركاب الى بيروت لتتوجهين بعد ذلك الى ايران وفقا لمنهجك الخاص .

فعندما سمعت هذا الحديث حمدت الله على سلامته واغتنمت هذه الفرصة لأطمئن على من اعرفهم في عمان تليفونيا قبل مغادرة الأردن ... لم استطع مع الأسف الاتصال بالقصر الملكي في الحمر لانقطاع الاتصالات التليفونية ، ولكنني علمت من الأميرة فخر النساء ، زوجة سمو الأمير زيد بن الحسين ، بأن قذيفة دمرت زجاج الشباك القريب من فراشها عندما كانت جالسة ، لحسن الحظ ، في حجرة مجاورة ، واخبروني ايضا بأن قذيفة اخرى قتلت الكلب الجاثم خلف باب سمو الأمير حسن ، وان طفلته الرضيعة عاشت على الماء والسكر مدة يومين كاملين لعدم امكانية الوصول الى المدينة لشراء الحليب اللازم ، أما الدكتور عبده عزام الأستاذ المصري في جامعة الأردن فقد استطاع زيارتي مع زوجته نظرا لقرب مسكنهم من بيت فضيلة ، ويمكن تلخيص مشاعرهم في ما وصفه الدكتور عزام حين قال : ان العيش تحت أي حكم اهون من العيش في بلد تنعدم فيها السلطة ، لقد مرت بنا ساعات رهيبة ، وفي هذا الوصف الملخص ما يعبر عن عظم التوتر والخراب الذي تحدثه الحروب الأهلية في البلاد التي تعانيها ، فهي بلا شك بلاء مبين .

وصول فلاح السعيد

وبعد قليل وصل فلاح فحمدت الله عز وجل على سلامته ، ثم ودعت فضيلة

والحاضرين جميعا داعية ان يحفظهم المولى ويصلح احوال البلاد ، وتوجهت مع افراد الطاقم الى المطار ، وبعد وصولنا اليه استقل فلاح واخوانه طائرة اخرى لأداء مهمتهم الخاصة وبقيت الى ما بعد نصف الليل تقريبا انتظر وصول طائرة الركاب التي ستتجه بنا الى بيروت .

ان تلك الساعات الطويلة التي قضيتها في قاعة الانتظار في المطار اتاحت لي فرصة الاطلاع على آراء جماعة حاصرتهم الظروف بين معسكرين متنافرين ، إذ كان من بين الحاضرين من يتحيز لأعوان جورج حبش ، ومنهم من كان يناصر الجيش الأردني ، ومن بين الحاضرين ايضا فئة صامتة آثرت ان لا تشترك في الحديث ، إذ اثبتت التعليقات العلنية بأن النفوس في الشرق الأوسط ثائرة ، وان الجروح عميقة ، وان ليس للحكمة أو التروي سلطان في ميادين الحروب الأهلية ... فقوانين الغاب هي التي تسود فيها عادة بلا وعي في مثل تلك الظروف ، والوطن مع الأسف هو الذي يصبح دائما الشهيد الأكبر في النهاية .

لقد استمرت التعليقات على نفس النحو في الطائرة اللبنانية ونحن في طريقنا الى بيروت بين بعض الركاب المتحمسين ، فتأكدت بأن الدعايات المنظمة الموجهة ضد الحكومات التقليدية ما زالت تحرك مشاعر مختلف الأوساط في الشرق الأوسط وعلى الأخص مخيمات اللاجئين ، كما علمت في سير الحديث بأن مظاهرات صاخبة كانت تجتاز شوارع بيروت وتندد بالحكم الهاشمي وذلك رغم اعلان الهدنة في الأردن ورجوع الجيش الأردني الى قواعده ، مع العلم بأن سبب الأزمة الصاخبة التي عصفت بعمان مصدر مؤامرة واعتداء صريح على موكب العاهل الأردني اثناء مروره في احد شوارع عاصمة بلاده ، وقد شعرت رغم قصر اقامتي في الشرق الأوسط مدى تشعب الفتن والوشايات في ارجائه ...

في بيروت

امضيت ليلتي في بيت اختي معتزة في بيروت ، وفي صباح اليوم التالي نشرت الأخبار قيام مظاهرات صاخبة تتقدمها لافتات مثيرة ضد البيت الهاشمي فسار الموكب من مخيمات اللاجئين الى مقر السفارة الأردنية للاحتجاج ، وقد شاهدت الجماهير الشعار الأردني معفرا يجره البعض بحبل خارج مبنى السفارة .... وقد حمل السفير الأردني وولده اثناء الحصار من السفارة الى دارهما وهما في حالة اعياء شديد .

لقد شعرنا انا واختي بوجوب زيارة زوجة السفير في محنتها قبل سفري الى ايران وتقرر ان يكون ذلك في نفس النهار ... وعندما وصلنا الى دار سكن السفير في عصر اليوم التالي المذكور كان السفير لا يزال متعبا ومتأثرا من الأحداث المرهقة التي جابهته فاستقبلتنا زوجته وروت لنا ما يلي قالت :

عندما وصلت الى السفارة اخبار موكب الاحتجاج طلب السفير من المسؤولين حماية السفارة فوعده وزير الداخلية كمال جنبلاط ، خيرا وأرسل فرقة من الشرطة لاحاطة المبنى وقوفا واكتافهم متاخمة ، ولكن بشرط عدم التعرض للمتظاهرين وعدم استعمال العنف أو السلاح .

واصر السفير الأردني على الدوام في السفارة في اليوم المذكور رغم اعتراض زوجته فاصطحبه ابنه الشاب للأطمئنان عليه وعند وصولهما شاهد السفير وولده حول المبنى تجمهرا عجيبا رغم وقوف حلقة شرطة الأمن في اماكنهم بجمود ... لقد لاحظ ايضا وجود اطارات مطاط مجهزة للاشعال على بعد امتار من المبنى ، دخل السفير مسرعا الى مكتبه وطلب رأسا وزير الداخلية ليطلعه على الأوضاع السائدة فقيل له ان كمال جنبلاط اضطر الى السفر خارج لبنان بصورة مفاجئة ، وعندما طلب التحدث الى من ينوب عنه قيل له ان نائبه رافقه الى المطار لتوديعه .

بدأت اصوات الاحتجاج تتزايد بعد وصول السفير بصورة واضحة في الخارج، واقتحم وفد من المتظاهرين جدار الشرطة لمقابلة السفير ، فوقف الولد امام باب المكتب ليمنع دخولهم طالبا اليهم تسليم الأوراق التي يحملوها ، ومد ذراعيه ليسد المدخل واذا بعصى غليظة تهبط على ساعده الأيمن فانبعث منه صرخة حطمت صلابة أبيه الجالس في الغرفة المجاورة فهوى على الارض فاقد الوعي لمدة بعض دقائق ...

وهنا قفز احد اعضاء المنظمة من الأمام وشهر مسدسه قائلا لجماعته ان كل من يعتدي منكم أو يستعمل السلاح نصيبه القتل ، لقد جئنا هنا لإظهار مشاعرنا لا لنقتل الأبرياء ، كان هذا الرجل قائد الوفد في المنظمة ، فأمر بحمل السفير وولده الى سيارته وذهب معهما الى دار السفير ليطمئن على وصولهما سالمين ، واضافت حرم السفير الى ما تقدم مشاهدها الخاصة فقالت ما يلي : سمعت اصواتا مثيرة بعد ذهاب السفير الى مكتبه بحوالي ساعة ، فقمت واتجهت نحو الشرفة لأشاهد ما يجري في الخارج فرأيت في الطريق العام جموعا ثائرة تجر ورائها شعار المملكة الأردنية واشياء محطمة اخرى ، كما رأيت سيارة تتجه الى دارنا وتقف أمامها - لقد نزلت مسرعة الى

الدور الأسفل حيث باب الدار للأستفسار وإذ بجماعة تدخل منه يتصدرها رئيس المنظمة الذي كان محتضنا زوجي المرهق فركضت نحوهما دون وعي وبدأت اصرخ قائلة : "ماذا فعلتم بزوجي واين ولدي ؟ اريدهما منكم واذا بزوجي يطيب خاطري برفق قائلا "لا تعاتبيه ياعزيزتي بل اشكريه ، فلولاه لبطش بنا المتظاهرون فهو الذي حملنا اليك سالمين" ... اشكريه بالنيابة عنا جميعا .. ان الوشايات ياعزيزتي وصلت الى اقصاها فالجموع ثائرة ، وقد عمت الفوضى بشكل لا تستطيع قوى الأمن السيطرة عليها بحال من الأحوال ، ثم اردفت تقول ولدي الآن طريح الفراش والطبيب المختص يعالج ساعده المرضوض.، وعلى كل حال احمد الله على سلامتهما .

ويتبين مما تقدم درجة التوتر الذي كان سائدا حينذاك في بيروت ودرجة المرارة التي كانت تفيض في قلوب الذين تحرضهم الدعايات والوشايات والفتن التي يشنها اصحاب الأطماع للسيطرة على الرأي العام في الوطن العربي الكبير ... هذا الى جانب مكائد العدو الصهيوني الرابض الذي طالما تحين الفرص للاستفادة مع زمرة المستعمرين ومن انهيار وحدة الصف العربي .

لبنان والدعايات المختلفة

لم يكن في الشرق الأوسط مركز أصلح من لبنان لبث الدعايات ونشر العقائد فهو الشريان الرئيسي الذي تمتد اطرافه الى كافة انحاء المنطقة ويمكن ان يتم تموينه من كافة المصادر .

لقد سبق ان قلنا انه كان موطنا للحريات تتمتع في اجوائه الأقلام الحرة والمأجورة على حد سواء ، وان النشاط السياسي السافر والخفي كان يجد مرتعا للإنطلاق ، والمعلوم ايضا ان الاستعمار كان يغذي الكتائب للسيطرة على لبنان كما كان الطابور الخامس يصرف بكرم بالغ على الفئات التي تخدم الاحلام الناصرية التوسعية وذلك باسم القومية العربية والاشتراكية ، وكانت الجاسوسية الاستعمارية تبذل اعاناتها بسخاء عن طريق مؤسسة شملان لخدمة الغرب حينا ، وتغذية الاستخبارات السوفيتية حينا آخر ، بتوجيه من (كيم فيلبي) الجاسوس البريطاني المعروف واعوانه .

كما كانت المساعدات الأمريكية والصهيونية تصرف بلا حساب لتنفيذ سياسة مزدوجة خرقاء تعتمد على رأي الحكومة الرسمية حينا وعلى توجيهات ادارة

الاستخبارات الأمريكية حينا آخر .

والى جانب هؤلاء جميعا كانت الأحزاب المتطرفة وانصار الغوغائية والأقليات المتعددة الموتورة تحتضن كل من يجيد العطاء فأصبح استغلال السياسة تجارة رابحة في اسواق لبنان .

وتطورت الأمور تدريجيا بعد ذلك فأصبح الاغتيال حرفة متبعة ، كما اصبح تهريب السلاح والاتجار به بضاعة مربحة ، وقد لمست ذلك بوضوح عندما ارادت شقيقتي وزوجها ، وذلك قبل سفري الى ايران بيوم واحد ، اصطحابي الى شتورة للترفيه عن النفس بعد مرور تلك الأحداث المحزنة علينا اثناء سفرتي القصيرة التي لم تتجاوز ثلاثة ايام ... فرضخت لطلبها وذهبنا للتمتع بسكون تلك البقعة الفريدة ، واذا بشرطة الأمن توقف سيارتنا ثلاثة مرات اثناء الطريق للتفتيش ، وعلمت بعد ذلك ان اجراءات حكومية حاسمة ترغب في الحد من نشاط تهريب الأسلحة إذ اصبح يتسرب من أماكن متعددة ، وان كافة الأحزاب والأقليات في لبنان يسلحون رجالهم ولا يعتمدون على قوى الأمن للدفاع عن حقوقهم ... فلمست بشكل قاطع عظم الخطر الذي يحيط بتلك البقعة الجميلة التي اصبحت تضم في احشائها اطنانا من الأسلحة المدمرة لأناس لا يهتمون ولا يخدمون سوى مصالحهم الفردية . واكرر في هذا المقام ما كتبه جبران خليل جبران في وصف الدور الذي يلعبه التعصب العنصري في تحطيم وحدة الأمم حين قال : "ويل لأمة كل فئة فيها أمة".

ان معظم اللبنانيين يعتزون بعنصريتهم وتقاليدهم الموروثة ، ولكنهم كانوا غالبا يتعايشون بسلام مع من يجاورهم رغم وجود بعض المناوشات بينهم احيانا أسوة بما يحدث بين العشائر العربية من حين لآخر ... ولكن عندما زاد ضغط الوافدين واللاجئين الى المنطقة وبدأت التيارات السياسية والعقائدية تستغل الفروق الاجتماعية السائدة فيها تبدل الحال وتزعزعت ثقة الفئات في بعضها ، فأصبح كل منها يستمد القوة والدعم ممن يساندها من الخارج ، وبهذه الصورة تشكلت منظمات مدربة الى جانب عصابات مأجورة لمقاومة اية سلطة لا تخضع لرغباتهم .

ويبدو ان الرخاء المادي عم في لبنان نتيجة لسخاء اصحاب تلك المصالح الخفية بذر الرماد على عيون المسؤولين ... وظلت لبنان تفاخر بأنها موطن الحريات دون ادراك اقبال الخطر الداهم .

وبهذه المناسبة اروي حديثا دار بيني وبين راكب كان يجاورني في الطائرة التي

نقلتني الى لندن بعد انتهائي من زيارتي لإيران ... كان الرجل احد التجار المعروفين في لبنان ، وعندما علم بأنني تجولت في عدد من بلاد الشرق الأوسط اهتم بالسؤال عن الأردن فقال : انني اعتقد بأن الوضع خطر في الأردن . قلت له : نعم ... لا شك في ذلك ... ولكنني اظن ان الاوضاع أخطر في لبنان . نظر اليّ الرجل بدهشة ثم قال : كيف ؟ انني لا أفهم ؟ قلت : هذا تقديري الخاص إذ لو تأزم الوضع بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردني ووقع اصطدام بينهما ، لأصبحت السيطرة للغالب ، وربما تستقر الأوضاع بعد ذلك .

أما لبنان في نظري وبوضعها الحالي فهي تحت رحمة فئات متعددة متنافرة ، والسلطة المركزية مع الأسف ضعيفة جدا ... فإذا قامت بين الطوائف المختلفة احتكاكات فالأمور ستتعقد حتما ، ولا يمكن للجيش اللبناني الحالي أو رجال الأمن السيطرة على الموقف . وابتسم الرجل بإشفاق وقال : لماذا هذا التشاؤوم؟ قلت : ان تهريب الأسلحة قائم على قدم وساق ، والأقلام في الصحف والمنشورات تتراشق بشكل مثير ، وقد بدأت موجة اغتيالات عجيبة تجري علنا كحادث مقتل كامل مروة مثلا ، وفي كل تلك المظاهر ما يوحي بعدم الاطمئنان على مستقبل البلاد . ضحك الرجل عند سماع تعليقاتي واجابني قائلا : لبنان ياسيدتي يختلف عن جميع بلاد الشرق الأوسط ، واكبر الاقتصاديين اعترفوا بأنهم لا يستطيعون تفسير اسباب الرخاء الذي يعيش فيه لبنان نظرا لأمكانياته الاقتصادية المحدودة ، وانا اقول لك من جهتي بأن السر هو في الحرية التي يشعر بها الفرد في تمويل اعماله التجارية ... إذاً ما هو الضرر لو اختل الأمن قليلا نتيجة لتشاحن الجهات المختلفة التي ترغب الاستفادة من حرية الكلام والتعامل الحر في لبنان ؟ فالكل يعلم بأن امريكا تصرف ، وان روسيا تصرف ، وان عبد الناصر يصرف ، والسعودية تصرف ، والمنظمات السياسية والطوائف كلها تصرف ... لتثبيت جذورهم ولنشر دعاياتهم فيها ، فهنا هو سر رخاء لبنان وما الضرر اذا ضحت لبنان بعض رجالها في ساحة حرية التصرف والكلام ؟ لقد صعقت عند سماع هذا المنطق فقطعت الحديث قائلة : لوكان هذا رأيك فلا داعي لاستمرار النقاش ، ياسيدي فلست من انصار الحريات التي تؤدي الى اثارة العداوات والفوضى ، ولا أريد رخاء مصدره هدر الدماء . ولاشك ان هذا المنطق العقيم خطر واضح وهو الذي جر لبنان الى الهاوية مع الأسف الشديد .

دور الاعلام المصري في بث الدعايات

كانت القاهرة مقر المنظمات السرية التي تعمل خارج بلادها في الأقطار العربية ، وكان هذا الجهاز الخفي هو قاعدة البث للعقائد الناصرية في المنطقة بأسرها . كان مكونا من مجالس استشارية تديرها فئات لجأت الى مصر من اصحاب العقائد المختلفة أو من بعض الحكام المنفيين من بلادهم يساندهم رتل من احزاب المعارضة والمنتفعين فيها . كان الاعلام المصري يلجأ اليهم للبت في القرارات التوسعية التي يتطلبها التخطيط الاداري لتأمين سيطرة عبد الناصر على الوطن العربي الكبير .... فكان يقطن في ارجاء القاهرة امثال رشيد عالي الكيلاني لتنظيم انقلاب العراق ، وعبد الكريم الريفي لمراكش ، ولجنة ارتباط (FLN) لتحرير الجزائر ، وصالح بن يوسف لتونس ، والقائد ابو نوار للأردن ... ويبرهن على ذلك ما ورد على لسان رشيد عالي الكيلاني في كتاب (ربيع) للمؤلف الفرنسي "ميشان" ففيه ما يثبت ان هذا الرجل الداهية كان على اتصال وثيق بعدد من ضباط الجيش العراقي لاجراء مؤامرة تقضي على العائلة الهاشمية وظهيرها المخلص نوري السعيد ، وذلك بمساندة عبد الناصر ، وقد اعترف الرئيس المصري بعد سنوات في الاجتماع الذي تم بأن اموالا طائلة كانت ترسل عن طريق ميشيل عفلق ما بين سنتي ٥٨ – ٥٩ ولكنه تجاهل معرفة النواحي التي صرفت من اجلها تلك الاعانات المصرية .

وخلاصة القول ان اوكار تلك المنظمات السرية تمتد من موريتانيا الى اليمن عبر لبنان والكويت والبحرين وان الاتصال بالشخصيات في تلك البلاد كانت في ظاهرها تتم باسم الأخوة والقومية والاشتراكية فلم تظهر الغايات الخفية إلا بعد سنوات عندما تم انشاء الجمهورية العربية المتحدة ، وتبين جليا بأن القصد كان تحقيق امبريالية ناصرية على المنطقة بأسرها لا اتحاد متكامل تنعم كل دولة في اطاره بحريتها وسيادتها كاملة . لقد استطاع الاعلام المصري ان يستميل بالسخاء والدعايات المنظمة الرأي العام العربي وعلى الأخص الاحزاب المعارضة في الدول المجاورة ، وقد سار في ركابه ايضا عدد لا يستهان به من من اقطاب الدول العربية . كان هؤلاء جميعا يؤيدون جهرا مبادىء الحرية والقومية والاشتراكية التي اتفق عليها الجميع ، ولكن الاعلام المصري اعد الى جانب هؤلاء رتلا خامسا مدربا لتنفيذ الخطط السرية بالعنف اذا احتاج الأمر ، لذلك وكانت هذه القوة تعمل في الخفاء على الأخص في الأردن والعراق وفي اوكار منظمة .

ان السر في انتشار التيارات الهدامة بهذه الصورة المنظمة في الشرق الأوسط هو في انتهاج اساليب (جوبلز) الاعلامية في ادارة الاذاعة ونشر المطبوعات وتدريب من يستطيع غرس تلك المبادىء في المجتمع العربي . كانت الادارة تعتمد على الشباب الذي كان يأتي الى مصر للدراسة في الأزهر والجامعات الأخرى وكانت ترسل معلمين مدربين للدول العربية المجاورة ، وتدفع لهم نصف رواتبهم من الخزينة المصرية ، كما كانت تدعو ضباطا من ليبيا والسعودية والسودان لزيارة مصر للتدريب أو لمجرد التعارف . فلا غرابة اذاً ان تسري المشاعر الناصرية في نفوس الشباب والطلبة بهذه الطريقة المثالية ويتم تهيئة الجو المناسب في مجتمع تلك الدول للسيطرة عليها ، وقد استعمل الاعلام المصري الاسلوب نفسه في عدد من البلاد الأوروبية فكانت منظمات الطلاب العرب تمول عن طريق السفارة المصرية في لندن والجدير بالذكر ايضا ان مكتب المركز الثقافي الاسلامي في لندن كان في ذلك العهد مركزا لتوزيع المنشورات والمطبوعات السياسية .

ولا شك ان هذا الايحاء المركز الذي كان يتشح بشياب القومية والوحدة العربية كان يولد في النفوس قوة اندفاع جبارة وتسري الى النفوس بثقة وايمان مطلق ... فكان لا بد ان يمر زمن قبل الحكم على هذه الحقبة حتى يفند التاريخ حصيلة هذه الفترة فيقرر ما بين الكسب والخسارة وما بين ما توعد به آمال الدعاية والمقامرة وما يجب ان ينتظره الانسان من صلب الواقع – فالجهود البناءة لا يجب ان تنحرف وتعتمد على المقامرة .

الوصـــية الأخـــيرة

نوري السعيد يسبق الاحداث وينذر
بحتمية تجدد الانفجارات في الشرق الأوسط

ادلى بهذا التصريح رئيس الوزراء العراقي الى مجلة "لايف انترناشونال" الامريكية قبيل اغتياله عام ١٩٥٨ ميلادية . وان ما تضمنه من آراء هو بمثابة وصية سياسية لزعيم عربي آمن بمبادئ الغرب ... إلا ان اساليب سياسته ازاء الشرق الأوسط هوت بصرح آماله ومؤملاته فيهم .

* * *

لقد كان القرار الامريكي الصادر في اكتوبر عام ١٩٥٦ بشأن الدفاع عن الشرق الأوسط من الاحداث المثيرة في منتصف القرن العشرين . ففي خطوات متتابعة هرعت الولايات المتحدة الى إنقاذ استقلال مصر ، ثم قامت بأنذار موسكو بأنها

ستقاوم أية بادرة توسع استعماري شيوعي ، وذلك تنفيذا لبرنامج ايزنهاور ... وأخيرا اوفدت الاسطول السادس لمساندة الملك حسين بغية القضاء على فتنة الاردن .

والجدير بالذكر ان هذه الاجراءات وان اتسمت بطابع الجرأة والشجاعة بالنسبة لرجل دولة مسؤول إلا انه قد وضح الآن أنها لم تكن بالقدر المناسب والكافي لموازنة الأحداث ... وهكذا أصبحت هذه السياسة المبتورة سببا في تدهور شعبية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بصورة خطيرة مما جعل الحرج السياسي يقيد خطوات أي زعيم عربي يفكر في التعاون معها .

ويقتضي تفهم وايضاح ما سلف ان نعود الى خطاب ايزنهاور في الخامس من يناير سنة ١٩٥٧ ، وقد القاه امام الكونغرس الامريكي ووضح فيه منهاجه لمناهضة فتن الشيوعية في الشرق الأوسط . فقد ورد فيه ما نصه : "إن هذا المنهاج وحده لن يحل كل مشاكل الشرق الأوسط ... فهناك مشكلة فلسطين ، ثم علاقات اسرائيل بالبلدان العربية ، هذا بخلاف مستقبل اللاجئين العرب ... إن الامم المتحدة لشديدة الاهتمام بكل هذه المشاكل ، ونحن من جهتنا نساند الامم المتحدة" . لقد تجمدت الامور كلها مع الاسف الشديد عند هذا الحد من التصريحات إذ لم تتخذ الولايات المتحدة أو الامم المتحدة بعد ذلك أية خطوة ايجابية في هذا السبيل . ان طابع السلبية في هذا التصرف يدل دون ريب على قصر النظر ، ذلك أن المشاكل المعلقة التي اشار اليها الرئيس ايزنهاور والتي تركت بدون حل هي التي أتاحت للشيوعية موطئا لقدمها في هذا المكان ، بل وستظل مصدرا لانفجارات حتمية متكررة ما لم يتم الفصل النهائي فيها .

هذا هو واقع الامور فعلا في المنطقة بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما من إدلاء الرئيس العراقي بتصريحه والانفجارات تتكرر وتتفاقم والاحتكاك مستمر والمقدسات تمتهن والدماء مراقة والفوضى شاملة .

هذا وقد تناهى الى سمعي بأن الامريكيين قد ضاق صدرهم إزاء العرب في موضوع إسرائيل ، غير اننا إذا توخينا الحق والواقع نجد ان زعماء العرب هم الذين ضاقت صدورهم من عدم تفهم الغرب لتلك المرارة العميقة التي تحولت الى ما يشبه الداء وقد سرى في نفوس العرب ممتزجا بكيانهم ، الامر الذي انتهى بهم الى هذا الموقف إزاء يهود اسرائيل .

قد يكون ذلك قابلا للنقد إلا أنه في حد ذاته يفسر الباعث الاساسي لانسياق

العرب وإقدامهم في مواقف عدة على مغازلة الانتحار .

وقد تردد ايضا بان المشاعر الامريكية وبالتالي إزاء إسرائيل تنسب أصولها في تلك الصور التي تذكرهم بضحايا (بلسن وبوخنفالد) ولهذا الوضع ما يبرره ولكنه في حد ذاته لا صلة له أساسا بوجهة نظر العرب في قضية فلسطين . إنهم لا يشتركون في الشعور بعقدة الذنب التي دمغت الغرب من جراء أعمال هتلر ... بل على نقيض ذلك باتوا وهم يستشعرون بأنهم الضحايا لما لا يمت اليهم بأية صورة أو صلة . وعندما قررت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ تقسيم فلسطين حاربه العرب ولكنهم اذلوا وما زال الارهاب الذي شرد نصف مليون عربي من فلسطين قائما ، مسلطا على مقدراتهم ، وازاء تخلي الغرب عن العرب في هذا المقام فقد عصفت خيبة الامل بصوابهم وإذا بالشيوعية تنتهز الفرصة وتسعى وتقدم المعسول والمغريات لاستمالتهم ... وهذا هو الذي حدا بالرئيس جمال عبد الناصر الى الاقدام على شراء اسلحة سوفيتية في اواخر ١٩٥٥ بحجة رفض الغرب تزويد مصر بالاسلحة وبشروط مقبولة ... ورغم خطورة هذه الخطوة الشائكة فلن يجد أي عربي سواء وقتها بل وحتى هذه الساعة مأخذا على تصرف له مسوغاته ومبرراته المعنوية . على انه بالرغم مما اسلفنا فان القرار الذي اتخذه الرئيس عبد الناصر لا يعدو في ذاته ان يكون وليدا للعاطفة والمشاعر ، فهو غير سليم وضار بقضية العرب من الزاوية السياسية البحتة .

لقد ظفر الرئيس عبد الناصر نتيجة ذلك بتأييد عاطفي من ملايين العرب إلا انه اخفق في تقدير أمور لها اهميتها القصوى . لقد فاته أن الغرب سيقاوم تسلل النفوذ الروسي إلى الشرق الأوسط لما للمنطقة من أهمية حيوية ، وقد تتجاوز الامور ذلك المدى الى القول بأن مجرد فكرة التزام العرب جانب الحياد أمر قد لا يستسيغه منطق الغرب . لقد أساء الرئيس ايضا تقدير مدى تشابك وترابط المصالح الاقتصادية بين الغرب والشرق الاوسط ، وعلى سبيل المثال نقول انه لا توجد سوق كبرى تستوعب النفط العربي خلاف سوق الغرب . وفضلا عن كل ذلك فان ثقافته العسكرية لم تسعفه في ادراك واقع حربي محض وهو عدم استطاعة الروس اصلا الذود عن العرب إذا ما قام هؤلاء باستعداء الغرب كما فعل عبد الناصر ذلك .

لقد تحقق ذلك ايضا بعدم إقدام الروس على أية مساعدة فعالة في المحن العسكرية وقصروا نشاطهم على التهديدات اللفظية .

لقد كانت حرب السويس نتيجة متوقعة لسياسة عبد الناصر ، فكادت أن

تشعل حربا عالمية ثالثة إذ جاهرت روسيا بأنها على استعداد للتدخل ، وكان ذلك قبل تبلور سياسة امريكا بالنسبة للشرق الأوسط . لقد حفز تهديد الروس المستمر ايزنهاور إلى اتخاذ قرار فوري حذر فيه السوفييت من أي تدخل ... وأثر ذلك بادرت أمريكا تدريجيا بتحويل مراكز ثقل قواها لمناهضة أعوان الشيوعية في هذه المنطقة . وهكذا مهد عبد الناصر بصفة غير مباشرة لمزيد من مثل هذه التدخلات الاجنبية في أمور الشرق الأوسط ولو أن ظاهر الامور يضعه في مقام الضحية لاعتداء اجنبي سافر .

لقد خلقت السياسة الجديدة التي رأت الولايات المتحدة إنتهاجها مزيدا من خيبة الآمال فانعكس أثرها بصورة مباشرة على النزاع العربي الاسرائيلي ... لأن تدخل أمريكا على نطاق واسع في امور الشرق الأوسط كما اسلفنا فرض على العرب وقتها مسايرة ركب الولايات المتحدة ، وكان هناك ايضا إتجاه له مبرراته في الجبهة الغربية من الاستجابة الى الملح من مطالب اسرائيل ... كما ان ما احرزته الولايات المتحدة من نجاح ضد الشيوعية في المنطقة جعلها تعمل على معالجة مشكلة اسرائيل .

فتأسيسا على ما تقدم أصبح من الواضح الآن أن الولايات المتحدة ما زالت تعود الى مألوف تقديرها من أن مشكلة اسرائيل قضية ثانوية ، وانها تأتي في المرتبة الثانية إذا ما قيست بخطر الشيوعية ، وعلى ذلك فلا ضرر من ارجائها ، ولكن الامر في جوهره على نقيض ذلك تماما بالنسبة للجموع العربية ... فاسرائيل هي الخطر الواضح والداهم معا ، اما أمر الشيوعية فمقامها يلي ذلك . قد لا يستقيم هذا المنطق إذ ربما تثبت الاحداث بأن بغي الشيوعية أشد من عدوان اسرائيل ، ولكن إقناع العرب بمثل هذا المنطق هو ضرب من المحال . إن مشكلة إسرائيل تبدو وكأنها حظ مؤات لأعداء الغرب فسارعوا إلى تلقفه ، وقد كانوا في مسيس الحاجة إلى دمية لخدمة مآربهم ، وليس أشد فعالية في نفوس العرب من التلويح لهم بشبح إسرائيل .

لقد استطاع الملك حسين أن يصمد في الاردن بشجاعة وكفاءة وبمساندة الولايات المتحدة ... على ان الاخطار لا تزال محدقة بمركزه ، فثلثا سكان الاردن فلسطينيون موتورون ، ومجرد ذكر اسرائيل يثير في نفوسهم ضراوة النمور ، فان لم تستطع قيادة الحسين ايجاد حل لقضية فلسطين فقد لا يكتب لملكه البقاء .

والآن دعنا نتساءل : ماذا يريد العرب ؟ يبدو وكأن السؤال لا مكان له في الاعتبار الدولي ، فمصير مليون لاجئ عربي لا يحرك ساكنا في العالم ، بل أن اعضاء هيئة الامم المتحدة باتوا يقصرون في مساندتهم . إننا على البعد في بغداد ، نلمس بان

الولايات المتحدة وكذلك الدول الكبرى ذات النفوذ لم تعد تولي مطالبنا قبل اسرائيل أدنى اهتمام .

ان استشعارنا الان بتخلي الغرب عنا هو اليوم أشد حدة مما كان عليه عام ١٩٥٥ أي قبل ان يهز عبد الناصر مشاعر العالم بصفقة الاسلحة الروسية . لقد حذرنا الغرب ، نحن الذين نؤمن بمبادئه ، من الخطر الوشيك لعدم إستجابة مطالبنا حينذاك . فلم يحرك الغرب ساكنا وحلت الكارثة . ويمكن من الآن التنبؤ بتجدد الكوارث ... فان كانت إحداها قد حلت يوما نتيجة لتصرف عبد الناصر فقد تحل الأخرى كضربة شيوعية مباشرة .

"إنني كعربي ، ورغم صداقتي للغرب ، اعلنها صراحة : "لقد مجت نفسي وطفح الكيل ازاء هذه التصرفات ... ويقيني أن غالبية المسؤولين العرب يشاطرونني مرارة هذا الشعور .

إن ما قامت به الولايات المتحدة في الشرق الأوسط إلى يومنا هذا لم يكن ليزيد عن عملية (إطفائية) محدودة للقضاء على حريق عابر ... ويقيني أن اخماد الانفجار المرتقب لن يكون هينا ميسورا" .

هذا هو الآن واقع الحال فعلا في الشرق الأوسط فقد اندلعت في ارجائه النيران ويكاد ينعدم الأمل في السيطرة عليها . كل ذلك كنتيجة حتمية للسياسة المبتورة التي انتهجها ساسة الغرب تجاه قضية فلسطين .

دفاع نوري السعيد

خطاب تاريخي وبيان شامل لنوري السعيد

ان في كتابة المذكرات فائدة عظمى ... فهي تعطي صاحب الشأن فرصة تفسير اقواله وتبرير أعماله ، كما تظهر لنا شخصيته الدفينة ، ونهج تفكيره .

لم يكن نوري السعيد من بين الذين قاموا بتدوين مذكراتهم الشخصية ، إذ كانت برامج اعماله وتصريحاته تعلن فقط في الجرائد والخطابات الرسمية التي كان يلقيها اثناء الاجتماعات السياسية ... والجدير بالذكر ان الخطابات التي تحمل خط يده محدودة ، وعلى الأخص تلك التي كانت توجه الى زملائه السياسيين في امور تخص اعمال الدولة . والغريب رغم ذلك انه كان يواظب على مراسلة احفاده فلاح وعصام اسبوعيا عندما كانا يواصلان دراستهما السنوية في انكلترا ، إذ كان يهمه ان تبقى الاتصالات العائلية وثيقة ، فكان يطلعهما على كل ما يدور في بغداد ، وفي الدار اثناء غيابهما في الخارج .

كان مع الأسف لا يهتم بتنسيق الدعاية لنفسه ، مع العلم بأنها تعتبر اليوم السند والدرع والسلاح الأكبر لأقطاب السياسة في العالم ، وعندما كان يواجه الانتقاد المر احيانا في بعض ما ينشره ويذيعه المغرضون كان يبتسم باستخفاف ويقول لمن حوله : دعونا من هذا التهريج ... سيثبت لهم الزمن عكس ما يدعون .

لقد غض النظر طول حياته عن مقابلة الافتراءات الاعلامية الرخيصة التي نشأت في غضون الخمسينات بالمثل حفظا لكرامة الأمة العربية ، ولكن عندما طفح الكأس وجد من الضرورة لأول مرة في تاريخ حياته ان يقف امام المذياع ليدافع جهرا عن ماضيه وحاضره وسياسة بلاده ، وليضع حداً للتطاول المشين الذي نظمه المغرضون للقضاء على عهد ونظام حكم منير دام أربعين سنة . لقد استهل خطابه بكلمة خالدة حين قال :

"أود في بداية حديثي ان الفت انظاركم الى تلك الحقيقة التي مؤداها ان يكون لرجل الدولة الحق في ان يخاطر بممتلكاته أو بسمعته أو حتى بحياته ، ولكن لا يجوز له مطلقا المجازفة بأمن أمته أو بمصير وطنه بأي حال من الأحوال ... والى جانب ذلك يجب على الحاكم الحاذق الآمن ان يحافظ على سلامة وطنه ويحميه من المعتدين ، ويؤمن حياة كريمة لشعبه - فإذا آمن رجل الدولة بالأهداف التي أشرنا اليها فإنه سيشعر حتما براحة نفسية ، ويتقبل الافتراءات الموجهة ضده بصبر وثبات ، فحبل الكذب قصير ولا يمكن ان يحجب السحاب أشعة الشمس الساطعة .

مضمون الخطاب التاريخي المذاع من بغداد في ١٦ ديسمبر ١٩٥٦

ففي القسم الأول من الخطاب عالج نوري السعيد علاقات العراق بالاتحاد السوفييتي ثم تناول بحث علاقة العراق بالدول العربية وميثاق بغداد .

العراق والشيوعية

لقد كان العراق احدى الدول التي صوتت لقبول الاتحاد السوفييتي في عصبة الأمم وعددها ٣٤ من مجموع خمسين دولة ، وفي ذلك ما اثبت حسن نوايا العراق تجاه الشعب الروسي ، ولكن التبادل الدبلوماسي لم يتم بين القطرين لعدم وجود روابط اقتصادية أو مصالح مشتركة بينهما أسوة بالبلاد الاسكندنافية وامريكا الآتينية التي ليس لها من يمثلها في العراق رغم حسن علاقته بهم .

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية انضمت روسيا الى الحلفاء ، واحتاجت الى مساعدات حربية ، فأرسلت لها المواد المطلوبة عن طريق البصرة ، وبناء على ذلك وصل وفد روسي الى العراق لتسهيل الشحن ، وتم على اثر ذلك التبادل الدبلوماسي بين البلدين في سنة ١٩٤٥ .

والجدير بالذكر ان الشيوعية ظهرت لأول مرة في الشرق الأوسط في فلسطين بين سنتي ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ، وقد حذّر نوري السعيد الشعب العراقي مرارا ضد اخطار الشيوعية والصهيونية ومبادئها المستوردة ، ويشهد على ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقد في مجلس الوزراء في ٢٤ و٢٥ يناير سنة ١٩٤٧ ، إذ ثبت في محاضره وجود تعاون وثيق بين الشيوعيين والصهاينة في العراق ... امثال يوسف سلمان ، وابراهيم شمّيل ، ويعقوب ، و افرايم اسحاق ، الذين قاموا ببث المبادىء الهدامة بين الطلبة وقد وردت اسماؤهم في ملفات الأمن .

وعندما ظهر بوضوح ان السفارة السوفيتية اصبحت مركزا لتمويل الاضطرابات التي عصفت بالعراق قررت الحكومة العراقية قطع العلاقات الدبلوماسية بينها وبين روسيا السوفيتية فانتقل موظفو سفارتهم الى سفارة روسيا في دمشق ، ومن هناك ظل النشاط الهدام والمؤامرات الخفية تسري في المنطقة بأسرها ... ويكفينا ذكر ما قام به حزب "توده" في ايران ، وكيف اصبحت المبادىء المستوردة تهدد الأمن في تركيا .

أما الحزب الشيوعي الفرنسي فقد استطاع ان يتسرب الى الشرق الأوسط عن طريق السفارات لتمويل الخلايا الشيوعية في البلاد العربية ... وفي الوثائق السرية

التي توصلت اليها دائرة الأمن في العراق ما يثبت أن الاتصال بين الشيوعيين في اسرائيل والعراق كان متينا - ولا غرابة فيما ذكرنا ، فتاريخ روسيا منذ ايام القياصرة يبين لنا جلياً بأن غايتها القصوى هو فرض سيطرتها على المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط الى الخليج ، وقد تضاعفت جهود السوفييت على اثر اكتشاف منابع البترول فيها - لقد لمس العراق هذه الحقيقة منذ البداية ، وبناء على ذلك بادر ياسين باشا الهاشمي بوضع قانون يحرّم الشيوعية في العراق . وقد اضيف الى هذا القانون ايضا بنود اخرى تدين الصهيونية والفوضوية على حد سواء .

ومما تقدم تبين لنا بوضوح ان المد الشيوعي كان يهدد المنطقة بأسرها ، وان الحكام الواعين فيها كانوا على حذر ويشعرون بهذا الخطر الداهم على الدوام ... ولذا رحبت تركيا وايران وباكستان بمشروع الميثاق الدفاعي لاتقاء شر التوسع السوفييتي في الشرق الأوسط .

ويقول نوري السعيد بأن عناصر الشغب كانت ومازالت تبث الاشاعات المغرضة للقضاء على التضامن في الأمة العربية ... ويذكر على سبيل المثال الكذبة المشينة التي اعلنها وزير خارجية السوفييت شيبيلوف امام مجلس الأمم المتحدة يتهم فيها العراق بالاتفاق مع اسرائيل على تقسيم الأردن .

وان فيما تقدم ما يصور باختصار مشاعر السوفييت تجاه حكام العراق . وما يشنونه من دعايات هدامة للقضاء على سد منيع يعوق امتداد سطوتها على المنطقة .

حكومة عراقية وطنية

وينتقل نوري السعيد بعد ذلك الى ذكر تاريخ العراق الذي استطاع الحصول بالكفاح المخلص سنة ١٩٢٠ على حكومة وطنية تحت رعاية الملك فيصل الأول ، ثم على استقلاله بعد ابرام معاهدة ثنائية مع بريطانيا في سنة ١٩٣٠ ، وهي التي خولته الدخول في عصبة الأمم .

لم يكتف العراق بما احرزه في حينه نظرا لارتباطه بالمعاهدة الثنائية مع بريطانيا لتأمين دفاع عسكري في منطقتي الحبانية والشعيبة ، فوجد في المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة ما يسمح للدول المتجاورة ان تتحالف في تنظيم دفاع اقليمي يغنيها عن المعاهدات الثنائية . لقد رحب كل رجال السياسة في العراق

بهذا المشروع . ولكن قبل الدخول في تنفيذه أراد نوري السعيد ان يتأكد من نوع الحياد الذي تستطيع ان تعتمد عليه الأمم المتحالفة لضمان استقلالها .

فكرة ميثاق بغداد

وبناء على ذلك رافق نوري السعيد الملك فيصل الثاني اثناء زيارته لباكستان للتشاور مع حكامها في هذا الأمر في مارس سنة ١٩٥٤ ، ثم اتجه الى الهند في ٣ مارس سنة ١٩٥٤ ، وتحدث مع الباندت نهرو في موضوع انشاء كتلة محايدة قوية تجمع الهند وباكستان وافغانستان وتركيا والدول العربية تستطيع رد اي اعتداء خارجي . لقد رحبت باكستان بالفكرة ، ولكن نهرو اعتذر عن الاشتراك في مثل هذه الكتلة لسببين :

أولا : لوجود ثلاثة ملايين شيوعي داخل بلاده .
وثانيا : لقلة عدد الجيش الهندي الذي اقصى مايستطيعه هو المحافظة على الأمن داخل حدود الهند .

وعندما سأله نوري عما ينصحه بشأن المحافظة على سلامة العراق اجابه نهرو بأنه ينصح العراق بالتعاون مع من يجاورونه من اصحاب الخبرة في ميادين السياسة .

وعند رجوعه الى بغداد قدم نوري السعيد تقريرا مفصلا للسيد فاضل الجمالي الذي كان رئيسا للوزراء في حينه ، كما ارسل نسخة منه للملك سعود ، والرئيس كميل شمعون ، وكان في نيته اصطحاب نسخة منه لتقديمها للرئيس جمال عبد الناصر إذ كان ضمن برنامجه زيارة سائر البلاد العربية والاسلامية لمواصلة مساعيه .

وفجأة قامت اذاعة القاهرة بهجوم مركز على العراق دون سبب ظاهر ، فاهتز العالم العربي .

وفي تلك الفترة كان جلالة الملك فيصل الثاني قد كلف نوري السعيد في الثالث من شهر اغسطس سنة ١٩٥٤ بتشكيل وزارة جديدة . وبعد مرور بضعة ايام انتشر خبر زيارة صلاح سالم للعراق ، وهي التي كان متفقا عليها اثناء الوزارة السابقة للبحث في توطيد العلاقات بين البلدين - وصل صلاح سالم الى سرسنك وهي احد المصايف الكائنة في شمال العراق يوم ١٥ اغسطس سنة ١٩٥٤ ومعه حاشية كبيرة من الموظفين

الرسميين والصحفيين .... وفي نفس النهار وصل رئيس الوزراء صائب سلام من لبنان بصفته الشخصية .

مصر تشارك في مفاوضات الميثاق

بدأت المفاوضات في سرسنك بحضور جلالة الملك فيصل الثاني وسمو الأمير عبد الاله ولي العهد ، وحضر من الجانب المصري صلاح سالم وتوفيق قطامش ومحمود رياض . وفي تلك الجلسة اعتذر صلاح سالم عن ما قامت به الجرائد والاذاعة المصرية في حينه ، كما اعتذر عن تصريحاته الشخصية في حينه ، مدعيا بأن الصدف ارادت ان تكون زيارة الملك فيصل لباكستان في نفس الوقت الذي كانت تفكر فيه مصر في توقيع المعاهدة الثنائية التي تخول للجيش البريطاني الرجوع الى قواعده السابقة في السويس اذا حدث اي اعتداء على تركية ... وبناء على ذلك تصور الجانب المصري ان مؤامرة تحاك في باكستان لعزل مصر عن العالم العربي – ولكن عندما تم التوقيع بين مصر وبريطانيا تبين للمسؤولين في القاهرة ان تصوراتهم من نسيج الخيال ، واعلن صلاح سالم بأن مصر على استعداد لفتح صفحة جديدة من شأنها توثيق العلاقات الودية وتحقيق الآمال المشتركة في المستقبل .

ولما انتهى صلاح سالم من الكلام بدأ نوري السعيد بتوضيح موقف العراق . فبين للحاضرين جلياً بأن صلات اجتماعية واقتصادية وتاريخية ودينية تربط العراق بمن يحاور ، وان علاقات مماثلة تربطه بالبلاد العربية ، وبدأ نوري يعدد بعد ذلك الخدمات التي قدمها العراق للبلاد العربية ، إذ كان معقلا لأحرار العرب اثناء نضالهم للتحرر ، فعلى سورية ان تذكر ما فعله العراق عندما اخلى الفرنسيون ديارهم ... ولتذكر فلسطين المساعدات الدائمة التي قدمتها العراق لها في كافة المناسبات ، أما الآن فقد وصل العراق الى مرحلة حساسة بانتهاء تاريخ معاهدة سنة ١٩٣٠ الثنائية فهو يأبى ان يربط مصيره بمعاهدة ثنائية اخرى بل في نيته ان يكون التعاون بينه وبين البلاد الأجنبية مبنيا على المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة .

نوري السعيد وقضية الجلاء عن مصر

وهنا خرج نوري السعيد عن حديثه حول العراق ليتطرق الى المعاهدة الثنائية التي اجرتها مصر في قضية اخلاء قنال السويس ... قال : انه كان من الافضل تقسيم

الاتفاقية المذكورة الى قسمين :

فالاتفاقية الأولى تقتصر على انهاء الاخلاء فقط ، على ان تستند الاتفاقية الثانية الخاصة بمواجهة الاعتداء على تركية على ابرام معاهدة جماعية تستند على المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة . وعند سماع ذلك سأله صلاح سالم عن الطريقة التي يجب اتباعها للوصول الى هذه النتيجة . فأجابه نوري السعيد قائلا : ان الدول العربية مرتبطة بميثاق الضمان الاجتماعي ، فإذا استطعنا ان نقول ان هذا الميثاق بإضافة الدول المجاورة التي تربطنا بها مصالح اجتماعية واقتصادية وجغرافية كميثاق اقليمي بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة لاستطاع العراق ومصر بجرة قلم التخلص من المعاهدات الثنائية وذلك بعد الاتفاق مع انكلترا وامريكا للحصول على مساندة عسكرية قوية .

وانتهت تلك الاجتماعت في جو ودي وتم الاتفاق على النقاط التالية :

أولا : على الطرفين مراجعة ميثاق الضمان الجماعي لجعله اداة قوية للدفاع عند مواجهة الخطر ، ويحتم ذلك دراسة الموضوع عن كثب مع اجراء الاتصالات الضرورية بأمريكا وانكلترا ، ثم يعقب ذلك اجتماع آخر في شهر سبتمبر في مصر لمناقشة كافة الامور المعروضة وتؤخذ اثناء ذلك آراء ممثلي بريطانيا وامريكا قبل عرض المشروع على البلاد العربية وذلك للحصول على موافقة عامة .

ثانيا : اتفق الطرفان ايضا على مكافحة التيارات الهدامة بكافة الطرق على ان ترسل مصر الى العراق بعض الاخصائيين في هذا الشأن لتبادل المعلومات والتعاون على مكافحة تلك التيارات في كافة البلاد العربية .

والجدير بالذكر ان صلاح سالم ذهب بعد ذلك لسفارتي بريطانيا وامريكا قبل الرجوع الى مصر للتشاور مع المسؤولين فيها واخبرهم بأنه سيتصل بسفراء بريطانيا وامريكا في القاهرة عند وصوله .

الاشاعات القائمة

ويقول نوري السعيد بأن اخبارا تشير الى وجود خلافات بين اعضاء القيادة في مصر وصلت الى بغداد على اثر رجوع صلاح سالم الى القاهرة ، وايدت ذلك الخبر مصادر اعلامية اخرى ، ولكن بعد مرور عدة ايام اتصل جمال سالم تليفونيا بنوري السعيد في الصباح المبكر في بغداد يخبره ويؤكد له بأن لا اساس قط لكل ما اشيع عن خلافات قائمة بين اعضاء القيادة في مصر .

وبعد السؤال عن صحته وباقي المجاملات الاعتيادية ... اخبره بأن الرئيس عبد الناصر وسائر الأخوان ينتظرونه في القاهرة لمناقشة المقترحات المعروضة .

نوري السعيد مع عبد الناصر في القاهرة

وبناء على ذلك اتجه نوري السعيد الى مصر للتشاور في الأمور المعروضة ، ولكنه عرج في طريقه الى بيروت لمقابلة رئيس جمهورية لبنان السيد كميل شمعون ليطلعه على كافة التفاصيل ، وبعد وصوله الى القاهرة بدأت الاجتماعات مباشرة لمناقشة الموضوع بحضور الرئيس عبد الناصر وصلاح سالم ومحمود فوزي ومحمود رياض . عرض نوري السعيد امامهم آراءه بصراحة تامة ، وبين مخاوف العراق وايران وتركية من نشاط السوفييت في المنطقة ، كما اشاد بالكسب الذي ستجنيه البلاد العربية من تكاتفها مع البلاد الاسلامية لمواجهة اسرائيل وحل قضية فلسطين . كان عبد الناصر يصغي الى الحديث باهتمام ظاهر ، وبدت عليه علامات الموافقة ، ولكنه طلب التمهل حتى تنهي مصر مشاكلها الخاصة ليتسنى لها البحث بعد ذلك في هذا الموضوع ، ولما سأله نوري السعيد عن مدة الانتظار ، نظرا للظروف الاستثنائية التي يمر بها العراق ، إذ يتحتم على المسؤولين مواجهة المشاكل التي تجابهها بلاد الرافدين بسرعة نظرا لانتهاء مدة المعاهدة الثنائية فقال له :

اولا : ان موعد انتهاء المعاهدة الثنائية مع بريطانيا قريب ... ولذلك يجب على العراق ايجاد حل يحقق له اكتساب سيادة كاملة على ارض الرافدين دون الارتباط بمعاهدات ثنائية .

ومن جهة اخرى يجب الانتباه الى تفاقم الخطر الشيوعي على البلاد .... فتسرب افراد الجيش الذي كان يدربه ملاّ مصطفى البرزاني على حدود روسيا يهدد

الأمن في العراق وسيزعزع كيانه ، ثم ختم كلامه متسائلا : هل يمكن ان يكتب للبلاد العربية الاخرى البقاء عندما يتحطم العراق ؟

وعندما طرح نوري السعيد هذا السؤال طالبا تحديد زمن "للانتظار" اجابه عبد الناصر دون تردد قائلا : "انك احسن من يقدر وضع بلادك وما يحيط بها من ظروف ، وانت حر في اتخاذ الاجراءات التي تحميها من الخطر في الوقت الذي تراه مناسبا" . وتم الاجتماع بهذه الصورة من حسن التفاهم والوفاق ... وفي نهاية الجلسة اخبر نوري السعيد الرئيس جمال عبد الناصر بأنه قبل الرجوع الى بغداد سيقيم بعض الاسابيع للعلاج في لندن ثم يمر على تركية في طريقه لاجراء محادثات شاملة مع عدنان مندرس حول الظروف المحيطة ببلديهما .

والجدير بالذكر ان الرئيس عبد الناصر حضر شخصيا الى المطار يوم السفر لتوديع نوري السعيد وافترق الرجلان في سلام وعلى خير ما يرام ..

وفي هذه الفترة علم نوري السعيد بأن عدنان مندرس مدعو لزيارة القاهرة في شهر نوفمبر ، وهو التاريخ المحدد لزيارة جلالة الملك فيصل الثاني لبلاد النيل زيارة رسمية ، فنصحه بأن يذهب الى مصر ويقابل الرئيس عبد الناصر قبل وصول الملك اليها ليطلع شخصيا على تفاصيل المحادثات الجارية بينهما ، حتى لا يشك الرئيس عبد الناصر في وجود امور خفية في سجل تلك المحادثات ، مع العلم بأن كافة التقارير الرسمية كانت ترسل لجميع السفارات العربية في تركية اثناء مرور نوري السعيد بها وهو في طريقه الى بغداد ، وقد نشرتها الاذاعات والصحف ايضا في كافة ارجاء العالم .

صفاء كامل من شهر اكتوبر إلى يناير

ظلت الصلات القائمة على ما هي من صفاء من شهر اكتوبر الى شهر يناير ، فلم تعترض اية حكومة عربية على ما جاء في النشرات المشار اليها ، وكان امل التآزر يزداد كل يوم ، وفجأة أشارت الاخبار في شهر نوفمبر إلى وجود اضطرابات داخلية في مصر ، كما اذيع خبر محاكمة عدد من الاخوان المسلمين . وبناء عليه اضطرت الحكومة المصرية الى الغاء الدعوة التي كانت قد وجهتها لجلالة الملك فيصل الثاني ، وتلك التي تلقاها عدنان مندرس ايضا ... إذ كان التاريخ المحدد للدعوتين هو شهر نوفمبر بالذات .

كان نوري السعيد اثناء زيارته لتركية في شهر اكتوبر بعد رجوعه من بريطانيا قد دعا مندرس لزيارة العراق بعد الزيارة المقررة لمصر ، وهي التي اضطر الرئيس عبد الناصر ان يلغيها نظرا للاضطرابات الداخلية التي حلت في ارجائها في ذلك التاريخ .
ولما وصل الضيف في التاريخ المحدد اجرى نوري السعيد معه محادثات ثنائية لم يتعد نطاقها ما نشرته الصحف والاذاعات اثناء محادثات تركية في شهر اكتوبر ...
ولكنها اشارت فقط الى بداية التعاون بين العراق وتركية رسمياً لتأمين السلام في الشرق الأوسط ورد اي اعتداء داخلي أو خارجي عليهما اعتمادا على ما جاء في المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة .

البيان المشترك

ويذكر البيان المشترك بوضوح "ان باب الاشتراك في الميثاق مفتوح للدول الصديقة اذا ارادت ان تنضم في الوقت الذي يناسبها بشرط ان يقبلها باقي الأعضاء" وذلك حتى يتسنى لمصر الاشتراك بعد ان يتم حل مشاكلها الخاصة من جهة وعزل اسرائيل من عضوية الميثاق من جهة اخرى .

بداية الهجوم المكثف ضد العراق وتركية

تم التوقيع بين تركية والعراق كخطوة اولى على الميثاق المذكور في يناير سنة ١٩٥٥ وفجأة اكفهر جو العلاقات بعد ان كان الوئام سائدا بين الاطراف جميعا لمدة تتجاوز الشهرين ، فبدأ الهجوم المكثف يصب انواع الافتراءات المشينة على لسان الصحف والاذاعات ضد العراق وتركية .
وبهذه المناسبة علينا ان نذكر بأن الرئيس عبد الناصر نفسه كان ينوي ابرام معاهدة ثنائية مع بريطانيا تخول للجيش البريطاني الرجوع الى قاعدة السويس بعد الاخلاء في حالة الاعتداء على تركية ، ولا ننسى ايضا بأنه في حينه كان يبالغ في الاشادة بالصداقة الأزلية التي تجمع الأتراك بالعرب ... إذ كانت الاذاعة والصحافة المصرية تفيض بالثناء ومشاعر المحبة والتضامن ، كما كانت تصريحاته الشخصية وخطاباته مليئة بالمديح ، واذا بكل ذلك يتحول فجأة الى هجاء قاس بين عشية وضحاها ، ويعلم الله وحده سر هذا التحول ... إذ لا يمكن تعليله إلا ببث الوشايات المغرضة المسمومة لبث التفرقة بين الصفوف والقطيعة بين الأخوة .

ولا يزال القراء يذكرون ما ورد سابقا في خطاب عبد الناصر حين قال "ان سلامة تركية هي سلامتنا وكلانا درع لحماية اخيه ... ولا يمكن للعدو ان يقهر شعوبا تحمل ايماننا" .

المعاهدات بين العراق وتركية قبل ميثاق بغداد

وفي سياق الحديث يذكر نوري السعيد بأن ميثاق بغداد ليس بأول معاهدة تجمع بين تركية والعراق وايران ... فميثاق سعد آباد ، والاتفاقيات الاقتصادية والتجارية والسياسية السابقة التي تربط تلك البلاد ببعضها لها تواريخ ثابتة تمليها الحدود المشتركة وقد صرح نوري السعيد بذلك مرارا في السابق فقال في مؤتمر صحفي تاريخه ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦ بأن ربما لا تستطيع مصر تقدير اهمية تلك العلاقات بالنسبة للعراق . "إذ في الامكان انهاء اتفاقيات مختلفة مع مرور الأحداث وتطورات الزمن ولكن العلاقات التي تفرضها الحدود لا يمكن الغائها".

ونظرا لازدياد التوتر في العالم العربي اتفق الرأي على عقد مؤتمر عربي في القاهرة لتصفية الجو فلم ينته شيء قط ... بناء على ذلك تقرر ان يجتمع في بغداد رئيس وزراء لبنان سامي الصلح ، وهاشم الأتاسي من سورية ، وصلاح سالم من مصر ، ووليد صلاح من الأردن ، مع وفد عراقي مكون من السادة توفيق السويدي وصالح جبر واحمد مختار بابان ورفيق عارف وخليل ابراهيم ... وقد تبين اثناء ذلك بأن موضوع الخلاف منحصر بين مصر والعراق فقط ، إذ لم يعترض باقي الأعضاء على الميثاق قط .

استبداد الجانب المصري

كان صلاح سالم يصر طول مدة المناقشة بأنه لا يجوز للعراق اتخاذ اية خطوة إلا بعد الاستئذان من مصر حتى لو تعلق الأمر بكيانها وسلامتها ، متجاهلا ما قاله عبد الناصر لنوري السعيد اثناء اجتماع القاهرة "بأنه ادرى بمصالح بلاده وحر في اتخاذ ما يراه صالحا لها في الوقت المناسب" .

ظل الاعلام المصري بعد ذلك يهاجم تركية والعراق دون هوادة ، فقرر نوري السعيد ان يعرض الأمر على المجلس النيابي في ٦ فبراير ١٩٥٥ ويشرح له سياسة العراق الخارجية التي كانت سببا في اثارة سخط الحكومة المصرية لاقتناعه بأن المجلس

النيابي وعاهل البلاد هما اصحاب الرأي النهائي اولا واخيرا .

بدأ نوري السعيد خطابه بشكر السادة كميل شمعون وهاشم الأتاسي وفارس الخوري وفيضي الأتاسي على جهودهم المشكورة لإزالة ما يعكر صفو الخلافات القائمة بين مصر والعراق ... ثم تطرق الى ما استطاع ان ينجزه للمحافظة على مصالح وسلامة العراق على الصعيد الدولي إذ تمكن من ان يحقق امنية كبرى هي الغاء المعاهدة الثنائية التي تربط العراق ببريطانيا منذ سنة ١٩٣٠ ، الى جانب توثيق روابط سياسية واقتصادية ودفاعية بناءة مع الدول المجاورة اي ايران وتركية وباكستان ، وأردف يقول بأنه مازال يواصل الجهود لتحسين روابط التفاهم والمودة مع البلاد العربية الشقيقة مستندا في ذلك على مبادىء الجامعة العربية ، وميثاق الضمان الجماعي ، وميثاق الأمم المتحدة .

وهو يؤمن مخلصا بأن الوصول الى تلك الأهداف السامية يقوده الى مواصلة جهوده في سبيل تحقيق الميثاق الدفاعي المشترك الذي سمى بميثاق بغداد . وفي الخطاب المذكور ايضا يشير نوري السعيد بأن الهجوم الاعلامي الذي شنته مصر ضد العراق بدأ قبل التوقيع الثنائي على ميثاق بغداد ، فلا بد من وجود اسباب اخرى لهذا التهجم ، فالحملة الاذاعية بدأت منذ شهر مارس سنة ١٩٥٤ والتوقيع على الميثاق لم يتم إلا في شهر فبراير ١٩٥٥ ، ومن الأمور التي يجب الاشارة اليها هو ان التصويت في المجلس النيابي كان لصالح الخطوات التي اتخذها نوري السعيد في هذا السبيل بالاجماع رغم هجمات صوت العرب المتواصلة ... وكيف لا فالمكاسب التي احرزها العراق بعد توقيع الميثاق تتلخص فيما يلي :

(١) الحصول على استقلال كامل بإنهاء المعاهدة الثنائية التي ابرمها مع بريطانيا في سنة ١٩٣٠ .

(٢) استعادة السيادة على مطاري الحبانية والشعيبة .

(٣) ضمان سلامة أراضيه من اي اعتداء خارجي وذلك دون اتخاذ التزامات دفاعية خارج حدود العراق .

(٤) ضمان تعاون وثيق مع بلاد اسلامية يفوق عدد سكانها ١٣٥ مليون نسمة .

ومما لا شك فيه هو امكان استغلال هذا التضامن الوثيق لصالح فلسطين ومصر

وسائر البلاد العربية .

(٥) وليس في كافة مواد الميثاق ما يتضارب مع التزامات العراق بميثاق الضمان الجماعي أو بنود الجامعة العربية .

خدمات العراق للعالم العربي

ويشير نوري السعيد في خطابه بأن الأيام اثبتت بأن العراق لم يقصر في اي وقت من الأوقات في اداء واجباته تجاه البلاد العربية ... إذ ساهم في المحافظة على حدود سورية والأردن كلما هددتها اسرائيل ، وعندما قام العدوان الثلاثي الغاشم على مصر ابرق العراق فورا الى الحكومة المصرية معلنا استعداده للتعاون ، وبناء على ذلك وصلت برقية من وزارة الخارجية المصرية في ٢١ نوفمبر لتعبر عن عظيم تقدير مصر لموقف العراق النبيل في تلك الأزمة .

أما اعضاء ميثاق بغداد ، وهم ايران وباكستان وتركية والعراق ، فقد اغتنموا فرصة اجتماعهم في طهران برئاسة الشاه ، وحضور رئيس جمهورية باكستان اسكندر مرزا ، لإرسال احتجاجات رسمية للمسؤولين طالبين فيها سحب قوى العدوان من أرض مصر فورا ، واحترام سيادتها كاملا ، مع اخلاء سبيل جنود مصر المسجونين ... وحل قضية فلسطين .

ويجدر بنا في هذا المجال ان نذكر أن جلالة الملك فيصل الثاني حضر اجتماع رؤساء الدول العربية شخصيا عندما دعاهم الرئيس كميل شمعون للتشاور حول الأوضاع ، كما اجتمع مندوبو البلاد الاسلامية في بغداد للتشاور في معالجة الأزمة القائمة ، والجدير بالملاحظة في هذا الموضوع هو ان القرارات التي اتخذت في الاجتماعات المذكورة كانت تشبه حرفيا تلك التي اتخذتها دول ميثاق بغداد في طهران . وبناء على ما تقدم ارسل الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا رسالة الى وزارة الخارجية في العراق يعبر فيها عن تقديره العظيم للجهود المثمرة التي بذلها العراق لمساندة مصر في تلك الظروف العصيبة .

وعندما طلب الأردن من العراق معاونة عسكرية نظرا لظهور تيارات معادية فيها لإثارة الفتن والشغب ، ارسل العراق فورا فرقة عراقية تحت امرة الجيش الأردني لوضع حد للمؤامرات الخفية ، وبعد مدة سحبها العراق بطلب من الأردن ، وذلك رغم شعورنا بأن مثل تلك الأزمات لا يمكن ان تنجلي تماما إلا اذا اقتلعت اسبابها الرئيسية ،

ولا شك ان اسرائيل كانت من ورائها .

وبعد سرد ما تقدم يتسائل نوري السعيد بأنه اذا كان من الانصاف ان ينعت العراق بشتى الأوصاف المخزية في الصحف وعلى امواج الأثير ، ويتهم كذبا بما لا اساس له من الصحة ثم يقول : فليعلم كل مستمع كريم بأن كل ما يشاع عني وعن العراق لن يغير مجرى خطواتنا الوطنية وحياتنا الوطنية ولن يؤثر عليها هجمات المفترين .

ان الوسائل التي يستعملها عملاء السوء بنشر الأكاذيب والتشهير بنا ... الى جانب الاعمال التخريبية والارهابية التي تقوم بها بعض الاحزاب ، لن تحيد بنا عن الطريق القويم الذي نسلكه .

لقد اظهر التحقيق وجود عملاء السوء

لقد اطلعتم جميعا على ما اظهره التحقيق عند محاكمة محمد علي عيسى واصحابه في بغداد كما اطلع العالم اجمع على ما حدث في ليبيا والحبشة ولبنان ... ولكن ليشهد العالم بأننا رغم كل ما اصابنا لن نتخلى عن اخواننا مهما اخطأوا في حقنا ، انني لا اقول ذلك لأطيب خاطرهم خوفا من بأسهم ، وكل ما في الأمر هو ان ايماننا بأننا على حق ، وفي هذا الشعور ما يساندنا فلا يستطيع الظلم أو الاضطهاد ان يحيدنا عن الطريق الذي رسمته لنا مبادئنا الوطنية .

فلو رجعنا الى الأحداث السابقة يجب ان نروي لكم ما يرجع تاريخه الى الخطاب الذي القاه السير انطوني ايدن طالبا من العرب واسرائيل استعمال بعض اللين في المفاوضات للوصول الى حل عادل بين الطرفين .

فرحب الرئيس جمال عبد الناصر بما يتضمنه خطاب انطوني ايدن . وكان ذلك اثناء مفاوضاته مع رئيس البنك الدولي وبريطانيا والولايات المتحدة لتمويل بناء السد العالي . وفي ذات يوم طلب السفير البريطاني في العراق مقابلة نوري السعيد وأخبره بان جمال عبد الناصر يفكر في وضع حد للتوتر السائد بين العرب واسرائيل ولكنه يخشى اعتراض العراق لتلك المحاولة . وكان جواب نوري السعيد لسفير بريطانيا السير مايكل رايت ان العراق لا يمكن ان يعترض على حل عادل للقضية الفلسطينية اذا كان مقبولا من البلاد العربية ... وعلى الاخص البلاد المجاورة لفلسطين .

وبعد اسبوع ذهب سفير مصر في العراق لمقابلة نوري السعيد وطرح عليه نفس

الموضوع فكان جوابه مطابقا لما قاله للسفير البريطاني ، ولكن لزيادة تطمين الرئيس جمال عبد الناصر ارسلت الحكومة العراقية في ١٩ نوفمبر ١٩٥٥ البرقية التالية الى سفيرها في القاهرة موضحة ما يلي :

تمسك العراق بقرار الجامعة العربية

(١) بان العراق متمسك بقرار الجامعة العربية الذي يطالب بتنفيذ قرارات الامم المتحدة الخاصة بفلسطين .
(٢) العراق يوافق على أي حل ترضى به الدول الاربع التي تحيط باسرائيل وهي سورية ولبنان والاردن ومصر .
(٣) العراق مستعد للتعاون مع الرئيس جمال عبد الناصر للوصول الى حل عادل للقضية الفلسطينية .

كان الجواب على البرقية التي ارسلتها الحكومة العراقية في ١٩ نوفمبر الى سفيرها في القاهرة كما يلي : "اذ قال انه قابل الرئيس جمال عبد الناصر فاخبره بانه علم بما في البرقية من السفير المصري في العراق ... وعندما سئل عن رأي مصر في الطلب الذي تقدمت به سورية لتجديد اجتماع اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية للتشاور في أحداث المنطقة وتطوراتها ، اجاب عبد الناصر انه لا داعي في الظروف الحالية لتحديد تاريخ لمثل هذا الاجتماع اذ يكفي ان يستمر التشاور بين البلاد العربية وبعضها بعد الاطلاع على اراء بريطانيا وامريكا لوضع برنامج للمناقشة .

ويبدو مما تقدم بان جمال عبد الناصر كان يفضل دوما اجراء مفاوضات خاصة لحل مشاكله حتى في امور حيوية تتصل بصميم كيان ومصير الشرق الاوسط .

مع أنور السادات

وانتهز نوري السعيد فرصة مرور السيد انور السادات ببغداد في طريقه الى القاهرة بعد حضور المؤتمر الاسلامي في باكستان ، ليوضح له الاوضاع القائمة بصراحة تامة . فكرر الاشارة الى الدور الذي يمكن ان تلعبه روسيا في المنطقة باستغلال وجود بعض الحزازات في منطقة الشرق الاوسط . والمعلوم هو ان روسيا كانت من أول الدول التي اعترفت بالتقسيم ودعمت الصهيونية بتقديم السلاح والنفط لها اثناء الحرب ...

ولذلك يجب الحيطة في موضوع قبول السلاح من السوفييت ، إذ من المؤكد بان ليس ذلك في سبيل خدمة الحق والعدالة ولكن لتحقيق مطامع شخصية اخرى . والمهم ان لا تحدث قطيعة بين الدول الغربية ومصر ، فهو الأمر الذي ستشجعه اسرائيل بكل قواها حتى تقوي عوامل الهدم والشغب في المنطقة .

ويمكن لمصر بالصبر والثبات الحصول تدريجيا على ما تريد كما حصلت على اخلاء القنال من الاحتلال البريطاني .

ان البلاد العربية تحتاج الى اكبر عدد من الاصدقاء للحصول على ما تحتاجه لمواجهة اسرائيل ، فهي العدو الاساسي لها في المنطقة .

وحبذا لو استطعنا ازاحتها لنلقيها في احضان روسيا اذ سيكون في ذلك نهايتها ، ولابد للحذر من ان نثير الشكوك في نفوس من نطلب مساعدتهم فلاسرائيل اساليب خاصة في بث بذور الشك والقطيعة بين الفئات التي تخشى وجود التفاهم والتعاون بينها .

ضرورة اتحاد العرب لمواجهة الاعداء

كان نوري السعيد في كل تصريحاته السياسية يعلن ضرورة اتحاد العرب لمواجهة التيارات المعادية ، فالبلاد العربية مع الاسف الشديد اصبحت تبرم معاهدات ثنائية وثلاثية دون استشارة باقي الاعضاء ، وتضيف الى ذلك الهجمات والنشرات الاعلامية بما تحمله من دعايات هدامة اثبتت للعالم بان دسائس خفية في جسم الامة بلا هواده - فلم تتوقف مع الاسف عن بث ما يعكر صفو الاخوة زورا رغم الدعم المتواصل الذي كان العراق يقدمه لمصر باخلاص .

لقد اغتنمت اسرائيل فرصة وجود هذا التفكك في الجبهة العربية فقامت بهجوم مشين على مصر . واستشهد اثناءها ستون فدائيا ... وتلا ذلك هجوم وحشي آخر على عدد كبير من جنود الجيش المصري ، كما اعتدت بعد ذلك على سورية ظلما وعدوانا ويعلم ذلك الجميع . ولا يخفى ان صفقة الاسلحة التشكوسلوفاكية تمت بعد ذلك وعندما اعترض الغرب على ما قام به عبد الناصر . وقف نوري السعيد يوم ٢٩ مارس ١٩٥٦ في مجلس الاعيان مستعرضا الموقف فقال علنا : "لم يكن امام عبد الناصر نظرا للظروف المحيطة سوى اللجوء الى روسيا للمحافظة على سلامة بلاده عندما يتخلى عنه الغرب بحجة التعادل في توزيع الاسلحة ... إذ يبدو ان كلمة التعادل

في قاموس الغرب تعني تأمين تفوق اسرائيل على العرب ونحن نعترض ونعجب ونقاوم مثل هذا التصرف" .

لقد اراد نوري السعيد ان يحث انور السادات عند رجوعه الى مصر على ان يعالج الامور بالحسنى حتى تواجه مصر الاوضاع السائدة بحكمة وبالتعاون مع سائر البلاد العربية ، ولكن الامور اخذت مجرى آخر ، وأدت التصريحات الرسمية مع الاسف الى تدهور العلاقات السائدة بين مصر والغرب ، وانتهى الامر بان رفض البنك الدولي وامريكا تقديم المساعدات المالية المطلوبة لانشاء السد العالي .

سياسة المفاجآت

لم يستطع عبد الناصر ان يحافظ على رباطة جأشه لمواجهة الموقف بحكمة وروية ، فقام باعلان تأميم قناة السويس دون الاخطار أو التشاور مع أية دولة عربية .

وامام هذه التطورات المذهلة قام العراق رأسا بمساندة مصر لاقتناعه بان اسرائيل ستقوم حتما باستغلال الموقف ، فاصدرت الحكومة بيانا رسميا يوم ١٥ اغسطس ١٩٥٦ قالت فيه : "ان العراق يدرك بان اسرائيل ستستغل قضية التأميم لصالحها . فعلى البلاد العربية ان تقاوم الخطط الصهيونية التي تحاول الاستفادة من الوضع المذكور ، وعلى العرب تجاهل كل ما يفرقهم حتى لا تصل اسرائيل الى اهدافها المنشودة .

ان العراق يؤمن بان التأميم حق طبيعي لأية دولة ، ويأمل ان تسود الحكمة عند تسوية الامور ، كما يؤكد بانه سيقف الى جانب مصر الى ان تنعم بسيادتها وباستقلالها وكرامتها كاملة . وفي ١٩ اغسطس ١٩٥٦ وصلت برقية للحكومة العراقية من الرئيس جمال عبد الناصر يشكر فيها العراق على موقفه النبيل .

ولكن رغم كل هذه المساندات المخلصة التي قدمها العراق للشقيقة مصر ظل الاعلام في وادي النيل يشن هجماته باسلوب جارح وافتراء مشين ... ولا شك قط بان المصدر الذي كان يغذي تلك الفتن ينبع من مراكز الشيوعية ، من جهة ومن الصهيونية من جهة اخرى ... وقد بيننا سابقا اسباب الحرب الخفية الشعواء التي كانت هاتان الجبهتان تشنانها دوما على العراق خصوصا بعد اعلان ميثاق بغداد الذي هدد مطامعهما التوسعية ... فهل يمكن بعدما سردناه إيقاع اللوم على العراق لانه يحمي كيانه من شر المعتدين ؟ وهل يجوز محاكمة العراق لانه وضع برنامجا اقتصاديا

للانشاء والتعمير لرفع مستوى المواطن العراقي اجتماعيا وثقافيا وصرف اموال عوائد النفط لتحقيق هذه الغايات السامية ؟ وهل من الانصاف ان يلام العراق رغم ما يبذله من جهود متواصلة لتسوية قضية فلسطين بطريقة تحافظ على كرامة العرب وتحميهم من استغلال اصحاب المطامع الخفية ؟ مما لا شك فيه ان إثارة الفتن بين البلاد العربية وقطع صلات التفاهم بينها وبين الغرب وعزل الاقطار العربية عن البلاد الاسلامية التي تجاورها هو أقصى ما تهدف إليه اسرائيل .

دور فرنسا في نسيج المؤامرات

وعلينا ايضا ألا ننسى دور فرنسا في نسيج هذه المؤامرات ... فهي الدولة التي قضت على عرش فيصل الأول في سورية ... وهي التي احتلت لبنان ... وقد وقف العراق صامدا امام آمالها التوسعية في البلاد العربية ... ويشهد العالم باسره للجهود التي قام بها العراق في سبيل تحرير سورية ولبنان في حينه ... فلا عجب ان تعارض فرنسا في اقامة ميثاق بغداد وان تتكاتف مع الحزب الشيوعي فيها ومع السوفييت والصهاينة للقضاء على العراق وساسته .

ان الثورة العربية الكبرى تأسست على مبادئ الاستقلال والوحدة ، فهل نقض العراق تلك المبادئ لكي يستحق مثل تلك الهجمات ؟ وهل تبدلت القيم الى حد نعت الذين يجاهدون في سبيل سلامة البلاد العربية ووحدتها باذناب الاستعمار ... في حين يسمى من يسهل الطريق لتسرب التيارات الصهيونية والماركسية في بلاده بالوطني أو القومي ؟! يقول القرآن الكريم : "يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين" . فاذا نتعلم من هذه الآية الكريمة ؟

الوضع يحتم التضامن

ان الاخطار المحيطة بالبلاد العربية تجعلني أقول صراحة ، كعهدي بذلك طول حياتي ، بأننا تجاوزنا عن اعمال عدائية متعددة صدرت من بلاد شقيقة نرجو ان تفيق من غفوتها ... فالوضع يتطلب التضامن وتوحيد الصفوف حتى نتفادى الاخطار المحيطة ... علينا ان نتمسك بالحق ، ونحارب الباطل ، وعلى الاخص الاكاذيب الصادرة من اوكار شيوعية وصهيونية واذناب تلك الفئات الضالة .

الختـــام

يا أبنــاء العـــراق !

لقد عرفتموني في شبابي كمجاهد يؤمن ويسعى في سبيل الاستقلال ، ووحدة وتقدم البلاد العربية في وقت كان مجرد ذكر العروبة يكلف الانسان حياته . فمن سخر القدر ان نتهم اليوم بالخيانة من فئة تخضع لأوامر زمرة من المستعمرين . لقد تعرضت حياتي للاخطار مرارا ولكنني سرت قدما دون هوادة وهدفي استقلال ومجد العروبة على الدوام .

كانت اقوالي صريحة ، وسياستي واضحة ، وكنت امينا فيما اصرح وانفذ دون ان اخشى اللوم إذا اقدمت على ما اعتقده صحيحا وصائبا دون الاكتراث بما يشيعه المغرضون عني . ولا يمكن ان احيد عن طريقي طالما أؤمن بأنني على حق . ليس دفاعي عن القومية العربية امرا عابرا . فالقومية العربية هي كياني وقد نذرت نفسي لتمجيدها . فاذا كان ذلك هدفي المقدس في سن الشباب والكهولة فلا عجب ان ابقى على نفس المبدأ في شيخوختي . انني سأواصل بكل ما املك من جهد وقوة لحماية استقلال بلادي وسيادتها وسأسعى ما حييت لرفع مستوى الشعب فيها حتى يصبح العراق سندا قويا لكافة ابناء الدول العربية اينما كانوا دون تفرقة .

ويعلم الجميع بانني لا املك من حطام الدنيا ما اخشى عليه من الشيوعية ومبادئها . ولكني اقاومها بايمان واضح لثقتي بانها خطر داهم على سيادة ودين واستقلال وتقاليد بلادي .

في دوامة الأفراح والأحزان

خطوبة الملك فيصل الثاني

كنت في القاهرة استعد لجمع اوراقي قبل السفر الى باريس لتقديم اطروحتي إذ تقرر مناقشتها رسميا في شهر يوليو ١٩٥٨ ، وكان موضوع الاطروحة "عوائد النفط وتأثيرها على الحياة الاقتصادية في العراق" ، وقد بذلت في جمع المستندات اللازمة مجهودا كبيرا لكي يصبح الكتاب مرجعا كاملا يبرز بأمانة ودقة التطور الذي أحدثته عوائد النفط في ازدهار مملكة العراق .

كان لفرنسا حينذاك معهد لدراسة الحقوق الفرنسية في القاهرة إذ لم يكن الغائه قد تم بعد ان توقفت اعمال المحاكم المختلطة التي كانت تفصل في قضايا الفئات الأجنبية في مصر ... والمعلوم هو ان اللغة الفرنسية كانت تستعمل في مرافعات تلك القضايا . ونظرا لانتسابي لهذا المعهد كنت اضطر على الدوام الى السفر الى مصر لأستعين بالاساتذة والكتب قبل تقديم امتحاناتي في باريس .

وحدث ان رن جرس التليفون مرة ذات يوم ، وكانت المكالمة مع اهلي في

بغداد ، واذا بهم يطلبون رجرعي فورا الى العراق إذ تقرر دعوة خطيبة جلالة الملك فيصل الثاني لزيارة بلاد الرافدين ، وقد اختارني جلالة الملك فيصل الثاني لمرافقة عروسه اثناء اقامتها في العراق . لقد فوجئت بهذا الخبر إذ لم يكن بيني وبين موعد تقديم الاطروحة سوى اشهر معدودة وكان سبب وجودي في مصر جمع ابحاثي واوراقي للسفر رأسا الى باريس ، ورغم ذلك آثرت تأجيل سفري ولو شهرا واحدا ، تلبية لرغبة جلالته ، وبناء على ذلك تركت اوراقي ومستنداتي التي لم اكن استكملتها بعد الى حين رجوعي الى القاهرة ثانية وتوجهت فورا الى بغداد لاستقبال من اختارها الملك الحبيب .

برنامج الزيارة

كان برنامج الزيارة حافلا ، إذ كان المفروض ان يشاهد الضيوف الكرام اكثر ما يمكن من معالم بلاد كانت مهدا للحضارة العربية الاصيلة في القرون الماضية .

كانت العروس رغم حداثة سنها مثلا كريما لشابة مثالية بكمال مظهرها وحسن تصرفها ، بل كان في صفاء وجهها ورقة حديثها ما يشهد لها بالاصالة ... ولا عجب في ذلك ، فالأمير محمد علي ابراهيم من احفاد ابراهيم باشا الكبير ، ووالدتها المكرمة من سلالة خلفاء آل عثمان ، وقد توسم الجميع بعد اللقاء بأنها ستكون خير رفيقة لعاهل بلاد الرافدين .

لقد اعدت الجهات المسؤولة في العراق عدة مناسبات ومقابلات رسمية لسمو الخطيبة وآل بيتها الكرام ، واختتمت الأميرة الفاضلة التزاماتها في العاصمة بحضور دعوة حافلة في بهو امانة العاصمة حضرها صفوة من سيدات المجتمع العراقي ، وزوجات رجال الهيئات الدبلوماسية في بغداد ، كانت ترتدي ثوبا ازرق انيقاً يبرز قامة ممشوقة ، وصفاء وجه منير ، وقد حازت اعجاب الجميع برقة تصرفاتها ، وعلى الأخص عندما سمعن كلمات الشكر والترحيب التي القتها باللغة العربية الفصحى ، مع العلم انها لم تكن قد مكثت في مصر طويلا ، إذ ظلت عائلتها ، بعد تنازل الملك فاروق عن عرش مصر ، تتنقل بين تركية وفرنسا ، ولكن الأميرة أصرت في هذه المناسبة ان تبرهن على درجة اعتزازها بلغة البلاد التي ستنتسب اليها .

لقد لفت نظري ذكائها الفطري ، إذ كانت على الدوام تلقي اسئلة متعددة لتفهم تاريخ العراق والعادات والتقاليد المتوارثة ، كما تبدي اهتماما ملحوظا بالأحداث

والامور الجارية حولها .

كانت الخطوة الثانية في البرامج والمراسيم الموضوعة هي زيارة بعض العتبات المقدسة ومدينة الكوفة . لقد سبقنا اليها جلالة الملك فيصل الثاني والأمير محمد على ابراهيم وبعض افراد الحاشية – انني مازلت اذكر بتعجب وحيرة مظاهر الولاء وحماس الشعب عند الترحيب بجلالته اثناء مروره في الطرق العامة . كان التصفيق والهتافات والزغاريد الرنانة تملأ الاجواء دون انقطاع ، والجموع تتسابق لرؤية موكب السيارات الملكية عند مقاطع الطرق المتعددة ، وهكذا طغت امواج الفرح على الشعب بأسره في كل مكان .

أمنية رجل مسن

كانت سيدات البيت الهاشمي الكريم محجبات ، وقد اتبعت الأميرة (فاضلة) تلك العادة المألوفة عند زيارة العتبات المقدسة ، وحدث خلال هذه الرحلة ان اضطرت سيارة الأميرة الى الوقوف في احد اماكن تقاطع الطرق ، واذا برجل مسن يخترق الجموع المكتظة على جانبي الطريق ويتجه نحو السيارة صائحا بلهفة ومتحديا شرطة المرور : "دعوني اتمتع برؤية عروس فيصل ... دعوني ارى وجهها ... ان احدى قدمي على حافة قبري ... بل ربما لم تتح لي فرصة رؤيتها مرة اخرى ... دعوني اراها" – كانت الأميرة تتوسط المقاعد الخلفية للسيارة وكانت الملكة نفيسة على يمينها ، وكنت جالسة على يسارها ، كان الرجل على بعد خطوة من السيارة ، فأشرت له بالابتعاد من النافذة ونزل الشرطي الجالس الى جانب السائق لإبعاده ، ولكن سرعان ما مدت الملكة نفيسة يدها نحو الأميرة لتنتزع الوشاح الذي كان يغطي وجهها الصبوح ، ثم قالت بصوت مسموع يفيض حماسة "هذه امنية رجل مسن ، فابتسمي له ياابنتي العزيزة" – كنت اتمنى ان يراك الشعب بأسره وان يسعد الجميع بلقائك ... فابتسمت الأميرة للرجل المسن وعندما تحركت السيارة رفع الرجل يداه الى السماء داعيا للخطيبين بالسعادة والهناء ، ومازالت اذكر بمرارة هذا الموقف المؤثر بعد ان طوت الأيام بشائر الأفراح وأمنية الجدة في لهيب المقدر ، وآتون ١٤ تموز ... وما الذكريات سوى صدى السنين الحاكي .

اطمئنان وامتنان

كان الموكب الملكي قد سبقنا الى الكوفة ... وقيل لنا عند وصولنا الى المدينة ان الشعب من شدة الحماس كاد يحمل سيارة المليك لولا تدخل الشرطة ، كما ظلت الهتافات الداوية تحيط به اينما حل . ولما دخلنا الى بهو الاستراحة في الكوفة وجدنا سائر افراد العائلة المالكة في الانتظار .

كان الأمير محمد علي ابراهيم مسترخيا على مقعد في جانب الحجرة ، وسمعته يردد بصوت مسموع الحمد لله ... الحمد لله ... فقدمت له التحية ، واذا به يطلب مني الجلوس على مقعد مقابل ، ثم اسرني بهدوء وباللغة التركية قائلا : "الآن ياسيدتي اطمئن قلبي ... لم افهم من كلماته ما هو المقصود في حينه ، ولكنه شرح بعد ذلك ما كان يقصده فأضاف قائلا : "قد كنا ياسيدتي في قلق وحيرة كبرى قبل حضورنا الى العراق ، لأن الاخبار التي كانت ترد الينا في فرنسا عن طريق صوت العرب لم تكن تدعو الى الاطمئنان ، ولذلك طلبت زيارة العراق قبل عقد النكاح ليطمئن قلبي – اما اليوم فقد شهدت بنفسي درجة تعلق الشعب العراقي بالعروسين . ان ابنتي ولله الحمد في ايدٍ امينة ... وانا شخصيا اشكر لك اعتناءك بها كما ارجو ان تكوني لها في غيابنا نعم المرشد .

لقد تأثرت جدا عند سماع هذا الحديث لعلمي عن كثب بالدور الذي كانت تقوم به اذاعة "صوت العرب" في بث اخبار وتعليقات من شأنها اثارة الفتن والشك في نفوس المستمعين .

لقد كنت انا ايضا اثناء زياراتي المتعددة لمصر اشكو من تطاول دوائر الاعلام على حكام العراق ... إذ كانت السياسية الناصرية حينذاك تسعى الى فرض سلطتها على كافة الدول العربية وتطعن جزافا في كل دولة عربية لا تسير في ركابها ، كانت المنشورات والمقالات وتعليقات الاذاعة تتمادى في شجب ميثاق بغداد وتصرفات الحكومة العراقية على الأخص بعد ان تم الاتحاد الثنائي بين مصر وسورية ... ويكفي ان نذكر الخطاب الرنان الذي القاه الرئيس جمال عبد الناصر داخل المسجد الأموي عند زيارته لدمشق بعد الاتحاد حين قال في سياق الخطبة بتهكم ظاهر : ارى امامي عروشا تهتز تحت من يجلس عليها ... ولا شك ان صدى مثل هذه الحملات الهدامة كانت تسري في أجواء العالم بأسره ... وبناء على ذلك رأيت من الحكمة ان لا ازعزع بوادر الاطمئنان التي تسربت الى قلب النبيل محمد علي ابراهيم على اثر هذه الرحلة .

فأجبته بهدوء وثبات ، الحمد لله ياسمو الأمير ... لقد شاهدت الاوضاع بنفسك ... قاتل الله الدعايات المغرضة .

زيارة مدينة البصرة

كانت زيارة الضيوف الكرام للبصرة من اروع مناسبات البرنامج إذ ضمت الى جانب حفلة استقبال رائعة للسيدات ورحلة مائية ممتعة على الباخرة الملكية من البصرة الى الفاو .

لقد استطاعت الأميرة برقة ابتسامتها وحسن استقبالها للسيدات اللواتي حضرن الحفلة ان تحوز على اعجاب الجميع ، فبدت كالزهرة اليانعة في ثوبها الأنيق ... وكان لكلمة الشكر والترحيب التي القتها على الحاضرات باللغة العربية الفصحى وقع جميل على نفوس الحاضرات .

وبعد انتهاء الحفلة اتجهت الأميرة وآلها الكرام الى الميناء لركوب الباخرة في رحلة عائلية جميلة توحي بالراحة والسعادة والاطمئنان .

كان عدد ركاب الباخرة محدودا ويقتصر على جلالة الملك فيصل الثاني وسمو الأمير عبد الاله وحاشيتهما ثم جلالة الملكة نفيسة جدة الملك وكريمتها سمو الأميرة عابدية ، ومن جهة اخرى كانت سمو الأميرة فاضلة في صحبة والدها سمو النبيل محمد علي ابراهيم ، ووالدتها الموقرة سمو الأميرة هانزادة ، وكان في معية جلالته ، عدا المرافقين ، السيد تحسين قدري والسيد عبدالله بكر .

اما مهمتي ومهمة السيدة الفاضلة زوجة السيد عبد الله بكر فكانت مصاحبة ورعاية الخطيبين اثناء الرحلة ... إذ كانت هذه النزهة البحرية هي المناسبة الوحيدة التي اتيحت للخطيبين العزيزين للتعارف والتفاهم دون الارتباط بالرسميات المعتادة .

على الباخرة الملكية

اجتمعنا على الباخرة عند الغروب اي عندما سكنت الرياح وذابت اشعة الشمس الوهاجة في طيات الأفق الصافي ، ولكن أنوار البصرة في تلك الليلة كانت كالمشعل البراق تفوق الاجرام السماوية ضياء ، كانت اصوات الموسيقى والطبل والهتافات وزغاريد النساء تنبعث الى السماء من الشاطىء القريب الى كل جانب.

كنا جميعا على سطح الباخرة ، فالنساء داخل الغرفة الزجاجية في حضرة جلالة

الملك وسمو النبيل محمد علي ابراهيم ، والرجال على سطح الباخرة في الهواء الطلق في معية سمو ولي العهد الأمير عبد الاله .

لم تكن ثمة حاجة لإضاءة المكان نظرا للأنوار البراقة التي كانت تسطع من اركان مدينة البصرة وشاطئها ، بل كان الظلام السائد في الحجرة الزجاجية التي كنا مجتمعين فيها يسمح لنا باستكشاف كل ما يدور حولنا على سطح الماء او في الأفق البعيد بوضوح ، كانت مراكب صغيرة تطوف على الموج الساكن وعليها من يعزف او يغني او يدق الطبول لتحية الضيوف ، فطلب سمو ولي العهد الأمير عبد الاله من رئيس التشريفات السيد تحسين قدري ان يجد طريقة تسمح لأحدى الفرق بالصعود الى الباخرة ليتمتع الضيوف بلون من الوان العزف المحلي .

وتصادف ان مركب الفرقة التي كانت على مقربة من الباخرة الملكية كانت تحمل جماعة من الأثوريين ، وهم سكان شمال العراق الذين لهم موسيقى ورقصات جماعية تقليدية . فصعد اعضاء الفرقة المذكورة الى مقدمة سطح الباخرة وقاموا بعرض ايقاعي بديع اثار اعجابنا جميعا ، ومازلت اذكر الدموع التي سكبتها الأميرة عابدية عندما احست بدرجة استمتاع الخطيبين والحاضرين بتلك المظاهر الشعبية الطافحة بالمحبة والولاء عندما قالت بصوت حزين : كنت اتمنى ان تكون الملكة عالية معنا اليوم ... كانت الملاحظة مؤثرة ولكن من يدري ربما اراد الله عز وجل للملكة الراحلة خيرا فاختارها قبل ان تشهد مأساة اسرتها فيما بعد ... إذ كانت من السابقين .

لقد شعرنا جميعا اثناء هذه الرحلة بدرجة الانسجام والتجاوب الروحاني بين الخطيبين العزيزين ... كان جل ما تتمناه الأميرة هو ان تتفهم بوضوح كل ما يتعلق بوطنها المقبل ، وكان جلالة الملك يشرح لها باهتمام تاريخ المنطقة واهمية هذا الساحل التاريخي الواقع على الحدود ... والباخرة تشق اليم بهدوء لتصل الى ميناء الفاو . رأيت هذه المدنية الناشئة في المهد ... وبعد سنين طويلة وصلتنا اخبار ما اصابها في أتون حروب ما بعد الثمانين ... ولكنني مازلت اذكر الماضي وارجو ان تعود للفاو مكانتها الأولى وان ينعم العراق بما كان يرجو لها فيصل واعوانه من استقرار وازدهار .

الـــوداع

وبعد رجوعنا الى بغداد بأيام معدودة حان موعد الوداع ... فوقفت السيدات

في ساحة المطار تحت خيمة خاصة اقيمت لهذا الغرض ... بينما وقف جلالة الملك والرجال في الجهة المقابلة ... وعندما آن موعد الرحيل وتم التوديع بتبادل القبلات والعناق والدعاء ارتفعت الطائرة في سماء بغداد الصافية واذا بالملكة نفيسة تخرج دون انتباه او شعور من باب الخيمة الى ساحة المطار وعيناها الشاردتان تتابعان سير الطائرة الراحلة رافعة يديها بدعاء صامت وكأنها تتوقع فراقا ليس من بعده لقاء .

المؤامرات الخفية

عندما تكون الأوطان حرما على بنيها

وبعد انتهاء برامج الزيارة وسفر الضيوف الكرام قررت الرجوع الى القاهرة لجمع الاوراق والمستندات الخاصة بأطروحتي والسفر مباشرة من مصر الى باريس لضيق الوقت ، فأرسلت جواز سفري رأسا الى السفارة المصرية للحصول على سمة الدخول ، واذا بالموظف المسؤول يخبرني بعد أيام أنه ينتظر الرد على طلبي من الدوائر المختصة في مصر ... وبناء على ذلك ذهبت لمقابلة السفير شخصيا فكان عذره ان الاجراءات الحكومية بطيئة ، وان جواب القبول سيأتي حتما بعد مدة وجيزة ، وطال الانتظار ولم يبق على موعد مناقشة الاطروحة سوى أشهر معدودة ، ولكنني علمت اثناء ذلك بأن حرم سفير العراق في مصر السيدة نصرة الخضيري ستأتي لزيارة اهلها في بغداد ، فاغتنمت الفرصة وطلبت اليها تليفونيا ان تذهب الى الشقة التي كنت اسكن فيها اثناء وجودي في القاهرة وان تحمل معها اوراقي الخاصة بالاطروحة . كانت تلك الاوراق لحسن الحظ مرتبة داخل حقيبة في حجرة المكتب ، فاستطاعت ولله الحمد ان تجدها

وتجلبها معها عند حضورها الى بغداد . لقد اثارت المعاملة الشاذة عندي ظنونا وشجونا ... وتذكرت أثناء ذلك القلق الذي كان يغمر قلب الأمير محمد علي ابراهيم عند ذكر تحامل اذاعة صوت العرب على العراق ، فسألت نفسي بغضب وبحسرة : لماذا امنع انا من الدخول الى بلد هو مسقط رأسي ؟ وبأي حق لا يصرح لي بزيارة وطني واهلي ؟ فليس لي صفة سياسية أو رسمية ، وليس لي نشاط مريب ، بل يشهد لي الجميع بأنني كنت على الدوام عضوا فعالا في الاتحاد العربي النسائي العام ، وكنا نفتخر دوما بحسن التفاهم ووحدة الصف العربي التي كانت تجمعه – كان الكل حولي يعلم بأنني سأذهب الى مصر لجمع اوراقي الخاصة – في حين كانت دوائر الأمن في المملكة العراقية تشير الى نشاط جهات متعددة في جبهة المعارضين ، وتذكر وجود عدد من الضباط المتمردين في صفوف الجيش ، وتؤكد ان بعض المعلمين في الجامعات العراقية يعتنقون مبادىء وشعارات مستوردة لأن بعض الاحزاب اصبحت تعترض علنا على نظام الحكم باسم الوطنية والعروبة .

وقد تبين الى جانب ذلك ان بعض الدوائر الدبلوماسية كانت تقوم بنشاط مريب ، وهو الامر الذي اجبر الحكومة العراقية على قطع الخطوط التليفونية عن القنصلية الفرنسية في حينه ... اما اذاعة صوت العرب فقد وصلت الى الذروة في تجريح العراق لتمسكه بميثاق بغداد وكانت تعتبره عميلا وللعرب ظلما وزورا .

تكتل المعارضة

لم يتخذ العراق حينذاك اية خطوة ايجابية ضد هذا التعدي الصارخ ، بل اعتبره المسؤولون حيئذ أزمة عابرة مصدرها تمسك عبد الناصر بالزعامة المطلقة من جهة ، ثم تكاتف عناصر المعارضة والتيارات الهدامة من جهة اخرى . لقد انتهزت تلك الأطراف جميعا فرصة ابرام ميثاق بغداد الدفاعي لتشويه سمعة العراق الوطنية والتشكيك في صدق عروبته ، وكان سكوت العراق وصبره على الاهانات والتجريح ايمانا بأن الايام ستثبت حتما اهمية هذا الحصن الذي شيده الميثاق ، والذي كانت الغاية منه وضع حد للمد الشيوعي من جهة ، وبتر المد الصهيوني من جهة اخرى . بل كان الامل المنشود هو أن يصبح هذا الميثاق مصدر سلام ورخاء وازدهار للمنطقة ، وعاملا اساسيا لتوثيق روابط اخوية صادقة بين دول اسلامية متجاورة تنعم كل منها بحرية وسيادة كاملتين .

لقد اثبتت الايام وسجل التاريخ بعد ذلك صدق تلك الظنون ، إذ استطاع

الطابور الخامس الذي اشرنا اليه ان يقتحم صفوف الجيش ودوائر التعليم ، كما استطاعت اذاعة صوت العرب ان تسمم الافكار بكافة وسائل التشهير . والجدير بالتعليق هو انه عندما اراد سفير العراق في مصر السيد ابراهيم الخضيري ان يشكو الامر الى الرئيس جمال عبد الناصر ويطلب اليه وقف هذه الحملات المهينة للأخوة العربية ، اجابه الرئيس بابتسامة باهتة تفيض دهاء بأن لأذاعة صوت العرب دائرة مستقلة لا علاقة لها بالدوائر الحكومية ، فهي تعبر عن الرأي العام العربي ، وليس للحكومة المصرية أية سلطة على هذه المؤسسة ولا تشرف على برامجها .

العملاء في كل مكان

ويجب علينا ايضا ان نشير في هذا المقام بأن كلية الحقوق العراقية كانت تنظم دراسة مسائية لمن يرغب في دراسة الحقوق من الموظفين وغيرهم . وكان من بين الاساتذة عدد من الذين الذين تدربوا على كيفية انشاء الطابور الخامس في صفوف المعلمين والتلاميذ . كان الباب مفتوحا لكل من يرغب في الانتساب مساءا للاستفادة من تلك الدراسة الاضافية . واذا بعدد من ضباط الجيش يحضر تلك المحاضرات التي اصبحت سببا في توثيق الروابط بين الجيش وعملاء الطابور الخامس في العراق . ومن بين الضباط اللامعين الذين استجابوا لهذا التيار "رفعت الحاج سري" الذي اعترف جهرا امام الزوار في الليلة التي سبقت حكم اعدامه على يد حكومة عبد الكريم قاسم حين قال : انني اذكر الآن ما ردده على مسامعي نوري السعيد قبل حدوث الانقلاب بأشهر عديدة وذلك على اثر القنبلة التي انفجرت قرب السرادق الذي كان جلالة الملك فيصل وجماعته يستعرضون منه الجيش .

تحذير نوري السعيد

لقد دعاني نوري الى مكتبه وقال لي بابتسامته المعهودة : "انني يارفعت الحاج سري اعتبرك ابن اخي ... فجميل المدفعي كان زميلي واخي في الجهاد عندما تأسس العراق ، ويعز علي ان امسك بأي سوء . لقد وصلتنا اخبار عن وجود حركات سرية في صفوفكم وهي لا توحي بالاطمئنان ، ولكننا لم نستطع الى الآن اثبات شيء بشكل قاطع . انني جئت بك اليوم الى هنا ناصحا ومحذرا ، واتمنى ان تكون الاخبار التي وصلتنا الى الآن غير صحيحة ، ولكن اذا ثبت لنا شيء عنكم في المستقبل فلا تنتظروا

منا الرحمة قط ... اما اذا استطعتم التغلب والقضاء علينا فثق يا بني بأنكم ستكونون ايضا ضحية الفئة التي تدبر الامور في الخفاء وتستغلكم جميعا ... انها الشيوعية يا بني ... انها واقفة بالمرصاد ... فلا تنس نصيحتي يا ولدي" . هذا هو ما قاله لي نوري السعيد حينذاك ... وقد تحقق ما انذرنا به الآن ، فلم نكن نعلم في حينه بأن عبد الكريم شيوعي النزعة ، بل كان من المفروض ان اتزعم انا الحركة ، لكن الامور كلها انقلبت رأسا على عقب ، فأصبحت اليوم ضحية الانقلاب كما تنبأ لي نوري السعيد وسألقى حتفي غدا .

دور رشيد عالي الكيلاني

كان العميل المريب الذي يتصل بالجيش عن طريق أعوانه في العراق هو رشيد عالي الكيلاني وذلك باعترافه شخصيا فيما دونه الكاتب الفرنسي المعروف Mechin عن رحلته في الشرق الأوسط العربي في سنة ١٩٥٧ ولا عجب في ذلك إذ كان رشيد طيلة حياته يجيد التلاعب ويخدم اي سيد يمن عليه بالسلطة او الكسب - ان في الحديث الذي سجله Mechine مع الرئيس جمال عبد الناصر من جهة ، ومع رشيد عالي الكيلاني من جهة اخرى ما يثبت الدور الايجابي الذي لعبه هذا الشخص المريب في انقلاب ١٤ تموز . ويقول هذا الكاتب الفرنسي بأنه عندما قام برحلة استكشافية للبلاد العربية في الشرق الأوسط في سنة ١٩٥٧ طلب مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر فور وصوله الى مصر ، والمعلوم ان الرئيس المصري كان على الدوام يجتهد في الاطلاع على كل ما يتعلق بالأشخاص الذين يقابلهم ، ويبدو انه عندما دار الحديث بينهما حول الشؤون العامة في البلاد العربية ورد اسم رشيد عالي الكيلاني عرضا أثناء الكلام ، فسأله الرئيس المصري بدهاء : هل تعلم شيئا عن هذا الرجل ؟ فأجاب الصحفي نعم ياسيادة الرئيس كان عهدي به من سنين طويلة اثناء انقلاب سنة ١٩٤١ عندما كان يطلب التعاون عن طريق حكومة فيشي . فقاطعه الرئيس قائلا وهل ترغب في رؤيته اليوم ؟ بدت الدهشة على وجه الصحفي فأجاب مسرعا : وهل يمكن ذلك ؟ فهو على ما اعلم في المملكة العربية السعودية ، فابتسم الرئيس واضاف : رشيد في القاهرة ياصديقي ، فإن اردت مقابلته فإنني سأرسل معك من يرافقك الى الدار ويبقى جوارك طيلة مدة المقابلة . وعلى اثر ذلك تم الاتفاق تليفونيا بين الرئيس ورشيد عالي ، فذهب الصحفي مع الضابط المرافق الى مسكن متواضع في احد أطراف الزمالك النائية .

وهناك استقبله رشيد على الباب ، وبعد التحية واستعادة بعض الذكريات القديمة سأله رشيد عن أسباب زيارته لمصر ، فأجابه الرجل بأن القاهرة هي احدى محطات الرحلة التي ينوي ان يقوم بها في الشرق الأوسط العربي ، فسأله رشيد بلهفة ، هل العراق ضمن البرنامج ؟ فأجابه الصحفي ... نعم ... وإذ برشيد يقاطعه بصوت مرتفع صائحا : "لا لا ياسيدي ... لا تذهب الى العراق ... فالوضع هناك خطر ... ثم بدأ يشرح له بأن الشعب في العراق سئم تصرفات الفئات الحاكمة وان ثورة دامية على الابواب . فسأله الرجل بلهفة : ولكن من هي العناصر التي يمكن ان تثيرها ؟ فأجابه رشيد بابتسامة خبيثة : "هو نفس الجيش الذي تعرفه ياعزيزي ... نفس الجيش الذي قام بحركة سنة ١٩٤١ - فلا تنس ياسيدي أن الضباط الأربعة الذين شنقوا حينذاك لهم اقارب واعوان في صفوف الجيش نفسه وانهم على اهبة الانتقام ... انني مازلت على اتصال دائم بهم واعتمد عليهم ... وكل منهم مستعد للقيام بدوره . واستمر الحديث بينهما على هذا النمط الى ان حان موعد الانصراف ، فأوصل رشيد ضيفه الى الباب واضاف بحماس : قائلا : شكرا على هذه الزيارة ... ولكن ياصديقي اختصر زيارتك للعراق قدر الامكان قبل ان تقلب الدولة رأسا على عقب .

النشاطات الهدامة

لم يكن رشيد عالي العنصر الفعال الوحيد لقلب نظام الحكم في العراق ، وقد اشرت فيما سبق الى الدول والاحزاب اليسارية واصحاب المصالح في المنطقة الذين ساهموا في تحطيم المناهج البناءة والسياسة الدولية الحكيمة التى تزعمها العراق في حينه ، وفي هذا المقام يجب علينا الرجوع الى الحركة الجبارة التي دارت في الخفاء واستوطنت في القاهرة لتكوين الطابور الخامس الذي اعتمد عليه الرئيس عبد الناصر للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط العربي ، من الخليج الى اقصى المغرب .

في سبيل الزعامة المطلقة

لقد استعان في تنظيم هذا الرتل بشخصيات صورية وسرية تمثل حكومات البلاد المعنية من المعارضين فيها وكان مركز اجتماعاتهم في القاهرة .

كانت مهمة كل منهم الاتصال سراً بعدد من الضباط والمعلمين المقيمين في تلك البلاد ، وكان هؤلاء مزودين بدعاية منظمة يدعمها "صوت العرب" من القاهرة لإثارة

الرأي العام ضد الحكم القائم .

وتبين من ذلك جليا أن الهدف الاساسي كان القضاء على الحكومات التقليدية في المنطقة وعلى الأخص الملكيات ، ويذكر الجميع النكتة التي كان يجهر بها الرئيس عبد الناصر احيانا عندما يتكلم عن مستقبل الحكومات في العالم فيقول : ان عهد الملوك انتهى ولن يبقى في القريب العاجل هذا العالم سوى ملك انكلترا والملوك الأربعة الذين نشاهدهم في ورق اللعب .

والجدير بالذكر ان الشخصيات الصورية التي اختارها عبد الناصر لتنفيذ هذه المهمة في تلك البلاد ، والذين ثبت نشاطاتهم فيما بعد : فهم رشيد عالي الكيلاني في العراق ، وعلي ابو نوار في الأردن ، عبد الكريم الخطابي في المغرب ، وصالح بن يوسف في تونس ، القذافي في ليبيا ، ورجال من جبهة التحرير في الجزائر وعدد من اقطاب المعارضة المعروفين في سورية ولبنان والكويت والبحرين والامارات ، فكان الموجه لهم جميعا "صوت العرب" واعضاء الطابور الخامس المدربين في الخفاء ... وهو رتل مكون من معلمين وضباط وحتى من بعض رجال الدين ، فاكتظت في حينه مكتبات بعض المساجد في انكلترا وفرنسا وسويسرا بكتب الميثاق وبالدعاية الناصرية المكثفة وشعاراتها الخلابة .

ومما لا شك فيه وما اثبته التاريخ بعد ذلك هو أن العناصر الهدامة استغلت زعامته لأغراضها الخاصة فيما بعد ، فأشعلت الفتنة ، وزجت العالم العربي في آتون الفوضى والتفسخ والانقسام الذي مازال الشرق الأوسط يعاني من اثاره الى يومنا هذا .

كانت الطريقة المتبعة للوصول الى الزعامة المطلقة مدروسة ، ومحكمة ويكفينا ان نذكر ما قاله الرئيس عبد الناصر في مناسباته الخاصة ، بعدما دبر اموره مع الجمهورية السورية والمخابرات الأمريكية ، قال : "ان الشعوب كالسجاد المفروش تحت مقاعد الحكام في بلادهم ... ويكفيني ان اجر السجاد في الوقت المناسب حتى تنقلب المقاعد ومن عليها رأسا على عقب" .

كان السند الاكبر لتلك الحركات الغوغائية في كافة البلاد العربية الاعضاء المتطرفون في احزاب المعارضة ، منهم انصار السلام ، والبعث المتطرف ، والاحزاب الوطنية الاشتراكية التي كانت تشهر اهدافا سامية للقومية العربية وتعتز بذكرها عاليا بأمل ان تسري من الآذان الى ارواح المستمعين لتدعوهم الى الثورة والنضال .

والمعلوم في هذا المقال هو ان عملية الهدم امر هين ولكن البناء او بالأحرى البعث الحقيقي يستند على قواعد ثابتة اخرى قوامها العلم والمعرفة . ان لكل خطوة حسابا فيجب اولا معرفة حقيقة الأوضاع السائدة ، ثم قابلية الشعوب المعنية وظروفها الاقتصادية والاجتماعية ، كما يستوجب معرفة درجة صلابتها وقوتها الدفاعية ودرجة استعدادها لمواجهة المصاعب . ويتحتم على الحاكم الاطلاع على الروابط الدينية والمذهبية والقومية التي توحد الاقليات المتباينة داخل البلاد وخارجها . وعلى الأخص العلاقات السياسية التي تربطهم بالبلاد المجاورة من جهة ودول العالم بأسره من جهة اخرى .

استشهاد نوري السعيد

وصل نوري السعيد في اوائل شهر تموز ١٩٥٨ الى لندن مع عائلته ، إذ كان عليه حضور اجتماع ميثاق بغداد الدوري في بريطانيا ... واذا ببرقيات من المسؤولين في بغداد تستدعيه للرجوع فورا الى العاصمة العراقية لمدة قصيرة للاشتراك في حل بعض الامور المعلقة ، على ان يصاحب بعد ذلك جلالة الملك فيصل الثاني عند سفرته الى لندن يوم ١٤ تموز ليتسنى له حضور اجتماع الميثاق المقرر .

لم يكن نوري السعيد رئيسا لوزارة العراق في ذلك الحين بل رئيسا لوزارة الاتحاد الهاشمي ولكن يبدو ان سبب استدعائه كان مهما ، الأمر الذي جعله يقرر السفر الى بغداد بهذه السرعة ، ومن غريب الصدف انه لم يكن لدى شركات الطيران طائرة ركاب في التاريخ المحدد ، إذ اخبره الوزير المفوض السيد طارق العسكري بأن الطائرة الوحيدة التي ستغادر لندن الى بغداد في اليوم المذكور هي طائرة نقل وليس بها مقاعد للركاب ، ورغم ذلك فقد اصر نوري السعيد على السفر وجلس الى جانب الطيار في تلك الرحلة ، وصدق من قال ان "المقدر لا يمحى" .

احداث ليلة ١٤ تموز

وفي ليلة ١٤ تموز وهو اليوم الذي تقرر فيه سفر جلالة الملك فيصل الى لندن تآمر بعض ضباط الفرقة الثانية ضد غازي الداغستاني ، قائدهم ، فسجنوه في حجرته في المعسكر ، واخذ القيادة عبد الكريم قاسم الذي اصبح فيما بعد حاكما للعراق . كان الداغستاني يجهل بأن عددا من مرؤوسيه كانوا من الضباط الاحرار الذين تعاهدوا في الخفاء على ابادة الحكم الملكي بانقلاب عسكري كما حدث من قبل في القطر المصري ، فاختاروا ليلة سفر جلالة الملك فيصل الى لندن لدخول الفرقة الى العاصمة للقيام بالانقلاب . ولتنفيذ الخطة الموضوعة اختار قاسم المدعو "عبد السلام عارف" ... فأرسله سرا على رأس فرقة مسلحة الى بغداد ، على ان يتجه قسم من الجنود الى مقر العائلة المالكة في قصر الرحاب لمحاصرتهم ... ويذهب القسم الآخر الى دار نوي السعيد للقضاء عليه ...

لم يكن في دار نوري السعيد في تلك الليلة سوى الباشا ... إذ كان اهل البيت يصطافون في لندن كما ذكرنا سالفا ، فالخدم في منازلهم ، ولم يكن في الحديقة او حولها سوى الحرس ، والسائق عبود ، والخبازة التي كانت تأتي عند الفجر لتشعل التنور لتجهيز الخبز الطازج للفطور .

لقد بات عبود السائق في الدار في تلك الليلة ليصحب الباشا في الصباح الباكر الى المطار ... وفيما يلي بعض ما رواه : "دق رجل باب الحديقة قبل الفجر وطلب الى الحارس الدخول لمواجهة الباشا بسرعة ، كان وجه القادم معروفا لدى الحراس ، إذ كان امامهم (وصفي طاهر) الرجل الذي شغل مركز المرافق الخاص لنوري السعيد في رئاسة الوزارة مدة طويلة .

دخل وصفي كالعادة الى الحديقة دون سؤال او استجواب ، وعندما لمح وجود عبود السائق الذي كان يعرفه من سنوات عديدة اقترب منه واسر في اذنه بما يفيد انه يريد مقابلة الباشا فورا ، وبناء على ذلك وثقة بالرجل الذي قضى في خدمة الباشا زمنا طويلا ، اصطحبه عبود الى داخل المنزل وايقظ الباشا بسرعة .

ويبدو ان وصفي قام بهذه الحركة المسرحية ليثبت للباشا ، اذا فشلت المؤامرة ، بأنه من المخلصين .

واثناء المقابلة علم الباشا من القادم ان عبد الكريم قاسم نفذ الانقلاب الذي نظمه الضباط الاحرار ، وانه ارسل فرقة بقيادة عبد السلام عارف للدخول الى

العاصمة ، كما أمـره ان يذهـب قسم منها لمحاصـرة قصر الرحاب ، على ان يتجه القسم الآخر الى صوب الكرخ للقبض على نوري السعيد ... ثم اضاف قائلا بأن فرقة مسلحة من الجنود متربصة خلف الدار وراء الاشجار على الجانب الآخر من الطريق ، وانها تستعد للهجوم على المنزل بعد مدة قصيرة ثم نصحه بالهرب فورا ... ومضى مسرعا .

مغادرة الدار

لم يكن امام نوري من الوقت ما يسمح له بتنظيم خطة للهروب ، فاستعمال السيارة من الطريق العام امر مستحيل لوجود فرقة المتآمرين خلف الاشجار ، وامام الدار نهر دجلة ...اذن الى اين المفر ؟ وفي ثوان معدودة وضع الباشا على كتفيه معطف النوم كما دس في جيوب البيجاما مسدسين استخرجهما من درج مجاور لفراشه ، وهرع مسرعا الى ساحل الحديقة . ومن حسن الصدف لمح نوري قرب الشاطىء قارب صياد مسن كان يجوب النهر يوميا في الصباح المبكر ... فناداه وأمره ان يحمله الى الضفة المقابلة ... كانت الخطة التي فكر فيها نوري هي الوصول الى الساحل المقابل والاتجاه رأسا الى وزارة الدفاع قبل ان يعبر جيش المتآمرين الجسر للوصول الى داخل المدينة ، فيأمر تليفونيا من هناك بفتح جسر العبور بعد الاتصال برئيس اركان الجيش ورؤوساء الفرق الاخرى لاحباط الانقلاب.

بدأت اصوات قنابل بعيدة تنبعث في سماء بغداد من منطقة قصر الرحاب ... ورغم اضطراب ، الصياد لظهور بوادر انقلاب فقد اذعن للأمر وطلب من نوري ان يرقد في قاع القارب ، ثم اسدل عليه شباك الصيد لحمايته حتى لا ينكشف امره ... ثم اتجه به صوب الضفة المقابلة حتى يغيب عن الانظار .

اما عبود فقد اسرع الى الجراج وجلس داخل السيارة بعد أن قفل الباب الحديدية باحكام ليتقي شر هجوم الجنود المرابطين . وقبل الشروق اقتحم الجنود دار نوري السعيد بالقنابل والرشاشات فانهزم الحراس ، وصعد المغتصبون الأدراج ، فحطموا الابواب وسالت دماء الببغاء الاليفة والكلب المدلل الصغير على سلّم باب المنزل .

تفتيش الدار

بدأ التفتيش عن نوري في كل أنحاء المنزل ومرافقه ... ففتحوا الخزائن وقلبوا الاثاث رأسا على عقب ، ثم ذهبوا الى الشاطيء فوجدوه خاليا ... واخيرا هرعوا الى الجراج اعتقادا منهم بأنه ربما غادر البيت بالسيارة قبل وصولهم الى المكان الذي كانوا يرابطون فيه ، فوجدوه مقفلا . بدأ الجنود يطرقون الباب الحديدية بشدة وهددوا بكسرها ، فاضطر عبود لفتح الباب المغلقة ... واذا بهم يحاصرونه للاستجواب بعد تفتيش اركان الجراج وداخل السيارة . نفى عبود معرفة مقر الباشا واخبرهم بأنه شخصيا دخل الجراج بعد العشاء لينام داخل السيارة بدلا من الذهاب الى منزله حتى يفيق عند الفجر ويستعد لمرافقة الباشا الى المطار .

واخيرا عندما أعيتهم الحيل ، وفشل الجنود في العثور على نوري اتصل قائدهم بالمسؤولين ليخبرهم بأن نوري السعيد استطاع الهروب وأن لا أثر له في المنطقة .

كان نوري في ذلك الوقت منبسطا في قاع القارب وفي أمان ، ولكن صدى اصوات القنابل والرشاشات التي استعملها الجنود عند الهجوم على الدار اصبحت تتردد في الفضاء فوق الضفتين فاستيقظ سكان المنطقة وهرعوا الى السواحل لمشاهدة الاحداث الطارئة ، وحينئذ شعر نوري في مخبئه بأنه اذا نزل بين هذه الجموع المكتظة على الشاطيء فسينفضح امره ، وبناء على ذلك طلب من الصياد ان يرجعه الى ضفة الكرادة على ساحل منزل مجاور لداره ، هو بيت الدكتور صالح البصام ، نظرا للعلاقة الودية التي كانت تجمع بين عائلتيهما .

في بيت الدكتور صالح البصام

لم يكن الدكتور صالح وزوجته في الدار عند وصول نوري السعيد اليها ، إذ ذهب الاثنان عند سماع خبر الانقلاب من الاذاعة ، وهجوم الثوار على قصر الرحاب ، الى منزل سمو الأميرة بديعة ، خالة الملك فيصل الثاني وزوجة الشريف حسين بن علي ، لعرض خدماتها ، إذ كان بيتهما في الجهة الاخرى .

وجد نوري عند وصوله الى الساحل عددا من الخدم ، كما التقى بشقيق الدكتور صالح السيد مرتضى ، وابن عمه صادق ... لقد اسرع الاثنان الى بيته للاطمئنان عليه عند سماع خبر الهجوم على دار نوري السعيد .

دهش الرجلان عند رؤية نوري السعيد عند الساحل ... فهرعا اليه وساعداه

على النزول من القارب وأدخلاه الى الدار واكرماه ... وبعد مدة قصيرة رجع الدكتور البصام وزوجته وبدأ التفكير فوراً في خطة لترحيل نوري الى مكان امين .

جائزة مرصودة لمن يعثر عليه

وعندما لم يسفر التفتيش عن نوري الى نتيجة بعد الهجوم على داره قامت اجراءات العثور عليه على قدم وساق ... في المنطقة بأسرها ... والى جانب ذلك بثت الاذاعة جهرا بأن جائزة قدرها عشرة الآف دينار ستصرف الى من يعثر او يدل على مقره . لقد اظهر نوري قلقه عند سماع خبر الجائزة ، إذ شاهد خدم الدكتور البصام نزوله من القارب عند وصوله الى شاطىء المنزل ... وبعد التداول بينهم تقرر في النهاية ان يجلس نوري متخفيا بين سيدتين من اهل المنزل في المقاعد الخلفية لسيارة صادق البصام ، ابن عم الدكتور ، على ان يتجه بهم بصورة طبيعية الى منزل عميد العائلة في الكاظمية . وهكذا ذهب نوري من الكرادة الى الكاظمية بين الجموع المكتظة في شوارع بغداد دون ان يلفت الانظار .

كان بود نوري ان تأخذه السيارة رأسا من الكاظمية الى حيث ترابط الفرقة الرابعة وقائدها وفيق عارف في الشمال ، ولكن خطورة الموقف لم تشجع السائق على المجازفة ... والى جانب ذلك كانت مشقة الظروف التي مرت على نوري في تلك المرحلة ، واحواله الصحية ، وسنه ، وقسوة شهر تموز ، قد انهكت قواه ... فنصحوه بالراحة والاسترخاء الى ان يهديهم التفكير الى حل آخر ... وبناء على ذلك ظل نوري في تلك الليلة في دار عميد آل البصام .

في الكاظمية

لقد اخفى صادق البصام عند وصولهم للكاظم شخصية الضيف الذي كان يصاحبه ، ولم يعلم بوجود نوري السعيد في المنزل سوى السيدة احترام زوجة السيد صادق البصام ، وهي التي اخبرتنا بالتفاصيل التالية :

كان نوري السعيد عند وصوله مرهقا ومحموما ، وكان العرق يتصبب من جبينه بغزارة ... نظرا لشدة حرارة الجو في شهر تموز وقلقه الظاهر ، ورغم ذلك كان اول ما طلبه نوري عند دخول حجرة النوم التي اختارها له صاحب الدار هو المذياع لمتابعة الاخبار الجارية ، اضافة الى بعض المناشف وكوب من الشاي . لقد زاد قلقه عند سماع

مصرع سمو الأمير عبد الاله الى جانب ما كانت تنشره الاذاعة من تفاصيل مريعة وتحريض سافر ضد رجال الحكم الهاشمي . كان الألم والأسى ظاهرين على اساريره ، ولكن بريق امل كان يذكره بالنصوص الواردة في اتفاقية الميثاق التي كانت تنص بأن على اعضاء الميثاق الاسراع في رد الامور الى نصابها اذا تعرض العراق الى اي اعتداء خارجي ... فظل يطمئن اهل المنزل مؤكدا لهم بأن طائرات اعضاء الميثاق ومن يساندهم سيأتي حتما لرد الامور الى نصابها قبل بزوغ الفجر ... اما همه الاكبر فكان الاطمئنان على مصير الملك فيصل ... إذ كان يكرر دون انقطاع السؤال عنه كلما دخل عليه اهل المنزل فيقول : هل سمعتم شيئا عن فيصل ؟ هل هو بخير ياترى ؟ بالله عليكم اخطروني فورا اذا سمعتم عنه شيئا .

الشرطة في دار البصام

وقبل الغروب بقليل طرق الباب في دار الدكتور صالح البصام ، فدخل منها عدد من الشرطة ومعهم الصياد المسن وولده ، ثم بدأ المحقق في استجواب الحاضرين .

لقد وصف الدكتور البصام ارتباكه وحيرته عندما لمح الصياد ، واعتقد بأنه فضح الامر حتما لقبض الجائزة الموعودة ، فظل واقفا الى جوار اخيه مرتضى متكئا على الحائط الخلفي ، وفوض امره لله ، نظر المحقق اليه قبل ان يجلس على مقعد مقابل ، ثم نظر الى الصياد وسأله مبتسما : هل تعرف هؤلاء يا بوي ؟ وعند سماع السؤال ارتعدت فرائص الدكتور وظن أن الامر انتهى ، واذا بالرجل المسن يهز رأسه بالنفي قائلا : "لم أرهما في حياتي ، واضاف يقول لقد سبق لك ياسيدي ان سألتني ونحن في الخارج عن نوري السعيد فأجبتك بأنني أسمع عنه فقط ولكنني لم أره ، اما هؤلاء فإنني لم اسمع عنهم ولم ارهم من قبل .

وهنا اعاد المحقق السؤال واضاف يقول : انك يا بوي تجوب دجلة كل يوم منذ الفجر ، فلا بد ان تكون رأيت شيئا جديدا اليوم في الصباح ، ثم اخرج صكا من جيبه ولوح به قائلا : امامك صك بعشرة الآف دينار يابوي ، فاعترف بما تعلم ، وهنا اطرق الرجل المسن برأسه الى الأرض ، فاضطرب الدكتور البصام وظن ان اغراء المال اثر في نفس الرجل ، واذا بالصياد يشير الى لحيته البيضاء قائلا : انظر الي ياسيدي ، اترى لحيتي وشيب رأسي ؟ ان احدى قدمي في القبر ياولدي ، كيف يمكنني أن أواجه ربي اذا افتريت في سبيل قبض مال حرام ؟ بالله عليك ، اعفيني عن الجواب ياسيدي ،

لقد سبق أن قلت لك بأنني لا أعلم شيئا قط ، ولم أر أحدا ممن ذكرتهم قبل الآن في حياتي ، وكفى ، ياسيدي ، كفى ، وعند سماع قول الصياد بهذه اللهجة الحاسمة تنفس الدكتور البصام الصعداء ، ولكنه ظل مرتبكا إذ كان يخشى أن يعترف أحد الخدم بما جرى عندما اتجه استجواب المحققين الى الخدم .

كان كل هؤلاء من الطبقات الفقيرة التي يمكن أن يغريها المال ، ومع ذلك لم يعترف احد منهم قط بما يمكن ان يثير أقل الشبهات على ولي نعمتهم صاحب الدار الذي لجأ اليه نوري السعيد في محنته ، وذلك رغم التحقيق الصارم والتهديد القاسي .

ان غنى النفس لا يقدر بمال صاحبه ولاشك ان في موقف الصياد والخدم في تلك الظروف العصيبة بطولة وكرامة وايمانا .

الشبهات تحوم حول اسرة البصام

وعندما انتهى التحقيق وخلا البيت من رجال الأمن والشرطة شعر البصام بوجوب اخطار ابن عمه صادق بما جرى ، إذ لمس اثناء التحقيق بأن الشبهات تحوم حول اسرة البصام ، وان منزل عميدهم في الكاظمية سوف يكون عرضة للتفتيش . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ فالبحث عن نوري قائم على قدم وساق ، ومنع التجول لا يسمح بمرور السيارات الا في ساعات محددة وتحت رقابة شديدة ، والمسافة شاسعة بينه وبين منزل عميد العائلة ، والتليفونات مراقبة وسوء المصير يهدد العائلة بأسرها ، فكيف يمكن اتقاء كل هذه المشاكل ؟ .. واخيرا هداه التفكير الى الاتصال بأخته (زكية) تليفونيا فأخبرها دون توضيح بوجوب ارسال من يصاحب المريضة من الكاظمية الى الطبيب فورا ، فحالتها خطرة ، كما يجب نقلها الى المستشفى حالا دون ابطاء ، لقد أدركت هذه السيدة الجريئة من هذا الحديث المبهم حرج الموقف ، ولم يكن بجوارها من يستطيع ان يقوم بهذه المهمة الشاقة في منتصف الليل ، ولكنها اعتمدت على الله وعلى نفسها ، وقررت ترك المنزل بعد منتصف الليل واتجهت مشيا على الاقدام ملتفة بعباءتها السوداء الى الكاظمية بحجة زيارة حضرة الكاظمين . كانت الطرق خالية مقفرة ، ومع ذلك تحدت هذه السيدة المؤمنة وحشة الليل ، وخطورة الاحداث الجارية ، ومجهود السير الطويل ، الى ان وصلت الى المنزل المنشود قبل بزوغ الفجر .

وعندما طرقت الباب فزع اهل الدار في البداية ولكنهم اطمأنوا عندما سمعوا

صوتها وفتحوا الابواب المغلقة بإحكام ، كانت المسكينة بادية الاعياء منهوكة القوى ، ولكنها اخبرتهم بسرعة ودون ابطاء بأن المنزل عرضة للتفتيش ، وان من الافضل بل من الضروري اخلاءه في الصباح المبكر وايجاد ملجأ آخر لنوري السعيد .

لم يذق نوري السعيد طعم النوم قط في تلك الليلة المشؤومة ، بل كان يتتبع الأخبار من كافة محطات الاذاعة ولما تجاوز الوقت منتصف الليل دون ان يسمع ما يشير الى تحرك دول ميثاق بغداد لنجدة الحكم في العراق ، ملأ قلبه اليأس ، فظل يتمتم بمرارة عندما دخل عليه اهل البيت عند الفجر ، ويقول لقد خانوا العراق مرة اخرى ، مشيرا بذلك الى الدول الغربية التي عاهدت العراق ودول الميثاق بمساندتهم اذا اصابهم اي اعتداء ضد الحكم القائم . وعندما اخبروه بأن المنزل مهدد بالتفتيش طلب نوري من اهل البيت الذهاب الى دار اخرى في الكاظمية تخص عائلة تربطها بأهل السعيد روابط وثيقة ، وهي دار الحاج محمود الاستربادي ، ولما ذهب الرسول للاطمئنان لم يجد في البيت غير السيدة زوجة الحاج محمود وخادمتها ، إذ كان الرجال يؤدون صلاة الفجر في الكاظمين ، فرحبت بقدومه ولكنها طلبت ان يحطاط القادم في ملبسه حتى لا يثير اي الشبهات - وبناء على ذلك ترك اهل دار البصام جميعا البيت مع نوري للاتجاه ايضا الى الحضرة ، فلم يسفر التفتيش بعد ذلك عن شيء إذ كان البيت خاليا - وهكذا غاب نوري عن الانظار مرة اخرى .

مغادرة دار البصام

ترك نوري دار البصام ملتفا بعباءة سوداء وكوفية بين سيدتين متحجبتين واتجه معهما وباقي افراد العائلة الى الطريق المؤدية الى حضرة الكاظمين ، وعند مرورهم بدار الاستربادي وقف نوري امام الباب الخلفية ، وسار الآخرون في طريقهم للقيام بصلاة الفجر ، ولما طرق نوري الباب فتحت له السيدة الوقورة أم عبد الأمير زوجة الحاج محمود التي كانت بمثابة اخت لزوجة نوري السعيد ، واكرمت وفادته ، ولم يكن في المنزل سوى ولدها مظفر والخادمة - إذ كان الرجال ايضا في الحضرة كعادتهم في كل صباح . فدخل نوري البيت مطمئنا - وبعد ان استراح قليلا بدأ التشاور معها في ايجاد طريقة لإنقاذه من شر المعتدين .

اقترحت السيدة أم عبد الأمير على نوري ان تصحبه متخفيا مع خادمتها بالسيارة عند رفع قيود منع التجول في الصباح ، إذ يمكن بعد ذلك ايصاله الى مكان

امين في البتاويين هو بيت السيد هاشم جعفر زوج ابنة السيد محمود الاستربادي من زوجة سابقة ، فالنسب الموجود يحتم الشقة بأهل البيت ومن المؤكد ان تستبعد السلطات القائمة رجوع نوري الى بغداد ثانية ، بعد ان اتجه الى الكاظمية ليعبر الحدود بعد ذلك الى الخارج ، وعند سماع الاقتراح رحب نوري بهذه الفكرة ، إذ كان يعلم ايضا بأن صديقه الشيخ محمد العريبي يسكن في البتاويين ، فربما يمكنه الوصول اليه متخفيا مشيا على الاقدام ، فيندمج مع رجال القبيلة ، ويذهب معهم الى الحدود للوصول الى ايران وانقاذ ما يمكن انقاذه . كانت الاخبار الصادرة من العراق تخفي مقتل فيصل الثاني عند هجوم المعتدين على قصر الرحاب خوفا من اثارة الشعب الذي كان يحمل للعاهل الشاب المحبة والولاء ، فظل بعض الامل عند نوري في امكان انقاذ الحكم الهاشمي في العراق اذا كان الملك حيا يرزق ،

وعند رجوع الحاج والجالسه من الصلاة اخبرتهم أم عبد الأمير بالنية المعقودة ووجوب كتمان الامر بصورة قاطعة حتى لا تتعرض العائلة بأسرها لمكروه ، فذهب كل منهم رأسا الى حجرته ولم يطلع حتى الخدم على شخصية نوري ووجوده داخل الدار .

ولما انتهت فترة منع التجول جلس نوري متخفيا بين السيدة أم عبد الأمير وخادمتها في سيارة اهل البيت فاتجهت بهم بصورة طبيعية الى دار السيد هاشم في البتاويين .

في البتاويين

وعند وصولهم طرقت السيدة أم عبد الأمير الباب بتحفظ ، ثم اسرت لأبنة زوجها عندما فتحته بما يفيد بأن نوري السعيد هارب من الشرطة ويستأذن في الدخول ، ثم قادته رأسا الى حجرة الاستقبال ، كما ذهبت صاحبة الدار لإحضار كوب من الشاي للوافدين .

ويبدو ان السيد هاشم وعائلته امتعضوا لوجود نوري في الدار ، فامتنعوا عن استقبال الضيف ولكن صاحبة الدار ظلت تلح وتصر على تقديم القهوة رغم امتناعه ، كما اهتمت أم عبد الأمير بالسؤال عن منزل محمد العريبي ليتسنى له الوصول اليه مشيا على الاقدام بعد الاستراحة .

وبعد مدة وجيزة احس نوري فجأة بأن باب الدار فتحت ثم أقفلت بسرعة ،

فانتابته الهواجس وسأل صاحبة الدار مسرعا ، من الداخل او من الذي خرج من الدار مسرعا الآن ؟ فتلعثمت أم عمر ثم اجابت بتردد ظاهر لا احد ... لا احد ... ربما اراد ابني عمر شراء شئ من السوق . ارتعد نوري عند سماع كلامها فأسرع رأسا الى باب المدخل فوجدها مقفلة ، ثم انتهرها قائلا افتحي الباب ... افتحي الباب حالا والا حطمتها ... وعندما لم تستطع أم عمر فتح باب الدار الاصلية قادته الى باب خلفية ، فهرع نوري مسرعا الى الخارج ولحقت به أم عبد الأمير وخادمتها مرددة بلهفة الى اين ياباشا ؟ الى اين ؟ فأجاب وهو يلهث ، اين بيت العريبي اين ؟ لم يكن احد منهم يعرف مقر هذا البيت ، ورغم اضطرابه الظاهر اصلح نوري السعيد هندامه على قدر الامكان ومشت المرأتان بجواره حتى لا ينكشف امره وذهب الثلاثة للبحث عن دار العريبي في اطراف الحي دون دليل .

الاذاعة تدعو للقبض على نوري باشا

ويبدو ان السبب الذي جعل عمر واخته يتركان الدار في هذه الساعات المحرجة هو حث الاذاعة المحلية للجماهير على البحث عن مقر نوري السعيد وتلويحها لهم بالمكافأة الثمينة لمن يرشد الى مكانه ، والنفوس الضعيفة تميل الى انتهاز الفرص حتى لو لم تكن في حاجة للمال ، وفي هذا ما يفسر سبب ذهاب عمر بن هاشم واخته الى بقال قريب لإخطار السلطات بأن نوري في دارهم ، وان من الممكن القبض عليه في المنطقة .

لقد سمع عدد من الذين دخلوا دكان البقال هذا الخبر المثير فحثهم الفضول على التجمع ونشر الخبر ، وسرعان ما امتلأت شوارع الحي وعلمت شرطة المنطقة بوجود نوري في البتاويين ، بعثت السلطات عند سماع الخبر عن طريق الهاتف شاحنة تحمل عددا من رجال الشرطة إذ كان من الصعب الاهتداء الى نوري شخصيا بين الجموع وهو متنكر . وبناءعلى ذلك ارسل عبد الكريم قاسم وصفي طاهر المرافق السابق لنوري على رأس رجال الشرطة حتى لا يلتبس الامر على الآخرين ، وفجأة لمح نوري سيارة شرطة في آخر الطريق ، وعندما نزل منها وصفي طاهر شخصيا للبحث عنه اتضح له جليا بأنه جاء للقبض عليه – وحينئذ الح نوري على النساء بتركه فأسرعت الخادمة بالفرار ، ولكن أم عبد الأمير ظلت ثابتة في مكانها بأمل ان وصفي ربما يحمي الباشا الذي قضى في خدمته عمراً كمرافق ، ولكن هيهات ويبدو ان نوري تذكر في تلك

اللحظة ما حدث لسمو الأمير عبد الاله والتمثيل الشنيع الذي اصاب جثته كما روتها الاخبار ، وبناء على ذلك رفضت نفسه الأبية للتعرض للتنكيل والاهانات حيا ، فأخرج مسدسه من جعبته وافرغ ما فيه في صدره المكلوم ، ولما وصل وصفي الى مكان الحادث كان نوري على وشك ان يلفظ انفاسه الأخيرة فصاحت له أم عبد الأمير مستنجدة بصوتها الجهوري ، هذا باشتنا ياوصفي هذا ابوك وابو الكل انقذوه ، كان صوتها خشنا يشبه صوت الرجال ، فظن وصفي انها رجل متنكر في ثياب امرأة ، فقضى عليها رأسا ، وكانت هذه هي نهاية أم عبد الأمير الشهيدة الكبرى ، شهيدة الوفاء .

ولما احس وصفي بأن انفاس نوري السعيد لم تتوقف تماما رغم غيبوبته اخرج الرشاش الذي كان يحمله وأخذ يدك الرصاص في جثة كانت على آخر رمق من الحياة بوحشية بالغة .

لقد ادعى وصفي بفخر في الصحف والاذاعات فيما بعد بأنه الرجل الذي قبض على نوري وصرعه ، ولكن الاهازيج الشعبية التي سجلها التاريخ لقبته باستهزاء بـ "قاتل السبع الميت" :

لعنة عليك سبع لعنة جتّال السبع الميت

اما اولاد السيد هاشم الذين اخبروا السلطات تليفونيا بأن نوري في منزلهم قبض كل منهم ٥ الآف دينار وهي المكافأة الموعودة ، ولكن سرعان ما تركوا العراق الى مكان مجهول ، ويبدوا ان السر في ذلك هو كتب التهديد المتعددة التي وصلت الى منزلهم فيما بعد ، إذ كان في احدى الرسائل ما يلي : (لقد بعتم يا اوغاد ، نوري السعيد بعشرة الآف دينار وسيبيعكم الشعب العراقي قريبا بعشرة فلوس ، اي ثمن الرصاصة التي ستمحيكم من الوجود" . وفي ذلك ما فسرسر الاختفاء .

التمثيل بجثته

ويقال ان وصفي اخذ الجثة الى وزارة الدفاع ، وان عبد الكريم قاسم امر بدفنها ، ولكن بعض العناصر المأجورة نبشت القبر في اليوم الثاني واخذت تسحل الجثة في مختلف شوارع بغداد الى ان اوصلتها الى منطقة الوزيرية بجوار السفارة

المصرية ، كان عدد من سيارات الشرطة وبعض الدبابات تحوم حول تلك الاحياء للسيطرة على الأمن نظرا للهياج العام في كافة اطراف العاصمة .

ولما وصلت الجثة الى الميدان اراد قائد الشرطة ان تسحق الجثة قبل اشعالها ، فأمر سائق الدبابة بشراسة بأن يسحقها ، ولما تردد الرجل في التنفيذ ، هدده بالمسدس ، فرضخ للأمر وحرك الدبابة ، ولكن عندما ضغطت العجلات على القسم الأسفل من الجثة انتصب القسم الأعلى فجأة بشكل مرعب ، ففزع السائق ووقع مغشيا عليه من فوق الدبابة .

وعلى اثر ذلك نقل الرجل الى المستشفى ، ثم الى مستشفى الأمراض العصبية في لبنان ، وقد روت لنا الممرضة التي كانت تقوم برعايته هناك ، بأن الانوار كانت دائما مضاءة في حجرته إذ كان يرتعد في الظلام ، وقد أخبرها مرارا بتفاصيل مأساته وهو يرتجف رعبا وأسفا .

أما الجثة فقد تم اشعالها فيما بعد ، وعندما تفتت وخمدت النار جمع أحد المارين ما تبقى من اشلاء بالية في كيس وحملها الى الكاظمية حيث دفنها الى جانب مقبرة السيد حسين السيد يونس ، وقد جاءتنا هذه المعلومات سرا من السيد عبد الهادي الجلبي الذي التقى بهذا الشخص الاصيل .

بعض أبيات قصيدة في تأبينه :

هذه قصة استشهاد ، وفاجعة مؤلمة ولكن شاعرا عراقيا سجلها بأحرف من النور ، إذ قال في تأبين نوري السعيد ما يلي :

يأبى ولاؤك ان تضمك حفرة
فأنك أولى ان تضم الأنهرا
بغداد قلبك ما تبقت بقعة
إلا لثمت ترابها متعفرا
ثم سمت ذرات جسمك صعدا
لتضم أرض الرافدين وأكثرا

وهذا ما سيسجله التاريخ .

باريس واخبار الانقلاب

كان عليّ فور وصولي الى باريس اعادة طبع وتنقيح اطروحتي ، إذ ظلت بعض اقسامها في مكتب شقتي في القاهرة نظرا للظروف التي منعتني من الرجوع اليها قبل سفري الى فرنسا – وبناء على ذلك اعتكفت في حجرة الفندق اكثر من شهرين كاملين لاتمام الاطروحة وتقديمها في الوقت المحدد .

كانت الأخبار الواردة حينذاك من الشرق الأوسط تدل على توتر الحالة في المنطقة بأسرها ، فسخط صوت العرب على ميثاق بغداد مستمر ، والتكتلات الغربية قائمة على قدم وساق ، والاعلام ما بين مطبوعات واذاعات ملوث بأنواع الدعايات الهدامة . ولكن انشغالي بأبحاثي الدراسية لم تعد تعطي فرصة متابعتها عن كثب .

ومن التطورات التي حدثت في حينه تعيين نوري السعيد رئيسا للإتحاد الهاشمي الذي جمع العراق بالأردن على نمط الجمهورية العربية المتحدة التي وحدت مصر و سورية .

ونظرا لحلول العطلات الدراسية في بريطانيا ، وحرارة الجو في العراق ، قررت أم صباح السفر الى لندن للأصطياف مع الأولاد على ان الحق بهم بعد مناقشة اطروحتي .

وكان المفروض ايضا ان يجتمع اعضاء ميثاق بغداد في اواخر شهر يوليو ، وأن يبقى نوري باشا معنا بعض الوقت في بريطانيا بعد حضور اجتماعات الميثاق .

وفي اليوم العاشر من شهر تموز وقفت امام الهيئة الرسمية في قاعة المناقشة في جامعة باريس ، وتوفقت في الحصول على شهادة الدكتوراه بامتياز ... وسرعان ما حزمت امتعتي وركبت الطائرة للإلتحاق بأهلي في لندن في الثاني عشر من شهر تموز .

وفي مطار لندن استقبلتني أم صباح مع عدد من اقرباء العائلة واصدقائها المقيمين في لندن ، ولم يكن بينهم نوري السعيد ، إستدعته الحكومة العراقية لأمر مهم ، إذ قيل لي انه سيعود في ١٤ تموز مع جلال الملك فيصل الى لندن لحضور الاجتماعات الدورية الخاصة بميثاق بغداد .وفي مساء الثالث عشر من شهر يوليو دعت أم صباح بعض الاصدقاء للعشاء ، ودار الحديث في جو ودي بين الحاضرين حول وصول جلالة الملك فيصل الثاني وجماعته في اليوم التالي ، وعن المناسبات التي ستقال للاحتفاء بخطيبته التي كانت قد وصلت الى انكلترا لتتهيأ لممارسة مركزها المقبل بعد عقد القران الملكي . وانتهت السهرة في جو ممتع يفيض املا وانشراحا .

خبر مفاجيء

وفي صباح ١٤ تموز دق جرس التليفون في ساعة مبكرة فقمت مسرعة من فراشي ، واذا بصوت ناهدة العسكري زوجة الوزير المفوض للعراق في بريطانيا السيد طارق العسكري تفاجئني بخبر حدوث انقلاب عسكري في بغداد ونبأ مقتل ولي العهد سمو الأمير عبد الأله ، كانت الاذاعة هي مصدر تلك الاخبار ولم تستطع معرفة حقيقة الأوضاع نظرا لعطلة الدوائر الرسمية في ذلك النهار .

كانت المفاجأة رهيبة ، ولم ادر في بادىء الأمر كيف انقل الخبر لأم صباح . فهي تشكو من مرض القلب وقد تقضي عليها الصدمة ... ولكنني تذكرت في حينه بأن تاريخ سفر جلالة الملك ونوري السعيد كان محددا في يوم ١٤ تموز فأصبح أملي الوحيد هو ان تكون الطائرة قد غادرت بغداد في الصباح المبكر ... وظننت ان المتآمرين في الجيش اغتنموا فرصة غياب الملك لدخول العاصمة واعلان الانقلاب . لقد تعلقت بهذا الأمل ودخلت الى غرفة أم صباح وفي يدي فنجان من الشاي لأشرح لها الأوضاع بالطريقة التي تصورتها .

لقد مرت أم صباح بعدد من تلك المآسي في تاريخ حياتها ، ولكن الأمور

كانت عادة ما تعود الى نصابها دون هدر دماء ، فلما سمعت الخبر اعتدلت في جلستها على الفراش ، وطلبت مني تكرار الأحداث ... ثم اضافت بمرارة "حسبنا الله ونعم الوكيل" متى يتوب العراق عن عقوقه المتتابع ... ماذا يريد هذا الشعب اكثر من الرخاء الذي يعيش فيه ؟ اين جماعتنا الآن ؟ هل صباح معهم في الطائرة ؟

لقد اذهلتني اسئلتها المتلاحقة ، فتمسكت بالصورة الذهنية التي وضعتها في مخيلتي ، واجبتها بأن تفاصيل الخبر لم ترد بعد ... ولكن من المؤكد ان الملك ونوري غادرا العاصمة في الصباح المبكر ... واضفت الى ذلك بأنني شخصيا لا اعتقد بأن يمس صباح السعيد بأي سوء فهو مدير للسكك الحديد ولا دخل له في الأمور السياسية قط . ويبدو انها اقتنعت بكلامي ولكن مصير ولدها ظل يلقها على الدوام .

الإعلام يحتشد بأخبار العراق

وبدأت بعد ذلك بمتابعة الأخبار الاذاعية واعتمدت على أم صباح لأوافيها بما يقدمه الاعلام على صفحات الجرائد وامواج الأثير - ومن ثم علمت بأن الطائرة لم تغادر بغداد ، وان الأمير وآل بيته قتلوا في قصر الرحاب ، وان نوري استطاع الهروب من داره ، وان جائززة قدرها عشرة الآف دينار ستقدم لمن يشير الى مقره . ولم تذكر الأنباء شيئا عن مصرع الملك فيصل الثاني ، امتلأت بعد ذلك جرائد لندن بخبر الانقلاب ، ومصرع أهل قصر الرحاب ، واشارت بخطوط عريضة الى جائزة العشرة الآف دينار التي ستقدمها حكومة عبد الكريم قاسم - قائد الفرقة الثانية الذي اطاح برئيسه غازي الداغستاني ونصب نفسه زعيما أوحد للإنقلاب - لمن يستطيع ان يدل على مقر نوري السعيد .

لقد تذرعت بالجرائد التي ذكرت خبر جائزة العشرة الآف دينار لأقنع أم صباح بأن الملك ونوري فضلا البقاء في مكان مجهول على حدود العراق لما علما وهما بالطائرة بحدوث الانقلاب حتى يقوما بمساعيهما من الخارج ، ولكنني بدأت بلبس السواد حدادا على من فقدنا ، فلما سألتني عن سبب ذلك اجبتها بأننا علينا لبس الحداد على افراد البيت الهاشمي الكريم الذي فتكوا بهم في قصر الرحاب ، كما اخبرتها بأنني اخترت لها بعض الملابس السوداء ايضا . وبناء على ذلك ظلت معلوماتها عن هذه المأساة الكبرى تقتصر على ما كنت أخبرها به وما يرويه لها الزوار الذين اتفقت معهم على ما يجب ان يقال ، وبمرور الأيام بدأت أم صباح تشعر بشيء

من اليأس بالتدريج .

أما ولديَّ فلاح وعصام فقد كانا في رحلة قصيرة للترفيه في اسبانيا بمناسبة نجاحهما في الامتحانات الدراسية ... فلما اتصلا بي تليفونيا بناء على ما تنشره الجرائد في مدريد طلبت اليهما الرجوع حالا الى لندن للوقوف الى جانب جدتهما في هذه المحنة ، كما قلت لهما بأن التذرع بالصبر واجب حتى تنكشف الأمور تماما ، فكثيرا ما تطغى المبالغات على الأنباء الصحيحة .

وفود المعزين

وفي لندن اضطررت لمواجهة بعض الشخصيات من الذين ارادوا تعزيتنا ، فأخبرتهم بأن حالة أم صباح لا تسمح لها باستقبال المعزين ... انني مازلت اذكر الحديث الذي دار بيني وبين رئيس وزراء تركيا عدنان مندرس الذي وصل الى بريطانيا في حينه مع باقي اعضاء ميثاق بغداد لحضور الاجتماع الدوري في لندن ، فهو بعد ان عدد فضائل نوري السعيد واظهر بالغ حزنه على ما حدث ابدى دهشته لعدم شعور حكام العراق في حينه بما كان يجري في الخفاء ... ثم كرر عدة مرات بالتركية متعجبا قائلا : كيف يمكن حدوث ذلك ؟

لقد هزتني مشاعره الصادقة فأجبته بصوت يملؤه اليأس : لا غرابة في ذلك ياسيدي ، لقد اثبت التاريخ بأننا سنجد على الدوام حتى بين المقربين اناسا أمثال "بروتس" الذي تبناه قيصر ، وامثال يهوذا الاسخريوطي احد اتباع المسيح ... وكل ما ارجوه وادعو له من الصميم بأن يحفظكم الله ويحفظ تركية من خيانة أمثالهم . لقد حملتني الذكريات الى أيام القاهرة والهجوم المتواصل الذي كانت تشنه الجرائد والاعلام المصري ضد نوري ومندرس معا ، وهو الأمر الذي دعاني مرة الى مقابلة السفير التركي في القاهرة لتفهم سبب سكوت تركية وعدم احتجاجها على تلك الحملات المشينة . لقد ذكرت هذه القصة في فصل سابق من مذكراتي ، كما ذكرت جواب السفير التركي زورولو حين اجابني قائلا : ياسيدتي دعيهم ينبحوا الى ان يصيبهم الاعياء ، وقد نسى ان الكلاب والذئاب لا تقتصر على النباح أو العويل بل تفتك بفريستها احيانا .

ويقيني ان مندرس تذكر حديثي معه عندما دعوت ان يحفظه الله ويحفظ تركية من عناصر السوء عند مقابلتنا في لندن ... وذلك عندما حكم عليه بالاعدام في وطنه

العزيز بعد ذلك بسنوات .

ولا شك ان نفس العناصر الهدامة هي التي قضت ليس على نوري ومندرس فحسب بل على دعائم حسن التفاهم والاستقرار في رحاب الشرق الأوسط .

استشهاد صباح السعيد

ومن ثم بدأنا حياة جديدة إذ حكمت علينا الظروف البقاء في لندن ... وفي خلال اسبوع رجع الأولاد من مدريد على اثر مكالمتنا التليفونية ، وكان عليَّ ان اروي لهما ما اصاب ذويهما في بغداد من ظلم وعدوان ، وكل علينا أن نتفق على اطلاع جدتهما بالتدريج على الموقف رعاية لظروفها الصحية - انني مازلت اذكر بمرارة قسوة موقفي بعد يومين من وصول ولدي الى لندن عندما فاجأني عصام بمجلة امريكية تحمل صورة أبيه المصلوب وسألني بصوت تخنقه العبرات قائلا : "لماذا مثلوا بأبي بهذا الشكل المريع ؟ لماذا ؟ " لقد الهمني الله في حينه بجلد مصطنع عجيب . فأجبته بهدوء وثبات : لقد اختار الله ان يموت أبوك شهيدا ياعصام . فاقرأ الرحمة على روحه الطاهرة . فهم السابقون ونحن اللاحقون .

لقد جاءتني فيما بعد تفاصيل مصرعه أمام دار الاذاعة في بغداد بواسطة شاهد عيان . ويبدو ان صباح السعيد سمع خبر القبض على أبيه ومقتله يوم ١٥ تموز وهو في نادي السكك الحديدية في بغداد ، فخرج مسرعا من النادي متجها الى دار الاذاعة ليتأكد من الخبر ويطالب بجثة أبيه ... واذا بشاحنة تحمل عددا من الشرطة يعترضون طريقه ويلقون القبض عليه . كان صباح السعيد مشهورا بالرجولة والشجاعة فعندما اوقفوه قال لهم باستهزاء ... "انني كنت على وشك الذهاب الى دار الاذاعة على قدمي بنفسي للإستفسار عن مصير جثة أبي ، ومع ذلك فأنا مستعد ان اركب معكم حتى نصل اليها بسرعة" .

وعندما وقفت السيارة امام باب الاذاعة اراد صباح السعيد ان يدخل الى مكتب المسؤولين رأسا للمطالبة بجثة أبيه ، فمنعه الحراس من التقدم وبدأ الصراع بينهما امام الباب الرئيسي بشكل سافر . كان صباح السعيد منفعلا الى أقصى الحدود وهو يسمع المذياع يحرض الشعب على القتل والسحل والتمثيل علنا ... فبدأ يسب ويلعن جهرا تلك الفئة الخائنة التي تجاهلت افضال أبيه ... الرجل الوطني الغيور الذي امضى في بناء كيان الوطن وخدمة العراق مدة تجاوزت الأربعين عاما . ولما طال الصراع أمر المسؤولون

الحراس بإنهاء المعركة واطلاق الرصاص عليه فأسقطوه صريعا . وتظهر لنا المجلة الأمريكية ما اصابه بعد ذلك ، فهي تحمل صورة جثة مصلوبة مبتورة الأيدي والأرجل اخترقها رصاص الرشاشات من اعلى الرأس الى اسفل الجسد ، صورة رهيبة ولكنها مشرفة لإبن بار تحدى الموت والمذلة ومات شهيدا . واخبرني شاهد عيان بأن الجثة سحلت بعد ذلك الى باب دار كامل الجادرجي للإطلاع ... ومثوى المرحوم صباح السعيد مجهول الى يومنا هذا ... رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح الجنان .

على هامش الأحداث

تعليـــق

يقال أن الشعوب الثائرة تفقد المشاعر الانسانية ولا تعترف بأفضال من قام بخدمتها ، وفي قسوة التفاصيل التي احاطت بالعائلة المالكة في العراق وبنوري السعيد وولده صباح ما تقشعر منه الأبدان .

والجدير بالملاحظة هو ان مجزرة ١٤ تموز لم تكـن ثـورة بالمعنى المألوف ، بل مؤامرة دنيئة دبرت في الخفاء ، بأساليب الحرب الباردة ، عن طـريق منظمات سرية مدبرّة ، ودعايات مثيرة لتسمم أفكار الشعب ، ثم السيطرة على الأوضاع بقوة السلاح .

لم يكن الشعب العراقي يفكر قط في ابادة الحكم القائم في ليلة ١٤ تموز بل كان العراق اسعد دول المنطقة بعد حصوله على استقلال كامل في سنة ١٩٥٥ ، وبعد اقامة مجلس الأعمار ، والشروع في تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل تدريجي في دوائر الاقطاع .

أما جلالة الملك فيصل الثاني فقد كان يتمتع بشعبية مرموقة ، وقد تجلت

بوضوح عندما زارت خطيبته سمو الأميرة فاضلة بلاد الرافدين بضعة اشهر قبل حدوث الانقلاب . والى جانب ذلك لم يكن نوري السعيد يتوقع قط ، بعد أن أصبح رئيسا لوزراء الاتحاد العربي وترك ادارة العراق للسيد احمد مختار بابان ، ان يثور شعب العراق ضد الحكم القائم . . وكان سبب اطمئنانه ما وصل اليه العراق في ذلك العهد من رخاء واستقرار .. اذ عندما كانت الدعايات المأجورة تهاجم وتهدد حكام العراق ، كان نوري يستخفّ بهذا التهديد ويقول مازحا " "دعونا من هذا التهريج .. لقد أصبح العامل اليوم في العراق يقبض أضعاف ما كان يحصل عليه أمس .. والعالم بأسره يشهد للعراق بالرخاء والازدهار المطرد .

لقد فات نوري السعيد حينذاك ، رغم ذكائه الفطري ، ان يدرك ان سند الحكومة الحديثة وبقائها يعتمدان على ركيزتين هما الدعاية ، والحراسة المشددة . وكان العراق مع الأسف يفتقر الى هاتين الركيزتين .

لم يكن في ليلة ١٤ تموز في ارجاء حديقة منزل نوري السعيد سوى شرطيين للحراسة . أما مقر العائلة المالكة فقد أبى الأمير عبد الآله ان يعّرض حراس القصر القلائل الى هجوم الفرق المسلحة التي احاطت بالقصر لعدم اشعال حرب أهلية . ورغم استسلام أفراد العائلة المالكة جميعا دون مقاومة قضى المغتصبون عليهم جميعا بصورة وحشية .

كان هدف الانقلاب الأستئثار بالحكم على نمط ما قام به الضباط الأحرار في مصر. والتخلص من افراد البيت المالك ونوري السعيد وكافة الشخصيات التي يخشون بأسها خوفٌ من الانتقام . وكان صباح السعيد أحد هؤلاء الضحايا . وفي القسوة التي استعملوها معه والتمثيل الشنيع بجثته ما يدل على وحشية صارخة . مع العلم بأنه لم يكن لصباح السعيد اي نشاط سياسي . إذ كان مهندسا وطيارا ، ثم مديرا للسكك الحديدية في العراق .

صباح

كانت روابطنا العائلية مبنية على المحبة والرعاية والاحترام . وقد ظهر تعلق صباح السعيد بأبيه جليا عندما غامر بحياته واستشهد أمام باب الاذاعة في بغداد وهو يطالب بجثة أبيه ... في حين كان من الميسور له بعد ان تم الانقلاب ان يعبر بسيارته الى الأردن أو ايران ليلحق بنا بعد ذلك في لندن . ولكن البرّ بأبيه طغى على

مشاعره الأخرى فمات شهيدا .

كان صباح السعيد ايضا قرة عين أبيه ، وكانت تلك المشاعر الأبوية واضحة عندما كان صباح يتعرض احيانا للأخطار نتيجة للمجازفات التي كان يقوم بها في الحقول الرياضية وفي عالم الطيران . والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان نوري السعيد رغم تعلقه الشديد بوحيده لم يغدق عليه بامتيازات خاصة طول حياته ، ولم يسمح له قط بأن يقوم بأي عمل يخالف قوانين الدولة . وفي ذكر بعض المواقف ما يثبت لنا بأن حنان الأبوة وصلابة رجل الدولة كانا يجتمعان في شخصية نوري السعيد .

لقد تخرج صباح السعيد من جامعة كمبردج في بريطانيا كمهندس طيار ، ثم التحق بالقوة الجوية العراقية كضابط الى ان وصل الى درجة عقيد ، كان شجاعا الى حد المجازفة وكان يحسن العاب الرياضة على انواعها ، وكثيرا ما كان يقوم بحركات بهلوانية عند الطيران وهو الأمر الذي أدى الى سقوط طائرته مرة في سنة ١٩٣٥ ، وقد نجا حينذاك بأعجوبة ، ولكن علاجه في مستشفيات لندن دام تسعة أشهر . ورغم هذه التجربة القاسية دفعته روح المجازفة بعد سنوات الى القيام بلعبة خطيرة اخرى . إذ قرر ذات يوم ان يمر بطائرة اعتيادية من تحت أحد اقواس الجسر على نهر دجلة . وبناء على ذلك اخبر صباح عددا من اصدقائه بأن طيارا اجنبيا سيجتاز بطائرته أحد اقواس الجسر المذكور ، فلم يصدقه أحد ، ولكن صباح اكد لهم بأن الطيار يصر على ان يقوم بتلك المغامرة الكبرى في فجر اليوم التالي . وبناء على ذلك أرسل المصور (أرشاك) موظفيه في الوقت المقرر حول جسر نهر دجلة لالتقاط صور هذه المغامرة الفريدة .

حدث ذلك في فصل الصيف في بغداد ، وسكان العاصمة ينعمون بنوم هادىء على اسطح منازلهم .. واذا بصوت طائرة سريعة تخترق الآفاق وتنخفض تقريبا الى مستوى سطح النهر الجاري في اتجاه أقواس دعائم الجسر ، فظن بعض الذين ايقظهم الضجيج ، بأن الطائرة سترتطم حتما بقواعد الجسر وتغوص في قاع النهر ، ولكن سرعان ماشاهدوها ترتفع من الجانب الآخر لتخترق الأجواء .

ويقول صباح السعيد بأن العبور حدث في ثوان . فهو بعد ان قارن حجم الطائرة باتساع قوس قاعدة الجسر وارتفاعه ثبت نظره على نقطة معينة في وسط القوس وانطلق بالطائرة وبأقصى سرعة نحوه .. فإذا به يجد الجسر خلفه بعد لحظات .

وقد سجلت الصور هذه المجازفة في حينه وبوضوح .

لقد ارتعدت فرائصنا جميعاً عند سماع الخبر الذي انتشر بسرعة في انحاء بغداد وكانت أم صباح اكثرنا الما وانزعاجا . إذ كانت لا تزال تذكر الحادث الأول الذي كاد يقضي على وحيدها قبل سنوات . ولكن موقف نوري السعيد كان يختلف عنا اختلافا عظيما ، إذ عندما دخل صباح الى مكتب أبيه بعد رجوعه من دائرة العمل رفع الأب بصره اليه دون عصبية أو هياج ، وسأله ببرود قائلاً : "ما هو السبب الذي دفعك الى القيام بهذه الحركة الصبيانية يا صباح ؟ وهنا تلعثم صباح وتردد في الاجابة . فرفع نوري صوته تدريجيا بحزم وصرامة وقال له جهرا : انت حر ياولدي فكل ما يختص بشخصك .. فلو اردت ان تستهتر بحياتك وتعرضها للتهلكة ، فافعل ما شئت . ولكن اعلم جيدا بأنني لا اسمح لك قط بأن تستهتر بممتلكات الدولة وأموالها وتعرض الجسور والطائرات للدمار بأعمالك الصبيانية . لم تحدث اضرار ولله الحمد في هذه المرة ولكن مجرد استهتارك بقوانين الدولة يستوجب العقاب .

وعلى أثر ذلك نقل صباح السعيد من ادارة الطيران العام الى دائرة السكك الحديدية وظل مديرا لها الى ان وافاه الأجل .

فلاح

والآن يجدر بنا الاشارة الى وضع ولديّ فلاح وعصام ، بعد هذه المآسي الكبرى ، وبعد ان استشهد الأب والجد معا في يوم واحد وفارقا الحياة وهما يشكوان ظلم الانسان لأخيه الانسان . كان الولدان عند حدوث الانقلاب في خارج العراق لإكمال دراستهما الثانوية في بريطانيا ، وقد اضطرتهما الظروف للبقاء فيها بعد الانقلاب . فاختار فلاح مهنة الطيران كأبيه ، واكمل دراسته في اسكتلندا ، كما اختار عصام الهندسة المعمارية وتخرج من جامعة كمبردج .

ومما يثير الدهشة والاعجاب انهما رغم كل ما قاسياه من ظلم واغتراب ، ظل العراق ومحبة العراق تغذي نفوسهما وتسري في دمائهما .. فلم اسمع منهما قط ما يسيء الى العراق أو يتهم شعبه بالعقوق أو الهمجية ، بل كانا يعدّان الشعب بريئا من جرائم الضباط وزمرة العملاء .

اصبح مقر فلاح بعد تخرجه من اسكتلندا في الأردن ، وظل عدة سنوات في خدمة جلالة الملك حسين كطيار خاص لجلالته . ثم انتقل الى مؤسسة "عالية"

للطيران الى ان وافـاه الأجل على اثر حادث سـيارة ... وما زالت سيرته النقية تتردد في المجتمع الاردني . وسأكتفي هنا بذكر بمقطع صغير من كلمات التأبين التي نشرت في جرائد عمان وهي الكلمة التي كتبها احد زملائه في مؤسسة عالية .

كتب الكابتن فارس السيد فقال في رثائه ما يلي :

فلاح .. لقد كنت قمة في الخلق والأدب والتسامح .
لقد كنت ثروة علم ومعرفة لنا في الطيران .
لقد كنت في حياتك عابدا زاهدا عطوفا .

فلاح .. ماذا سأقـول للفقراء في مطارات بنكوك
وامستردام ونيويورك ولندن .. عندما
يسـألوني ... لماذا ما عدت تأتي ؟ "

كان تشييع جثمانه مهيبا ، وقد تفضل جلالة الملك حسين فخصص له مكانا في المقابر الملكية ، كما اقام له زملاؤه واصدقاؤه المخلصون مسجدا صغيرا على حافة طريق الذي وقع فيه الحادث المشؤوم .... ويحمل المسجد المذكور اسم "مسجد المرحوم الطيار الكابتن فلاح صباح السعيد" وكان في ذلك حسن الختام .

عصام

أما عصام فقد تخرج في جامعة (كمبردج) مهندسا معماريا بامتياز ، واشتهر الى جانب ذلك بالرسم والتصوير في مجالات علمية اخرى . ويقول الدكتور زكي بدوي في مقدمة الكتاب الذي سجلنا فيه بعض منجزات عصام السعيد واكتشافاته مع بعض الصور والخطوط التي اشتهر بها بأنه "شخصية متعددة الجوانب ، إذ رسم قلمه من القرآن آيات ، ومن الحكمة كلمات ، ومن الشعر ابيات . وهو الى جانب ذلك مخترع يباري في ابتكاراته العلماء المتفرغين ، واسم هذا الكتاب :

Issam El-Said Artist & Scholar

لقد استطاع عصام ايضا ان يدرك وحدة الفنون الاسلامية واثبت ذلك عندما بين انها مبنية على قواعد هندسية في العلوم والصناعات الفنية كافة . وقد اصبح كتابه المعروف باسم :

The Geometric Concepts in Islamic Art

متداولا في الأوساط الهندسية في العالم .

وفي خطاب التعزية الذي وصلني من (Professor Miles Danby) رئيس كلية الهندسة في جامعة "نيوكاسل" عندما وافاه القدر ، ما أثبت سعة اطلاع عصام السعيد في فنون المعمار الاسلامي واستعداده الفطري في البحث والاكتشاف ، قال الاستاذ دانبي :

"كانت علاقتي مع الطالب عصام السعيد فريدة في نوعها ... إذ كان يصبح احيانا هو المعلم وانا التلميذ ..." . ولا يمكن ان يقول استاذ في مدح تلميذه اكثر من ذلك .

كان ينتج لا طمعا في الربح ، ولا طلبا للشهرة والجاه . ولكن لأن العطاء كان من طبعه ، وكذلك الاجتهاد المثمر. إذ كان الوحي ينبع من قرارة نفسه بسخاء ، فظل الشرق رغم اقامته الدائمة في الغربة منذ سن الرابعة عشر مصدر الالهام ، وعلى الأخص العراق مسقط رأسه ، وملعب فتوته . وتروي لنا لوحاته وتصاميمه الوان العراق وأساطير العراق وصوفية العراق متوجة كلها باسم الجلالة واحرف قرآنه الكريم وآياته البينات .

ومن أقسى الأمور التي عصفت بكيان عصام في الغربة هو ما حدث له في غضون سنة ٨٥ عندما طلب تجديد جواز سفره - لقد كان مقيماً في لندن ولم يفكر في يوم من الأيام الانتساب الى اي جنسية اخرى إذ كان يعتز بدينه وقوميته كمسلم عراقي .

وفي ذات يوم وصله كتاب من القائم بأعمال السفارة العراقية بتاريخ

٨٥/١/٣١ وبرقم ٨/١٤/٧٥ وفي نصه ما يلي : لقد اعلمتنا مديرية الجنسية والأحوال المدنية انه تعذر عليها العثور على ما يشير الى حصول نوري السعيد أو ولده صباح على شهادة الجنسية العراقية ... رغم التحريات الدقيقة والاستفسار من جهات عديدة .

وقع هـذا الخبر على عصام كالصاعقة ... فنظرت اليه بإشفاق وقلت له : لا تجزع ياولدي ... ان الورقة التي في يدك تدل بشكل قاطع على غباء الجهات التي اصدرتها ... فمن المخجل ان يصدر كتاب من هذا القبيل من جهة رسمية .

وبعد عدة اسابيع تداركت الجهات المسؤولة الأمر عندما اعترض عصام رسمياً على هذا التصرف المخجل ... فتم تجديد جواز سفره بعد ذلك ولكن هذه الصدمة اثرت في نفسه الى اقصى الحدود فارتفع ضغطه بعد ذلك بشكل ملحوظ ولم يفد معه العلاج .

ورغم ذلك واظب عصام على العمل والانتاج ... ولكن القدر مع الأسف وافاه قبل ان تتم رسالته في ميادين الفن والعلم كما اراد ... إذ توقف نبضه فجأة وهو مسترسل في نوم هادىء عميق يوم ٨٨/١٢/٢٧ . كان لخبر وفاته وقعاً اليماً على كل من كان يعرفه ... فأحاطني الجميع برعاية كريمة وفتح الجامع المركزي ابوابه لاستقبال المعزين عند التشييع وبمناسبة الأربعين على حد سواء ... وما زلت اذكر بعظيم التقدير التأبين الرائع الذي قام به سعادة الدكتور زكي بدوي من جهة وسيادة السيد عبد الخالق العابد السامرائي من جهة اخرى في قاعة الجامع المركزي المكتظ بالوفود .

لقد حملتني الذكريات الى سنة ١٩٥٨ وبعد مرور ثلاثين سنة عندما ارادت بعض السفارات والجاليات الاسلامية وعدد من اصدقاء شهداء ١٤ تموز اقامة حفل تأبين لهم في الجامع المركزي - لقد اخبرني الدكتور (دكسون فرث) في حينه وهو الذي كان الطبيب الخاص للعائلة المالكة في العراق بأنه اراد ان يقوم بتنظيم تأبين رسمي لتكريم ذكراهم وانه واجه المسؤولين في الجامع بهذا السأن ... فاعتذروا دون ابداء الأسباب الحقيقية التي دعتهم الى عدم قبول الفكرة ... وبناء على ذلك قدمت جلالة الملكة اليصابات كنيستها لأقامة التأبين المذكور .

ويجدر بنا الآن التوقف قليلا لمقارنة ما حدث قبل ثلاثين عاما وما شاهدته اثناء تأبين ولدي عصام ... لقد انكشفت الأمور مع مرور الزمن وتجلت حقيقة اصحاب العقول النيرة الذين اشتهروا ببعد النظر والوطنية الصادقة كما انفضح معدن الذين

خدموا الأهداف الخبيثة بخسّة وسوء تقدير .

ومما لاشك فيه ان الدعايات المغرضة شوهت صورة حكام العراق في ذلك الوقت وجعلتهم عرضة للهجوم والابادة ... فلا عجب إذاً ان يعتذر الجامع المركزي ويتجنب اقامة تأبين لفئة وصفت بمختلف الافتراءات المشينة ظلماً وزوراً في سنة ١٩٨٨ .

لقد صدق نوري السعيد عندما قال في نهاية الخطاب الأخير الذي القاه من دار الاذاعة في بغداد رداً على الهجمات المتكررة التي كانت ترددها الدعايات المأجورة إذ صرح فيه بما يلي فقال :

"ان حبل الكذب قصير ولا يمكن للسحاب ان يحجب أشعة الشمس الساطعة ولو بعد حين" .

لقد اثبتت الأحداث التي تبلورت مع مرور الأيام للعالم بأسره ... بأن المشاريع المهمة التي اراد ان يحققها نوري السعيد في المنطقة والتي حار بها المستعمر والمغرضون لإشباع مصالحهم الخاصة في حينه - كانت لصالح المنطقة بأسرها ... فلو كان الهلال الخصيب قائماً لسعدت فلسطين باستقلالها داخل دولة عربية كبرى دون التعرض لهجمات اسرائيل اليوم ... ولو كان ميثاق بغداد قائماً لأصبح في المنطقة قوة دفاعية واقتصادية مشتركة بين بلاد متاخمة يجمعها حسن الجوار والمصالح المشتركة - ولو كان الاتحاد الثلاثي نفذ في حينه كوحدة سياسية واقتصادية بين دول ثلاث احرار لساد حسن التفاهم في المنطقة دون التعرض للمآسي التي عصفت بها بعد ذلك .

لم يدرك العالم والعراق بصفة خاصة هذه الحقائق مع الأسف الشديد إلا بعد فوات الوقت ... ولكن الإعتراف بالحق فضيلة ولو بعد حين ... ولا شك ان لخطاب الذي القاه السيد عبد الخالق العابد السامرائي رئيس الجالية العراقية في المملكة المتحدة علناً في قاعة الجامع المركزي امام عدد لا يستهان به من وزراء وسفراء ومن اقطاب الجاليات المختلفة المقيمة في لندن بعد مرور ثلاثين عام من تاريخ الانقلاب لهو تكريم واضح لذكرى نوري السعيد ... إذ قال عن الأحفاد اثناء التأبين ما يلي :

"كانا دوحتين طيبتين من أبوين كريمين واجداد أصائل اخذا عنهما حب الوطن وحب الناس وورثا التمسك بالفضيلة والايمان بالله ... والثقة بالنفس ... وخدمة

المجتمع والوطن ... إذ كان حب وطنهما العراق يملأ شغاف قلبيهما ...

وعند سماع هذا التأبين المثير في قاعة الجامع المركزي وحولي وفود من مختلف الجاليات المقيمة في لندن الى جانب عدد من اعضاء السفارات ومن بينهم سفارة العراق ... ايقنت بأن المولى عز وجل أراد ان يتم علناً رد اعتبار آل ا لسعيد ويكرم الشهيدين نوري وصباح بالذرية الصالحة التي هي اثمن ما يصبو اليه الانسان .

الخلاصـــة

العراق قبل الحكم الهاشمي

لم يكن تأسيس دولة العراق الفتية بالأمر الهين بعد انهيار الدولة العثمانية التي خلفت وراءها في الشرق الأوسط أشلاء امبراطورية شاسعة تقاسمها المستعمرون على موائد الصلح جزافا دون تأمين مصالح الشعوب الساكنة في ارجائها .

كان العراق احدى تلك المناطق المحتلة ، وكان يسكن في ارجائها الى جانب العشائر العربية عدد لا يستهان به من الشعوب التركمانية والكردية والآثورية ، وجماعات من الأرمن والنصارى واليهود والصائبة واليزيديين وغيرهم ... وكانت كل تلك الفئات المتباينة تعتز بعقائدها وتقاليدها الأصلية .

والجدير بالملاحظة أنه ليس من السهل ان يسود التعايش السلمي بين فئات متباينة الى هذا الحد ... إلا اذا كانت تحت ادارة قوية حازمة تستطيع السيطرة على الجميع للحفاظ على الأمن والاستقرار – فالمعلوم هو انه لم يكن في العراق عند تأسيسه شرطة لحفظ الأمن ، أو جيش للدفاع عنه ، وكان نهرا دجلة والفرات يغرقان اغلب

المزارع في زمن الفيضان في حين كان قسم كبير من الفروع المنبثقة منهما تيبس في فصول الصيف . والى جانب ذلك كانت اكثر الأراضي الزراعية الشاسعة التي يمتلكها العراق مهملة ولا تصلح للزراعة نظرا لتراكم الأملاح الراسبة فيها ... فأصبحت تلك المنطقة التي كانت مفخرة للشرق في الأيام الغابرة من حيث التطور والعمار ، محدودة الموارد والسكان ، تفتقر الى السدود ونظم الري والزراعة الحديثة والعمران بصورة عامة . أما التعليم المحلي والتدريب المهني فلم يكن لهما تأثير يذكر – وبالاختصار كان العراق في حينه يفتقر الى كافة وسائل النهضة والرقي .

فيصل الأول عاهل العراق

ويشهد التاريخ بأن العراق منذ القدم كان على الدوام مرتعا للنزاع والصراع العشائري ، فهو ممر طبيعي يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ... وطالما اكتسحته جيوش عابرة ، أو احتلته شعوب نازحة ، فاستطاعت بذلك ان تثبت في ارجائه مذاهب وعقائد متباينة ... وفي ذلك ما يفسر اسباب عدم الاندماج بين سكانه وصعوبة تأمين الاستقرار في ربوع ما بين النهرين .

لقد لمس الانكليز صعوبة السيطرة على الأمن في تلك المنطقة عندما استتب لهم الأمر فيها بعد سنة ١٩١٦ وذلك لتعاقب الثورات العشائرية المستمرة فيها .

كان نوري السعيد يعرف اوضاع أهل المنطقة عن كثب نظرا لاحتكاكه الدائم بعشائر ما بين النهرين ... وفي الخطابات التاريخية التي خلفتها (جرترود بل) صورة واضحة للعقبات التي اعترضت بريطانيا عند احتلال المنطقة نظرا لوجود صراع دائم بين المتنفذين فيها . تقول (مس بل) في تلك المذكرات أنها سألت نوري السعيد في لقاء خاص عن من يعتقده اصلح حاكم للعراق ... فأجابها بشيء من التردد بأن الفصل في ذلك الموضوع يتوقف على نتيجة الانتخابات الجارية بين زعماء المنطقة ... لقد كررت (مس بل) سؤالها من جديد واضافت قائلة : "انا اريد رأيك الشخصي ... فأنت تعلم جيدا يانوري بأن القرار النهائي سيكون لنا ... وعند سماع هذا التعليق اجاب نوري دون تردد : "ان الشريف فيصل ابن الحسين هو خير من يمكن انتخابه" .

كان نوري السعيد يؤمن بأن شخصية الملك فيصل الأول نادرة ، فقد لازمه في أيام الحرب والسلم على حد سواء ، واختبر نضوجه ومرونته ... وكان يعتقد الى جانب ذلك بأن نسبه الشريف سيمكنه من السيطرة على اصحاب المذاهب المتضاربة .

لقد اثبتت الظروف بأنه كان على حق ، والدليل على ذلك هو انه لما تقرر انتخاب حاكم للعراق اجتمع عدد لا يستهان به من زعماء المنطقة وسافروا الى الحجاز لمقابلة الشريف حسين ، وذلك لمبايعة نجله سمو الأمير فيصل للجلوس على عرش العراق .

نوري رجل العهد الهاشمي

ولما تم تأسيس المملكة العراقية الهاشمية بدأ الملك فيصل الأول بوضع برنامج شامل لإقامة دولة جديدة بالاشتراك مع اعضاء الرعيل الأول الذين ساندوه في الجهاد . واصبحت الأسس المتفق عليها حينذاك هي التي تنير لهم طرق العمل والتنفيذ فيما بعد .

كان نوري السعيد من اهم اعضاء الرعيل الأول ... والمعروف انه عاصر الملوك الهاشميين وهم الملك فيصل الأول ثم الملك غازي واخيرا الملك فيصل الثاني - وقد استمر في خدمة العرش الهاشمي الى النهاية سواء اكان في الحكم أو خارجه ... إذ كان يعتبر نفسه مسؤولا عن تنفيذ الخطط المرسومة التي تحافظ على سلامة العراق وعرشه . ونظرا للخدمات المتواصلة التي قدمها للبلاد مدة حياته ، والتي انتهت بوفاته وزوال الحكم الهاشمي في العراق ، يشير بعض المؤرخين في بريطانيا (كأنتوني نتنج) الى عهد المملكة الهاشمية في العراق بعهد نوري السعيد .

سجايا نوري السعيد

وقبل الشروع في تلخيص جهود نوري السعيد في الميادين العامة يجدر بنا الاشارة باختصار إلى بعض نواحي حياة نوري السعيد الخاصة وسجاياه الفطرية .

ان الحياة الرسمية كثيرا ما تضفي على شخصية رجال الدولة وتصورهم بشكل لا ينطبق على الواقع ومثل ذلك ان الحزم الاداري في قاموس البعض يلقب احيانا بالاستبداد ، كما ان التروي لبلوغ الاهداف السامية بالعجز والتقصير .

التربية النظامية

ومما لا جدال فيه هو ان التربية العسكرية كان لها اكبر الاثر في تكوين شخصيته . فكانت البساطة واضحة في مظهره وتصرفاته وطريقة معيشته ، ولم يكن في يوم من الايام يكترث بالعظمة والابهة .

كان يقوم مبكرا وبانتظام وكأنه في ثكنات الجيش ، فيذهب بنفسه إلى غرفة تحضير الافطار اولا ، دون ايقاظ زوجته أو الاستعانة بالخدم ، ليجلب لنفسه ماء الحلاقة الساخن وكوب الشاي المعتاد . وفي السنوات الاخيرة كانت تلحق به قطته المفضلة ، فيقدم لها الحليب بنفسه في إنائها الخاص ثم يتجه رأسا الى حجرة الراديو ليستمع لكل ما يدور حول العالم قبل الذهاب إلى دائرة العمل .

حياته العائلية

كانت رعايته لنا جميعا مثالية ... فكانت أم صباح صاحبة الارادة المطلقة داخل البيت وكان النظام فيه يسير بهدوء وبصورة طبيعية . وكنا نشكل وحدة عائلة منسجمة تجمعنا عادة مائدة طعام واحدة ، ولكننا كنا ننعم ايضا بحرية التصرف حسب ما تفرضه علينا ظروفنا الخاصة ومستلزمات الحياة الاجتماعية . فمن الذكريات التي لا تنسى جلساتنا العائلية مساء .في حديقة "أبو المسناية" على ضفاف دجلة . ففي تلك الجلسات كان يطيب لنوري السعيد ان يشاهد الطاهي وهو يشوي السمك المسكوف على الطريقة البغدادية في أحد اركان الحديقة ، إذ كان يستمتع بكل ما تذخر به بغداد من نعم وتراث ، فيأكل السمك المسكوف وهو يستمع إلى المقامات والاغاني التقليدية من دار الاذاعة ، وكثيرا ما كان يدعو بعض الفنانين والعازفين ومغني المقامات العراقية إلى الدار ، إذ كان يطرب لسماعها ويشعر بالراحة والاسترخاء .

البر بالضعفاء

كان البر ورعاية المسنين والضعفاء والمرضى من سجاياه الطبيعية . ومثال ذلك انه نظرا لكثرة مشاغله قرر نوري السعيد في السنوات الاخيرة ان يكتفي باستقبال الضيوف واصحاب الاعمال رسميا في مكتبه برئاسة الوزراء إلا في الاحوال الاستثنائية أو عند اقامة دعوات رسمية . ورغم ذلك ظل باب مكتبه في المنزل مفتوحا على الدوام لعدد من المسنين اذكر من بينهم ضباطا قدماء من زملائه كالسيد توفيق برتو والحاج منير ، إذ كانوا يواظبون على الحضور عصرا في اغلب الايام لاتقاء شر الوحدة في منازلهم ، وكأنهم من افراد العائلة . كان يحييهم ويلاطفهم من حين لآخر وهو يتصفح الجرائد أو يستمع إلى الراديو ، ويشترك احيانا معهم في الحديث عندما يحتسون القهوة أو يأكلون بعض ما لذ وطاب .

كانت دارنا ايضا مكتظة بالحيوانات الاليفة والطيور . وكانت له قطة مدللة لا تنام ليلا إلا عند قدميه حتى كانت أم صباح تسميها مداعبة بـ "ضرتي" . ومن تسلياته اليومية مشاهدة سرب البط الذي كان يسبح في النهر بجوار المنزل إذ كانو عند رؤيته يتسابقون لالتقاط الخبز الذي يحمله من فوق المائدة ليرميه لهم بعد الغداء . ومن الامور التي تستوجب الدهشة اصراره على رفض ذبح شاة في داره حتى بمناسبة عيد الاضحى المبارك . كان عذره في ذلك بانه يشعر وكأنه سمح بذبح لاجئ داخل منزله فيقول لأم صباح بمناسبة توزيع الاعانات التقليدية في الاعياد "... ارجوك يا نعيمة إرسال من يشتري كميات اللحم المطلوبة من السوق لأنني لا أسمح قط بذبح شاة تلجأ إلى داري ... هذا مستحيل ..." .

تصرفاته مع العامـــة

كان يعامل الخدم والحراس بكياسة وتواضع ، ويمر في الاسواق بديمقراطية ملحوظة ، فيرحب بقدومه صغار التجار ، إذ كان يحييهم ويداعبهم احيانا ، ويسألهم عن احوال السوق ، ويختار بنفسه الفواكه التي يشتريها منهم . ويقال ان هذه الفئة هي أكثر من افتقدته بعد الانقلاب . ومن الاهازيج الشعبية التي كان يترنم بها بعضهم في اركان السوق في زمن الحكومات المتعاقبة ما يلي :

داده نوري ايش نيّمك ؟
هذيك الليله ايش نيّمك ؟
وانت طول عمرك على الوطن سهران ...

رعاية الاحفاد والصغار بصورة عامة

كانت رعايته للحفيدين تفوق مظاهر الحنان الاعتيادي ، على الاخص اثناء طفولتهم . كان يناديهما بالقاب مضحكة مستعارة ، ويجلسهما على كتفيه أو يركض معهما في الحديقة حاملا طائرة الورق الهوائية على مشهد من كافة الحاضرين . كانت من اهم تسلياته اقامة دعوات للصغار في اوقات فراغه فيتوسطهم مع احفاده على المائدة ويلاعبهم ويتحدث اليهم ويوزع عليهم هدايا كان يشتريها خصيصا لهم ، وكان يجد في ذلك متعة واسترخاء من عناء الحكم . كان الانسجام بينه وبينهم عظيما وكان كل

منهم يشعر بانه المفضل عند "بابكا" ، إذ كانت كلمة "بابكا" هي تسميته السائدة بين الصغار .

وفي ذات يوم كنت جالسة الى جانب أم صباح بالقرب من مكان الضيافة فسمعنا نقاشا بين طفلتين تدعي كل منهما بانها هي المفضلة عند "بابكا" . لقد ضحكنا كثيرا عند سماع النقاش المذكور وفجأة قالت لي أم صباح بدهاء ... دعينا يا عصمت نقود الطفلتين حيث يجلس "بابكا" لنطلع ونرى كيف يمكنه معالجة هذا الموقف المحرج . وفعلا اخذنا الطفلتين وتوجهنا جميعا نحوه ... فوقفت أم صباح أمامه وإلى جانبها الطفلتين ثم قالت وهي تبتسم : "امامك غيدة ونهلة يا أبو صباح ... وكل واحدة منهما تدعي بأنها هي المفضلة عندك ! فاخبرنا انت بالحقيقة ... من هي المفضلة عندك ؟" كان السؤال محرجا فبدت الدهشة على وجهه ولكنه سيطر على نفسه في الحال وسرعان ما احتضن الطفلتين بلطف واجاب دون تردد : هذا سؤال عجيب يا نعيمة فانتم جميعا تعلمون بانني أفضل البنت العاقلة المجتهدة المطيعة ... ثم سكت دون تعليق ... وعند سماع ذلك انتصبت الطفلتان باعتزاز وقالت كل منهما على حدة" ... أسمعتم !؟ أنا المقصودة ... أنا المفضلة عند بابكا..." . وفي هذه القصة الصغيرة رغم بساطتها ما يظهر لنا جميعا قابلية نوري السعيد في معالجة المواقف المحرجة بدهاء وكياسة حتى في عالم الاطفال .

لم تقتصر رعاية نوري السعيد على أحفاده واصدقائهم بل كان يجمع اطفال الحي الفقراء في الاعياد وهم الذين كانوا يقطنون في البساتين التي تقع خلف الدار ، ويستعين بحفيديه فلاح وعصام وبعض الخدم لتوزيع المنح التقليدية عليهم في تلك المناسبات .

لم يكن يقوم بذلك فقط اثناء وجود حفيديه في الدار ... إذ عندما ذهب الحفيدان لاكمال دراستهما في لندن كان الجد يكتب لهما في كل اسبوع دون انقطاع حول ما يدور في بغداد بالتفصيل . وفي احدى تلك الرسائل يقول نوري السعيد بانه جمع أولاد الحي الفقراء ووزع عليهم الهدايا كالمعتاد واثناء ذلك طلب منهم الدعاء لفلاح وعصام بالنجاح .

وبناء على ما تقدم وشهادة المقربين إليه من أهل واصدقاء ما يثبت عكس ما كانت تذيعه عنه الدعايات المأجورة من بطش وقسوة .

أسلوبه في المناقشة والإقناع

كان اسلوب الاقناع سلاحه الناجح في السياسة وخارجها ، ويشهد له بذلك المعارضون من مواطنين واجانب على حد سواء . كان يستعين في مناقشاته بالمزح والدعابة حتى في مجالات السياسة للرد على المنتقدين . ومن القصص الطريفة ان نقاشا دار ذات مرة في المجلس النيابي حول حرية الانتخابات واعترض جهرا احد المحامين البارزين في حينه وقال ان حرية الانتخابات معدومة ، وان السلطات تساند على الدوام من ترغب في تعيينهم . كان في ذلك الاعتراض انتقاد صريح على سير الانتخابات ، فانتصب نوري السعيد رأسا عند سماع الاعتراض وقال بتهكم صارخ : "لك الحق ياصديقي فيما تدعي ... واكبر دليل على ماتقول هو وجودك في هذا المجلس كعضو منتخب". فغص الحاضرون بالضحك رغم قسوة التعليق ، ولكن نوري السعيد خفف وقعه على صديقه المعترض فطيب خاطره بعد ذلك بكياسة ثم قال له "البادئ اظلم" ياعزيزي لقد اجبرتني على الرد .

قـــوة الذاكــــرة

كانت قوة ذاكرته تسعفه على الدوام إذ كان يتذكر خصائص أغلب من يقابلهم وظروف المقابلة حتى لو مرت عليها سنون طويلة ومثال ذلك ما اشرت إليه في فصل سابق عن مقابلته لسفير المانيا الدكتور غروبا بعد مرور ٢٥ عاما .

قام السفير قبل مغادرته بغداد بزيارة نوري السعيد في منزله واقترح عليه انضمام العراق الى المانيا إذا قامت الحرب بينها وبين الحلفاء . فلما اراد نوري الحصول على الضمانات التي تثبت مدى المكاسب التي سيجنيها العراق من هذا التحالف أجابه السفير بأنها عهود شفوية ، وبناء على ذلك رفض نوري هذا العرض الشفوي قائلا بانه لا يثق إلا بالمعاهدات الكتابية . وعند سماع هذا التعليق قاطعه غروبا بعنف وقال له : ان الغلبة في الحرب ستكون حتما لألمانيا ياسيدي فويل لك حينئذ من غضب هتلر . فلما سمع نوري هذا التهديد احتضن عنقه بكفيه واجاب باستهزاء هذا عنقي ياعزيزي فليشنقني هتلر إذا وصل إلى العراق . والطريف في هذه القصة ان نوري تذكر رأسا هذه الحركة عند مقابلته غروبا بعد ٢٥ سنة وكررها امامه . فختمت هذه الدعابة لقاء الرجلين بطريقة ودية فكاهية .

وهكذا كانت النكته وسرعة الخاطر تسعف نوري في مواقف عديدة . ولا

حصر للقصص التي يذكرها المعارف والاصدقاء عنه فهي ربما تحتاج إلى مجلد كامل . وفيما يلي سنذكر في هـذه الخلاصة دوره في انشاء العراق ، ومتجزاته السياسية والاقتصادية .

الموصـل

لقد بدأ نوري السعيد جهوده عند تأسيس العراق بضمان حدودها ومحتوياتها ، فظل متمسكا بالموصل إذ كان يعتبرها بمثابة العنق من الجسد ... وكان يعلم بأنه لا يمكن ضمان ذلك إلا عن طريق معاهدة رسمية مع بريطانيا ، فالمعاهدة ستكون الضمان الأكيد للحفاظ على ولاية الموصل داخل العراق في وقت كان الأتراك يبذلون كل ما في وسعهم لضمها الى بلادهم .

ويقول نوري السعيد بأن المعاهدات حتى لو تضمنت قيودا فيجب ان تعقد لتثبيت حقوق معترف بها ... وقد تمسك نوري السعيد بهذا الرأي في حينه خوفا من ان يتكرر ما وقع للملك فيصل مع الفرنسيين في سورية عندما اضطر الى الخروج من البلاد بين عشية وضحاها لعدم وجود وثيقة كتابية رسمية تضمن بقاءه .

خطة تأسيس الدولة الناشئة

كانت معلومات نوري السعيد الواسعة عن المنطقة وتجاربه المتعددة تساعده على تفهم الاحتياجات الآتية التي تتطلبها الدول الناشئة والطرق التي يجب اتباعها وأولويتتها :

١ – فبرنامج التأسيس يتطلب أولا انشاء دوائر الأمن والشرطة لوقاية البلاد من الفوضى عند حدوث المنازعات الداخلية .

٢ – أما الخطوة الثانية التي اهتم بتحقيقها مع نسيبه جعفر العسكري فهي تنظيم قواعد الدفاع وتأسيس الجيش ... وفي اوراق المندوب السامي ما يثبت ان مشروع الجيش كان سببا في اختلافه مع بريطانيا في فبراير ١٩٢٨ .

٣ – كان وزيرا للدفاع في سنة ١٩٢٧ وفي الوثيقة رقم (٦٦) التي ارسلها الى رئيس الوزراء في شهر يونيو ما يثبت انه بدأ يدرك المخاطر المتوقعة من نوايا الجيران في البلاد المجاورة ، وفي ذلك ما جعله يحتاط على الدوام ما

يمكن ان تسببه الجيرة من أزمات عنصرية أو عقائدية ، فكان يسعى دون هوادة الى حل المشاكل المتعلقة بالحدود أو المصالح المشتركة .

٤ – أما الاستقلال فكان الهدف الذي تصبو اليه النفوس جميعا ... والجدير بالذكر هو ان الجهود التي بذلها اقطاب السياسة في العراق للحصول عليه كانت مرهقة للغاية نظرا لسياسة المماطلة التي كانت تتبعها بريطانيا للاحتفاظ بالامتيازات التي اكتسبتها منذ ١٩١٦ من جهة والقواعد العسكرية التي كانت تؤمن لهم الوصول الى مستعمراتهم في الشرق الأقصى بحرية تامة من جهة اخرى .

تقلده المسئولية

واخيرا وقع اختيار جلالة الملك فيصل الأول على نوري السعيد للقيام بأعباء الحكم وتجديد المطالبة بالاستقلال بعد ان فشل عدد من رؤوساء وزراء الدولة في هذا السبيل ... فأجابه نوري السعيد بما يلي : انني الجندي الذي مازلت منذ سنوات عديدة اتشرف بتنفيذ أوامر جلالتكم في أصعب مواقف الجهاد الحربي والسياسي لاعتقادي بسمو ما قمتم به وما ترمون اليه من تحقيق اعظم امنية يصبو اليها شعب جلالتكم ... تلك الأمنية التي هي الاستقلال التام لمملكة جلالتكم ... ولذلك لا يسعني قط ان اتردد في النزول عند أمر جلالتكم .

استقلال العراق

والجدير بالذكر هو ان التوفيق حالف نوري السعيد في تلك المفاوضات فتم التوقيع على معاهدة تعترف باستقلال المملكة العراقية الهاشمية ... واستمرت مساعي نوري السعيد بعد ذلك في هذا السبيل الى ان اصبح العراق في سنة ١٩٣٢ عضوا في عصبة الأمم فكان أول دولة عربية تنعم بالاستقلال من بين الدول العربية المحتلة .

وردا على من كانوا ينتقدون اجراء معاهدات مشروطة على الأخص عند المطالبة بالاستقلال كان نوري السعيد يقول لهم : ان الاستقلال المقيد ببنود لا يعني عدم الاستقلال ... فهو مرهون بما نمتلكه من قوة وامكانيات وأسلحة – فيجب ان تتوفر لدينا أولا تلك الأمكانيات حتى نتمكن من تجنب (المعاهدات) .

دعم الاقتصاد

كانت أهم خطوة بعد الحصول على الاستقلال وفوز العراق بعضوية عصبة الأمم هي دعم اقتصادها – فلم تترك تعاقب الفتوحات الهدامة والصراع المتواصل بين الأمم التي اكتسحت المنطقة منذ أيام (هولاكو) أثرا للمدنية التي اشرقت عليها في أيام الرشيد ، وذلك رغم الامكانيات الطبيعية والزراعية الكامنة بين النهرين ، إذ طغى عليها الاهمال والخراب بالتدريج .

كانت التركة التي ظلت في المنطقة بعد تقسيم الدولة العثمانية اراض اكثرها بائرة وانهارا متقلبة ثائرة وعمارا محدودا وطرقا وعرة ، فكان على العراق تجديد وبناء كل تلك المرافق المهملة من جديد .

كانت ميزانية الدولة حينذاك في عجز متواصل رغم وجود امكانيات طبيعية متعددة في المنطقة ، والسبب في ذلك قلة الأيدي العاملة ، إذ كان الاختصاص مفقوداً ورؤوس الأموال معدومة وكان الصراع المتواصل بين مختلف الشعوب القاطنة فيه يشل حركة التطور والنهوض .

لقد بدأ العراق يستخرج النفط من سنة ١٩٢٧ بكميات محدودة ، ولكن قبل ان يتوسع الاستثمار بطريقة مربحة زعزعت ظروف الحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص مشكلة فلسطين ، الأوضاع المالية في المنطقة بأسرها . وتحمل العراق حينذاك ضائقة مالية كبرى .

مجلس الاعمار

لم تتحسن الأحوال الاقتصادية بشكل محسوس بعد ذلك إلا عندما تمت مراجعة عقود النفط التي اجراها العراق مع شركات النفط العالمية في سنة ١٩٥١ فقرر نوري السعيد على اثر ذلك انشاء (مجلس الاعمار) لتأسيس نهضة اقتصادية مثالية في العراق .

كانت اتفاقية ١٩٥١ فاتحة عهد وازدهار ، إذ بدأ مجلس الاعمار بتخطيط طرق اقتصادية سليمة حتى يتم الانشاء على أسس مدروسة دون تبذير ... فالاقتصاد السليم عماد الأمم القوية .

لقد تمسك نوري السعيد عند انشاء هذا المجلس بأن لا يتعدى مصاريف الدولة ثلث الدخل العام ... حتى يظل ما تبقى من عوائد النفط لسد نفقات المشاريع

العمرانية من جهة ولاستثمار ما تبقى منها في مشاريع اقتصادية عالمية حتى يزداد دخل العراق .

افتتاح مجلس الاعمار

وعند افتتاح اسبوع مجلس الاعمار اذاع نوري السعيد الخطاب التالي في ٢٢ مارس ١٩٥٧ وقال فيه ما يلي :

"ان الذهب الذي يستخرج من أرض الشعب هو ملك للشعب . فهو من الشعب والى الشعب . ولذلك خصصنا سبعين في المائة من دخل النفط لمشاريع الأعمار".

ان مشروع الخمس سنوات الذي بدأ سنة ١٩٥٥ خصص ٣٠٠ مليون دينار لمساندة المشاريع المقررة ، وقد قال (انتوني نتنج) في كتاب عنوانه (I Saw for my-self) لقد شاهدت بنفسي ما يلي :

> "ان الشراء الحديث في العراق لا يصرف على أشياء تستهلك بعد حين ... بل أغلب ما يستخرج من أرضها يعاد لحرثها من جديد ، وزرع الصناعات الحديثة فيها ... الى جانب الاهتمام بتربية عقول بناءة في دولة حديثة يحكمها ملك شاب ، وخال بار ، ونوري السعيد الذي يدير دفة الأمور في أغلب الأحيان" .

انهم يشكلون كتلة ثلاثية نادرة تجتمع بين نشاط الشباب والتواضع والحكمة والاخلاص ويقول المستر (نتنج) ايضا ما يلي : "ان أقصى ما أثار في نفسي التقدير والاعجاب في العراق هو قناعتي بأن هذا البلد الناشيء سيكون خير مثل لجيرانه العرب ... وان المخطط الذي اتخذته نهضتها سترشدهم الى الطرق التي يجب اتباعها لصرف مواردهم دون تبذير .

ونضيف الى ما تقدم ما كتبه سفير الولايات المتحدة في بغداد المستر (جولمن) في كتاب عنوانه (العراق أثناء حكم نوري) وفيه يصف مذكراته والنهضة التي شاهدها في العراق . ونظرا للظروف القاسية التي مرت بها البلاد بعد الانقلاب أراد السفير الأمريكي ان يعرف عن كثب مشاعر الشعب العراقي الحقيقية قبل الرحيل ... أي بعد

مرور خمسة أشهر على الانقلاب المذكور فطلب من أحد معارفه الأمناء التجول في أسواق بغداد لسماع التعليقات الخفية التي تجري بين العامة – وعندما رجع الرجل من جولته قال ما يلي : ان الشعب بشكل عام يأسف لمقتل الملك ... ولكن العراق يحتاج الى شخص آخر كنوري السعيد إذا أراد ان يستقر وينهض كما نهض في الماضي ... وسيقام له تمثال في المستقبل حتما .

العراق وجيرانه

لم تنحصر جهود نوري السعيد في تنمية واحياء المملكة العراقية الهاشمية فقط ، فالعراق يتوسط منطقة بلاد ما بين النهرين ، وعلى حدوده تقع ايران وتركية والأردن والكويت ، والحكمة تستوجب رعاية مشاعر الآخاء والمودة وخدمة المصالح المشتركة بإخلاص كامل بين البلاد المتجاورة – وعلى الأخص بعد مرور أنابيب البترول في ربوعها .

ان الاشتراك والتضامن في بناء قواعد النهضة بين الأمم المتجاورة تكفل قيام مدنية شاملة في المنطقة بأسرها ... وهذا هو ما توخاه نوري السعيد عندما شرع في تأسيس ميثاق بغداد الدفاعي ... إذ يكفي الرجوع الى ما كان يتضمنه الميثاق من مشاريع اقتصادية وعمرانية وثقافية ، وهي التي ذكرناها في فصل سابق تحت عنوان "ميثاق بغداد" ، للأعتراف جهرا بأنه لو كان الميثاق قائما دون ان تلعب بمقدراته الدعايات المغرضة لاجتنبت المنطقة بأسرها مآسي الحرب العراقية الايرانية الدامية التي حطمت قواعد النهضة والاستقرار فيها ثماني سنوات كاملة .

نوري والدول العربية

كان نوري السعيد يعلم بأن الأمم الصغيرة دائمة التعرض للخطر ، فأراد ان ينقذ فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية على مائدة الصلح بوضعها ضمن منطقة الهلال الخصيب كوحدة مستقلة داخل اطار دولة عربية كبرى تضم أمما متعددة ، ولكن الاستعمار مع الأسف تجاهل هذا الحل المثالي وما زالت فلسطين الى يومنا هذا بوضعها الحاضر مصدر عدم استقرار في المنطقة بزسرها .

ويكفي الرجوع الى المفاوضات والمؤتمرات المتعددة التي حضرها نوري السعيد والتي ذكرناها في فصول سابقة لتقدير درجة اهتمامه بهذه القضية الجوهرية ... وفي

المقال الذي ظهر في مجلة (لايف انترناشيونال) الأمريكية في سنة ١٩٥٧ تحت عنوان (الوصية الأخيرة لنوري السعيد) ما يثبت اقتناعه بأن لا استقرار في الشرق الأوسط ان لم تحل قضية فلسطين حلا عادلا .

نوري السعيد ديمقراطي بالفطرة

لم يكن نوري السعيد يلجأ الى العنف أو التحدي في النقاش بل يفضل اسلوب المفاوضات السلمية ، ومن كلماته المأثورة "ضع المشاكل على الرف الى ان يحن الوقت المناسب لحلها ... ولكن كن يقظا واغتنم الفرص المؤاتية قبل فوات الوقت" .

ويشير الأسم الذي انتخبه للحزب الذي أنشأه في سنة ١٩٤٨ "حزب الاتحاد الدستوري" وهو نوع الحكم الذي كان يتمنى ان يسود العراق - فالاتحاد يجمع الفئات المتباينة التي تسكن في انحاء بلاد الرافدين ... والدستور يضمن احترام حقوقهم كمواطنين أحرار في دولة تقدر حسن الجوار والعدالة الاجتماعية - أما الأحكام العرفية التي كان يضطر ان يعلنها من حين الى حين فكان يعتبرها علاجا وقتيا محدودا في الأزمات لاتقاء شر الفوضى .

كان نوري السعيد يؤمن بالديمقراطية الصحيحة التي تعطي حق الفصل في الأمور العامة الى الطبقات الواعية الناضجة .

ومما لا شك فيه هو ان في الدول النامية طبقات عديدة تفتقر الى المعرفة والنضوج . وكثيرا ما تستغلها التيارات الهدامة في المناطق التي تبغى السيطرة عليها .

الديمقراطية في العالم العربي

إننا لا نغالي اذا قلنا ان الديمقراطية في العراق نشأت أثناء العهد الهاشمي ... إذ كان نظام الحكم المطلق هو السائد بين العشائر والبلاد العربية الأخرى .... ومازلت اذكر ما صرح به المرحوم عبد العزيز باشا فهمي عندما اطلع على دستور البرلمان الذي تقدم به ثروت باشا عندما ترأس الوزارة في مصر حين قال "المشروع جميل ولكنه ثوب فضفاض لا يصلح لبلاد النيل في الوقت الحاضر" .

أما نوري السعيد فقد كان ديمقراطيا بالفطرة وتشهد بذلك كافة تصرفاته ، فإذا راجعنا اسلوبه السياسي في المفاوضات والاتصالات الشخصية والدولية نجد انه كان

يحسن المساومات والاقناع ويستعملها مع كل من يحيط به ... فيخاطب الأطفال والصغار على قدر عقولهم ويناقش المعارض بصدر رحب .

لقد دفعه الشعور بوجوب احترام الديمقراطية في قوانين الجامعة العربية الى تعديل بعض الفقرات ، وفي الخطاب الذي وجهه لمعالي السكرتير العام في حينه ما يثبت ذلك ، إذ كانت كافة الاتفاقيات التي انجزها في حياته تعرض علنا على المسؤولين أو على المجلس النيابي . وعندما هاجم عملاء انقلاب ١٤ تموز على مبنى ميثاق بغداد بأمل الاستيلاء على بعض الأوراق المشبوهة لم يجدوا فيها ما يشوه سمعة الميثاق ، بل كانت كافة البنود هي التي أيدها اعضاء البرلمان في العراق بالاجماع عندما تم التوقيع عليه بصورة ديمقراطية .

ولإثبات ما تقدم ارى من الضرورة عرض بعض القصص الطريفة التي تظهر بأنه لم يكن يستخف بآراء من حوله بل يجتهد لإقناعهم بوجهة نظره ثم يترك للتاريخ ابداء الحكم المنصف .

فلم يلجأ الى تعطيل الصحف أو الى حل بعض الأحزاب المشبوهة أو البرلمان إلا اثناء الأزمات الحادة لاتقاء شر الفوضى ، ولمدد محدودة ... وكان الحكم للقضاء في موضوع الجرائم .

شهادة معارض

كان ذلك في عهد عبد السلام عارف عند تأسيس منظمة المقاومة الشعبية التي كانت تضم رجالا ونساء على حد سواء ... ويبدو ان تلك المؤسسة سببت في وقت ما بعض المشاكل الادارية التي ادت الى القبض على عناصر الشغب وحبسهم في ذات ليلة ، وكان من بينهم ابنة السيد رضا الشبيبي بالذات ، فاستشاط الشيخ غضبا عندما لم تعد ابنته الى الدار في الوقت المحدد ، فاتصل تلفونيا بعبد السلام عارف ، واسمعه عتابا قاسيا وطلب منه الافراج عن ابنته حالا .

لقد اراد عبد السلام أن يطيب خاطر الشيخ فذهب الى داره دون ابطاء ، وعند المواجهة طلب الشيخ رضا اليه الجلوس على مقعد مقابل ثم قال له ما يأتي : " لقد جلس نوري السعيد في يوم ما على نفس المقعد الذي تجلس عليه اليوم ، وذلك على اثر انفضاض جلسة حادة في المجلس النيابي في موضوع يتعلق بنشاط المظاهرات السياسية التي كان التلاميذ يقومون بها في حينه . لقد تمسكت شخصيا بضرورة

اعطاء الشباب حرية الرأي في أمور الدولة ، كان الجدل بيننا عنيفا فعارضت رأي نوري جهرا وبشدة ، فتركت المجلس غاضبا وعدت الى المنزل . وبعد رجوعي الى الدار بمدة قصيرة قيل لي ان نوري السعيد امام البيت ... ويطلب مقابلتي . واستمر الشيخ الشبيبي في حديثه وقال ما يلي :

دخل نوري القاعة بهدوء ، فأجلسته على نفس المقعد الذي تجلسون عليه اليوم . وعندما بدأنا الحديث قال لي نوري ما يلي : ياسيادة الشيخ انني مع احترامي لآرائك وتقديري لوطنيتك اقول لك إن "للظروف وللضرورة احكاما" ... فيجب على القوانين الموضوعة ان تصاغ بحيث تستطيع ان تواجه الأحداث في مختلف الظروف القائمة .

ان التيارات الهدامة التي تسري في العالم اليوم تسمم أفكار الشباب فيجب علينا من وقت لآخر استعمال الاحتياطات اللازمة حتى لا تفلت الأمور من أيدينا ، لأننا اذا تركنا العنان فسيأتي حتما اليوم الذي لا يستطيع العراق فيه المحافظة على سلامته أو حتى على عرض سكانه ... وقد حدث اليوم فعلا ما توقعه نوري السعيد في حينه ، وعليك الآن ان تأمر بإطلاق سراح ابنتي فورا ... وهكذا كان .

لقد استطاع نوري السعيد بتلك المرونة والاقناع السيطرة على مواقف متعددة ... ولا ننسى على الأخص الاجتماع الفريد الذي اجرى في المجلس النيابي للتصديق على ميثاق بغداد الدفاعي والذي ضم اصوات المؤيدين والمعارضين على حد سواء ، رغم التشهير الذي كان .

لم يكن نوري السعيد رجعي التفكير ، فذكاؤه الحاد ، وتجاربه ، واسفاره ، كانت تعوض نواقص تدريبه المبكر ... كان يناقش دون هياج أو تعصب ، ويعترف كل من حضر اجتماعاته الرسمية بسعة اطلاعه ... إذ كانت معرفته لمشاكل العالم وقابليته لتشخيص الداء يظهران جليا اثناء المناقشات - كان صاحب عقيدة ، ولكن باعتدال ، ولم يكن قاسيا عند ابداء رأيه في منافسيه .

كان لشخصيته هيبة ، ولحكمه حرمة ، فكان هو الشخص الذي يلجأ اليه العراق عند اشتداد الأزمات ، مع العلم انه لم يكن يفرض الأحكام العرفية الا في حالات استثنائية وذلك لمدد محدودة فقط .

شهادة الطلاب

لقد اشرنا فيما سبق الى تفشي نشاط الحرب الباردة والتيارات الهدامة في ربوع العراق ... وكان الطلاب والمعلمون وبعض الفئات الموتورة يتعاونون احيانا مع الشيوعيين و "انصار السلام" لإثارة الشغب . كان نوري السعيد يمقت زج الطلاب الثائرين في السجون ، ويحكي انه عندما زادت الفوضى ذات مرة وأدت الى اصطدام الشرطة بالطلاب واعتقل عدد كبير منهم ذهب نوري السعيد بنفسه الى المعتقل بعد العاشرة مساء وطلب مواجهة المعتقلين . ويروي لنا احد الطلاب المسجونين واسمه حكمت المخيلف ما يلي :

يقول الطالب ..."لقد صعقنا عندما سمعنا بأن رئيس الوزراء نوري السعيد يريد مواجهتنا ... كنا حوالي اربعين تلميذا ، وعندما حاصرتنا الشرطة اثناء المظاهرات قمنا بالدفاع عن أنفسنا بالضرب والاعتداء عليهم الى ان ساقونا الى السجن ، وعندما قرب نصف الليل قادنا الحراس الى الساحة لمواجهة نوري السعيد . لقد اعترانا حينذاك نوع من الفزع والدهشة والقلق على مصيرنا ، واذا بنوري السعيد يتوسطنا في تلك الساعة المتأخرة ليقول لنا ما يلي : "مساء الخير يأولادي .... لم احضر الى هنا ياابنائي لأوبخكم على مشاعركم الوطنية واعتراضكم على الاجراءات التي اتخذتها الحكومة بوضع قيود على الصحافة والقبض على عدد من الفئات المشبوهة ... إذ من حق كل مواطن ان يبدي آرائه في الأمور السياسية والادارية التي تقوم بها الدولة ، ولكن لا يجوز قط اعلان الرأي بالعنف ، والتعدي على الشرطة ، لقد جئت الى هنا لأطلب منكم احترام الشرطة ، فهم يقومون بواجباتهم لحفظ الأمن والاستقرار ، ولوضع حد للأستهتار والفوضى ، انهم يحافظون على منازلكم وأعراضكم وسلامة بلادنا ... وأهم واجباتنا كمواطنين هو مساعدتهم على حفظ الأمن في كافة ارجاء الدولة ... فأرجوكم احترام الشرطة – انهم سيطلقون سراحكم غدا فأرجو ان لا تخيبوا ظني فيكم ... ثم انصرف) .

لقد استطاع نوري السعيد بهذه الحركة الانسانية ان يطيب خواطرنا من جهة ، عندما اعترف ان لكل مواطن الحق في ابداء رأيه سياسيا ... ومن جهة اخرى طلب من رعاية القوانين التي تحمي البلاد من الفوضى واحترام القوات الرسمية التي تحافظ على الأمن والاستقرار فيها ، وكان في ذلك درس للطلاب .

ان في هذه الرواية ما يثبت ان نوري السعيد كان يجتهد على الدوام لمعالجة

الأمور بالحسنى ، ويخاطب الناس على قدر عقولهم . أما المعتقلون السياسيون من شيوعيين وغيرهم فكان الغرض من حجزهم من وقت لآخر هو ابعادهم من مراكز الاتصالات المريبة عند حدوث الأزمات ، والجدير بالذكر هو ان اعتقالهم المؤقت لم يكن يعرضهم لأي سوء ... فالمكان الذي كان كامل الجاردجي رئيس الحزب الشيوعي يحجز فيه احيانا كان فيه مكيفات للهواء ، وثلاجة لحفظ المرطبات ، وكان يسمح له بمقابلة اقاربه وضيوفه في أوقات محددة .

ويقول (جولمان) عند وصف قدرة نوري السعيد على معالجة عدم الاستقرار الذي كان يهدد احيانا انحاء العراق "بأن البلاد بموته فقدت أقوى حصن ضد الفوضى ان لم نقل ضد الوحشية" .

نوري السعيد حلال الأزمات

ان هذه القابلية النادرة في معالجة مشاكل ميادين السياسة بمهارة هي التي تفسر لنا تعدد تسلمه زمام الحكم في العراق كلما فرضته الظروف عليه – ومثل ذلك انه كان يستجم ذات مرة على اثر عملية جراحية قام بها في لندن في سنة ١٩٥٥ ويقول الملحق العسكري العراقي في السفارة العراقية وهو السيد خليل المفتي ما يلي :

وصلتنا الى السفارة اكوام من البرقيات لتهنئة نوري السعيد بالسلامة وكان في عدد كبير منها ما يشير الى وجود عدم استقرار في الأوضاع العامة في بغداد يستوجب رجوعه الى العراق وبسرعة – وفي ذات يوم رن جرس التليفون ... وكنت جالسة بجواره وكان ذلك اثناء الأزمة المشار اليها .

وكان المتكلم سمو الأمير عبد الآله ، فلما سألني اين نوري باشا ؟ اجبته بأنه مازال في فراشه وليس في وسعه التحرك للوصول الى جوار التليفون نظرا للعملية التي اجراها – فطلب مني ان ابلغه أطيب تمنياته وطلب ان ننقله الى جنب الهاتف في اليوم التالي حتى يتحدث معه في أمر مهم .

وفي اليوم التالي نقلنا المريض الى جوار التليفون ، وعندما تم الحديث بينهما سألته أم صباح بلهفة : ماذا يريدون منك ؟ فأجاب بتأثر ظاهر ... يبدو ان الوضع متأزم في العراق والمظاهرات تجتاز الشوارع بعنف ... وأرشد العمري غير مسيطر ، فالوصي يطلب حضوري الى بغداد في اقرب وقت ممكن ، واذا بأم صباح تصيح باضطراب قائلة : وصحتك ياأبو صباح ؟ انت محتاج للراحة ، كفى تضحية .. كفى ...

اتركهم يتصرفون ... لماذا تهلك نفسك من اجلهم ؟

وقعت هذه الكلمات كالصاعقة على نوري السعيد فصاح قائلا : اتركهم ؟ اتركهم للدمار ... كيف اتركهم ؟ العراق بالنسبة لي أغلى من ولدي صباح ... كيف اتركهم للفوضى ؟

انني مازلت اذكر الى يومنا هذا شدة هذه الانتفاضة ونحن الآن في سنة ١٩٩١ أي بعد مرور ما يتجاوز الثلاثين عاما من تاريخ استشهاد نوري السعيد ... لقد رحمه الله عندما اختاره قبل ان يشاهد فاجعة ما وصل اليه وطنه العزيز من تدهور متواصل بعد الانقلاب وما لحق بالعراق من دمار بعد نكسة حرب الخليج إذ كانت مشاعره بالنسبة لهذه الدولة مشاعر الأب الحنون المسئول .

وطنيته الصادقة

والجدير بالذكر ان كل من تعامل مع نوري السعيد رسميا يشهد له بالبراعة في المساومة والنقاش ... وعلى الأخص اقطاب رجال السياسة .

كانت وطنيته الصادقة تلهم اثناء المفاوضات ... فلم يفرط قط طول حياته بأي حق من حقوق الدولة ... بل كان ينتظر الفرص المواتية ليكرر مطالبه بالحاح في الوقت المناسب ... حتى لقبه احد وزراء بريطانيا مازحا بأبرع متسول سياسي صادفه في حياته . وبفضل هذه الجهود المتواصلة احرز العراق على مر الايام الاستقلال الكامل المنشود سنة ١٩٥٥ .

لم يكن نوري السعيد يلجأ الى العنف او التعدي اثناء المفاوضات ، ولكن التقارير السرية التي كشفت عنها الوثائق البريطانية فيما بعد تشهد على صلابة مواقفه عند النقاش ... فهي تظهر بوضوح شكاوى متعددة من سفراء المملكة المتحدة في بغداد الى وزارة الخارجية في بريطانيا سببها حرص نوري السعيد الشديد على بلاده . ورغم ذلك ترك اسلوبه المتزن الحكيم في نفوس المسوولين احتراما شاملا ... وفي كتب التعزية الواردة في آخر الكتاب والتي ارسلت من قبل شخصيات سياسية مرموقة لأرملة نوري السعيد بعد احداث ١٤ تموز ما يثبت ان الوطنية الصادقة وحرصه على مصلحة بلاده كانتا مصدر تقدير واحترام عام .

عدم اهتمامه بالدعاية

ان مما يدعو الى الأسف الشديد هو ان نوري السعيد رغم شدة ذكائه ومهارته السياسية لم يكن يكترث ويتذرع بأهم سلاح يعتمد عليه السياسيون في وقتنا الحاضر وهو سلاح الدعاية والاعلام .

ولقد اصبحت الدعاية اليوم فنا له اخراج محكم وبنود خاصة في ميزانية اغلب الدول ، ولكن نوري السعيد كان يتجاهل ذلك ويتحاشى الرد على الهجمات الأذاعية ... إذ كان يعتبر التشهير على امواج الأثير ، على الأخص بين أمم تجمعها روابط الأخوة ، عارا واستهتارا ... فكان لا يقبل ان ترد اذاعة بغداد على هجمات صوت العرب ... وعندما كنا نعترض على سكوته كان يقول دون هياج وعلى شفتيه ابتسامة حزينة ... سامحهم الله ... لابد ان يأتي اليوم الذي تنشر فيه الوثائق التاريخية لاطلاع الجمهور عليها ... وايقاف التضليل عند حده ... ان ما تسمعونه هو تهريج بعض الموتورين المأجورين – ولكن عندما تجاوز التشهير الحدود الانسانية وطفح الكأس اضطر نوري السعيد ان يخاطب العالم علنا على امواج الأثير من اذاعة بغداد في سنة ١٩٥٧ وكان خطابه مؤثرا .. دافع فيه عن سياسته وكرامته بطريقة مشرفة ونص الخطاب في فصل آخر .

لقد سردنا فيما تقدم جهود نوري السعيد كرجل دولة ، كما وصفنا طراز حكمه ونشاطه في الميادين السياسية ، ويجدر بنا الآن قبل الاختتام الاشارة باختصار الى السجايا الانسانية التي كان يتحلى بها :

السجايا الانسانية

كان البر ورعاية الضعفاء والأطفال والحيوانات من سجاياه الطبيعية ... فكان يهتم بإقامة دعوات للصغار في أيام فراغه فيتوسطهم مع احفاده على المائدة ويلاعبهم ويناقشهم ويوزع عليهم هدايا كان يشتريها خصيصا لهم ويجد في ذلك متعة واسترخاء من عناء الحكم .

والى جانب ذلك كان يجمع أطفال الحي الفقير في الأعياد وهم الذين كانوا يقطنون خلف الدار قرب البساتين ، ويستعين بأحفاده فلاح وعصام وبعض الخدم لتوزيع المنح التقليدية عليهم في تلك المناسبات .

لم يكن يقوم بذلك فقط اثناء وجود احفاده في الدار ... إذ عندما ذهب

الحفيدان لإكمال دراستهما في لندن كان الجد يكتب لهما في كل اسبوع دون انقطاع ما يدور في بغداد بالتفصيل وفي احدى تلك الرسائل يقول نوري السعيد بأنه جمع الأولاد الفقراء في احد الأعياد ووزع عليهم الهدايا كالمعتاد واثناء ذلك طلب منهم الدعاء لفلاح وعصام بالنجاح .

وبناء على كل ما تقدم ، وشهادة المقربين اليه من أهل واصدقاء ما يثبت عكس ما كانت تذيعه عنه الدعايات المأجورة من بطش وشدة .

اهتمامه بالفنون

ورغم هذه المشاغل المتعددة يجب علينا ان نشير ايضا الى اهتمامه بالنهضة الفنية في بلاد الرافدين ... فهو الذي قام بتأسيس المعهد الفني للموسيقى في العراق تحت اشراف الشريف محي الدين حيدر ، كما كان يشجع أقطاب الموسيقى العراقية بكافة الوسائل ... واذكر مرة انه رجع من معرض لعدد من الفنانين العراقيين ومعه ما يقارب عشر لوحات مختلفة وطلب تعليقها جميعا في مختلف ارجاء المنزل ... وعندما فكرنا ان ننتقي فقط قطعة او قطعتين من هذه المجموعة اعترض نوري السعيد على هذا الاقتراح قائلا : لقد اشتريت نماذج من كافة الفنانين الذين قاموا بعرض صورهم ويهمني ان يعلموا بأن صورهم غير مهملة بل معروضة في داري ... فيكون ذلك تشجيعا لهم على خدمة الفن .

نهاية حلال الازمات

والجدير بالذكر هو انه بعد تأسيس الاتحاد العربي في ١٩٥٨ ترأس نوري السعيد الوزارة التي تجمع الدولتين العراقية والأردنية ، وحينئذ ارتخت سيطرته على العراق وانشغل بتنظيم العلاقات الدولية الخاصة بالمنطقة وتغيب مرارا عن العراق ... وكان رئيس الوزراء السيد احمد مختار بابان هو القائم بإدارة شؤون الدولة في هذه الفترة الحرجة .

وفي اوائل شهر يوليو سافر نوري السعيد الى لندن برفقة زوجته للألتحاق بأحفادهما وقضاء الصيف معهما ... وكان عليه ايضا حضور الاجتماع الدوري لميثاق بغداد في الشهر المذكور ، والى جانب ذلك كان جلالة الملك فيصل سيقوم بزيارة لندن في الرابع عشر من شهر يوليو ... ولكن يبدو ان مشاكل جديدة ظهرت في العراق

قبل سفر جلالة الملك الى لندن وبناء على ذلك ارسلت برقية رسمية الى نوري السعيد يطلب اليه الرجوع مؤقتا الى بغداد للتشاور ... على ان يسافر ثانية مع جلالة الملك فيصل الى لندن في الرابع عشر من شهر يوليو لحضور اجتماع ميثاق بغداد ... فلبى نوري السعيد نداء الواجب مرة اخرى ... فاضطر الى ركوب طيارة نقل ويجلس الى جانب الطيار لعدم وجود طائرة ركاب تصل الى بغداد في التاريخ المحدد ، وذلك للأشتراك في حل المشكلة القائمة ، وبعد أيام معدودة وفي التاريخ المحدد بالذات لسفر جلالة الملك ونوري السعيد الى لندن قام المتآمرون في الخفاء بتنظيم الانقلاب الموعود بسرية تامة ... فتم القضاء على العائلة المالكة بأسرها وعلى نوري السعيد الذي كان سندا للعرش والعهد الهاشمي وهكذا انتهى هذا العهد الخير عندما فقد العراق من كان يسمى بحلال الأزمات" .

الخاتمة

ان في حصر الخدمات التي يقدمها رجال الدولة اثناء حياتهم السياسية ، وسرد الفوائد التي جنتها البلاد على أيديهم تقدبرا لوزنهم السياسي ... وفي الجهود التي قام بها نوري السعيد منذ تأسيس العراق لبناء قواعد الدولة والمحافظة على العرش ما يكفل له في سجل تاريخ العراق مقاما فريدا ... فمما سردناه ما يثبت بأنه كان يتمتع بالحكم وبعد النظر الى جانب الحزم المقرون بالكياسة وبديمقراطية متزنة .

وتأييدا لما تقدم نشير الى ما كتبه (السير انتوني ناتنج) في كتابه التاريخي الملقب بـ (العرب) - ففي الفصل الذي سماه بعهد نوري السعيد جاء فيه ما يلي :

"كثيرا ما تنكر الأفضال في ميادين السياسة ، وتنعدم الرحمة عند قيام الثورات ، ولكن مما لا شك فيه هو ان مهما تبدلت الأوضاع في المستقبل فإن العراق كدولة حديثة مزدهرة ، بعد ان خضعت للحكم العثماني مدة أربعة قرون ، ستبقى مدينة بما لا يقدر لجهود نوري السعيد الجبارة وهمته كرجل دولة" .

الملاحـق

الملحق ١ – من الاهازيج الشعبية التي كان يترنم بها الباعة في السوق أثناء الحكومات المتعاقبة .

الملحق ٢ – قصـــائـد :

معروف الرصافي :

١) بمناسبة منح نوري السعيد وسام الرافدين.

قصيدتان للشاعر محمد مهدي الجواهري :

٢) لتكن جازمة – انها وزارة مفاوضات (نظمها سنة ١٩٣٠ بمناسبة تشكيل نوري السعيد وزارته الأولى .

٣) الزعيـــم

٤) قصيدة للشاعر نعمان ماهر الكنعاني

٥) قصيدة تمجيد وتأبين للشاعر عبد الله بكر

الملحق ٣ – تقييم كتبه السير هارولد بيلي القائم باعمال السفارة البريطانية في بغداد والسفير في القاهرة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد نوري السعيد .

الملحق ٤ – رسائل تعزية بمناسبة استشهاد نوري السعيد الى زوجته :

١) رسـالة من هارولد مـاكـمـيلان (رئيس وزراء بريطانيـا السابق) .

٢) رســالة من سلوين لويد (وزيـر خـارجيـة بـريطانيـا في حكومة ماكميلان)

٣) السـر فرانسيس همفريز (المندوب السامي البريطاني في العراق و أول سفير بريطاني فيها) .

الملــــحق (١)

اهازيج

من الأهازيج الشعبية التي كان يترنم بها الباعة في السوق اثناء الحكومات المتعاقبة

قبرك وين ؟
يا شهيد الرافدين

نوري يا رمز الوفا
ياشهيد الرافدين

فديت التاج والوطن
بالروح ونور العين

وفاك ما يساعه قبر
إبكي الدما يا عين

صدرك في يوم القَدر
حضن بغداد الصوبين

حضنت ترابها
مسدتها باليدين

بغداد صارت لك قبر
من الكرخ للكاظمين

وسماها اصبح لك كفن
يا شهيد الرافدين

الملــحق (٢)

القصــــائد

معروف الرصافي : بمناسبة منح نوري السعيد وسام الرافدين.
قصيدتان للشاعر محمد مهدي الجواهري :
١) لتكن جازمة - انها وزارة مفاوضات (نظمها سنة ١٩٣٠ بمناسبة تشكيل نوري السعيد وزارته الأولى . ٢) الزعيــــم

(١)
معروف الرصافي
عند منحه وسام الرافدين

القاها الشاعر في البلاط الملكي ببغداد حين انعم جلالة الملك فيصل الأول على فخامة رئيس الوزراء نوري السعيد (رحمهما الله) بوسام الرافدين من الدرجة الأولى .
تاريخ الحفل ٢٦ آذاز ١٩٣٣

ته يا وسام الرافدين بصدر من	هو في العلى للرافدين وسام
نوري السعيد ابو صباح من به	سعد العراق فثغره بسام
قد انعم الملك المطاع به لكي	يزدان فيه وزيره الضرغام
يا حبذا ذاك الوزير وحبذا	الملك المطاع وحبذا الانعام
زهى الوسام بصورة فكأنه	تاج المليك يحفه الاعظام
صدر اذا الخطب ادلهم تلألأت	فيه السجايا الغر والاحلام
واذا تنهدت الصدور لحادث	بدت الشجاعة منه والاقدام
ليس التفاخر بالوسام يهمه	ولو انه افتخرت به الأقوام
بل همه ان تستقل حكومة	ويتم في أمر البلاد نظام
فعلى البلاد من الرئيس تحية	وعلى الرئيس تحية وسلام

(٢)
محمد مهدي الجواهــري

لتكن جازمة
انها وزارة المفاوضات

نظمت سنة ١٩٣٠ بمناسبة تشكيل فخامة نوري باشا السعيد وزارته الأولى*

لقـد أزمت – وأنت بهـا حفي – فــأين العـزم والقلـب الذكـــي
وقـد كـادت تقـول لفـرط جـوع "كـفـاني من غـنـى شـبـع وري"
وقـد مــدح التـذبـذب والتـرامي لأن الحكم حـكـم فـــوضـــوي
وحـسبك أن تصيخ إلى الشكاوى لتـسـمـعـهـا إذا احـتـفـل النـــدي
فـقـد كـثـرت شتائم مـقـذعـات .. مــصـــارحـــة يؤيدهـا النجـــي
وليس لهـا ســـواك أبا صـبـــاح تداركـهـا فـقـد بـرح الخفي يكن
ومــد لهـا يديـك بلا ارتجـــاف عـضــديهـا شـعـب أبــــي –
وقـد كـثـر العـقـوق فكن وفـيـا وينفع قومه الرجـــل الوفـــي –
تسـلـمـهـا واحكم جـانبـيـهـا – وان تصدق – فأنت بها حرى

* ديوان الجواهري – طبعة ، النجف ، سنة ١٩٣٥م – صفحة ، ١١٠ – ١١٣

ومـارسـهـا بقـــوة عنجـهي ... ولا يغــررك انـــك أريحـــي
فللتـأهـيل والتـرحـيب يـــوم ... وهـذا يـــوم يفـتـقـد القـــوي
وأنت إذا اسـتـحـر الخط شـيخ ... بصـــيـر بالعواقـب لـــوذعي
وقـام على طليعـتـهـا خـــؤون ... عـــلى عـــورات أهليـه ربـــي
يقــدس عندها في الشـر وغـد ... وينفـعـهـا لـــدى الجـلّى صـبي
وربـــة فتنـــة أعـيـت ذكـــيا ... أثـــار عجاجـهـا فـدم غـبـي
تلام بنـــو البـــلاد على ازدراء ... بـــذاك ولا يـــلام الأجنبـــي
فـإن الملك مـحـــبوب عقـــيم ... وان الحكـــم مطلب شـــهي
بكل عـوجـــوا فـأبوا شـــفـاءا ... وآخـر مـا لديك اليـــوم كـــي
تداركـهـا فـإن صـادفـت حظـــا ... لتنهـضـــهـا فأنت إذاً حظـــي
وإلا فلنعـف وطـنا شـــــقــيا ... فماذا ينفع الوطـــن الشـــقي
وأعـــزز أن يهـان وأنت فـيـــه ... وان يقـضي عليـه وأنت حـــي
على اسم (القوة الحمراء) جرب ... نـشـــاطك أيهـــا البطل الجـــري
وان ترَ خطـــة للنجح أدعـــى ... فـدونكـهـا وإن كـثـر النعـــي
وهب أن الدمـاء تريد مجـرى ... فـشـق لهـا لينـدفـع الأتـــي
فـإن لـم يرق بالتلطيف شـعـب ... فـبـالارهاب فليكـــن الرقـــي
فحـصت ذخـائر التـأريخ طـرا ... فكان أجلهـــن المشـرفـــي
وكـان إذا تناكـصت الصـفـايا ... تقـدم وحده هـذا الصـــفـــي
رأيت المـال يعـبـده جـــبـان ... رأيت السـيف يعـبـده كـمـــي
رأيت العلم يخـذل حـامليـــه ... رأيت العقل يحمله شـــقي
رأيت "أبا الحتـوف" إليه يلجـأ ... - إذا ضاقـت به - حتى النبـي

عـيـيت أبا صـبـاح عن أمـــور* * *ملجلجـة وما بي قبـل عـــي
ولو لـم تلهب الأشـجـان نفـسي ... فـتوريـــهـا لما التـهـب الـــروي
وحكم "عـــسكري" مـثل هذا ... يـراد له أريـب عـسكـــري
ستخـبو شاعريتـه ذي شـــعور ... ويـرزا العبـقرية عبقــــري

(٣)
محمد مهدي الجواهري

الزعيم*

عليك سلام أيها البطل الفرد ... تطالعك البشرى ويخدمك السعد

زعيم رأت فيك الزعامة قادرا ... عليك وجندي يقدرك ، الجند هما

حلفت لقد أبديت جهدا وقدرة ... كل ما يستطيعه العقل والجهد

لطيف لدى التدبير سهل مراسه ... وصعب اذا اشتدت أعاديه يشتد

يدلك يطريها الحجاز وأهله ... وتذكرها مصر وتشكرها نجد

رجعت بوجه بين النجح أبيض ... على حين خابت أوجه فهي تسود

وأخرى على مرّ الليالي طرية ... يقدرها الرب المهيمن والعبد

سحبت يد الأوباش من كل بقعة ... رأى الجمع فيها كيف يأكله الرغد

واقسم لولا ان ركنا يحوطهم ... لكانت بعيدا عنهم العيشة الرغد

ولكن دارا تجمع اليوم شملهم ... بصاحبها اعتدوا كما كان يعتد

وأنت اذا انجلت كرب ظريف ... لطيف في تصرفه حبي

* ديوان الجواهري – طبعة سنة ١٩٣٥م – صفحة/٢٥٩ – ٢٦٠ ، والمقصود بالزعيم : نوري السعيد

ومما أدعـوك أن يلتـاث سـن ... ضـحوك منك أو وجـه رضـي
ولكن أرتجـي عزمـا صـليبا ... به يتمـاسـك الحـبل الرخـي
تلق على البديهـيـة كل سـوء ... بأسـوأ منه يرهـبك الغـوي
وان هاجت عليك "أبا صـبـاح" ... "دجاجات" دعـاها (الثعلبـي)
وخف اليك من هـنا وهـنا ... يحـاول لعبـة (هي) و (بي) !!
فلا يشغلك أمرهـم ولكـن ... أر الأقـوام انـك ألمعـي
وقل لهم استـقروا واطمأنـوا ... فليس لكم من الأشـياء شـي
تراجـع أنت انك لست منهـم ... ودونـك أنت انك أشـعـبي
ومن عـامين قـام لهم ضجيـج ... لـه فـي كل سـامعـة دوي ..
بلندن حيث غـودر مسـتظامـا ... هـناك مجدعـا انـف حمـي
وافـرد أصـيد تأبى الدنايـا ... له التـاريـخ والحسب الزكـي
مـؤامـرة أتمـوها بلـيل ... علـى أن ينـهـك الوطن الـرزي ..
وكان العـنف طـبهم ولكـن ... أرادوها مسامحـة فعـيوا

مـضى دور الشـراة وجـاء دور ... يجـل عن القـيـام به شـرى
مضـت فرق لهـم خطط وضـاح* * *منظمـة ومـعـتـقـد جلـي
مقاومـة لحكم قاطـعوه .. ... "مـعـاويـة" أتاه أم "عـلي"
وجاءتنا مـذبذبـة خطاهـا ... يسـيـرها جـهـول أو دعـي
يغـادرها على سـمـة صـبـاح ... ويدركـها على الأخـرى عشـي
وتقـفـوها على الاعـبـاء هـوج ... تؤمـل حـصـة ان فـاءَ فـي
أضـر الملك ديـني عـنود ... وكـان أضـر منه دنيـوي
ومن شـر "الخـوارج" خـارجـي ... يهون عليه موطـنه الرمـي
وسـائط كـل محـتل وجـان ... إلـى تنفـيذ مأربـه مطـي
ولـم تـزل الـسياسـة ان أرادت ... دمـار الشـعب أنجـدها دنـي
هـم نصبوهـم للأمانـي دنيـة ... وهاهم وقد أقصوا لاحضانهم ردوا
ألم تر ملصـوقـا بهم كل مـارق ... نصيب ذويه عندك العزل والطرد ...
أعـيذك نوري أن تـفكـر سـاعـة ... بما جـاء طمـاع ومـا راح مـرتـد
وعـفـوا فـهم قـوم رأوك شـأوتهـم ... وجئت بما لا يستطيعون فاحتدوا

وهل سمعت اذن امرئ ان معشـرا رضـوا أن يغطي مجدهم معشر ضد
هو الشيء بدر التم مـا دام منهـم ولكنه من غيـرهـم سـمج قـرد
ولو لم يكن عفـو فإوجع قتلـة لهم أن يروا عـمـر الوزارة يمتـد
فقل لمناكـيد نعم لاح سـعده ؟ وللقـادح الكابي نعم ورى الزنـد
ألم تعلمـوا ان السيـاسـة خطـة يفـوز بهـا الواعي كـمـا لعب النرد
وللحظ والأقـدار دخل وانمـا نهـايتـه أن يجـمع الجـد والجـد
وللحكم أهل يعرفـون صـفـاتـه كـمـا اشتـرطت يومـا على خـاطب
فدونكم صم الجلاميد فاعضضـوا دعـد عليهـا فقـد يشـفيكم الحجـر
فـقـد علم الأقـوام ان ليس عندكم الصلد سـوى خطف كرسي ومنضدة
وهيـهات هيـهات الكراسي ولمسهـا قصـد فمـن دونهـا سـد ومن دونكم
فـقـد جـربت بـالأمس مـاذا تركـتم سـد عليـهن من خـزي فـهل عندكم
وابعـد منهـن المناضـد بعـد لأصحابكم من فوق أظهـركم
فليكـن نضـد

(٤)

نعمان ماهر الكنعاني

عند الغاء المعاهدة العراقية البريطانية عام ١٩٥٥

نظمها عندما قام فخامة المرحوم نوري باشا السعيد بالغاء المعاهدة العراقية البريطانية لعام ١٩٣٠ وذلك في عام ١٩٥٥م .

لولا اجتنابي ان يقولوا مادحـا ... ما زادا عما تفعل الشعراء

لنظمت فيك الطالعات الى العلا ... بعقود مدح كلها لألاء

فلأنت عاقدها غداة وجدتها ... درعا به للرافدين وقاء

ولأنت ملقيها غداة وجدتها ... درء به التشهير والازراء

يا بن السعيد وللرجولة حقها ... حاشاك مما تزعم الشحناء

(٥)
عبد الله بكر

تمجيـــد وتـأبيـــن

قصيدة نظمها السيد عبد الله بكر وزير خارجية سابق ورئيس الديوان الملكي عام ١٩٥٨

نـوري قضيت وكل فرد هـــــالك ... مهما تـقـدم في الســنين وعــــمرا
فلقـد سلخـت من السـنين عديدهـا ... وحكمت جـيلا كامـلا أو اكــثرا
ورفلـت فــــي عـز ويمـن دائـــم ... والناس تشـهد فيك كنت الأجـدرا
لـو رمت مــالا كـنـت واسع ثـروة ... أو رمت سـلطانا لكنت الأكــــبرا
الحكـم ترجـــوه وترغـب دائمـا ... فــيــه لرفــعــة أمــة فــوق الـــذرا
لا المال تهـواه ولا تبغـى له جمعـا ... كمـا فعـل العـديد من الــــورا
بل كنت تزهـد فيه انفاقا عــــلى ... من كان في ضـيق وفيـه تحــــيرا
الحـزم والأخـاص فـيك تـمثـــلا ... فيما تقــوم به وفـيك تصــــورا
أما الوفاء فكنت حافـظ عهـــــده ... والكل يعلــم ان ذلك ما جـــرى
والحكم كنت تـراه خدمـة أمـــة

هـذا العراق وانت كنت حكيمـه ... لا سلّما للكسب أو نيل الثرا لا

يبكيك هـذا اليوم من عين دما ... أوحدا فيه ولا متجبرا

كنت المليك تحبه وتطيعه ... وجبينه ندما عليك تعفرا

عهد الرخاء دعوه باسمك بعدما ... كنظام حكم كنت فيه اخبرا

يكفيك فخرا ان عهدا زاهرا ... ذاقوا من الأيام ما هو اعسرا

أسست مدرسة وكنت زعيمها ... انشأته فغدا باسمك ذاكرا

أو كنت نبراسا انار مجاهلا ... في الحكم كانت للعروبة منبرا

اعداؤك اعترفوا بفضلك بعدما ... في الحكم أو كنت السراج النيرا

كان العراق بعهد حكمك قائما ... وجدوا الطريق على غيابك مقفرا

واليوم اضحى لا يبين طريقه ... صلبا رفيعا للنجوم محيرا

فتن وثورات يتابع بعضها ... ومسيره أمسى به متعثرا

والشعب اضحى في اختلاف دائم ... بعضا وسيل الدم أمسى مهدرا

والبيت منقسم على أبنائه ... فرقا وكل في طريق قد جرى

لا الخلق امسى رادعا عن مأثم ... كل بما يرضى هواه قد انبرا

قيم الوجود جميعها قد أبطلت ... ولا دين حنيف منذرا

انا نعيش بذلة ومهانة ... كي ما يحلّ بنا الفساد ويكثرا

هل مثل هذا ما اراد معارض ... وبعهد سوء كنت منه محذرا

أم ان هذي خطة مدروسة ... ولنهج حكمك بانتقاد جاهرا

وتفنن العملاء في تخريبهم ... سار العدو على هواها واجترا

بل كنت خير مواطن لبلاده ... كل له درب عليه قد سرا

نوري فقدنا فيك حكمة قائد ... يسعى لينجيها اذا خطب جرا

نوري عرفتك خير ربان على ... كنت الجدير بأمرنا والمصدرا

والحكم فن واختصاص قائم ... دف القيادة في الخطوب مسيرا

أو كل من حمل اليراعة كاتبا ... ما كل من قاد السفينة أبحرا

انت العروبة قد اقمت صروحها ... أو كل من دخل المعارك عنترا

ورفعت في الحربين انت لواءها ... ومشيت في ساحاتها متنكرا

وجمعت شمل العرب في مجموعة ... لا تدعي فضلا ولا متكبرا

خططت عمران البلاد بمجلس
لو طال فيه العهد في منهاجه
لفدا العراق بواديه جنة
حسد وحقد قادنا في نوره
فإذا اشرت لبعض فضلك ذاكرا
بل خدمة للحق والانصاف في
فلقد عرفتك ربع قرن كامل
فوجدت فيك شمائلا وفضائلا
والجد والايمان فيما تدعي
ما أنصفوك بما اذاعوا عنك من
يأبى ولاؤك ان تضمك حفرة
بغداد قلبك ما تبقت بقعة
ثم انثنت ذرات جسمك صعدا
فعليك رحمة ربنا ورضاوه

دول العروبة كنت فيها المحورا
والمنال من نفط البلاد تقطرا
وجرى به تنفيذ ما قد قررا
وبرافديه في المسيرة كوثرا
واللؤم كان لما اريد مدبرا
لا لبس فيما ذكرت ولا افترا
تدوين ما قد كنت فيه اخبرا
أو ينوف عليه حدا اكبرا
الجود فيها والشجاعة جوهرا
لا تبتغي ربحا ولا كسبا ترى
قول على صلب الحقيقة مجترا
فلأنت اجدر ان تضم الأنهرا
إلا لثمت ترابها متعفرا
لتضم أرض الرافدين وأكثرا
ما لاح بدر في الدياجي نيرا

الملـــحق (٣)

تقييم كتبه
السير هارولد بيلي

القائم بأعمال السفارة البريطانية في بغداد، والسفير في القاهرة، بمناسبة الذكرى
المئوية لميلاد نوري السعيد

نوري السعيد

ولد نوري السعيد في بغداد في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٨٨ ، وفي المدة بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٥٨ ألف أربع عشرة وزارة في العراق ، عائدا الى السلطة بعد فترة من الزمن ، لا أقل من سبع مرات . ودون أي اجراء مخالف للدستور ، أو أي طموح الى الدكتاتورية ، وكون لنفسه سيطرة شخصية خلال الفترة بين استقلال البلاد وسقوط الملكية فيها ، وصار يعرف ، للجميع بمجرد لقب "الباشا" وانني لأتذكر وزيرا سابقا ، ورئيس وزراء فيما بعد ، كان يفكر – بصوت مسموع في حضوري – أيقبل أم يرفض دعوة تلقاها للاشتراك في حكومة كانت بسبيل ان تؤلف ، اقترحت عليه ان يستشير نوري ، فقال : "طبعا .. لقد فعلت ذلك . ان نوري مرشدنا واستاذنا" .

كان لقوته مصدران : قوة شخصيته هو ، وعلاقته مع البيت الهاشمي .

تلقى تدريبه كضابط عثماني ، وقاتل في حرب البلقان في سنة ١٩١٢ ، وانضم الى الجمعيات السرية العربية ، وهرب في عشية الحرب العالمية الأولى ، وأصبح رئيسا لأركان الأمير فيصل في حملة الصحراء لسنة ١٩١٦–١٩١٨ التي وصفها تي . ايه . لورنس وصفا خالدا . وبعد ان استقر في خدمة فيصل خلال فترة حكمه القصيرة في

دمشق ، وقبيل تتويجه كأول ملك للعراق ، عاد نوري الى بغداد ، حيث كتبت غيرترود بيل عن لقائهما الأول : "في اللحظة التي رأيته فيها أدركت أننا أمام قوة ذات بأس ومرونة ، وعلينا ان نستعملها ، أو ندخل في صراع شاق".

وتوفي فيصل الأول في سنة ١٩٣٣ ، وبعد حكم ابنه لمدة قصيرة انتقل العرش الى فيصل الذي كان عمره ٤ سنوات ، ودشن ذلك عهد وصاية طويلة لخاله الأمير عبد الاله الذي كان ، بوصفه وصيا حتى بلوغ الملك السن القانونية في سنة ١٩٥٣ ، ثم بوصفه وليا للعهد من ذلك ، وثيق الصلة بنوري ، الى حين القضاء على كليهما في ثورة ١٩٥٨ ، ان حرارة علاقتهما كانت متقلبة ، ولكنهما ظلا حتى النهاية لا غنى لأحدهما عن الآخر .

وكان من نتائج هذه الخلفية أن اهتمامات نوري ومصالحه لم تكن قاصرة على العراق . لقد كان قوميا عربيا ، على الرغم من ان هذا الوصف يكون مضللا اذا تُرك دون مزيد من التعريف . انه لم يشارك في المفهوم الايدولوجي والشمولي للعالم العربي كما صوره جمال عبد الناصر . فهو لم يكن كبير الاهتمام بالجزيرة العربية ، ولا بغربي العالم العربي ، من مصر الى المغرب . واعتقد ان ما كان يأمله بين الحربين العالميتين هو ان يواصل وينمّي في الهلال الخصيب نظاما عثمانيا بدون تركية . ان يكون هناك طراز من نظام حكم كونفدرالي بين العراق وشرق الاردن وسورية ، وعلاقة أقل تماسكا مع لبنان المسيحي الى حد كبير - ووضع وصفه بأنه "شبه حكم ذاتي" للمستعمرات اليهودية في فلسطين . وقد أسهمت عدة عوامل عديدة في خيبة هذه الآمال ، وكان أهمها تقسيم المنطقة الى مناطق انتداب بريطانية فرنسية .

وفي السنة الأخيرة من حياته حقق فعلا اتحادا فيدراليا بين العراق والأردن . ولكن عند حلول ذلك الوقت كان منشغل الذهن بصورة أكثر جدية بالاتحاد السوفيتي الذي أخذ ظله يخيم على الشرق الأوسط . وكان العراق حارس البوابة الشرقية للعالم العربي ، وقد تقبل نوري سريعا المقترحات البريطانية - الامريكية لكيان دفاعي اقليمي . وكوّن بالاشتراك مع رئيس وزراء تركية عدنان مندرس ، نواة لميثاق بغداد في أوائل سنة ١٩٥٥ ، وقد اتخذه بعد بضعة أسابيع اداة ليحصل على تعديل لمعاهدة سنة ١٩٣٠ مع بريطانيا تحت ستار "اتفاقية خاصة" ضمن الميثاق ، وبالتالي تفادى ضرورة الحصول على مصادقة البرلمان .

وكان نوري يدرك جيدا أن قيمة هذه الترتيبات تعتمد الى حد كبير على التنمية

الداخلية في العراق ، وان هذا بدوره يتطلب موارد مالية كبيرة . وقد شهدت أوائل الخمسينات مفاوضات من أجل اتفاقيات أكثر تكافؤا بين حكومات الدول المنتجة للنفط ، وشركات النفط الكبرى . وكان العراق بوصف من أوائل من تحركوا لأجل الحصول على عائدات النفط مناصفة . وقد تولى نوري المفاوضات مع شركة نفط العراق شخصيا . وكان مجلس الاعمار الذي أسس سنة ١٩٥٠ برئاسة رئيس الوزراء ، بحكم منصبه ، قد وجد نفسه اعتبارا من سنة ١٩٥٢ حائزا على أموال وافرة ومتزايدة استخدمت بموجب خطة حكيمة وفعالة اقتصاديا ، ولكنها تحتوي على عيوب من الناحية السياسية . وقد ركزت الخطة اهتمامها على الأعمال البنوية الكبيرية ، وبصورة رئيسية الري ، والسيطرة على الفيضانات ، والموصلات ، وانها كانت مقتنعة باعتبار تحسين مستويات المعيشة وظروفها للشعب نتيجة لاحقة لهذه الاجراءات ، ولم تكن لديها سياسة قصيرة الأمد لتقديم بصورة سريعة فوائد واسعة وملحوظة آنيا . ان ما عرف عن تدفق عائدات النفط ، مع عدم مشاهدة فوائد مالية ملموسة ، كان سببا رئيسيا لاثارة الاستياء الشعبي . وهذا بدوره عرّض الرأي العام العراقي بصورة خطيرة لموجة من المشاعر المعادية البريطانية التي اكتسحت العالم العربي بعد احداث السويس ، وبذلك اسقطت نظام حكم معروف بميله الى بريطانية .

وكان زعماء العرب الآخرون مؤيدين للغرب ، ولكن لم يحقق أحد منهم بصورة خاصة مثل هذه العلاقة الخاصة مع بريطانيا مثل نوري .

ان صفة نوري البارزة كانت شعوره بالسلطة ، وقد ادركت هذا للمرة الأولى عن طريق حادثة صغيرة في اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة في خريف سنة ١٩٤٧ ، كان الأمير فيصل (بن عبد العزيز آل سعود) قد دعا ثلاثة وزراء بريطانيين الى العشاء مع رؤساء الوفود العربية ، بقصد تبادل النظر بشأن النقاش الدقيق الذي كان يدور في لجان الجمعية العمومية حول فلسطين . وبدأ النقاش بعد العشاء بما كان متوقعا من فوضى بدون وجود من يترأس الجلسة ، ومع متكلمين أكثر من السامعين ، الى أن فرض نوري النظام بان تناول غصنا كان موضوعا على الطاولة المزينة ، واستخدمه لدعوة المتكلمين واسكات المقاطعين .

كان عديم الاهتمام كليا بقيود البروتوكول وشكليات الاجراءات الدبلوماسية . وحينما تسلم السر جون تراوتبك منصبه سفيرا ، وصل مطار بغداد في منصف النهار ، وكان أول من أبلغه هو ان رئيس الوزراء قادم الى الغداء . ولا حاجة للقول ان نوري

كان قد دعا نفسه .

مناسبة أخرى تبقى عالقة في ذهني هي ان صباح أحد أيام السبت في أوج الصيف وهو موسم مضافا اليه تكييف الهواء البدائي في الخمسينات - جعل المصالح الغربية تترك بلا استثناء بأيدي قائمين بالأعمال - إذ هرع أحد موظفينا المحليين الى غرفتي ليخبرني بان رئيس الوزراء موجود في فناء السفارة . فخرجت ووجدته دون مرافق وهو ينظر مستطلعا من باب المكتب ، وابدى انه كان قد قرر ان يطير الى لندن يوم الاثنين ، ولكنه - لسبب لم أعد اتذكره - لم يخبر مجلس الوزراء بنيته ، وبالتالي لم يكن بامكانه استعمال التلفون أو ايصال رسالة من أجل اتخاذ الترتيبات اللازمة .فهل لي أن أمنحه سمة الدخول وأحجز مقعده على طائرة الخطوط الجوية البريطانية الاسبوعية ؟ ولما غادر اتصلت بممثل الخطوط الجوية الذي كان على الدوام مستعدا للمساعدة ، فاخبرني ان المقاعد كلها محجوزة . وتمكنت من ايضاح قصدي بشيء من المداورة ، فأمنت للمستر "مكناب" مقعدا في الدرجة الأولى مع تقديم التسهيلات اللازمة في المطار . وقد اقتضى الحذر الخروج على عادة السفارة في الخروج لتوديعه في المطار في هذه الرحلات .

سواء أكان في الحكم أو خارجه ، فانه كان يمتلك ، ويعلم انه يمتلك ، سلطة فريدة . حدث ان قام باعمال عنف في بغداد خلال تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، فاستقال رئيس الوزراء الذي كان في الحكم ، على أثر ذلك مواجهتها ، مما حمل نوري على وصفه لتراوتبك "مصطفى الوغد" . واستدعى الوصي رئيس اركان الجيش لتأليف الحكومة . ولدى دخولي حفلة استقبال في المفوضية الفرنسية بعد ذلك بمدة قصيرة رأيت رئيس الوزراء الجديد وظهره الى الحائط ، يواجهه نوري الذي كان يلوح له بسبابته مشددا ومؤكدا على أمر ما . لقد كان يحكم بالكلمة الشفهية ، ولا بد أنه لم يترك لمؤرخي المستقبل أوراقا كثيرة مع الأسف .

كان يحب الصحبة ، وكثيرا ما كان يحضر الحفلات الدبلوماسية وغيرها ، وهي نعمة مزدوجة لبعض مضيفيه ، لأنه كان مركز اهتمام الحاضرين على الدوام . وقلما كان هنالك رئيس حكومة يمكن الاتصال به بسهولة مثله . وكنا نتساءل أحيانا عن موضوع أمنه . ان الحيطة الوحيدة التي كان يتخذها على الدوام هي ان يحمل مسدسا كان يحشره في جيبه الخلفي قبل ان يجلس . ويكاد يكون من المؤكد انه قتل نفسه به بعد مقتل الملك وولي العهد في تموز / يوليه ١٩٥٨ ، حينما اكتشف الرعاع تنكره

بينما كان يحاول مغادرة بغداد .

ان عدم اهتمامه بأمر أمنه ، مثل رفضه ان يعبأ بالرأي العام ، كان جانبا آخر من ثقته العالية بنفسه ، وقد قال : "ان الرجل الذي يستطيع أن يغتالني لم يولد بعد" .

ان الثورة لم تبهت صورته ، وفي سنة ١٩٦٨ ، أي بعدها بعشر سنوات ، أوفدت الى بغداد للتفاوض في استئناف العلاقات الدبلوماسية التي كانت قد قطعت في وقت الحرب العربية - الاسرائيلية في سنة ١٩٦٧ ، ووضعت تحت تصرفي سيارة حكومية مع سائق اقترح خلال فترة بين المواعيد ، القيام بجولة سريعة لمشاهدة بعض المعالم . وقد اخذني لمشاهدة بعض المباني العامة التي شيدت بعد الثورة ، ثم توقف خارج بوابة حديقة ، وقال مشيرا الى الدار التي خلفها : "هنا كان يسكن نوري باشا" .

الملـــحق (٤)

رسائل

رسائل تعزية بمناسبة استشهاد نوري السعيد الى زوجته :

١) رسالة من هارولد ماكميلان (رئيس وزراء بريطانيا السابق) .

٢) رسالة من سلوين لويد (وزير خارجية بريطانيا في حكومة ماكميلان)

٣) السر فرانسيس همفريز (المندوب السامي البريطاني في العراق و أول سفير بريطاني فيها) .

رسالة من رئيس وزراء بريطانيا السابق المستر هارولـد ماكميـلان

٢٥ تموز / يوليو ١٩٥٨

عزيزتي مدام نوري

كنت سأكتب اليك قبل هذا لأبعث اليك بمشاعر الأسف لوفاة صديقي القديم نوري باشا ، ولكنني كنت أؤمل انه ربما لن يكون قد مات . وأخشى اننا لم نعد قادرين على تبني مثل هذا الامل ، ولذلك فانني أمتب اليك لأرسل تعازي القلبية .

لقد كان زوجك رجلا يتمتع بارفع السجايا ، وقد شعرت نحوه دائما بالاحترام والصداقة . لقد كان وطنيا صادقا وحليفا جيدا . ان وفاته لخسارة محزنة حقا .

أرجو ان يكون مما يعزيك بعض الشيء في غمرة حزنك ، ان تعلمي كم كان اصدقاء زوجك يثمنونه . وانني اعلم ان التاريخ سيضعه في مكانة عالية بين رجال الدولة في القرن العشرين .

المخلص

هارولد ماكميلان

رسالة من وزير خارجية بريطانيا السابق المستر سلوين لويد

٢٤ تموز / يوليو ١٩٥٨

عزيزتي مدام نوري

بأسف عميق أكتب إليك لأبدي تأثري لوفاة زوجك الجنرال نوري . وقد أملت مرة بعد أخرى ان تكون التقارير عن مقتله غير صحيحة . وليس لدينا حتى الآن تأكيد رسمي لوفاته ولكنني أعتقد ان التصريحات التي صدرت عن النظام الجديد في بغداد الآن لا تدع مجالا للأمل بأنه لا يزال على قيد الحياة .

انني لن أحاول أن أعرض بالتفصيل مدى الاعجاب الذي كنت اشعر به تجاه الجنرال نوري . وقد أظهر نفسه طيلة حياته وطنيا عظيما وفي كل اتصالاتي معه وجدت دائما اهتمامه الأول كان منصرفا الى خير بلاده ، ان موته لمأساة حقا ليس للعراق فقط ، بل لكل أصدقاء العراق في البلاد الأخرى . وانني لأشعر بخسارة شخصية عظيمة ، وهو شعور أعلم ان لكل من عرفه في بريطانية يشاركني فيه .

المخلص

سلوين لويد

رسالة من المندوب السامي البريطاني السابق في العراق وأول سفير بريطاني فيه السر فرانسيس همفريز

٢١ تموز / يوليو ١٩٥٨

عزيزتي مدام نوري

لقد صعقت وتألمت بما تعجز الكلمات عن التعبير عنه للأحداث المؤلمة والفظيعة في العراق ، وكانت أفكاري وصلواتي معك بصورة خاصة ، ومع العراقيين الذين كانوا مخلصين لملكهم خلال هذه الايام المؤسفة .

لمدة تقرب عن ثلاثين عاما كان زوجك واحدا من أخلص اصدقائي وكنت ممتلئا أعجابا بالاعمال الرائعة التي قام بها دائما دون أن يألو جهدا في سبيل بلاده . انه كان أعظم رجل دولة أنجبه الشرق الأوسط ، وكان محبوبا الى حد عظيم . لقد هزتني كثيرا مراسم الصلاة الجميلة التي أقيمت في كنيسة الملكة لذكرى جلالته ، وولي العهد وزوجك العزيز ، والتي حضرها أكثر من ٤٠٠ من المعجبين بهم .

أدعو الله ان يباركك ويخفف من احزانك .

صديقك المخلص

فرانسيس همفريز

الملــــحق (٥)

رواية شاهد عيان على نزاهة نوري السعيد

رواية شاهد عيان على نزاهة نوري السعيد

لما دخل الشريف فيصل دمشق في سنة ١٩١٨ أوفد حالا ، بناء على رأي نوري السعيد ، جيشا شريفيا واحتل الأقضية الأربعة : حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك ، مخالفا بذلك منطوق اتفاقية سايكس - بيكو ، التي اعتبرت هذه الاقضية جزءا من منطقة الفرنسيين .

وأخذ الفرنسيون يطالبون بالاقضية الاربعة ويحجمون عن احتلالها بالقوة خوفا من المشاكل التي قد تنتج عن ذلك ، ولكنهم خلال ذلك كانوا يحشدون قواتهم في زحلة وجوارها ، وبدأوا بمفاوضة فيصل . وكان القائد الفرنسي في ليلة حالكة شديدة العواصف من شهر شباط (فبراير) ينتظر رسولا من الامير فيصل ، وجاء هذا الرسول وسط الزوابع والثلوج ، فكان جنرالا شابا اسمه "نوري السعيد" وكان المترجم بينهما هو اسكندر الرياشي .

ويروي اسكندر الرياشي في كتابه "رؤساء لبنان كما عرفتهم" ان نقاشا دار بين نوري السعيد والقائد الفرنسي" ، ولم يتخاذل نوري السعيد امام الوعيد والتهديد ، واخيرا لجأ الفرنسي الى الاغراء .

يقـول اسكندر الرياشي : "... وهنا أشـار علي الجنرال دي لامـوت وعلى الضبـاط الباقين بالخروج وبقي مع نوري السـعيـد والقومندان ارلابوس لوحدهم . وحاول ان يفهم على نوري السـعيد ، وان يفهم نوري السـعيد عليه ببعض الفرنسية التي يعرفها ، فلم يستطيعا التفاهم فاستدعاني ارلابوس من جديد لاترجم ، وقال لنوري السعيد بطريقة فجائية ودون ان يكون هناك من مقدمات :

هل مائة ألف ليرة فرنسية تكفيك ؟ ان اردتها فستكون بعد دقيقة في صندوق سيارتك .

وظهـرت على وجه نوري السـعيد دلائل الارتبـاك ، وتابع ارلابوس قـائلا : وهناك نصف مليون ليرة فرنسية ذهب تنتظر اشارة منك لارسـالها للامير بدمشق ، وهناك غيرها وغيرها مخصصة له ولحاشيته الشريفة ؟
هنا اخذ الارتباك ينقشع رويدا رويدا عن وجه نوري السعيد . وشاهدت عينيه تبرقان من جديد بحبور ، فتصورت والجنرال وارلابوس انه وقع بالفخ وقبل الصفقة .
وطلب نوري السعيد فنجانا من القهوة وجلس يفكر ثم قال : غدا في مثل هذه الساعة اذا كنت عندكم هنا يكون كل شيء تم كما تريدون ، واذا لم احضر فاعملوا ما تشاؤون ولم يزد كلمة بالرغم من الحاح الجنرال دي لاموت والقومندان ارلابوس ، ولم يقبل ان يعطي أي وعد ، وقال فقط :

لا تضعوا شيئا في صندوق السيارة !

وفجأة ارتدى معطف الفرو الجميل وودع بطريقة عسكرية وهو يقول :

قد أرجع اليكم غدا في مثل هذا الوقت لهنا !

ولكن مر الغد ومر بعد الغد ، واحتل الفرنسيون الاقضية الاربعة وحاربوا الشريفيين بعد ذلك بميسلون ، حيث حضرت المعركة بنفسي ، وترك فيصل دمشق وانهار عرشه فيها ، ونوري السعيد لم يرجع لزحلة ..

ولم يرجع للموعد الذي كان قد ضربه للجنرال دي لاموت، وللقومندان ارلابوس .."

[اسكندر الرياشي : رؤوساء لبنان كما عرفتهم ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢٥٦ - ٢٦٩].

فهرس الأعـلام

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

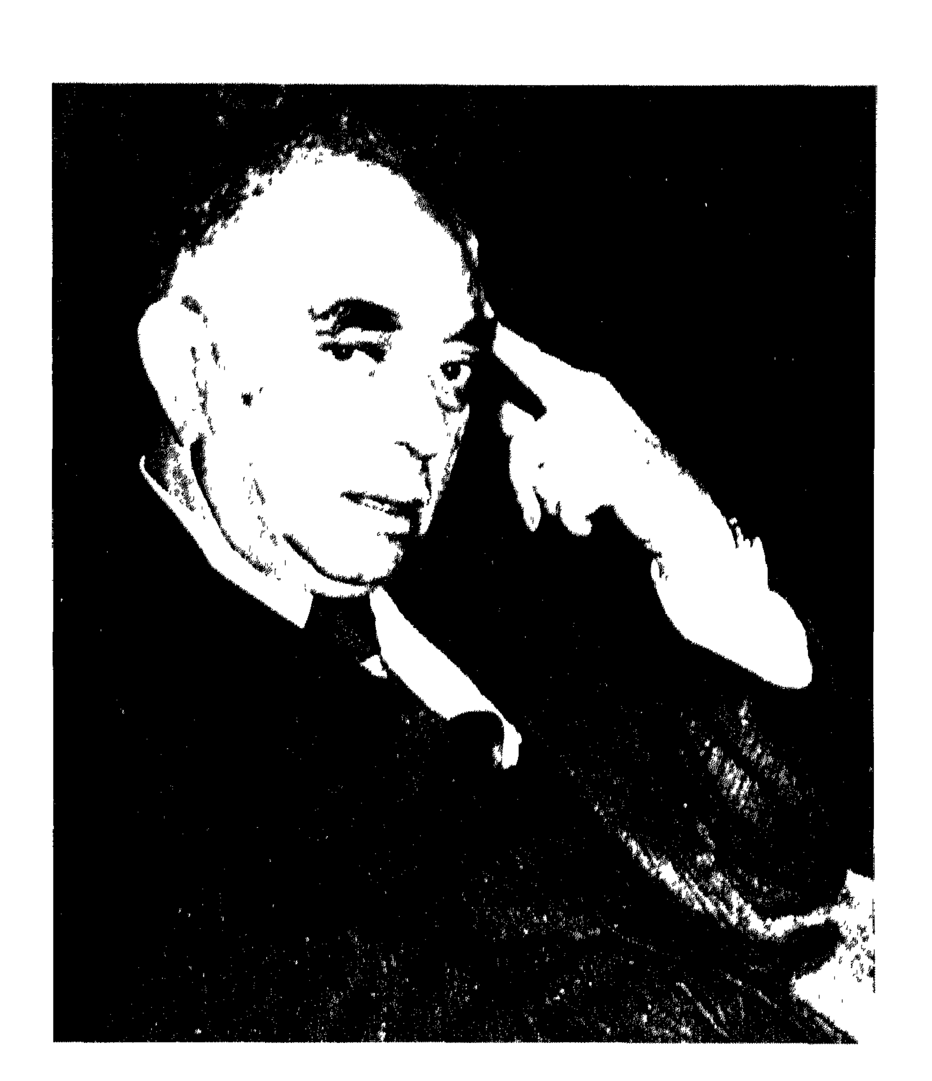
(ي)











يأبى ولاؤك ان تضمك حفرة

فأنك أولـى ان تضـــم الأنهـــرا

بغداد قلبك ما تبقت بقعة

إلا لثمـــت ترابــهـا متعـــفرا

ثم سمت ذرات جسمك صعدا

لتــضم أرض الرافــدين وأكــثرا

عبدالله بكر